



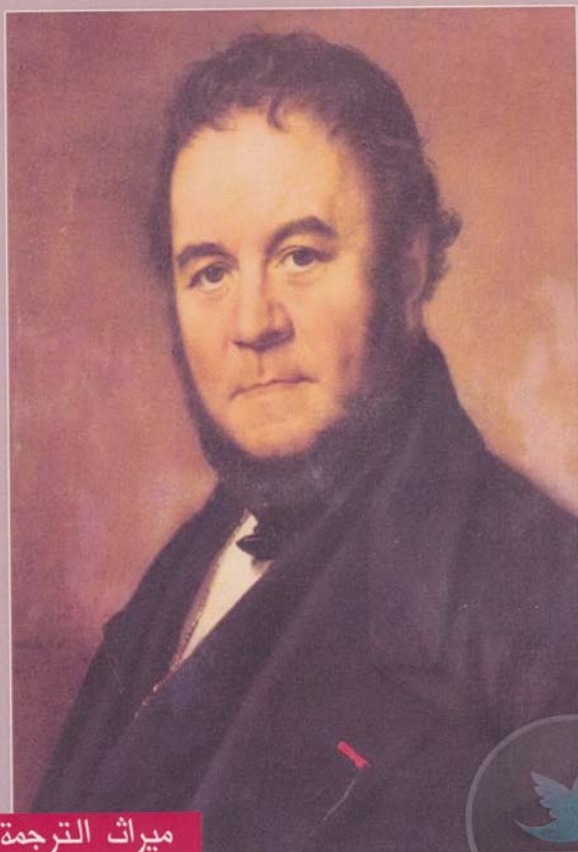
31.5.2015

ستندال

الأحمر والأسود

(الجزء الثاني)

ترجمة: عبد الحميد الداخلى
مراجعة: إبراهيم مذكور



ميراث الترجمة



1721



الأحمر والأسود

(الجزء الثاني)

تأليف: ستندال

ترجمة: عبد الحميد الدواخلي

مراجعة: إبراهيم مدكور



2015

الأحمر والأسود

(الجزء الثاني)

المركز القومي للترجمة
تأسس في أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 1721
- الأحمر والأسود (الجزء الثاني)
- ستندال
- عبد الحميد الدواخلي
- إبراهيم مذكور
- اللغة: الفرنسية
- 2015

هذه ترجمة كتاب:
Le Rouge et le Noir
Par: Stendhal

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة
شارع الجبلية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Galalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: nctegypt@nctegypt.org

Tel: 27354524

Fax: 27354554

بطاقة فهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

بيل - ماري هنري، ١٧٨٣ - ١٨٤٢
الأحمر والأسود: ج ٢ / تأليف: ستندال، ترجمة: عبد الحميد الدواخلي،
مراجعة: إبراهيم مذكور؛
ط ١ - القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٥
٤٤٤ ص، ٢٤ سم
١ - القصص الفرنسية
(أ) الدواخلي، عبد الحميد (مترجم)
(ب) مذكور، إبراهيم (مراجع)
٢ - العنوان
٨٤٣

رقم الإيداع: ٢٠١٣/ ٣٣٤٢
I.S.B.N - 978 - 977 - 718 - 208 - 9
الترقيم الدولي: 9 - 208 - 718 - 977 - 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

إِلْف كِتَاب

(١٦)

٤٤

سِتْدَال
الْأَحْمَرُ وَالْأَسْوَدُ

الجزء الثاني

رَاجَعَهُ

الدكتور إبراهيم مذكور

عضو مجمع اللغة العربية

رَجَمَهُ

عبدحميد الدواخلى

الأستاذ المساعد بكلية دار العلوم

الفصل الأول

لذات الريف

أيها الريف ، متى أنعم برؤياك ! ؟

فرجيل

قصد جوليان إلى نزل ليتناول فيه غداءه ، فقال له صاحبه :

— لاشك أن السيد ينتظر عربة باريس ، أليس كذلك ؟

— عربة اليوم أو عربة الغد فذلك عندي سواء !

ووصلت العربة ، وجوليان لا يبدي اهتماما بموعد سفره ، وكان بها

مكاثان خاليان .

وصعد جوليان إليها مع مسافر آخر ، فسمع ذلك للمسافر يقول مخاطباً

شخصاً آتياً من جهة جنيف :

— ماذا ، أهذا أنت يا فالكو ؟

فأجابه فالكو :

— لقد ظننتك مقياً بإحدى ضواحي ليون ، في واد جميل على مقربة

من نهر الرون ! أليس كذلك ؟

— إقامة سعيدة ، إنى أولى الأدبار . فضحك فالكو قائلاً :

— ماذا تقول ؟ أتولى الأدبار ياسان چيرو ؟ إن هيتك لتدلّ على

عقل ورزانة ، فهل ارتكبت جرماً على الرغم من ذلك ؟

— لا أخفي عليك أن حالى كحال من ارتكب جريمة . إنى أفر من

هذه الحياة الكريهة التي نحياها في الريف . وأنت تعرف أنني أحبّ
الهواء المنعش ، هواء الغابات ؛ والهدوء الجميل ، هدوء الحقول . وكثيراً
ما اتهمتي أنت بأني خيالي . لم أحب أبداً أن أتحدث عن السياسة أو أن
أخوض غمارها .

— ولكن إلى أي الأحزاب تنتمي ؟

— لا أتمنى إلى أي حزب وفي هذا ضياعي . أما السياسة المحببة إلى

نفسى فهي أنى أهوى الموسيقى والرسم . وإذا وقع لى كتاب قيم ، عدت
هذا حدثاً عظيماً . وسأبلغ الرابعة والأربعين من العمر بعد قليل ، فماذا يبقى لى
من أيام أحيائها ؟ خمسة عشر عاماً أو عشرون عاماً على الأكثر ؟ حسناً يخيل
إلى أن الوزراء بعد ثلاثين عاماً سيكونون أكثر مهارة منهم الآن ، ولكنهم
سيكونون فى أمانة وزراء اليوم ! وتاريخ إنجلترا امرأة أستخدمها فى معرفة
مستقبلنا : سيكون هنا دائماً ملك يريد أن يوسع فى امتيازاته ، وسيظل
الطموح فى التمثيل النيابى مسيطراً على النفوس ، وكذلك المجد والحصول
على مئات الآلاف كما فعل ميرابو : كل هذا يجرم الأغنياء فى الريف لذة التمتع
بالراحة ، وهم مع ذلك يزعمون أنهم أحرار وأنهم يحبون الشعب . والرغبة الملحة
فى أن يكون الإنسان نبيلاً أو سيداً من سادات مجلس النواب ، تدفع بالمغالين
إلى الركض الشديد . وكل يودّ كل رجل أن يحتل مكاناً فى هذه السفينة
الحكومية ، مادام العمل فيها يدرّ عليه مالا وفيراً . و بعد ، ألا يجد المسافر
البأس فيها مكاناً متواضعاً ؟

— حقاً ، حقاً ، إن هذا لا يتفق مع ما فطرت عليه من وداعة

وهدهو . ولكن ترى أهي . الانتخابات الأخيرة التي تطوَّح بك بعيداً عن الأقليم الذي تعيش فيه ؟

— الشرّ الذي ألقاه أعمق من ذلك أثراً ، فنذ أربعة أعوام كنت في الأربعين من عمرى وكانت ثروتى خمسمائة ألف من الفرنكات . أما اليوم فقد زاد عمرى أربعة أعوام ونقصت ثروتى ما يقرب من خمسين ألفاً من الفرنكات سأخسرهما في بيع قصرى في مونفليرى على مقربة من الرون في موقع بديع . لقد زهدت الحياة الباريسية نظراً لتلك المهزلة المتكررة التي تسمونها حضارة القرن التاسع عشر ، والتي نضطر إليها اضطراراً . كنت متعطشاً إلى حياة السذاجة والبساطة ، فاشترت أرضاً في الجبال القريبة من الرون في موقع جميل لا يضارعه مكان آخر في العالم كله . وكان قس القرية وعمد الأماكن المجاورة يتملقوننى وظلوا كذلك ستة شهور وكنت أدعوهم إلى العشاء عندى فقلت لهم مرة : إننى غادرت باريس حتى لا أتكلم في السياسة ولا أسمع عنها حديثاً ولا أخوض في ذكرها . وأنتم ترون أنى لست مشتركاً في صحيفة من الصحف . وكلما قلت الرسائل التي يحملها إلى ساعى البريد ، زادت بذلك سعادتى .

ولم يرض هذا المسلك خورى القرية ، فشعرت بعد قليل بوظأة آلاف من الطلبات التي تخلو من كل لياقة ، وانتهالت على المضايقات . وكنت أرغب في أن أوزع على الفقراء مائتين أو ثلاثمائة من الفرنكات في كل عام ، واسكنى طولبت بمثل هذا المبلغ للجمعيات الدينية كجمعية القديس يوسف أو جمعية العذراء وما إليهما . ولما رفضت دفع ما طلب

منى ، لاحتنى إهانات كثيرة . ولم أكن أستطيع الخروج صباحاً لأتمتع
بجمال الجبال دون أن ألقى مضايقات تنزعنى من أحلامي وتذكرنى فى قسوة
شديدة ما فطر عليه الناس من شرّ وغلظة . وكان الخورىّ فى الصلوات التى
تقام من أجل خصوبة الأرض ، يرفض أن يبارك حقولى بحجة أن صاحبها
كافر ، مع أنّ الترتيل فى هذه الصلاة يعجبنى ، ولعلّ ذلك ناشئ من
أنها إغريقية الأناام . وماتت بقرة عجوز تقية ، فعلّت العجوز موت بقرتها
لجاورتها لبركة يملكها كافر ، فيلسوف وفد عليهم من باريس . وبعد
ذلك بثمانية أيام ، وجدت سمكى ميتاً كلّه ؛ لأنهم وضعوا فى البركة جيراً
فمات السمك مسموماً . وهكذا لاحقتنى مضايقات من كل جانب وفى
صور شتى . أما قاضى الصلح فهو رجل أمين لكته جدّ حريص على
مركزه ، ولذلك كان يدبّنى دائماً . لقد أصبحت أرى هدوء الحقول
جحيماً ؛ لأن الناس ما كادوا يرون علاقتى بالخورىّ قد ساءت ، وهو كما
تعلم رئيس اتحاد القرية ، وما كادوا يتبينون أن القائد المحال إلى المعاش
قد تخلى عنى ، وهو رئيس الأحرار فى تلك المنطقة ، ما كادوا يرون هذا
حتى أضمرنا جيعاً الى الشرّ ؛ فالبناء الذى علته أعواماً قلب لى ظهر الجحّ ،
والتجار الذى يصلح المحارث أراد أن يسرقنى علانية .

وأخيراً عنّ لى أن أنتمى إلى الأحرار ليشتد أزرى وأكسب بعض
قضاياى . وأتت هذه الانتخابات اللعينة . كما قلت أنت وظلب صوتى
منى

— لشخص لا تعرفه ؟

— لا ، أبداً ، بل لشخص أعرفه حق المعرفة ورفضت الطلب ،
ويا له من حق شديد ! . فقد أصبح الأحرار ضدى منذ ذلك الوقت ،
وصار مركزى شديد الحرج . ويخيل إلى الآن أن الخورى إن فكر
فى اتهاى بقتل خادمى لوجد عشرين شاهداً من الحزبين يقسمون بأنهم
رأونى متلبساً بالجريمة .

— أتريد أن تعيش فى الريف دون أن تعاون جيرانك فى الوصول إلى
ما يطمحون إليه ، ودون أن تستمع إلى ثرثرتهم ؟ لقد أتيت أمراً إذا !
— وأصلحت أخيراً ما وقعت فيه من خطأ . سيباع قصر مونفليرى ،
وعزمت على أن أحسر فيه خمسين ألف فرنك ؛ ومع كل هذا ترانى أشعر
بفرح لا حد له ، لأنى سأغادر جميعاً أهلاً بالنفاق والمضايقات وسأذهب
إلى حياة العزلة والهدوء الريفى فى المكان الوحيد الذى يتوافران فيه
فى فرنسا ، وهو طابق رابع مطلق على الشانزليه . على أننى مع ذلك
سأجد كثيراً من المشقة إذا بدأت حياتى السياسية فى حى «دى رول» دون
أن أحل الخبز المقدس إلى الخورثية .

فقال فالسكو والشرّ يتطايرون عينيه والحسرة تفيض من نظراته :
— لو أن بوناپرت كان لا يزال فى الحكم ما حدث لك شيء من
هذا كله !

— حسناً ، ولكن لم لم يتمكن بوناپرت الذى تشيد بذكوره
من الاحتفاظ بمركزه ؟ إنه سبب كل ما أشكوه الآن .
ولما وصلا فى الحديث إلى هذا الحد ، زاد انتباه جوليان . فقد أدرك

منذ الكلمة الأولى أن المتعصب لبوناپرت هو فالسكو صديق الطغولة
للسيدى رينال ، الذى تخلى عنه عمدة ثريير فى سنة ١٨١٦ . أما الفيلسوف
سان چيرو فلا بد أن يكون أخاً للرئيس الذى استطاع أن ينال المناصب
العامة بأتمان ضئيلة ، والذى يعمل رئيس مكتب فى مديرية

— كل هذه الأشياء من عمل بوناپرت ، فالرجل الأمين المسالم الذى
يبلغ الأربعين من عمره وتبلغ ثروته خمسمائة ألف فرنك لا يستطيع
أن يقيم فى الريف ولا أن يجد فيه ما يبتغيه من راحة وهدوء لأن قس
بوناپرت وأشرفه بالمرصاد لهذا الرجل يطاردونه أينما حلّ .

— آه ! لا تذكره بسوء، فإن فرنسا لم تبلغ مكانة عالية بين الشعوب
كمكاثتها فى الثلاثة عشر عاماً التى حكها . كان كل ما يصدر منه
عظيماً خطيراً !

— لم يكن إمبراطورك عظيماً إلا فى ساحات القتال وحين نظم مالية
فرنسا سنة ١٨٠٢ . فليذهب إمبراطورك إلى الجحيم ، وماذا ينطوى عليه
مسلكه منذ ذلك الوقت ؟ لقد وقع فى تلك الحماقات الملكية بما اتخذ
لنفسه من حجاب ، وبالأبهة التى اعتادها والاستقبالات التى كان قصر
التويلرى مسرحاً لها . فأعادها فى طبعة منقحة قدّر لها أن تعيش قرناً
أو قرنين آخرين . وأراد الأشراف والقسس أن يعودوا إلى حياتهم
القديمة، لكنهم لم يكونوا أقوياء فيروّجوا لما يريدون بين طبقات الشعب .
— هذه لغة ناشر قديم ! فاستطرد الناشر فى غضب :

— من الذى يطردنى من أملاكى ؟ هم القسس الذين عقد نابليون

معهم اتفاقاً بدل أن يعاملهم كما تعامل الدولة الأطباء والمحامين والفلكيين
كمواطنين، لا أكثر ولا أقل بغض النظر عن المهنة التي يمتنونها طلباً
للرزق . لو أن بوناپرت لم يمنح ألقاب بارون وكونت جزافاً ، ما رأينا
اليوم سادة جبلوا على الغلظة والقحة ، لأن ذلك العصر كان قد انتهى
تماماً . لقد لقيت الأمرين من القسس أولاً ثم من أعيان الريف الذين
سببوا الى آلاماً كثيرة واضطروني إلى أن أكون من الأحرار .

وظلّ الحديث على هذه الوتيرة مدة طويلة ، لأنّ هذه الآراء ستظلّ
تشغل فرنسا نصف قرن . وبينما كان سان جيرو يؤكد لصديقه في ثقة
أن الحياة في الريف لا تطاق ، ذكر جوليان ، في حياء ، السيددى زينال
على سبيل المثال لمن يعيشون في الريف سعداء . فصاح فالكو قائلاً :

— يا إلهي ! أنت طيب القلب أيها الشاب ! لقد جعل من نفسه
مطرقة حتى لا يكون سنداناً ، وقد كان مطرقة شديدة الوطأة . ولكني
أرى أن فالنو سيظني عليه ؛ فهل تعرف هذا الرجل الحقير ؟ إنه دنيء
حقاً . وماذا يقول السيددى زينال حين يرى نفسه قريباً قد خلع من
منصبه وحلّ محله فالنو !

فقال سان جيرو :

— إنه سيفرغ لمواجهة الآثام التي ارتكبتها . أتعرف ثريير أيها
الشاب ؟ حسناً ! لتنزل السماء الحزى والعار بيوناپرت وبالآثار البالية
الملكية ، لأنه هو الذي مكّن لأمثال دي زينال وشيلان ومن سيأتي
من أمثال فالنو ومالون .

أذهل جوليان هذا الحديث السياسي الفاتم وانتزعه من أحلامه اللذيذة ابتزاعاً شديداً . ولم يتأثر بمنظر باريس وهي ترى من بعد . وكانت الآمال الكبيرة التي يبنينا على مصيره في العاصمة تتضارب تضارباً شديداً مع ذكريات اليوم الذي قضاه في فريير ، هذه الذكريات المائلة أمامه والتي طغت على مشاعره . لقد أقسم ألا يهجر أبناء صديقه ، وحلف لئلا يتخلين عن كل شيء إذا ما كانوا في حاجة إلى حمايته إن سؤلت للقسس نفوسهم بأن يقبلوا الحكم جمهورياً ، وأملى عليهم السّفه أن يحرصوا على الأشراف .

ماذا كان عساه أن يحدث لو أن جوليان ليلة وصوله إلى فريير وساعة أن أسند السلم إلى نافذة غرفة صديقه وجد فيها رجلاً غريباً أو وجد السيد دي رينال ؟

ولكن أية لذة نالها في الساعتين الأوليين ، حين كانت صديقه مصرّة بإخلاص على أن يفارقها ، وهو جالس إلى جوارها في الظلام يدافع عن نفسه دفاعاً حاراً !

إن نفساً كنفس جوليان لتهم في مثل تلك الذكريات طول الحياة . أما بقية حديثهما فقد أشبهت حديث أيام حبهما الأولى ، أحاديث حياتهما المشتركة قبل ذلك بأربعة عشر شهراً .

وانتبه جوليان من أحلامه العميقة حين وقفت العربية بعد أن دخلت في فناء موقف شارع چان چاك روسو . ورأى عربية صغيرة تقترب منه فقال لسائقها :

أريد أن أذهب إلى ماليزون .

— في هذه الساعة ياسيدى ! وماذا تريد أن تعمل هناك ؟

— وما شأنك أنت ! سر في طريقك .

إنّ العاطفة الصادقة لا تُشغل إلا بنفسها فحسب . ولهذا يُخيل إلى

أنّ العواطف في باريس مدعاة إلى السخرية لأن كل جار يزعم أن جاره يفكر فيه كثيراً . وسأتجنب الحديث عن مشاعر جوليان حين وصل إلى

ماليزون . لقد بكى . ماذا ؟ أيبكى على الرغم مما يرى من جدران بيضاء بنيت لعامها فمزقت الحديقة شرّ ممزق ؟ نعم ياسيدى لقد بكى ! لأنه هو

وأمثاله من الشبان ، لا يفرقون بين أركول وسانت هيلانه وماليزون .

ثم تردّد جوليان في المساء طويلاً قبل أن يدخل في غمار الحياة

الباريسية لأن أفكاراً غريبة شغلت ذهنه فاعتقد أن هذا المكان مثوى

هلاك وتلف . وحذر حذراً حال بينه وبين أن يعجب بباريس اليقظة

الحية ، بحيث لم تؤثر في نفسه إلا الآثار التي خلفها بطله .

وكان يقول في نفسه : أنا الآن في المكان الذى تحاك فيه الدسائس

ويستعلى النفاق ؟ هنا يتحكم الذين يبسطون حمايتهم على الأب فريلير .

وفي مساء اليوم الثالث ، تغلّب حب الاستطلاع في نفس جوليان فأراد

رؤية كل شيء قبل أن يذهب إلى الأب بيرار . وحينما لقي مديره السابق

تحدث السكاهن إليه في فتور عن الحياة التي سيحيهاها عند الماركيزدى لامول

قائلاً له :

— إذا مضت عليك بضعة شهور ، وتبين أنك لا تصلح لما يسند

إليك من عمل فستدخل المدرسة من جديد ولكن في كرامة . والمركز من أكبر سادة فرنسا وستقيم في قصره ، وتلبس الملابس السوداء كأنك في حداد لا على غرار رجال الدين . على أني أريد أن تتابع دراستك في اللاهوت ثلاث مرات في الأسبوع في مدرسة سأصحبك إليها . وفي ظهر كل يوم ، تذهب إلى مكتبة المركز الذي يريد أن يسند إليك كتابة خطابات قضاياه وأعماله الأخرى . وسيكتب لك المركز في هامش كل خطاب يتلقاه كلمتين توضحان لك نوع الإجابة التي ينبغي أن تكتبها . وقد زعمت له أنك بعد ثلاثة شهور ستتمكن من كتابة الردود وحدك ، وأنه سيوقع ثمانية خطابات أو تسعة من اثني عشر خطاباً تقدمها إليه . وفي الساعة الثامنة مساءً ، عليك أن ترتب مكتبه وفي الساعة العاشرة تماماً ينتهي عملك .

واستطرد بيرار : ومن المحتمل أن تغريك امرأة مجوز أو رجل رقيق الحديث بمنافع كثيرة وفوائد جمة أو بعبارة مبتدلة يقدم لك ذهباً لتطلعهما على المسكيات التي ترد إلى المركز
فاحمرّ وجه جوليان وصاح قائلاً :

— آه ياسيدى ! فابتسم بيرار ابتسامة مرّة وقال :

— يدهشني أنك لا زلت تغضب للفضيلة على الرغم من فقرك وأنتك قضيت في المدرسة عاماً ، ومما لا شك فيه أنك كنت أعمى البصر والبصيرة !

ثم ساءل الأب نفسه في صوت خفيض : أيرجع هذا إلى كرم محتده؟
ونظر إلى جوليان وقال له :

— من العجيب أن يعرفك المركيز وأنا لا أدري كيف تأتي
له ذلك . سيعطيك مائة لويس مرتباً تبدأ به عمالك عنده حتى إذا ما سُرَّ
منك زادك إلى ثمانية آلاف من الفرنكات .
واستطرد الكاهن في لهجة قاسية يقول :

— ولكنك تعلم جيداً أنه لا يعطيك هذا المال الكثير لسحر
عيونك . فعليك أن تؤدي العمل في صدق وإخلاص . ولو أنني كنت
مكانك لتكلمت بمقدار ، ممسكا عن الخوض فيما لا أعرفه .

آه ! لقد حصلت لك على معلومات ، وأنسيت أن أحدث إليك عن
أسرة المركيز دي لامول . هو أب لولدين فتاة وفتى في التاسعة عشرة من
عمره ، أنيق كل الأناقة ، لكنه أحق لا يعرف في الظهر ماذا سيعمل في
الساعة الثانية ، وهو ذكي شجاع حارب في أسبانيا . والمركيز يرجو أن
تصبح صديق ابنه الشاب الكونت نوربير ، ولا أعلم أنا سبباً لذلك .
وأخبرت الأب بأنك تجيد اللاتينية ، فلهذا يرجو أن تعلم ابنه بعض جمل
من شيشيرون وفرجيل .

لو كنت مكانك ما تركت فرصة لهذا الشاب الجميل يسخر فيها مني ،
وقبل أن أتقبل منه ما يقوله أتركه يعيد حديثه على مسامعي غير مرة ،
على الرغم من أن ما يقوله كله أدب وإن كان لا يخلو من سخرية لاذعة .
ولست أخفي عليك أن الكونت الشاب دي لامول سيحتقرك أول
الأمر ، لأنك لا تزيد على أن تكون برجوازيًا صغيراً . وقد كان أحد أجداده
يعيش في البلاط ، وختم حياته بشرف كبير حين قطع رأسه في ميدان

جريف في ٢٦ من أبريل سنة ١٥٧٤ ، على أثر مؤامرة سياسية .
أما أنت فابن نجار من فريير تعمل عند أبيه ؛ فضع هذه الفروق نصب
عينيك دائماً ، وادرس تاريخ هذه الأسرة في موريري ؛ وكل المتعلقين
الذين يطعمون على مائدة دي لامول يعملون إلى ذكر بعض حوادث هذه
الأسرة بين آن وآخر ، زاعمين أن هذا يعدّ إشارة رقيقة لا غنى لهم عنها .
خذ حذرك وأنت تجيب الكونت نورير دي لامول رئيس فرقة
الفرسان وعضو المجلس الأعلى بعد قليل ، فأنا لا أحب أن تأتي إلى
شاكيا منه .

فاحمرّ وجه جوليان وقال :

— يخيل إلى أنه لا ينبغي إطلاقاً أن أجيب رجلاً يحتقرني .

— أنت لا تعلم شيئاً عن هذا الاحتمار ، لأنه مشوب دائماً ببناء
كثير قد يكون مبالغاً فيه . فإذا كنت غرّاً كان في استطاعتك أن تنفي
عنه ، وإذا أردت أن يكون لك شأن فعليك ألاّ تقيم وزناً لما تسمع .

— لو أن كل ما حدثني به لم يعد يلاّمني ، فهل أعدّنا كراً للجميل

إذا عدت إلى غرفتي الصغيرة رقم ١٠٣ ؟

— لا شك أن كل المرأين من المترددين على آل دي لامول

سيصيبون عليك جام غضبهم ، ولكني سأكون عضداً لك ، وسأخبرهم
بأنني أشرت عليك بهذا .

كان جوليان مغيضاً من هذه اللهجة القاسية الجافة التي تحدّث بها

الأب بيرار ؛ وأفسدت هذه اللهجة تماماً آخر عبارة من عبارات بطلنا .

وفي الحق أن الكاهن كان فريسة للوم شديد من ضميره ، لأنه أحب جوليان ، ولقى عذاباً دينياً كبيراً حين تدخل في مصيره بطريقة مباشرة . واستطرد يقول بتلك اللهجة النابية ، كما لو كان يريد أن يفرغ من واجب ثقيل الوطأة على نفسه :

— سترى أيضاً المركيزة دى لامول ، وهي سيدة طويلة القامة شقراء ، متديّنة ، متعالية ، جمة الأدب ، لكنها تافهة . وهي كريمة العجز دوق . شون المشهور بترهات في الحسب والنسب . وهذه السيدة الكبيرة ضرورة موجزة لما تنطوي عليه أخلاق سيدات الطبقة المنتمية إليها . وهي لا تزال تذكر أن كل إعجابها في الحياة مقصور على أن لها أسلافاً اشتروا في الحروب الصليبية، وهذا هو المقياس الوحيد الذي نقيم له وزناً . أما المال فتناوى بالنسبة إليها . أيدهشك هذا؟ إننا لم نعد نعيش في الريف يا صديقي العزيز .

سترى في صالونها الكثيرين من كبار السادة يتحدثون عن الأمراء في استخفاف شديد ؛ أما هي فتخفض صوتها إكباراً وإجلالاً كلما ورد على لسانها اسم أمير . ويزداد إكبارها إذا ذكرت إحدى الأميرات . وأنا لا أنصح لك أن تذكر أمامها أن فيليب الثاني أو هنري الثامن كانوا فظين غليظي القاب ، فقد كانوا ملوكين ، وما بهذا يستحقان الإكبار والتبجيل من كل الناس ، ولا سيما من أولئك الذين لا يعدون من ذوى المحتد الكريم مثلي ومثلك !

و بعد فنحن قسيسون ، لأنها ستعتبرك قسيساً ، وهي تضعنا في صف

خدمها وحشمها اللآزمين لراحتها ، الساهرين على سلامتها .

— سيدى ينجيل إلى أنى لن أبقي فى باريس طويلا .

— حسنا ، ولكن لاحظ أننا فى حاجة إلى هؤلاء السادة إذا

ما أردنا أن نشق طريقنا فى الحياة . فى خلقك شيء لا أستطيع أن أصفه لك

أو هذا على الأقل ما يترامى لى ، فلو أنك لم تصل إلى مركز مالى مرموق
الاضطهت ، وليس أمامك إلا هذه الطريقة ؛ فلا تجدع نفسك . فالناس

لا يرون أنهم يدخلون السرور على نفسك إذا ما تحدثوا إليك ؛ والشقاء

مصيرك فى بلد نظامه الاجتماعى على ما ترى إذا لم تنل إكبار الناس

واحترامهم . ماذا يكون مصيرك فى بيزانسون لولا هذه النزوة التى بدرت

من المركيز دى لامول ؟ ستدرك يوما غرابة ما أقدم عليه من أجلك ،

وإذا لم تكن شيطانا فستظل تذكر له ولأسرته هذا الجميل . كم خورى

فقير أكثر منك علما عاش سنوات طويلة فى باريس لا يتناول إلا

خمسة وسبعين سنتيا من القداس ، وخمسين سنتيا من السربون ! . . .

ثم تذكر ما قصصته عليك فى الشتاء الماضى عن السنوات الأولى التى

قضاهها الكردينال ديبوا ، ذلك الشرير . فهل يملى عليك غرورك أنك

أكثر منه نبوغا ؟

ولأضرب لك بنفسى مثلا ، فأنا رجل فطرت على التواضع والهدوء .

كنت أعتقد أنى سأبقى فى المدرسة حتى يوافينى الأجل ، وكنت غرّا حين

تعلقت بها . وتعلم أنى كنت على وشك أن أفصل من منصبى فيها حين

قدّمت استقالتي ! فهل تعرف كم كانت ثروتى ؟ . . . كان رأس مالى

خمسائة وعشرين فرنكا لا تزيد ، ولم يكن لي صديق ، وإنما كنت أعرف شخصين أو ثلاثة . لم أكن قد رأيت السيد دي لامول من قبل ، ومع ذلك فقد انتشلتني من هذه الوهدة . وحينما أشار إليهم إشارة رفيقة ، عينت في خورّنية كلّ رعاياها أغنياء ، يترفعون عن ارتكاب الرذائل الممقوتة ، وأصبحت أحجل من كثرة ما تدرّه عليّ من مال ، لأنّ دخلى أكثر من عملي الذي أقوم به .

لم أتحدث إليك هذا الحديث الطويل إلا لأعلمك الرزانة والحكمة . وأحبّ أن أقول لك كلمة أخرى : من سوء حظي أنني سريع الغضب ؛ ومن المحتمل أننا لن نتكلم سوياً بعد هذا .

لوضقت ذرعاً بكبرياء المركزية أو تهكم ابنها بك ، وأصبحت لا تطيق العيش معهم فأنصحك أن تسكّل دراستك في مدرسة تبعد عن باريس ثلاثين فرسخاً إلى الشمال لا إلى الجنوب . فحضارة الشمال أرقى من حضارة الجنوب ، وهو أقلّ جوراً وظلماً . ثم قال بصوت منخفض : عليّ أن أعترف بأن مجاورة الصحف الباريسية تدخل الرعب في قلوب صغار الطغاة .

وإذا ظلت العلاقة بيننا على خير ما يرام ، ولم تحل لك الإقامة في منزل المركزيز فإني أعرض عليك منصب نائبى ونقتسم مناصفة ماتدره علينا الخورّنية . فأخذ جوليان يشكره فقاطعه قائلاً : إني مدين لك بهذا وبأكثر منه للعرض الكريم الذي عرضته عليّ في بيزانسون . ولو أنى لم أكن أملك عشرين وخمسمائة من الفرنكات لأتقدتني أنت بما عرضته عليّ .

تخلّت عن السكاهن لهجته الجافة وأحسّ جوليان ذموراً تترقرق في عينيه على كره منه ؛ وودّ لو نهض ليحتضن صديقه ، ولم يتمكن من أن يمنع نفسه من أن يقول في لهجة تنطوى على الرجولة :

— كان أبى يكرهنى منذ الطفولة وهذا هو علّة شقائى ؛ ولان أشكو بعد الآن من المصادفات لأنى قد وجدت فيك أباً يا سيدى .

فارتبك الرجل وقال بلغة مدير المدرسة تلك العبارة التى أنقذته :

— هذا حسن ، هذا حسن ، ولكن عليك يابنى ألا تقول

المصادفات وقل دائماً إنها العناية الإلهية .

وقفت العربية ورفع الحوذى مقرعة من النحاس ركبت على باب

ضخم ، فكانا أمام قصر دى لامول . ولكيلا يشكّ المارة فى أن هذا

القصر هو قصر دى لامول ، كتبت هذه العبارة على رخامة سوداء من

فوق الباب : « قصر دى لامول » .

وكره جوليان هذا التسلّف وقال فى نفسه : إنهم لشديديو الرعب

من الثأرين ! يرون خلف كلّ حاجز عربيةً تقلّ رويسبير ، ومع ذلك

فهم يعلنون عن منازلهم ليعرفها الرعاع فيسلبوها إذا ما اشتعلت ثورة !

وأطلع جوليان الأب بيرار على أفكاره هذه فقال له :

— آه ! ستصبح يا بنى المسكين نائباً لى بعد قليل ، فما هذا الرأى

البعيض الذى يدور بخلدك ؟ !

— أعتقد أنّ هذا رأى يسير .

أمجب جوليان بوقار البواب ونظافة الفناء تحت الشمس الساطعة
الجميلة ، فقال لصديقه :

— يا لها من هندسة معمارية جميلة !

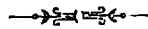
وكان القصر فى الواقع من تلك القصور ذات الواجهة المسطحة التى ترى
فى حى سان جرمان ، بنيت زمن أن مات فولتير . ولم يتنافر الجمال وذوق
العصر من قبل إطلاقاً كما تنافرا فى بناء هذه القصور .

الفصل الثاني

مخالطة الناس

[إنها تذكريات عزيزة وإن كانت تدعو إلى السخرية: تلك التي تذكر الإنسان بأول صالون غشيه وهو في الثامنة عشرة من عمره لا سنده ولا نصير! ونظرة امرأة نحوى كانت تبعث الحجل في نفسى ، وكما أردت أن أعجب من حولى كثرت أخطاى وكانت أحكامى على الأشياء خاطئة ، فكنت أركن إلى الناس دون ماسبب أو أعد من ينظر إلى نظرة رزينة عدوا لى . لكنه على الرغم من حياى الشديد وباجره على من آلام ومتاعب، فإننى عشت عيشة سعيدة، ليتهأ دامت!]

كانت



وقف جوليان فى وسط القناء تبدو عليه علامات الدهشة والحيرة ، فقال له الأب بىرار :

— عليك إذن بالفطنة وتمسك بالبصيرة ، فإن آراء منكورة تدور فى ذهنك ، وأنت لا تزال طفلا! أنسيت مبدأ هوراس الذى يدعو إلى عدم الانفعال؟ وتذكر أن هذا العدد الكبير من الخدم والأتباع حينما يرون أنك ستقيم هنا سيحاولون جاهدين أن يسخروا منك ، وسينظرون إليك على أنك واحد منهم ، وإن كفت تشغل بالباطل مرتبة أعلى من مراتبهم . سينظرون معك ويبدلون لك النصيح ويظهرون الرغبة فى إرشادك إلى سواء السبيل ، ولكنهم يخفون من وراء كل هذا الرغبة الحقة فى أن يقودوك إلى ارتكاب حماقة شديدة .

فخصّ جوليان على شفّتيه واستعداد هدوءه وحذره ثم قال :

— لن أمكّنهم من هذا .

كانت الصالونات التي اجتازها هذان السيّدان في الدور الأول ، قبل أن يصلا إلى مكتب المركيز ، تبدو لك أيها القارئ قائمة وإن كانت رائعة . ولو أنها عرضت عليك لتقطنها على حالتها الراهنة لرفضت ، فهي تبعث على التناؤب والتفكير الحزين ، وإن زادت جوليان إعجاباً على إعجاب فأخذ يقول :

— كيف يمكن أن يكون المرء شقيماً إذا أتيح له أن يقضى بعض أيام

حياته في مثل هذا المكان الجميل !؟

وأخيراً وصلا إلى أقبج غرفة في هذه الشقة البديعة ، كان الضوء فيها ضئيلاً ، وفيها رجل قصير صغير الجسم ، قوى النظرات ، يلبس شعراً مستعاراً أشقر . التفت الأب إلى جوليان وقدمه إلى المركيز ذي لامول . فماني جوليان مشقة كبيرة في أن يتعرف عليه لأنه كان بادى الأدب في ذلك اليوم . لم يكن ذلك السيد المتعجرف الذي رآه في دير براى لاهو . وخبيل إليه أن شعره المستعار اليوم أكثر منه غزارة من قبل . وقوت هذه الأحاسيس من نفسه فلم يستول عليه الخجل ولم يضطرب . وظنّ أول الأمر أن سليل صديق هنرى الثالث ذو هيثة تبعث على الرحمة والشفقة لشدة ضآلة جسمه وحركته الدائبة .

ولكنّه لحظ بعد قليل ، أن المركيز قد أوتى من أدب الحديث ما لم يؤتّه رئيس أساقفة بيزانسون نفسه . ولم يدم اجتماعهما بالمركيز أكثر من

ثلاث دقائق ، خرجا بعدها فقال الأب پيرار لجوليان :

— لقد كنت تنظر إليه نظرة فاحصة كأنك سترسم له صورة . وأنه

لست من أولئك المتشددین فيما يسمونه الأدب ، وستعرف بعد قليل من هذا الأدب أكثر مما أعرف أنا منه ، ولكنني لا أحب أن أخفي عليك أن نظراتك الجريئة لا توصف إلا بالقحة على ما أعتقد .

وركبا العربة مرة ثانية ، فإذا ما وصل الحوذى بهما إلى شارع كبير وقف ؛ وذهب الأب إلى مبنى به عدة صالونات ومعه جوليان الذي لحظ أن هذه الصالونات تكاد تكون خالية من الأثاث . ورأى ساعة مذهبة فخمة معلقة على جدار تمثل إنساناً عدّه جوليان متهتكا ؛ وبينما هو ينظر إلى ما حوله دخل عليهما رجل أنيق صبوح الوجه ، فحياه جوليان تحية خفيفة ، فابتسم الرجل ووضع يده فوق كتفه ففرغ جوليان وارتد قليلا إلى الخلف ، واشتدّ به الغضب ، فضحك الكاهن پيرار ضحكا شديداً على الرغم من وقاره لأن هذا السيد لم يكن إلا حائكا .

و بينما هما يغادران الحائك ، قال الأب پيرار لجوليان :

— سأطلق سراحك يومين كاملين تتقدم بهما إلى السيدة المركيزة دي لامول . ولو كان غيرى موكلًا بك لحافظ عليك كما يحافظ على عذراء وخاصة في هذه الأيام الأولى التي تقضيها في المدينة التي تعد بمثابة بابلون الجديدة . تنقل فيها كأنشاء وسأ كفي نفسي مؤونة التفكير فيك ؛ وبعد غد صباحا ، سيحمل إليك هذا الحائك ثوبين ، وعليك أن تعطى العامل الذي يقبسهما لك خمسة فرنكات . وأوصيك ألا تسمع هؤلاء الباريسيين

صوتك ، لأنك إن نطقت بكلمة وجدوا سبيلا إلى السخرية منك ؛ وهذه هي عبقريتهم . ثم تعال إلى في ظهر بعد غد إذهب وتنقل في باريس كما نشاء لقد نسيت اشترأحذية وقصانا وقبعة من المتاجر التي بهذه الرقعة .

أخذ جوليان يتأمل الخط الذي كتبت به العناوين ، فقال له الأب : — إنه خط المركيز ؛ وهو رجل نشيط يفكر في كل شيء ويحب أن يعمل بنفسه أكثر مما يأمر الناس بعمل ما يريد . وسيدخلك في خدمته لتوفر عليه مثل هذه الأعمال النافهة . فهل أنت على جانب كبير من الذكاء ، يمكنك من تنفيذ كل ما يأمر به هذا الرجل النشيط ؟ لن يقول لك إلا بضع كلمات وعليك أنت أن تفهم ما يرمى إليه . وسيرينا المستقبل ما إذا كنت جديراً بهذا ، فخذ حذرك !

دخل جوليان على العمال الذين أرسله إليهم الأب يبرار دون أن يتكلم ؛ ولحظ أنه استقبل في حفاوة وتبجيل حتى أن الخذاء وهو يدون اسمه في سجله كتب : السيد جوليان دي سورل .

ثم ذهب إلى مقبرة «بيلا شز» فتطوع رجل جمّ الأدب ، متطرف في آرائه وعرض عليه أن يده له على قبر الماريشال «ني» الذي حالت السياسة بينه وبين شرف كتابة عبارة تدلّ المرء على قبره . ولكنه حين فارق هذا الرجل — الذي كانت الدموع تترقق في عينيه وهو يودعه ، وأبى إلا أن يحتضن جوليان — تفقد ساعته فلم يجدها . وأفادته هذه التجربة كثيراً ، حتى أنه وفي بوعده فذهب إلى الأب يبرار في ظهر اليوم الموعد ونظر إليه

الأب طويلاً ثم قال له في لهجة قاسية :
— ينخيل إلى أنك ستكون غراً أبه .

وقد كانت هيئته تدل على أنه شاب في مقتبل العمر يلبس ثياب الحداد .
كان في الواقع جميلاً أنيقاً لكنه لا يزال يحرك كتفيه في سيره على عادة
أهل الريف الذين يعدون هذه الحركة أناقة وعظمة . وهذا الأب الطيب
كان بدوره ريفياً كذلك ، فلم ينتبه إلى هذه الحركة المعيبة . ولما وقع
نظر المركيز على جوليان ، كان له في أناقته رأى يخالف رأى الأب بيرار ؛
فسأل الأب قائلاً :

— أمانع في أن يتعلم السيد سورل بعض دروس في الرقص ؟
فذهل الأب ذهولاً شديداً ؛ ثم أجاب المركيز بعد برهة :
— لا ، لأنه ليس قسيماً .

صعد المركيز سلماً جانبياً ليدلّ بطلنا بنفسه على المسكن الذي أعد له ،
وكان يصعد كل درجتين في وثبة واحدة حتى وصل إلى سطح جميل مطلّ
على حديقة القصر . ثم سأله عن عدد القمصان التي اشتراها . واستولى
الحياء على جوليان حين رأى هذا السيد الخطير يشغل نفسه بمثل هذه
التفاصيل التافهة وقال له :

— لقد اشتريت قميصين .

فقال المركيز في جدّ وفي لهجة تنطوي على الإيجاز والأمر ، جعلت
جوليان يفكر في أمره :

— حسناً ، حسناً ! اشتريتين وعشرين قميصاً أخرى . وهاك مقدار

الربع الأول من مرتبك .

ثم نزلنا من السطح ، فنأدى للركيز رجلاً مسناً :
— آرسين ، أنت الموكل بخدمة السيد سورل .

وما مضت دقائق حتى وجد جوليان نفسه في مكتبة فخمة ، فأحس بأنه في أجمل ساعات حياته . وأراد أن يخفي مشاعره ، فذهب ليختفي في جانب مظلم من جوانب المكتبة ، وتطلع في شغف كبير إلى ظهور الكتب البراقة وهو يقول في نفسه : في استطاعتي أن أقرأ كل هذه الكتب ، فكيف إذن لا ترضيني الإقامة هنا ؟ لو أن السيد دي رينال عمل لي جزءاً من مائة مما عمله المركيز لعدّ نفسه مسلوب الشرف إلى الأبد .
وبدأ عمله في الخطابات المطلوبة منه ، حتى إذا ما انتهى أحسّ جراًة في نفسه فاقترّب من الكتب . ولم كان سروره عظيماً حين : ثر على مؤلفات فولتير . أسرع ففتّح باب المكتبة حتى يأمن من أن يفاجأ وهو مكبّ على القراءة ؛ ثم أخذ يتصفح في سرور كبير هذه الكتب الثمانين كتاباً بعد كتاب . وكانت كلها مجلدة تجليداً فاخراً عند خير عمال لندن ، فزاد ذلك من سروره وسعادته .

ودخل عليه المركيز بعد ذلك بساعة ، وتصفح الخطابات التي كتبها وأشدّ ما عجب حين رآه قد كتب Cela^(١) بلامين لابلام واحدة . فقال في نفسه : هل خدعني السكاهن پيرار حين تحدّث إليّ عن علمه الغزير ؟ وأصيب بقنوط إلاّ أنه قال في حنان :

— ألسنت مستوثقاً من قواعد الإملاء ؟

(١) كان هنري بيل قد أخطأ في كتابة هذه الكلمة أول يوم عمل فيه بمكاتب قريّة بيير دارو راجع آخر صفحة « ج » من مقدمة الجزء الأول « المغرب » .

فأجابه جوليان دون تفكير فيما وقع فيه من خطأ ، وكان متأثراً
برقته التي ذكرته لهجة السيد دي رينال القاسية الخشنة :
— الحق أنى ضعيف في الإملاء .

فقال المركيز في نفسه : إنها تجربة فاشلة تلك التي دفعني إليها
الكاهن ، ولكنني كنت في أشد الحاجة إلى رجل أمين أثق به ! ثم قال
لجوليان :

— Cela تكتب بلام واحدة ، وإذا ما انتهيت من كتابة الخطابات
فتصفح المعجم لتبحث عن الكلمات التي تشك في هجائها . ثم استدعاه
المركيز في الساعة السادسة ، ولما مثل بين يديه نظر إلى حذائه في ألم شديد
وقال له : لقد ارتكبت خطأ لا أغتفره لنفسى لأنى لم أقل لك إنه ينبغي
أن ترتدى ثياباً أنيقة في منتصف الساعة السادسة من مساء كل يوم .
فنظر جوليان إليه دون أن يدرك ما يرمى إليه ، فقال المركيز :
— أعنى أنه يجب أن ترتدى الجوارب . وأرسين سيد كرك بهذا .
أما اليوم فإن لك عذراً .

وحينما انتهى المركيز من هذه العبارة ، تقدم جوليان إلى صالون
مذهب رائع . وتذكر جوليان أن السيد دي رينال كان يسرع
في خطاه في مثل هذه المناسبات ليكون هو أول الداخلين . فحمله غرور
مولاه السابق على أن يسير في أثر المركيز على مقربة شديدة منه ، فسبب
هذا للمركيز ألماً شديداً ، لأنه كان مريضاً بالنقرس فقال في نفسه :
— آه ! إنه فوق ذلك كله أبله ! ثم قدم جوليان إلى سيده ممشوقاً

القدّ ، كثيرة التعالى ، وما كانت سوى المركيزة . رأها جوليان فوجدها تكاد تشبه مدام دي موجيرون عقيلة وكيل والى المقاطعة التى تقع فيها ثريير ، فهيتها تنطوى على القحة يوم رأها فى عشاء سان شارل . وأذهلته روعة الصالون وأبهته فلم ينصت إلى ما قاله المركيز دي لامول ؛ وتنازلت المركيزة ونظرت إليه نظرة خاطفة ، وكان بعض الرجال يجلسون معها . ولشدّ ما فرح جوليان حين نظر فوجد من بينهم رئيس أساقفة « آجد » الذى تفضّل فتحدث إليه منذ بضعة شهور قبيل الحفلة التى أقيمت فى براى لاهو . ومما لا شك فيه أنّ هذا القس الشاب قد اضطرب قليلاً حين رأى أنّ نظراته التى تحمل الحنان والحياء لا تفارق وجهه ؛ على أنه لم يعبأ كثيراً بالتعرف على هذا الريفى الذى يطيل النظر إليه .

رأى جوليان فى وجوه المجتمعين فى الصالون حين تصفحها معانى من الحزن والتزمت ، فهم يتحدثون فى باريس بصوت منخفض ولا يباليقون فى توافه الأشياء .

وفى منتصف الساعة السابعة ، دخل شاب له شارب شاحب اللون ممشوق القامة ، صغير الرأس إلى حدّ بعيد ، فقبل يد المركيزة التى قالت له :
— إنك تتأخر دائماً عن الميعاد .

وأدرك جوليان أنّ هذا الشاب هو الكونت دي لامول ؛ وقد أحبه بطلنا لأول نظرة . وقال فى نفسه : أهذا هو الرجل الذى ستطردنى سخريته اللاذعة من هذا المنزل ؟

ثم نظر طويلاً إلى الكونت نوريير ، فرآه قد لبس حذاء ركوب

ومهمازا؛ فقال في نفسه : أما أنا فيجب أن ألبس حذاء لأننى أقلّ شأنًا منهم كما توحى بذلك الظواهر . ثم انتقل الجميع إلى المائدة . وسمع جوليان المركيزة وهى تنطق بعبارة شديدة ، وقد رفعت بها صوتها قليلا . وفى نفس الوقت رأى فتاة جدّ شقراء ، على جانب كبير من الجمال تأتى فتجلس تجاهه ، ولم يعجب بها جوليان بادىء الأمر ، لكنه لما أمنع النظر فيها ، رأى أن لها عينين لم ير مثلهما من قبل وإن كانتا تدلان على نفس جبلت على فتور شديد . ثم رأها تمنّان عن الملل ، وتذكر أن مدام دى رينال كانت لها عيون ساحرة يثنى عليها الناس ثناء كثيرا ، لكنها لا تشبه عيون هذه الشقراء فى شيء . وكان لا يعرف أن ما يراه من نظرات لامعة فى الفينة بعد الفينة ، إنما يدلّ على حيوية النفس وقوتها ؛ وقد سمع بعض الحاضرين ينادى هذه الفتاة باسم ماتيلد . وحينما كانت تلمع نظرات مدام دى رينال ، فما ذلك إلا استجابة إلى عواطفها القوية أو اشمئزازاً من قصة كريمة تقص عليها وتنطوى على الشر . ولما انتهت الوجبة ، وفقّ جوليان إلى ما يصف به جمال عيون الأنسة دى لامول فقال : إنهما براقتان متلاثلتان ، وفيما عدا هذا فهى تشبه أمها شبيها كبيرا ، تلك المركيزة التى أخذ جوليان ينفر منها قليلا قليلا حتى لم يعد ينظر إليها . أما الكونت نور بير فقد كسب محبته حتى رأى جوليان فيه الكمال بكل ألوانه وأعجب به اعجابا كبيرا ، ولم يفكر فى أن يغاز منه أو يكرهه ما دام أكثر منه مالا وأشرف محتدا . وأما المركيز فقد كان يستولى عليه السأم لو صحّ ظن جوليان .

كان الخدم يقدمون اللون الثانى من الطعام فقال المريكز لابنه :
— نوربير ، أوصيك خيرا بالسيد جوليان سورل الذى عينته لخدمتى .
وكما أود أن أجعل منه رجلا لو صحّ هذا . ثم قال لأحد جيرانه :
— إنه سكرتيرى غير أنه يكتب Ceta بلامين !

ونظر إليه الحاضرون فحياهم بخفض رأسه بحركة رأى نوربير أنه بالغ فيها ؛ ولسكنهم سروا بنظراته على كل حال .

ولاشك أن المريكز قد حدثهم عن ثقافته لأن أحد المدعوين سأله وتحدث إليه عن هوراس . فقال جوليان فى نفسه : لقد نلت رضا رئيس أساقفة بيزانسون حين تحدثت إليه عن هوراس . ويحيل إلى أن هؤلاء الناس لا يعرفون غيره من الأدباء . ومنذ هذه اللحظة أصبح مسيطراً على نفسه ، وتخفف من عبء أولئك الذين يراهم لأول مرة . وقد خيل إليه أن الأنسة دى لامول لن تكون يوماً ما امرأة يفتن بها . أما الرجال فقد ساء بهم ظنه منذ أن لقي منهم فى المدرسة شراً وعنتاً ، وأصبح لا يخشاهم فى سهولة ويسر . ولو أن غرفة الطعام كانت أقل روعة وزينة مما كانت عليه ، لا تتمتع بهدوئه وسيطر تماماً على نفسه . كان فى الغرفة مرأتان كبيرتان ارتفاع كل منهما ثمانى أقدام ، فكان جوليان ينظر إلى محدثه خلالهما وهو يتكلم عن هوراس بحمل قصيرة على غير عادة أهل الريف ، وعيناه الجليتان البراقتان يتجلى فيهما حياء وسعادة ، ويزداد بريقهما كلما أجاب أجابة حسنة حتى سر منه الحاضرون . وألقى هذا اللون من الامتحان بعض اللذة خلال هذا العشاء الوقور . وقد اشار المرئيز إلى تحدث جوليان

أن يشتدّ عليه في الأسئلة ، قائلاً في نفسه : أيعقل أن يعرف هذا الشاب شيئاً !

فكان يجيب عن هذه الأسئلة ، وسرعان ما فارقه خياؤه ، لا يظهر ظرفاً لأن هذا لا يتيسر لمن يجهل لغة الباريسيين ، بل أدلى بآراء جديدة . وإن لم تقدم مستمعها في طرافة وظرف ، لكنها كانت برهاناً قوياً على أنه يجيد اللاتينية .

كان محدث جوليان عضواً في مجمع الآثار ، ومن غريب المصادفات أنه يعرف اللاتينية . فلما رأى الشاب يجيد الآداب القديمة بحيث لا يخشى عليه أن يخجل أمام الناس اشتدّ عليه في الأسئلة والنقاش ، واحتدمت المعركة ، ونسى جوليان روعة الغرفة وجمال أثاثها ، فأدلى عن الشعراء اللاتينيين بآراء لم يذكر محدثه أنه قرأها من قبل . فأثنى الرجل على هذا السكرتير الشاب ثناء مستطاباً . وأخذ الحاضرون — لحسن الحظ — يناقشون في ثروة هوراس ، وهل هو غني أو فقير ، وهل كان ظريفاً محبباً للذاته مقبلاً عليها ، يقرض الشعر للذته الشخصية مثل شابل صديق مولير ومثل لافونتن ؟ أو كان شاعراً بأسماً ينال قصب السبق بما يقرضه من شعر يوم عيد ميلاد الملك ، مثله في ذلك مثل سوزي الذي اتهم اللورد بيرون ؟ وعرضوا بمد ذلك إلى حالة المجتمع في حكم أوجست وجورج الرابع ، أثناء هاتين الفترتين اللتين كانت الأرستقراطية فيهما في أوج قوتها ، ثم عرضوا إلى ضعفها في روما حيث انتزع منها ميسين سلطانها ، مع أنه لم يكن إلا حارساً عادياً غير ذي بال . أما في إنجلترا، فقد جعلت الأرستقراطية من الملك

جورج الرابع شخصاً كرئيس مشيخة البندقية . وأثار هذا النقاش المركزي وانزعجه من المحول الذي كان ساجحاً فيه في بدء العشاء من شدة السأم .
كان جوليان لا يدرى شيئاً عن هذه الأسماء الحديثة مثل سوزي ولورد بيرون وجورج الرابع ، فقد سمعها هنا لأول مرة في حياته . ولكن لم يفت على الحاضرين أن معرفته بالأحداث القديمة التي تتصل بروما وبالمؤلفين القدماء أمثال هوراس ومارسيال وتاسيت ومن إليهم ، معرفة صحيحة عميقة لا يجارى فيها . وأخذ جوليان يعرض كثيراً من الآراء التي تعلمها من رئيس أساقفة بيزانسون ليلة تحدثنا معاً ؛ وكان لهذه الآراء قيمتها عند السامعين .

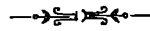
ثم ملّ الحاضرون الحديث عن الشعراء ، وتفضلت المركزية فنظرت إلى جوليان لأنها فطرت على الإعجاب بكل ما يسمّر زوجها ، واتخذت هذا المبدأ قانوناً تسير عليه في حياتها . وقال لها عضو الجمع الذي كان يجلس على مقربة منها : يخيل إلى أن هذا الخورى شاب واسع الثقافة على الرغم من أن في طرقة خرقاً وغفلة . وقد سمع جوليان بعض ما قاله هذا الجمعي ، وكانت الجمل والعبارات التي تقال على هذا النحو تعجب المركزية ؛ حتى اقتبست العبارة التي سمعتها عن جوليان لتتمثل بها فيما بعد ، ثم دعته إلى تناول العشاء اعترافاً بفضله عليها قائلة :
— إنه يدخل السرور على نفس المركزي لا مول .

الفصل الثالث

الخطوات الأولى

[هذا الوادى الشاسع الذى تشع فى أرجائه أضواء
متلاثة كثيرة ويزدحم فيه الناس يعشى بصرى .
لا يعرفنى واحد من هؤلاء ، وهم جميعاً خير منى . إن
عقلى ليضل !]

بوئى دلاف ربنا



جلس جوليان فى المكتبة فى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى يكتب خطابات ، فدخلت عليه الأنسة ماتيلد من باب جانبي صغير ، أخته ظهور الكتب عن أن تراه العيون . كان هو معجباً بهذا الاختراع حين رأى باباً ينفذ فى الجدار ، وكانت هى فى حيرة من أمرها لأنها لم تكن تتوقع أن تراه فى المكتبة . فتضايقت حين وقع بصرها عليه . رآها وقد لقت شعرها تريد تجعيده فكانت قاسية الهيئة متعالية ، ليس فيها شيء من الأنوثة . أما دخولها المكتبة فكان لأنها اعتادت أن تسرق من مكتبة أبيها كتباً دون أن ينتبه أحد إلى ما تفعل ؛ وقد حال وجود جوليان بينها وبين ما تريد . ففضبت لاسيما وقد حضرت لتأخذ المجلد الثانى من «أميرة بابليون» تأليف فولتير ، وهو ضرب من الاطلاع يعتبر تنمة محترمة التعليم ملكى متطرف ، وروح دينية خالصة شبت عليها فى معاهد القلب المقدس ! وهذه الفتاة البائسة ، وهى فى التاسعة عشرة من عمرها ، لا تزال

في حاجة إلى ما يستهوى نفسها لتقرأ قصة .

وفي الساعة الثالثة ، ذهب الكونت نورير إلى المكتبة يدرس صحيفة يومية ليستطيع التحدث في السياسة مساء ؛ ومُرت بقاء جوليان وكان قد أنس بوجوده . كان حجم الأدب معه حتى عرض عليه أن يصحبه في نزهة على ظهر جواد قائلا :

— إن أبي يعطينا إجازة حتى وقت العشاء .

فهم جوليان نون الجماعة في قوله يعطينا ، وسرّ من هذه اللفتة الكريمة وقال له :

— يا إلهي ! لو أن سيدي الكونت طلب مني أن أقطع شجرة يبلغ ارتفاعها ثمانين قدماً ، ثم أحتما وأقطعها ألواحاً لجرؤت على أن أقول : إنني سأقوم بهذا العمل خيز قيام ، أما أن أمتطى جواداً فإني لم أفعل ذلك من قبل أكثر من ست مرات في حياتي .
— ستكون هذه هي المرة السابعة .

والواقع أن جوليان تذكر دخول ملك فريير ، وظنّ أنه يجيد ركوب الجياد . ولكنه عند عودته من غابة بولونيا سقط عن ظهر جواده ، فتلطخ بالأوحال في وسط شارع باك حين أراد أن يتفادى عربة من العربات . ومن حسن الحظ أن قد اشتروا له حلتين . وأراد التركيز أن يتحدث إليه وقت العشاء فسأله عن نزهته ؛ فأصرع نورير في الإجابة بعبارة عامة ، لكنّ جوليان قال :

— إن سيدي الكونت لكبير الطيبة معي إلى أبعد حد ، وإني

لأشعر بهذا وأقدره حقّ قدره وأشكره عليه كثيراً ؛ فقد تفضل فأعطاني خيراً الجياد وأجملها وأسلسها قياداً ، ولكنه نسى أن يربطني على ظهر الجواد فسقطت وسط ذلك الشارع الطويل القريب من الجسر .

وحاولت الأنسة ما تيلد أن تخفي ضحكة عالية عند ما سمعت حديثه ، وسرعان ما دفعها فضولها إلى أن تطلب منه التفاصيل . فأجابها جوليان إجابة فيها كثير من البساطة ، ولا تخلو من ظرف غير مقصود ، فقال المرئز لعضو المجمع :

— إني أفتاءل خيراً لهذا القسّ الشاب . ياله من زيفي ساذج في مثل هذه الأحوال ! لم أر له نظيراً ولن أرى له مثيلاً ! والأدهى من ذلك أنه يقصّ علينا ما أصابه من سوء على مسمع من السيدات ! وسرّ المدعوون بما قصه عليهم جوليان سروراً كبيراً ، حتى أن الأنسة ماتيلد سألت أباها في نهاية العشاء عن هذا الحادث المؤلم . وطرق الضيفان موضوعاً آخر أخذوا يتحدثون فيه ، على حين ظلت أسئلتها وقتاً طويلاً ، وجوليان ينظر إلى عينيها ويحيب عن أسئلتها مباشرة دون أن تسأله . وكان ثلاثتهم يضحكون كما يفعل شبان ثلاثة من سكان قرية في داخل غابة .

وفي اليوم التالي ، ذهب جوليان يتلقى درسين في علم اللاهوت ثم عاد ليكتب عشرين خطاباً ، رأى في المكتبة على مقربة منه شاباً أنيقاً لكنّ هيئته تدلّ على الحقارة ووجهه ينمّ عن الحسد . دخل المرئز وخطب هذا الشاب في لهجة شديدة :

— ماذا تفعل هنا يا سيد تانبو ؟

فابتسم الشاب في حقارة قائلًا :

— كنت أظن

— لا يا سيدي ، أنت لا تظن شيئًا . لقد كانت تجربة إلا

أنها فاشلة .

فنهض تانبو غاضبًا واخفتى . وتانبو هذا حفيد عضو الجمع صديق
مدام دى لامول ، وكان مكلفًا بكتابة الخطابات . وقد استطاع عضو
الجمع أن يجعله سكرتيرًا للمركز . كان تانبو يعمل في غرفة بعيدة ، ولما علم
بما يلقاه جوليان من عطف ومودة ، أراد أن يشاطره هذه العواطف
الكريمة فأتى في الصباح بأدوات الكتابة وجلس في المكتبة .

وفي الساعة الرابعة جرّو جوليان على أن يتقدم إلى الكونت نوربير
بعد أن تردّد طويلًا ، وكان الكونت الشاب على وشك أن يمتطى جواده ،
فلما ظهر جوليان اضطرب لأنه جم الأدب وقال له :

— ينجيل إلى أنك ستذهب قريبًا لترويض الخيل ، وبعد بضعة
أسابيع سأكون سعيدًا جدًا حين تستطيع أن تشاركني نزهاتي .
فقال جوليان في لهجة جادة :

— أردت أن أتشرّف بشكرك على ما أظهرته لي من عطف
ورعاية ، وإنني لأقدر هذا العطف حقّ قدره ، ثم إنني أودّ أن أمتطى
جوادك اليوم إذا لم يكن قد جرح أمس من سوء تصرفي ، أو إذا لم يكن
سيركبه الآن غيري .

— لك ما تريد يا عزيزى سورل ولكن أنت المسئول عما يحدث لك . وهب أنتى عارضت فى اصطحابك كما يلى على الحذر والفتنة ، فلا شك أنى سأضيع وقتى سدى والساعة الآن الرابعة .

ولما امتطى جوليان الجواد سأل الكونت :

— ماذا يجب أن أفعل حتى لا أقع ؟

فضحك الشاب ضحكا عالياً وقال :

— أشياء كثيرة كأن يكون جسمك دائماً إلى الخلف .

وكانا قد وصلا إلى ميدان لويس السادس عشر فأخذ جوليان يعدو

بجواده فقال نوربير :

— آه ! يالك من شاب جرىء ! إن الطريق مزدحم بعربات

يسوقها الحمقى ! ولو أنك سقطت لمرت على جسمك هذه العجلات دون

أن يعنوا كثيراً بشدأعنة الجياد ليقفوها من أجلك ؛ وذلك حتى

لا يجرحوا أفواهاها .

وكم من مرة رأى نوربير جوليان وهو يكاد يسقط عن ظهر الجواد ،

ولكن نزهتهما انتهت مع هذا فى سلام ! ثم عادا إلى القصر فقال

الكونت لأخته :

— أقدم إليك شاباً جريئاً غير هيّاب ولا يخاف المخاطر !

وتحدث إلى والده أثناء العشاء ، وكان عند طرف المائدة وأبوه عند

الطرف الآخر ، فأثنى على حاة جوليان ؛ وأخبره بأن الجرأة هى خير

ما يمدح فيه حين يمتطى جواداً .

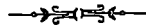
وكان الكونت الشاب قد سمع في الصباح سوّاس الخليل يتحدثون
عن سقوط جوليان في الشارع ويتناولونه بالسخرية اللاذعة .
وعلى الرغم من كل هذا العطف وهذه الرقة ، فسرعان ما شعر جوليان
بأنه غريب عن هذه الأسرة ، لأن عاداتهم غريبة عليه لا علم له بها
من قبل ، ولأن أخطائه مصدر سرور الخدم .
أما الأب بيرار فقد سافر للاستشفاء قائلاً في نفسه : إذا كان جوليان
شخصاً ضعيفاً فليهلك ؛ أما إذا كان قوياً شجاعاً فلن يحتاج إلى من يعتمد
عليه وسينجو من كل ما يصيبه .

الفصل الرابع

قصر دى لامول

[ماذا يعمل هنا ؟ هل تعجبه الإقامة ؟ وهل يفكر
في أن الإقامة هنا سترضيه ؟]

رونسار



إن بدا كل شيء غريباً على جوليان في هذا الصالون الفخم ، صالون قصر دى لامول ، فقد كان هذا الشاب الشاحب المتشح بالسواد يبدو بدوره غريباً كذلك لأولئك الذين كانوا يتفضلون فينظرون إليه . واقترحت مدام دى لامول على زوجها أن يكلفه عملاً خارج القصر في الأيام التي يدعون فيها شخصيات كبيرة لتناول الطعام على مأدحتهم .

فقال لها زوجها :

— في نيتي أن أطبق هذه التجربة حتى النهاية ، لأن الأب پيرار يزعم أننا مخطئون حين نعلم إلى جرح كبرياء أولئك الذين يعملون عندنا . والمرء لا يعتمد إلا على من يستطيع المقاومة . . . ولا عيب في جوليان إلا وجهه الغريب على من يترددون علينا ، أما ما عدا هذا فهو أصم أبكم . وكان جوليان قد تحدث إلى نفسه قائلاً : لكي أعرف هذه الوجوه التي تتردد على الصالون ، يجب أن أكتب أسماءهم وكلمة عن أخلاق كل واحد منهم .

ثم وضع في رأس القائمة أسماء خمسة أوستة من أصدقاء المنزل الذين

بتملقون جوليان ويتقربون إليه في كل فرصة ، مؤمنين بأنه مقرّب إلى
المركز إرضاء لإحدى نزواته . إنهم أناس فطروا على المذلة والهوان ؛
ولكن يجب أن نعترف ، إنصافاً لهذه الطبقة من الرجال التي تراها
في صالونات الأرسقراطيين اليوم ، أنها لا تقبل الذلة والهوان من جميع
الناس . فمنهم من يقبل الإهانة من المركز ولكنه يثور إذا سمع كلمة قاسية
من مدام دي لامول .

وخلق المركز والمركزية ينطوى على كبر شديد وسأم مميت ، لقد اعتادا
أن يتخاضا من سأمهما بما يوجهان إلى الناس من إهانة وسبّ ، فأصبح
لا يبقى عليهما إلا أخلص الأصدقاء . وفيما عدا الأيام العصبية واللاحظات
التي يستولى عليهما فيها الملل — وما أقل ذلك — كانا يتصفاً دائماً
بأدب جمّ . لو أن هؤلاء الخمسة أو الستة من الرجال غادروا قصر
دي لامول ، لشعرت المركزية بوحدة قاتلة . والوحدة في نظر سيدات هذه
الطبقة مخيفة مؤلمة ، لأنها علامة مقت وغضب ، لذلك حرصت على بقاء
هؤلاء الذين كانوا يظهرون لجوليان صداقة كبيرة وعطفاً أويّياً .

وكان المركز مهذباً مع امرأته إلى أبعد الحدود ؛ دائم العناية
بصالونه ، حريصاً على أن يؤمه الكثير من الناس . وكان يرى أن زملاءه
أعضاء المجلس الأعلى ليسوا عريقين في الأرسقراطية ليترددوا عليه
كأصدقاء ، وليسوا مسلمين ليدخلوا صالونه كتابعين .

ولم يكتشف جوليان هذا السرّ إلا بعد وقت طويل من إقامته
في القصر . فالسياسة الموجهة التي تتحدث بها الطبقات البرجوازية دائماً

لا تعرض لها الطبقات الأرستقراطية إلا في الأوقات العصبية .

وظاهرة الرغبة في أن يسرى الإنسان عن نفسه في هذا القرن الذي استولى عليه الملل تتجلى حتى في أيام الولايم التي تقام في القصر ، إذ ما يكاد المركز يغادر الصالون حتى يفر المدعوون فراراً . ويستطيع الإنسان أن يتحدث في كل شيء ما لم يسخر من الله أو من القسس أو من الملك أو من ذوى الشأن ، أو من الفنانين الذين يحميم البلاط ، أو من كل ماهو ثابت مقرر . ويستطيع كذلك أن يتحدث في كل شيء : يمدح بيرانيه أو صحف المعارضة ، ما لم يذكر فضل فولتير وروسو وأضرابها ممن يشيدون بحرية الرأي ، وما لم يخض على الأخص في أمور سياسية .

وأولئك الذين يبلغ دخلهم مائة ألف إيكو ، أو يحلبهم الوسام الأزرق ، عاجزون عن محاربة القواعد التي تسير عليها هذه الصالونات . وكل رأى فيه شيء من القوة يوصف بأنه رأى وقح . كان الملل يُقرأ في وجوه جميع من يغشون صالون المركز على الرغم من لهجتهم الظريفة وأدبهم الجم ، ورغبتهم الأكيدة في أن يكونوا موضع إعجاب الحاضرين . أما الشبان الذين كانوا يزورون دى لامول ، أداء لواجب يفرض عليهم ، فإنهم يخافون خوفاً شديداً من أن يفضحهم رأى يدلون به ، أو قراءة حرمت عليهم ، فيلزمون الصمت بعد أن ينطقوا بعبارات طريفة عن روسيني وحالة الجو . ولاحظ جوليان أن الحديث يظل قوياً حين يتولاه اثنان بلقب فيسكونت ، وخمسة من البارونات عرفهم المركز دى لامول أثناء هجرته . وكان كل واحد من هؤلاء السادة يبلغ دخله ستة آلاف أو ثمانية آلاف

من الفرنكات ؛ يتحزب أربعة منهم لجريدة « لا كوتدين » ويتحزب الثلاثة الآخرون لجريدة « جازت دي فرانس » . وكان أحدهم يقصّ كل يوم قصصاً تقابل بالاستحسان ، وقد لاحظ جوليان أنه يتحلى بخمسة أوسمة ، أما الآخرون فليس لكل منهم عادةً إلا ثلاثة أوسمة فقط .

ويمتاز قصر المريكز دي لامول بشيء آخر : ففي ردهته خدم عليهم ملابس فاخرة ، يقومون على راحة المدعوّين ويقدمون لهم الثلجيات أو الشاي في كل ربع ساعة . وفي منتصف الليل يقدم لهم طعام ونبيد وشمپانيا . وكان هذا هو السبب الذي يحمل جوليان على البقاء حتى نهاية السهرة . وفيما عدا ذلك لم يكن يستطيع أن يدرك كيف ينصت الإنسان في جدّ ووقار إلى تلك الأحاديث التي تدور في هذا الصالون الذي زين أخيراً زينة . وكان ينظر في بعض الأحيان إلى المتحدثين ليرى ما إذا كانوا يسخرون هم أنفسهم مما يقولون . وكثيراً ما كان يقول في نفسه : إن السيد دي ميتر الذي حفظ كلامه عن ظهر قلب قال كلاماً خيراً من هذا مائة مرة ، ومع ذلك فهو يبدو لي مملاً .

لم يكن جوليان وحده هو الذي يشعر بوطأة هذا الاختناق الأدبي . لكن غيره كانوا يتناولون مثلجات كثيرة تخفف عنهم ما هم فيه ؛ وآخرون يمكثون ليفاخروا بأنهم قضوا السهرة في قصر دي لامول حيث حدثوا بأن زوسيا

وعلم جوليان من أحد المتملقين أن مدام دي لامول كافأت البارون لي بروجونيون منذ ستة أشهر على مواظبته التامة طوال عشرين عاماً ،

تعتين حاكما بعد أن كان حاكما بالنيابة من عهد إعادة الملكية . فزاد هذا الحادث الكبير من همة هؤلاء السادة ومن نشاطهم . وقد كانوا من قبل يعضون لأقل شيء ، فأصبحوا الآن لا يعضون من شيء إطلاقا . وكان للترددون على آل دى لامول يعاملون بالحسنى ، لكن حدث أن استمع مرتين أو ثلاث مرات إلى حديث دار على المائدة بين المركيز وزوجه ؛ حديث قصير موجز لكنه يجرح الذين كانوا على مقربة منهما ؛ لأن هؤلاء الأشراف يخفون احتقارهم للذين هم من غير سلالة من اصطحبوا للوك . وقد لاحظ جوليان أن كلمة صليبية هي الكلمة الوحيدة التي تطبع على وجوههم علامة الجد العميق الذي يخالطه الاحترام . أما التجارة العادية فكان فيها شيء من الملاحظة والخفة .

وكان جوليان لا يهتم إلا بالمركيز دى لامول على الرغم من هذا الترف الذي يعيش فيه وهذا السأم الذي يلزمه ؛ وكم سرّ حين سمعه يوماً يحتاج على ما نسب إليه من ترقية لى بوجونينون ، وكانت هذه لفتة منه لصالح المركيزة ، وعرف جوليان الحقيقة من الأب بيرار :

فبينما كان يعمل هو والكاهن بيرار ذات صباح في المكتبة مكبّين على دراسة القضية العتيقة : قضية فريلير ، سأله جوليان بغتة قائلاً :

-- هل العشاء يا سيدي مع المركيزة في كل ليلة واجب من واجباتي أو هو عطف علىّ منهم ؟ فأجابه بيرار كأنه صعق مما سمع :

- إنه شرف عظيم ! إنّ عضو المجمع السيد . ن . . الذي يتملقها منذ خمسة عشر عاماً لم يستطع أن ينال مثل هذا الشرف لحفيده السيد تانبو .

— أنا أعدت هذا العشاء يا سيدي أشقّ شيء علىّ في عملي الحاضر .
كنت في المدرسة لا ألقى ما ألقاه الآن من الملل أثناء هذه الوجبات .
وإني لأرى الكل يثئاب حتى الآنسة دي لامول التي اعتادت رؤية
الأصدقاء المترددين على المنزل . وأنا أخشى أن يغلبني النعاس . فرفقاً بي
يا سيدي ، واحصل لي على إذن لأغيب عن العشاء ، فخير لي أن أتناول
طعاماً بفرنسكين في نزل حقير .

كان الأب بيرار من المحذثين الذين يرون في تناول الطعام على مائدة
سيد عظيم شرفاً كبيراً ، فجعل يحاول جهده أن يفهم جوليان هذا الشعور
ويقنعه به . وبينما هما كذلك إذ سمعا ضوضاء خفيفة فالتفتا فوق نظر
جوليان على الآنسة دي لامول التي كانت تنصت إلى حديثهما ، فاحمرّ
وجهاً خجلاً . لكنها قالت في نفسها : ليس لهذا الشاب مثل وضاعة هذا
الكاهن العجوز ، فيأله يا إلهي من كهل قبيح !

لم يجرؤ جوليان على النظر إليها أثناء العشاء ، فتلطقت معه ووجهت
إليه بعض عبارات . وفي ذلك اليوم كانوا ينتظرون زيارة كثيرين من المترددين
عليهم ، فطلبت منه أن يبقى . والفتيات الباريسيات لا يحببن من تقدمت
بهم السن من الرجال وخاصة إذا تأنقوا في ملبسهم . ولم يكن جوليان
في حاجة إلى كثير من الفطنة ليدرك أن أصدقاء لي بورجنيون الذين ظلوا
جالسين في الصالون نالوا شرف سخرية لاذعة من الآنسة دي لامول .
وسواء أكانت تتظاهر بهذا في ذلك اليوم أم كان هو طبعها الحقيقي ،
فإنها كانت قاسية شديدة الوطأة على أولئك الذين بعثوا الملل في نفوس

الحاضرين . كانت الأنسة دى لامول المحور الذى يدور حوله فريق من الشبان ، يجتمعون كل مساء خلف المقعد الكبير الذى تجلس عليه المركيزة . فيأتى المركيز دى كروازنوا والكونت دى كايوس والقيكونت دى لوز واثنان أو ثلاثة من الضباط الشبان من أصدقاء الكونت نور بير أو من أصدقاء أخته ؛ ثم يجلس هؤلاء السادة جميعاً على أريكة زرقاء . أما جوليان فكان يجلس على مقعد منخفض صغير من القش ، وضع إلى طرف أريكة تقابل تلك التى كانت تجلس عليها ماتيلد . وكان كثير من المتعلقين يحسدونه على مكانه المتواضع . كان جوليان يلزم الصمت إلا أن الكونت نور بير كان يرعاه لأنه كان سكرتيراً أبيه ، فيوجه إليه بعض كلمات أو يذكّر اسمه مرة أو مرتين أثناء السهرة . وفى ذلك اليوم سألته الأنسة دى لامول عن مقدار ارتفاع الجبل الذى تقوم عليه قلعة بيزانسون ، فلم يستطع أن يجيب لأنه لم يكن يعزف ما إذا كان هذا الجبل أعلى من مونمارتر أو أقل منها ارتفاعاً . وكثيراً ما كان يضحك فى سرور كبير مما يقوله هؤلاء الشبان ؛ ولكنه كان يشعر بأنه عاجز تمام العجز عن أن يقول مثل ما يسمع . كان كأنه يسمع لغة أجنبية ، يفهمها ولا يستطيع التحدث بها . وكان أصدقاء ماتيلد فى هذه الليلة بالمرصاد لسلك الوافدين على هذا الصالون الواسع . والأصدقاء المترددون على القصر أولى بالتجريح لأنهم أكثر معرفة بهم من سواهم . ولسنا فى حاجة إلى أن نقول إن جوليان كان شديد الانتباه لما يقال ؛ لأنه معجب بطريقة نقد هؤلاء الناس والعبث بهم . قالت ماتيلد لأصدقائها :

— آه ! هاهو السيد ديكولى ، إنه لم يعد يضع شعراً مستعاراً على رأسه .
أبغى أن يصل إلى أن يكون حا كما بفضل عبقريته ؟ إنه يعرض علينا
هذه الجبهة الصلحاء التي يقول إنها تحوى آراء قيمة .
فقال المركيز كروازينوا :

— إنه يعرف الأرض ومن عليها ، وكثيراً ما يتردد على عمى
الكردينال . وله مائتان أو ثلاثمائة صديق يعرف كيف يكذب على كل
منهم ، ويتعهد كذبه سنوات عديدة . وعبقريته تظهر في حرصه الشديد
على صداقة أصدقائه . وهو كما ترونه يذهب إلى منزل من منازل أصدقائه
شياء في الساعة السابعة صباحاً ، ولو كان الوحل عالقاً بملابسه . وقد تسوء
العلاقة بينه وبين صديق في يوم من الأيام ، فيكتب لهذا الصديق سبعة
خطابات أو ثمانية يعلنه فيها بانتهاء الصداقة بينهما ، ثم تعود الصداقة من
جديد . وهو كما يكتب خطابات للقطيعة فإن لديه ثمانية خطابات تعبر عن
مشاعر الصداقة الخالصة . وأهم ما يمتاز به ميله إلى الصراحة والإخلاص ،
مثله في هذا مثل الرجل الطيب القلب الذى لا تنطوى نفسه على الكراهية
والبغضاء . وهذه الصفة تظهر بوضوح وجلاء حين تكون له حاجة عند
إنسان . وإن أحد نواب عمى الكردينال يصور حياة السيد ديكولى منذ
عودة الملكية تصويراً بارعاً حقاً ، وسأحضر لكم هذا النائب .

فقال الكونت دي كيلوس :

— آه إنى لا أصدق ما يقال ، لأن مصدره الغيرة بين أمثال هؤلاء

الناس الذين يعملون في مهنة واحدة فقال المركيز :

— إن السيد ديكولى سيُذكر اسمه في التاريخ ؛ فهو الذى أعاد الملكية هو والكاهن دى برادت والسيدان تاليران وبوزودى بورجو .
وقال نوربير :

— لقد قاد هذا الرجل الملايين من الناس ، ويخيل إلى أنه لا يأتي هنا ليأخذ من أبى نقوداً على مايسمعه من هجاء مقذع في كثير من الأحيان .
بلقد قال له أبى منذ أيام : كم خنت صديقاً لك يا عزيزى ديكولو ؟ وكان يقول له ذلك من طرف المائدة ليسمعه وهو في الطرف الآخر .
فسألت الأنسة دى لامول :

— ولكن هل خان أصدقاءه حقاً ؟ ومن ذا الذى لم يخن ؟
فقالت الكونت دى كيلوس لنوربير :

— من أرى ؟ أهذا هو السيد سينكلر ؟ إنه لشهير بين الأحرار .
يا للشيطان ! لماذا جاء هنا ؟ يجب أن أقرب منه وأن أتحدث إليه وأحمله على أن يتكلم معي . لقد قيل لى أنه شديد الفطنة !
فسأله المريكيز دى كروازينوا :

— ولكن خبرنى كيف تحمل والذتك على استقباله ؟ إنه لرجل متطرف في آرائه ، حرا العقيدة والفكر فقالت الأنسة دى لامول :
— أنظروا لتروا هذا الرجل ، ذا العقيدة الحرة والآراء الشخصية ، كيف يحيى السيد ديكولى . إنه لينحنى حتى يكاد يلمس الأرض ؛ وقد كدت أعتقد أنه يمسك بيده ليقبلها . فقال دى كروازينوا :
— يخيل إلى أن ديكولى على صلة بأولى الأمر أكثر مما نظن .

فقال له نور بير :

— إن سينكار يتردد علينا ليختار عضواً في المجمع ، فانظر يا كرواز ينوا :

كيف يحيي البارون ل . . . فقال السيد دي لوز :

— لو أنه ركع أمامه ما كان أقلّ حطّةً وضعةً من موقفه الحالي .

ثم قال نور بير :

— عزيزي سورل ، إنك لذو ذكاءٍ ولكنك وفدت علينا من الجبال ،

فحذار أن تحييّ الناس كما يفعل هذا الشاعر الكبير . لا تفعل مثله إلاّ
وأنت تصلّي لله .

ثم قالت الأنسة دي لامول ، وهي تحاكي صوت الخادم الذي يعلن

قدوم الزائرين بأسمائهم :

— آه ها هو ذا الرجل الذكيّ حقاً البارون باثون .

فقال السيد دي كايوس :

— يحيل إلى أن خدمكم يسخرون منه ، فياله من اسم : البارون باثون !

فقات ماتيلد :

— لقد قال لنا منذ أيام إنّ الاسم لا يضير حامله واستطرد يقول :

تصوّروا أن شخصاً يسمّى اللوق دي بويون ينطق اسمه لأول مرة أمام

الجاهير ، قد يعجبون لهذا الاسم حين سماعه ولكنهم سرعان ما يعتادونه

بعد ذلك . .

غادر جوليان مقعده بجوار الأريكة ولم يتأثر كثيراً بما بيديه هؤلاء

الشبان من سخريّة لاذعة تمّ عن روح لطيفة ونفس رقيقة ، زاعماً أنّ

النكتة لا تضحك إلا إذا كان التفكير عنصراً أساسياً فيها . ولم يلمح في كلام هؤلاء الشبان إلا لهجة تنطوى على الازدراء ، فتألم منها . وقد صور له حياة الريفي أو الإنجليزي أنهم يحسدون من ينقدونهم من الرجال ، وقد أخطأ في ظنه هذا خطأ كبيراً .

أخذ يتحدث إلى نفسه قائلاً : لقد أراد السكونت نور بير أن يكتب لرئيسه الكولونل خطاباً لا يزيد على عشرين سطراً فسود هذا الخطاب ثلاث مرات على مرأى مني . ولم كان سعيداً لو أنه استطاع أن يكتب في حياته صفحة واحدة من تلك الصفحات التي يكتبها السيد سينكر ! وأخذ جوليان ينتقل بين الجماعات لا يشعر به أحد لأنه ليس ذا خطر . ثم عمل على أن يتبع ما يقوله البارون باثون وينصت من بعيد إليه . وخيل إليه أن هذا الرجل الشديد الذكاء كان يبدو عليه القلق ؛ وتبين لجوليان أن البارون لم يطمئن إلى نفسه إلا حين عثر على بعض عبارات مثيرة ، فبدأ لبطلنا أن مثل هذا اللون من الذكاء في حاجة كبيرة إلى فضاء واسع لتظهر مواهبه .

والواقع أن هذا البارون كانت لانتفحه الكلمات ، فقد كان في حاجة إلى أربع جمل تتكون كل منها من ستة سنطور ليظهر ذكائه اللامع ، حتى أن أحد الحاضرين ممن كانوا يقفون خلف جوليان قال :

— هذا الرجل لا يتكلم وإنما يفاوض !

التفت جوليان مسروراً حين سمع اسم السكونت شلقيه الذي يعدّ لألطف رجال العصر نفساً وأرقهم حساً . وكثيراً ما صادف جوليان هذا

الاسم وهو يقرأ مذكرات سانت هيلانه والأخبار التاريخية التي أملاها نابليون بنفسه . كان الكونت شقيقه يتوخم الإيجاز الشديد في أحاديثه . وكمالاته صائبة قوية عميقة كأنها البرق ؛ إذا طرق أمراً دار فيه الحديث بين الحاضرين بسرعة كبيرة . لكنه يدلى فيه بوقائع صائبة ، يدخلها السرور على قلوب سامعيه . أما في السياسة فهو سفيه كل السفاهة . وكان في هذه الليلة يتحدث إلى سيد زين صدره بثلاثة أوسمة ، وكان شقيقه كان يسخر منه حين قال له :

— إني مستقل . ولماذا تطالبني بأن أتمسك بنفس الرأي الذي أبديته منذ ستة أسابيع ؟ إني إن فعلت هذا كنت عبداً لرأيي .
وكان يقف بجوار الكونت أربعة رجال تظهر على وجوههم دلائل الجدة والوقار . وسمعوا حديثه فبدا عليهم الامتعاض ، لأنهم لا يحبون هذا اللون من المزاح والسخرية . فأدرك الكونت أنه ترك نفسه يقول أكثر مما ينبغي ؛ ومن حسن حظّه أن رأى السيد بللان ، الرجل الأمين ، المنافق في أمانته ، فتحدث إليه واقترّب منهما بعض الحاضرين ، وقد أدركوا أن هذا الرجل النعس سيكون ضحية من ضحايا شقيقه بما سيسمعه من سخريّة مريرة . ذلك أن السيد بللان بدأ حياته بدءاً يصعب علينا أن نعرض له . وعلى الرغم من أنه قبيح الوجه إلى أبعد حدّ ، فقد تمكن من أن يتزوج سيدة كبيرة الثراء بفضل ما كان يزعمه من تمسك بالأخلاق والسيّرة الحميدة . وماتت هذه السيدة فتزوج أخرى كثيرة المال لكن الناس لم يعودوا يرونها في المجتمعات . وقد أصبح السيد بللان يتمتع بدخل يبلغ

ستين ألفاً من الفرنكات ، أتاح له أن يحاط بالمتلمقين في غدواته وزروحاته ،
تحدث إليه الكونت شلفيه في هذا كله ، دون أن تأخذه به رافة أو رحمة ؛
وسرعان ما التف حول الرجلين عدد كبير من الحاضرين يبلغ ثلاثين
شخصاً ، وأخذوا يبتسمون جميعاً حتى أولئك المتوقرون من الشباب
الذين هم أمل عصرهم الحاضر .

أخذ جوليان يائل نفسه : لماذا يأتي هذا الرجل إلى قصر المريكز
دى لامول ، وهو موضع سخرية واستهزاء فيه ؟ ثم اقترب من الكاهن
بيرار علّه يجد عنده جواباً ، فرأى السيد بللان ينصرف وسمع
نور بير يقول :

— حسناً ! لقد غادرنا جاسوس من جواسيس أبي ولم يبق إلا هذا

الصغير الأعرج نابيه .

فقال جوليان في نفسه : هل تكشف لي هذه العبارة عن السر ؟

وإذا صحّ هذا فلماذا يستقبل المريكز السيد بللان ؟

كان الكاهن بيرار في ركن من أركان الصالون يكفهّر وجهه حينما

يسمع الخدم يعلنون أسماء القادمين ، فأخذ يقول كما قال بازيل :

— كأن هذا الصالون كهف لا أرى فيه إلاّ الذين خلعوا عذار الحياء .

ذلك لأن هذا الكاهن الصارم لا يعرف ما يدور في المجتمع الراقى ولا فيما

يتم إليه بصلة . ولكنه علم من أصدقائه المتعصبين مثله لمذهب يندسينيوس

أشياء كثيرة دقيقة عن المترددين على الصالونات . علم أنهم لا يبتغون

من وراء ذلك إلاّ خدمة الأحزاب جميعاً ، أو يبغون نفعاً خاصاً ، لا يرعون

في سبيل الحصول عليه عهداً ولا ذمّة . ظل پيرار يضع دقائق يجيب على أسئلة جوليان و بطلنا يوجه إليه السؤال إثر السؤال ، ثم توقف عن الإجابة بغتة وهو حزين كاسف البال لأنه لم يتناول الناس في إجاباته إلا بالذم والعيب ويصفهم بالإثم والعدوان . كان الأب غضوباً متعصباً ، مؤمناً بالمبادئ المسيحية في التسامح ؛ من أجل ذلك كانت حياته في المجتمع معركة مشوبة الأوار .

ولما اقترب جوليان من أريكة الأنسة دى لامول سمعها تقول :

— يا له من وجه . . . هذا الذي يحمله الأب پيرار !

أحسّ جوليان الغضب يسرى في نفسه ، وإن كانت محمّة فيما تقول ؛ على أن الكاهن پيرار كان خير الذين هم في الصالون في هذه الليلة ، وأعفهم قلباً وأشرفهم نفساً ، وإن كست وجهه حبوب حمراء ، وبدا عليه ما يسره ضميره من آلام ، فظهر وجهه كأقبح ما يكون . ثم قال جوليان في نفسه : هل أومن بعد هذا بما يبدو على الوجوه ؟ والأب پيرار تبدوا على وجهه القسوة إذا أحسّ أنه ارتكب خطأ يسيراً ، أما وجه ناپييه فالسعادة ترسم عليه دائماً خالصة صافية ، مع أن الناس جميعاً يمانون بأنه جاسوس . ومع ذلك فالأب پيرار قد خرج على تقشف حزبه إذ أخذ خادماً ولبس الملابس الأنيقة . ثم لاحظ جوليان في الصالون شيئاً عجيباً : فقد اتجهت الأبصار كلها إلى الباب وخفقت الأصوات حين أعلن الخادم قدوم البارون دى تولي ، الذي حوت الانتخابات إليه الأنظار ، ففرقه كل الناس ؛ فاقترب منه جوليان متفرباً فيه . كان البارون رئيساً للجنة

انتخابية مقرها إحدى المدارس ، فطرات له فكرة فذة وهي أن يخفي تلك الأوراق المربعة التي تحمل اسم حزب من الأحزاب ، وليكيلا يفتضح الأمر ، وضع مكانها أوراقاً تحمل اسم حزب يميل إليه . ولكن بعض الناخبين أدركوا ما عمله فسارعوا إلى تهنيئته . وكان البارون دى توللي لا يزال شاحب اللون من هذه الفعلة الشنعاء ، وكانت بعض النفوس السيئة قد ذكرت السجن ، واستقبله المريكيز دى لامول بفتور ؛ فأسرع البارون التعس في الهروب . عندئذ بدأ للكونت شلفيه أن يقول :

— إنه ذهب إلى السيد الكونت^(١) . . . ما دام قد غادرنا بهذه

السرعة . فضحك الحاضرون مما قال .

كان تانبو الصغير واقفاً مع بعض السادة الذين يؤثرون الصمت وبعض الرسامين ذوى النفوس الوضيعة وإن كانوا قد عرفوا بالذكاء . والصالون في هذه الليلة غاص بمختلف الطبقات لأن الإشاعات انتشرت بتولى المريكيز دى لامول إحدى الوزارات . وكان تانبو بعد العدة في هذه الليلة ليسكب قلب المريكيز ، وهو إن لم يوهب الإدراك العميق ولطافة الحس في مواجهة الأمور ، فإنه كان يتكلم في حمية وقوة ، كان يقول ساعة أن اقترب جوايان من الجماعة التي وقف بينها :

— لم لا يزعج بهذا الرجل في غياهب السجن عشرة أعوام كاملة ؟

يجب أن تلتقي هذه الحشرات في أعماق الخفر وأن تموت في الظلام ، وإلا انتشرت سمومها وأصبحت أشد خطراً مما هي الآن . ما قيمة ألف الأيكو

(١) ورد في تعليق سنة : ١٨٥٠ أنه كان مشهوراً معروفاً في ذلك العصر «العرب»

التي يدفعها غرامة؟ إنه فقير، هذا حق، ولكن حزبه يدفع له الغرامة. كان يجب أن يحكم عليه بمحسنة فرنك غرامة وعشرة أعوام بتضيها في السجن.

عجب جوليان من لهجة زميله التي تحمل الشر، ومن حركاته المضطربة؛ وأخذ يسأل نفسه: يا إلهي! من هذا الشيطان الذي يتحدث عنه تانبو؟ وكان وجه هذا الشاب الذي يراه قريبه عضو المجمع مطبوعاً في هذه اللحظة بطابع قبيح وشر. وبعد قليل علم جوليان أن الذي يتحدث عنه تانبو هو أكبر شاعر في عصره^(١)، تفرقت في عينيه الدموع من شدة الغيظ، وصاح في صوت يكاد يكون مسموعاً:

— آه! يالك من شيطان رجيم! ويالك من صعلوك! لن أغفرك أبداً ما قلت.

ومع ذلك فإنه من أولئك الشبان الضالين الذين ينتمون إلى الحزب الذي كان المركيز أحد رؤسائه! وإن هذا الرجل العظيم الذي يصب عليه جام حقه لو أنه أراد أن يبيع نفسه ومواهبه، ولا أقول للحكومة السيد دي نرغال^(٢)، ولكن لأحد الوزراء الذين عرفوا ببعض العفة والشرف والذين رأيتهم يتلو بعضهم بعضاً في الحكم — لو أنه أراد أن يبيع نفسه لانتهالت عليه الأوسمة والأموال دون أن يقوم بأى عمل!

أشار الكاهن پيرار إلى جوليان من بعيد، وقال له المركيز دي لامول

(١) إشارة إلى « بيرانية » الذي كان الاحرار يبالغون في تعبيده ومدحه، وقد

حذر عليه بالسنين وانقرمة سنة ١٩٢٨ — المغرب

(٢) لقد عرفنا من خلال هذا الاسم المستعار، الوزيران فيميل، وبولينيك « المغرب »

كلمة ، واقترَبَ جُوليانَ ينصت إلى الكاهن غاضباً بصره ، ولما انفرد الكاهن بنفسه إنجحه إليه جُوليان فرآه مغيضاً محققاً من هذا الشاب الوضع تانبو ، الذي أخذ يتملقه ويتقرب إليه ، وإن كانت نفسه تنطوي على الكراهية والبغضاء ؛ لما له من فضل على جُوليان ولاعتقاده أنه ولي نعمته .

كان هذا الشاب المدعى الأدب يتكلم بعبارات قوية ركيكة كعبارات الإنجيل متسائلاً : متى يقضى الموت على هذا الفساد العتيق ؟ وكان تانبو يتحدث هذه المرة عن هذا اللورد المبجل ، اللورد هولاند الذي تظهر مزاياه في معرفة حياة الرجال المعاصرين معرفة دقيقة ؛ وكان في هذه الآونة يعرض عرضاً سريعاً أولئك الذين يأملون خيراً من العهد الجديد ، عهد ملك إنجلترا الذي ولي حديثاً .

ذهب الكاهن پيرار إلى صالون مجاور وتبعه جُوليان ، وحينما أصبحت وحدهما قال الكاهن :

— إن المراكز لا يجب صفار الكتاب ، وهذه هي الطبقة الوحيدة التي ينفر منها ، فلا تنسى هذا . تعلم اللاتينية واليونانية إذا استطعت ، واعرف تاريخ المصريين والفرس وغيرهم ، وستجد منه مقصداً وحامياً لك ولعلمك ؛ ولكنك إذا كتبت صفحة واحدة بالفرنسية تناولت فيها أشياء خطيرة تسمو على مركز الاجتماعي فإنه سيسميك كويتياً ويعدك شوماً عليه ، أنت تقم في قصر سيد كبير ، وكيف لاتعرف عبارة الدوق دي كاستري

التي قالها في دليبروروسو : هو شخص ، أوجب أن يفكر في كل شيء ،
وودخله لا يبلغ ألف إيكو ؟

فأخذ جوليان يقول في نفسه : كل شيء يعرف هنا كما كان يُداع
في المدرسة ! ذلك أنه كان قد كتب ثمانى صفحات أو عشرأ بأسلوب
لا يخلو من تفخيم ، يمدح فيها الجراح العجوز ويؤرخ له ؛ لأنه قد جعل
من جوليان رجلا على حدّ تعبير بطلنا ، الذى يخبرنا بأن هذه الكراسة
كانت مخبأة في مكان ظنّ أنّ الأيدي لا تصل إليها فيه ! ثمّ صعد إلى
مسكنه وأحرق ما كتب وعاد إلى الصالون ، فوجد أن الخبثاء الأذكياء
قد غادروه ، ولم يبق إلا أولئك الذين يحملون الأوسمة .

أحضر الخدم مائدة عليها أنواع مختلفة من الطعام والشراب ، وجلس
إليها سبع سيدات أو ثمان كهن عريقات الأصل ، تقيات صالحات ،
متصنعات متكلفات ، تتراوح أعمارهن بين الثلاثين والخامسة والثلاثين .
دخلت امرأة للشيردى فرفاك ، وهى سيدة وضاءة ، معتذرة لوصولها
في ساعة متأخرة ؛ فقد أتت بعد أن انتصف الليل . ثمّ أجهت إلى المراكزة
دى لامول لتجلس بجوارها ، واضطرب جوليان حينما وقع بصره على هذه
السيدة لأن عينيها ونظراتها كانت تشبه عيون مدام دى رينال ونظراتها .
أما فريق الأنسة دى لامول فكان لا يزال على كثيرته ووفرة عدده .
اقترب جوليان منهم فوجدهم مشغولين بالسخرية من هذا الكونت
التعسدى تالر^(١) ، وهو الابن الوحيد لذلك اليهودى المشهور بترائه العريض ،

(١) : اشارة إلى البارون دوتفيلد . — العرب —

الذى حصل عليه من إقراض الأموال للولوك ليحاربوا بها الشعوب . مات هذا اليهودى وترك لإبنته دخلاً يبلغ مائة ألف إيکو في الشهر واسمها لا يجله أحد مع كل أسف ! وكان هذا الموقف العجيب يتطلب بساطة في الطباع أو قوة إرادة شديدة .

ولكن الكونت مع الأسف قد أفسده المتملقون الملتفون به فأدخلوا الغرور والزهو في نفسه بعد أن كان رجلاً متواضعاً .

وزعم دى كايوس أن هؤلاء المتملقين قد أدخلوا في روعه أنه جدير بالزواج من الأنسة دى لامول (التي يغازلها المركيز دى كروازينوا الذي سيصبح دوقاً ويبلغ دخله مائة ألف فرنك) فقال نور بير في إشفاق : — آه ! لا تتهمه بأن له إرادة .

إن ما كان يعوزه الكونت دى تالير هو معرفة ما يريد ؛ وهو لهذا جدير بأن يكون ملكاً . وهو وإن كان كثير المشاورة لمن حوله فإنه ليس لديه الشجاعة في أن يتتبع رأياً حتى النهاية .

وقد قالت الأنسة دى لامول : إن وجهه يكفي وحده لإدخال السرور الدائم إلى نفسها . فقد كان وجهه يعثوره القلق ويرتسم عليه اليأس ، لكنه يُلمع فيه بين آونة وأخرى دلائل الخطورة وتُسمع منه لهجة حازمة تميّز أغنى رجل في فرنسا ، لا سيما وأنه ليس قبيح الوجه والجسم ، ولم يبلغ بعد السادسة والثلاثين من عمره . وقال دى كروازينوا : إنه سفيه شديد السفاهة . وأخذ نور بير والكونت دى كايوس واثان أو ثلاثة من الشبان ذوى الشوارب يسخرون منه سخرية شديدة دون أن يشعروا . وحينما وافق

الساعة الأولى صباحاً تخلصوا منه إذ قال له نور بير :

- أهي جيادك العربية التي تنتظرك بالباب في مثل هذا الجو؟

- لا ، إنهما جوادان أقل ثمناً من الجياد العربية ؛ فالحصان الأيسر

قد اشتريته بمائة ألف فرنك ، أما الأيمن فثمنه مائة لويس فقط ؛ ولكني

أرجو أن تعرف أنهما لا يجران عربتي إلا لي-لا ، وإن كانا يشبهان

الجياد العربية .

فهم الكونت تالير من سؤال نور بير أنه لا يحسن برجل يحب الخيل

ويشغف بها أن يترك جياده تبتلها الأمطار فانصرف ، وتبعه بعد قليل

هؤلاء السادة وهم يسخرون منه .

وحينما سمع جوليان ضحكهم وهم يهبطون درجات السلم قال في نفسه :

لقد أتبع لي الليلة أن أرى حرج موقفي ! فدخلى لا يبلغ عشرين لويساً ،

وقد كنت بجوار رجل يبلغ دخله عشرين لويساً في الساعة ، ولكنهم

يسخرون منه . . . إن في مثل هذا ما يشفي القلوب من الحسد .

الفصل الخامس

الحساسية وسيلة كبيرة تقية

[إن رأياً فيه بعض الحرارة يبدو كأنه غائظة ، لأن
الناس تمودوا سماع الكلام النافه ، وويل لمن يقول
جديداً إذا ما تكلم !]

فوبلاس



قضى جوليان بضعة شهور في قصر المريكز يعمل ويراقب مولاه عمله ،
وحدث أن سلمه مدير القصر الربع الثالث من راتبه . وكلفه المريكز
الإشراف على إدارة أراضيه في نورمانديا وبريتانيا . فأصبح جوليان
بهذا كثير التنقل إلى هذه الأضلاع ، كما صار كبير الكتاب المشرفين
على القضية المشهورة : قضية المريكز والأب فريلير ، وأمد الكاهن بيار
جوليان بالمعلومات الكافية .

كان جوليان يحمر الخطابات معتمداً على الملاحظات القصيرة التي
يكتبها على هامش ما يصله من أوراق ؛ وكان المريكز يوقع أكثر الخطابات
التي يكتبها جوليان .

ولما كان بطلنا في مدرسة اللاهوت كان معلمه كثيرى الشكوى
من سوء مواظبته ، وإن كانوا يعدونه من خير التلاميذ وأكثرهم اطلاعاً .
وكان مقبلاً على الأعمال المتنوعة ، التي وكلت إليه في قوة وحية ،
مدفوعاً بالطموح المسيطر عليه ؛ حتى فقد لونه الوردى الجميل الذي سبغه

عليه هواء الريف ، وكان شحوبه يعد ميزة في نظر أصدقائه الشباب من تلاميذ المدرسة ؛ فاعتبروه أقل شراً وأزهد في المال من زملائه البيزنسيين الذين كانوا يقولون إنه مصاب بداء الصدر ، وأعطاه الماركيز جواداً ، ولم كان يخشى أن يلقاه أحد زملائه وهو يركب الجواد . لذلك عزم على أن يخبرهم بأن ركوب الخيل تمرين رياضي فرضه عليه الأطباء ، واصطحبه الكاهن يبرار معه في مجتمعات دينية جانسينيسية ، فذهل حين رأى قوماً أتقياء صارمين ، لا يفكرون أبداً في المال . وقد كان من قبل يؤمن بأن فكرة الدين مرتبطة بالنفاق والأمل في جمع المال . وأخلص كثير من هؤلاء الجانسينيسيين النصيح لبطلنا واتخذوه صديقاً ، فظهرت له آفاق جديدة في الحياة . وتعرف في اجتماعات هؤلاء القوم بالكونت^(١) التاميرا الذي تبلغ قامته أكثر من ستة أقدام ، وهو من الأحرار الذين حكم عليهم بالإعدام في بلده إلا أنه متدين . وقد دهش جوليان من رجل يجمع بين النقيضين التدين وعشق الحرية . وكانت العلاقة بينه وبين الكونت الشاب يسودها شيء من الفساد ، لأن نورير رآه يرد في كثير من الجراءة والقوة نكات بعض أصدقائه . وقد خالف جوليان القواعد التي يسير عليها مرة أو مرتين ، فأخذ على نفسه ألا يتحدث مع الأنسة ما تيلد . لكن أهل دى لامول كانوا يراعون الأدب التام معه ، وكان هو قد لاحظ أن مكاتته لم تعد كما كانت عليه من قبل . وأوحت

(١) يشير ستندال إلى أحد أصدقائه هو « دى فيودي » من نابولي وقد حكم عليه بالإعدام ، ولكنه هرب ولجأ إلى باريس . « العرب »

إليه فطنته الريفية أنّ هذه الظاهرة يفسرها المثل العامي : كل جديد جميل .
ربما أصبح جوليان أكثر بصيرة بالأمر ، وربما فارقته النزعة التي
سيطرت عليه أول أيامه ، وهي سحر باريس .

وإذا ما فرغ من عمله وقع تحت طائلة من مال قاتل لا يجد لنفسه
مخرجاً منه ؛ إنه الأثر الجاف للأدب الجمّ الذي يطبع الطبقة الراقية فتظهره
بمنايس دقيقة ، تختلف باختلاف المراكز الاجتماعية . والنفس التي فطرت
على قليل من الحساسية تدرك هذا التصنع الظاهر . ولا ريب أنّ أهل
الريف طبعوا على لهجة عامة قد لا تحمل كثيراً من الأدب ؛ لكنهم
يتحمسون قليلاً حينما يجيبونك . لم تجرح كرامة جوليان مرة واحدة في قصر
دى لامول ، ولكنه كثيراً ما كان يجد في نفسه حاجة ملحة إلى البكاء
إذا ما انتهى يومه .

إنّ العامل في مقهى ريفي يهتم بك إذا حدث لك حادث وأنت
تدخل مقهاه ؛ أما إذا كان في الحادث ما يجرح كرامتك فإنه يتألم لك
وإن لم يمنع ذلك من أن يكرر على مسامعك عشر مرات كلمة تسوءك .
وفي باريس يعتمد الناس إلى الضحك مستترين ، وهم يرون فيك دائماً
رجلاً غريباً عنهم .

لا تريد أن نعرض للمخاطرات التافهة التي ارتسكبها جوليان ، والتي
عرضته للسخرية ، لو أنه من أولئك الذين تنال السخرية من كرامتهم .
وكانت حساسية الجنون محمله على ارتكاب هفوات لا حصر لها ؛ ولذاته

جميعاً لم تكن إلا لونا من الحيطه والحذر : فكان يتعلم إطلاق النار كل يوم ، وكان من خير تلاميذ أشهر معلم للمسابقة . وإذا وجد لديه فراغاً جرى إلى حظيرة الخيل وطلب أشد الجياد عسراً . ولم يعد يقبل على القراءة كما كان يفعل من قبل : كان يخرج إلى الزهرة مع رئيس ترويض الخيل وكثيراً ما كانت تلتقي به الجياد عن ظهورها .

وجد المركيز في جوليان شخصاً يقبل على العمل إقبالاً شديداً ، يؤثر الصمت ويتصف بالذكاء ، فأخذ يعهد إليه قليلاً قليلاً بجميع الأمور المعقدة التي تحتاج إلى روية وصبر . وفي اللحظات التي يبرأ فيها المركيز من طموحه الشديد ، كان يقوم بأعمال تدل على الفطنة والكياسة ، أنه اعلی صلة بالأخبار فكان يعقد صفقات رابحة : اشترى منازل وغابات . ولكنه سريع الغضب ، يعطى في سخاء مئآت من اللوريات ويتشاحن لبضع مئآت من الفرنكات ، لأن الأغنياء ذوى النفوس الكبيرة يهتمون باللذة التي يجلبها العمل أكثر مما يهتمون بالنتائج التي يحصلون عليها . وكان المركيز في حاجة حقاً إلى رئيس يتعهد معاملاته المالية فيضع لها نظاماً واضحاً سهلاً يسيراً .

أما مدام دي لامول ، ذات الأدب الجم ، فقد كانت تسخر من جوليان في بعض الأحيان ، لأن كل طارئ جديد تحلقه الحساسية ، تشتمز منه نفوس هؤلاء السيدات الرقيات اللائى يرين أنه يغازماتواضعن عليه من عرف . وقد أخذ المركيز يناصر جوليان مرتين أو ثلاثة قائلاً لزوجته :

— إذا ظهر بظهور السخرية في صالونك فهو دائم الاتصاف في مكتبه .
أما جوليان فقد خيل إليه أنه أدرك سرّ المركيزة ، فهي تهتم بكل شيء حينما يعلن الخادم قدوم البارون دي لا جومات . وهو كائن فيه فتور ، ذو وجه لا تعرف المشاعر إليه سيلا ، قصير القامة نحيل الجسم قبيح الحلقة ، أنيق اللبس ، يقضى حياته في القصر ، وهو عادة لا يقول شيئاً أبداً . وكان جوليان يعتقد أن المركيزة دي لامول ستلقى السعادة لأول مرة في حياتها ؛ لو أتيج لها أن تعمل على أن يتزوج البارون دي لا جومات من ابنتها .

الفصل السادس

طريقة النطق

[تتخصر مهمتهم الكبيرة في أن يحكموا في هدوء على الحوادث الصغيرة التي تجرى في حياة الناس . وإن فطنتهم لتدرك ما يتورط الناس من اضطراب بسبب أمور تافهة أو حوادث تجسمها الشهرة حين ينتقل بها الصوت من مكان إلى مكان بعيد .]

جيراثيوس



لم يرتكب جوليان كثيراً من الحماقات في حياته الجديدة ، على الرغم من أن كبرياءه لم تسمح له بأن يسأل عما لا يعلم . أراد يوماً أن يتقى مطراً هطل بغتة ، فأوى إلى مقهى بشارع سانت أونوري ، فأذهلت نظراته الصارمة رجلاً مديد القامة يرتدى الردنجوت ، فلفت ذلك نظر جوليان ؛ ورأى أن هذه النظرات كتلك التي وجهها إليه عشيق الآنة أماندا في إحدى مقاهي بيزانسون ، والتي كثيراً ما لام نفسه على أنه لم ينتقم من ذلك العاشق لنظراته تلك التي تحمل معاني الإهانة . ولما سأل ذا الردنجوت عن سبب نظراته ، صب عليه في الحال أقذع الشتائم ، وسرغان ما التفّ حوله جميع من بالمقهى ، ووقف للمرة أمام الباب . كان جوليان يحتفظ دائماً بمسدسات صغيرة على عادة الريفيين ، فأمسك بها في حركة مضطربة ؛ لكنه عاد فأثر الحكمة واكتفى بأن يقول للرجل في فترات متباعدة : أيها السيد ، هات عنوانك . إنني أحترك .

وكان العزم الذى ينطوى عليه حديثه ، وهو ينطق بهذه الكلمات ،
عزماً وطيداً أذهل السامعين فأخذوا يقولون :
يا لله ! إن هذا الرجل الذى يتحدث وحده يجب أن يعطيه عنوانه .
فقدف الرجل فى وجه جوليان بجمس بطاقات أوست ، نزولاً على حكم
الجاهير وقد أخذوا يرددونه . ولم تمس البطاقات وجه بطلنا لحسن الحظ ؛
وكان عازماً على ألا يستعمل سلاحه إلا إذا مست وجهه إحداهما . ثم
انصرف الرجل متلفتاً متوعداً بالضرب ، نائراً حوله الثائم . فتصعب
جوليان عرفاً وامتلأ غضباً ، وأخذ يقول فى نفسه : أفى استطانة أخط
الرجال أن يستثيرنى إلى هذا الحد ! فكيف أستطيع القضاء على هذه
الحساسية المهينة ؟

من أين لى بشاهد ؟ ذلك لأنه لم يكن له صديق فى باريس ؛ كان
يعرف بعض الناس ولكن معرفته لا تدوم أكثر من سنة أسابيع ، ثم
يعتزلونه جميعاً ؛ فقال فى نفسه : لست مدنياً بطبعى ككل إنسان ،
وهأنذا أتى جزائى . ثم فكر أخيراً فى ملازم سابق بالفرقة السادسة
والثميين إسمه ليثمن ، وهو شخص تعس ، كثيراً ما كان يتدرب معه
هلى استعمال السلاح ، وكثيراً ما أخلص له جوليان .

قال له ليثمن حين القيا وأطلعه جوليان على الأمر :

— أنا أقبل أن أكون شاهدك والسكر على شرط أن تقتاتنى فى الحال
إذا لم تجرح خصمك . فسر بطلنا وأجاب صديقه إلى ما طلب ؛ ثم ذهبا
يبعثان عن السيدش . دى بوفوازى فى عنوان بطاقاته فى ريف سان جيرمان .

كانت الساعة السابعة صباحاً حينما ذهبنا ، ودخل الخادم يعلن قدوم الزائرين لسيدة فتذكر جوليان أن غريمه قد يكون قريباً لمدام دي رينال ، وهو الذى كان يعمل من قبل فى سفارة روما أو نابولي ، والذى أعطى جيرونيمو المغنى خطاب التوصية .

وقدم جوليان للخادم الطويل الذى استقبله بطاقة من التى أقيمت بالأمس فى وجهه وبطاقة أخرى تحمل اسمه . ثم ظلّ هو وشاهده ينتظران ثلاثة أرباع الساعة ، حتى أدخلنا مسكناً على جانب كبير من الأناقة والرّوعة . ووقع بصرها على شاب طويل ، أنيق اللبس ، تدلّ تقاطيعه على الجمال الإغريقي فى أروع صورته ، كما تمثل تفاهته . أما رأسه فضيق جداً يحمل شعراً غزيراً جميل الثمرة ، جمعد فى عناية شديدة حتى لا ترى فيه شعرة من الشعرات قد نشرت عن موضعها . فقال ملازم الفرقة السادسة والتسعين : ما جعلنا هذا الغرّ اللعين ننتظر هذا الوقت الطويل إلاّ ليجعد شعره على هذا النحو الجميل . كان يلبس (روب دي شامبر) مزخرفاً وسراويل الصباح وبابوجا مزينة . وكلّ ذلك يدلّ على عناية شديدة بهندامه وعلى حسن ذوقه . ويدلّ وجهه على محمّد كريم وتفاهة بالغة ويلمح فيه الإنسان ما ينطوى عليه من آراء لها قيمتها وغراتها ؛ وعلى الجملة فهو المنزل الأعلى لما يكون عليه الرجل الظريف ، يكره الأشياء المباشرة كراهية شديدة ولا يجب الفكاهة لأنه جبل على الوفاق الشديد . وأفهم اللازم جوليان أن خصمه قد ألحق به إمانة شديدة حين تركه ينتظر طويلاً ، فدخل فى جفوة على السيد دي بوقوازي ؛ وصمّ على أن

يكون سيء الأدب معه ولكن بطريقة مستترة .

ولشدّ ما ذهل حين رأى وداعة السيّد دي بوڤوازي وحسن طباعه وما هو عليه من اتزان وأناقة كبيرة في كل ما يحيط به ، فرجع في الحال عن عزمه في أن يكون سيء الأدب . لم يكن هذا السيّد هو الرجل الذي أهانه بالأمس ، فعجب جوليان ، حتى لم يستطع أن ينطق بحرف حين رأى هذا السيد المهذب بدل أن يرى ذلك الفظّ الغليظ الذي لقيه بالأمس . فقدم إليه بطاقة من تلك التي قذفت في وجهه ، فقال له هذا الرجل المتحضر الذي بعث الثوب الأسود في نفسه شيئاً من الاحتقار لجوليان حين طرق بابه في الساعة السابعة صباحاً .

— هذا اسمي ولكن لم يكن لي للشرف أن وألقت الطريقة

التي قال بها كلماته هذه غضباً في نفس جوليان فقال :

— لقد جئت يا سيدي لأبارزك . ثم قصّ عليه ما حدث أمس

في المقهى .

فكر السيد شارل دي بوڤوازي في الأمر جدّياً ، وهو ينظر إلى جوليان منصتاً إلى حديثه فسرّته طريقة حياة ثيابه السوداء ، فقال في نفسه : من الحق أن من عمل ستوب ، فهذه الصدرية بديعة ، وهذا الخذاء جميل . ولكن يا إلهي ! هذا الثوب الأسود في تلك الساعة المبكرة من النهار . . . لقد لبس هذه الملابس لينجو من الرضاصة . ثم عاد إلى أدبه الجم مع جوليان ، وغامله معاملة الأنداد . وظلّ الحديث بينهما وقتاً طويلاً لأن الأمر كان دقيقاً ، ولكن جوليان رأى في جلاء ووضوح أن هذا الرجل الكريم

المحدث الذى يراه لا يشبه اللفظ الغليظ الذى أهانه أقل شبه .
شعر جوليان فى نفسه باثمزاز إذا ما انصرف دون أن يلتقى غريمه ،
فأطال الحديث وتأمل حسن طباع الفارس دى بوفوازى ، وهو الاسم
الذى أطلقه على نفسه ، لأنه لم يرض أن يناديه جوليان بالسيد وهو
يتحدث إليه . أعجب جوليان بوقاره وإن كان فيه غطرسة لا تفارقه لحظة
من اللحظات ، لكنها غطرسة لا مبالغة فيها . وذهل من طريقته العجيبة
التي يحرك بها لسانه حين يتكلم . . . ولكنه على الرغم من كل هذا لم
يجد مسوغاً لأن يختلف أو يتشاجر مع هذا السيد . عرض السياسى الشاب
فى كثير من الظرف أن يبارز جوليان ، ولكن الملازم السابق فى الفرقة
السادسة والتسعين قرّر أن صديقه السيد سوزل ليس من خلقه أن يبارز
رجلاً سرق بطاقته واستغلّت استغلالاً سيئاً . وكان هذا الملازم يجلس
طيلة الوقت مفتوح الساقين ، ويداه على فخذه ومرفقاه لا يرتكبان
على شيء .

ثم غادر جوليان الفارس دى بوفوازى غاضباً أشد الغضب . وكانت
عربة الفارس تنتظره فى الفناء أمام السلم الخارجى ولما رفع جوليان بصره
إليها رأى الرجل الذى أهانه بالأمس ، ولم يكن سوى سائق العربة ،
فجذبته من سترته الكبيرة فى سرعة خاطفة حتى هوى من أعلى المقعد
وانهال عليه ضرباً بالسوط . وأراد خادمان أن ينصرا زميلهما فضربا
جوليان ، فأطلق عليهما النار فولّيا الأدبار . وجرى كل هذا فى دقيقة واحدة .
هبط الفارس درجات السلم فى وقاره الذى يدعو إلى السخرية ،

سائلا بطريقته العجيبة في النطق ، طريقة السيد العظيم : ما هذا ؟
ما هذا ؟

ولا ريب أن حبّ الاستطلاع كان مالكا عليه نفسه في هذه اللحظة ، ولسكنّ خطورة السياسيين حالت بينه وبين أن يظهر اهتماماً بما حدث . ثم أطلع على ما جرى ، فكانت تقاطيع وجهه فريسة للكبر والهدوء اللذين يتسم بهما كلّ من يعمل في السلك السياسي .

أدرك الملازم أن السيد دي بوفوازي يريد مبارزة جوليان ، فأراد أن يحتفظ لصديقه بميزات البادىء بطلب المبارزة ، فصاح قائلاً :

— إن هذا الأمر يستدعى المبارزة . فأجاب الفارس :

— أنا أشاركك هذا الرأي . ثم قال لخدمه :

— إني أطرد هذا الوغد من خدمتي ، فليصعد إلى مكانه شخص آخر .

وفتح باب العربة ليركب ثلاثتهم ، وأكرمهما الفارس حين قدمهما على نفسه . ثم ذهبوا ليحضروا شاهداً لدى بوفوازي ، وهو صديق له ، دلّهم على مكان هادىء يتبارزن فيه . وكان الحديث بينهم في الذهاب هادئاً ودياً ، ولم تكن هناك ظاهرة غريبة إلا أن يرتدى رجل في السلك السياسي مبذلاً (روب دي شامبر) .

لاحظ جوليان أن هذين السيدين ليسا نملّين ، وإن كانا كريمي الحنّد ، كأولئك الذين يختلفون إلى موائد المركيز دي لامول . وبعد قليل أخذ يقول في نفسه : أدركت الآن السبب في أنهم يسمحون لأنفسهم أن يقولوا الفحش حينما يتحدثون . لقد تناولا في حديثهما راقصات نلن

إعجاب الجمهور وتقديره في قطعة راقصة مثلت بالأمس . وكان هذان السيدان يقصّان قصصاً لاذعة يحفلها جوليان وصديقه الملازم جهلاً تاماً . ولم يشأ جوليان أن يرتكب حماقة فيدعى أنه على علم بها ، بل آثر أن يخبرها بأنه يجهل ما يقولون ، وإن لم يخجل اعترافه من ظرف كبير . وأعجب صديق الفارس دى يوفوازي بصراحة جوليان ، فأخذ يقصّ عليه هذه القصص في إطناب ، وفي أسلوب جذاب .

كان في وسط الشارع مذبح مزين لذباح القربان بمناسبة موكب عيد الإله ، ، فوقفت العربة قليلاً . وم ذهل جوليان حين سمع السيدين يتكلمان ويستخران قائلين إن الخورى ابن لرئيس الأساقفة . وهذا تكلم لم يسمعه في قصر المركيز دى لامول الذي يريد أن يكون دوقاً ، ولا يجرؤ إنسان على أن ينطق بمثل هذه الكلمة في القصر .

انتهت المباراة في وقت قصير حين أصيب جوليان برصاصة في ذراعه ، وضمدوها له بمناديل بلّلت بالخر ، ورجا الفارس دى يوفوازي جوليان في أدب جم أن يسمح له بأن يوصله في العربة إلى مسكنه . ولما أعطاه الجريح عنوان قصر المركيز دى لامول ، تبادل الفارس وصديقه النظرات . وآثر جوليان أن يبقى في عربة الفارس ، وإن كانت عربته بانتظاره لأن حديث السيدين كان أمتع من حديث صديقه الملازم . وأخذ بطلنا يتحدث إلى نفسه قائلاً :

يا إلهي ؟ أهذه هي المباراة ؟ كم أنا سعيد بأنى لقيت هذا الخوزي ! ولو أنني أهنت مرة أخرى في مقهى لكنت أشقى الناس جميعاً ! وظل

الحديث الطليّ بين الصديقين مستمراً طوال الوقت ، وأدرك جوليان أن تكلف رجال السلك السياسي له فائدته .

ثم قال في نفسه : إنّ السأم لا يعرف سبيله إلى نفوس هؤلاء السادة ما داموا يتحدثون فيما بينهم بمثل هذا الحديث الطريف ! هم يسخرون من موكب الاحتفال بعيد الإله ، ويجروون على تناول قصص شاقة عسيرة فيتحدثون في أدق تفصيلاتها ، لا يعوزهم إلا المنطق على الأمور السياسية ، وهذا النقص يعوضه ما جبلوا عليه من ظرف في لهجتهم حين يتحدثون وما يستعملون في كلامهم من عبارات رقيقة . ثم شعر بمحورها بميل كبير ، وأخذ يقول : ليتني أسعد بلقائهما كثيراً !

ولم يكادوا يفترون حتى أسرع الفارس دي بوfoازي في الاستسلام عن غريبه ، لكن ما علمه عنه لم يكن مشرفاً . كان في حاجة شديدة إلى أن يعرف شيئاً عن هذا الغريم ، وهل يستحقّ أن يُزار ؟ على أن ما وصل إليه من معلومات ضئيلة لم يشجع على هذه الزيارة . قال لشاهده : — هذا أمر جدّ عسير على نفسي ! لا أستطيع أن أعترف أنني بارزت شخصاً لا يعمل إلاّ سكرتيراً للمركيز دي لامول ! ولم بارزته ؟ لأنّ سابق عربتي سرق بطاقتي !

— سيجد الناس ولا شكّ في هذا موضعاً للسخرية بك .

وما خلّ المساء حتى أذاع الفارس دي بوfoازي وصديقه في كل مكان أنّ اليد سوزل ، فضلاً عن صفاته الكاملة ، ابن طبيعي لصديق من

أكثر الأصدقاء مودة للمركزى دى لامول . وصدق الناس ما قالوه فى سهوله ويسر . ولما وجداهم آمنوا بما قالوا ، تفضلاً فزارا جوليان بضع مرات حين اعتكف فى غرفته خمسة عشر يوماً . واعترف لهما جوليان وهما يزورانها بأنه لم يذهب إلى الأوبرا فى حياته إلا مرة واحدة .

— هذا أمر عجيب ! إننا لا نذهب إلا إلى هناك . ويجب

أن يكون أول شيء تشاهده حين تخرج هو تمثيل رواية الكونت أورى .

ثم قدّمه الفارس إلى الملقى جيرونيمو الذى نال نجاحاً كبيراً .

تملق جوليان الفارس وتقرب منه ، لأنه كان معجباً باحترامه لنفسه ، وبالخطورة الغامضة والكبرياء اللتين تبدوان على وجهه ، فقد كان مثلاً يتمتم قليلاً إذا ماتكلم ، لأنه كثيراً ما كان يشرف بلقاء سيّد كبير فى لسانه لكثرة ، ولم ير جوليان من قبل إنساناً اجتمعت فيه فى وقت واحد سخرية عابثة وشمائل طيبة ، فجعل يعمل على محادثته فيها . ثم تردّد على دار الأوبرا فى صحبة الفارس دى بوڤوازى فأخذ اسمه يذيع بين الناس لهذه الصلة الجديدة . وقد قال له المركزى دى لامول فى يوم من الأيام .

— حسناً ! هل علمت أنك ابن طبيعى لأحد أصدقائى المقربين وهو

سيّد ثرى من فرانش كوتيه ؟

فشاء جوليان أن يحتج على هذه الإشاعة قائلاً : إنه لا دخل له

فى ترويجهما ، لكن المركزى قاطعه بعد أن قال :

— إن الفارس دى بوڤوازى لم يرد أن يبارز ابن نجما .

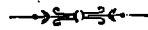
— أعلم هذا ، نعم أعلمه ، وعلىّ الآن أن أؤيد هذه الرواية التي تنفعني ؛ ولكن أودّ أن أكلفك عملا لن يستغرق من وقتك إلاّ نصف ساعة على الأكثر ، أريد أن تذهب كل مساء إلى ردهة الأوبرا في منتصف الساعة الثانية عشرة لتري الناس وهم يخرجون إنى أرى فيك جفوة أهل الريف وعليك أن تتخلص منها ، وعلىّ كلّ فمن الخير أن تعرف هذه الشخصيات الكبيرة فر بما كلفتك عملا وأرسلتك إليهم .. عليك أن تعرفهم ولو شكلا إذهب إلى مكتب تأجير الأماكن بالأوبرا ليعرفوك ؛ لقد أتيح لك الدخول .

الفصل السابع

أزمة مرض النقرس

[لم تكن مواهبى سبب رفعتى وإنما ارتفعت لأن
سببى كان مريضاً بداء المفاصل] .^٧

برتوانى



ربما عجب القارىء من هذه اللهجة الودية الصريحة التي يتحدث بها
المركز إلى جوليان ، ولقد أنسينا أن نذكر أن دى لامول معتكف
في قصره منذ ستة أسابيع لأن أزمة حادة من مرض النقرس قد حلت به .
والآنسة دى لامول وأمها في هير عند جدتها أم المركز ، والكونت
نوربير لا يرى أباه إلا لحظات قصيرة ، ولو أن العلاقة وطيدة بين الأب
وابنه لكنهما لا يجدان ما يقولانه إذا ما اجتمعا . ولم يجد المركز غير
جوليان يتردد عليه ويعنى بشئونه ، ولشد ما دهش حين رأى أن هذا
الشاب ذو رأى وذكاء وفطنة . كان جوليان يقرأ للمركز الصحف كل يوم
ولكنه بعد قليل ، استطاع أن يقرأ من تلقاء نفسه القطع التي تعجب
المركز . وكان دى لامول يكره صحيفة صدرت أخيراً حتى أقسم ألا يقرأها
أبداً . ومع ذلك كان يتحدث عنها كل يوم ، وجوليان يضحك من هذا
التناقض العجيب . وكان المركز ناقماً على حياة عصره فطلب من جوليان
أن يقرأ له تيت ليف ، وكم كان يسرّ من تلك الترجمة المرتجلة لهذا
النص اللاتينى .

حدث المركيز جوليان يوماً بلبهجه التي تنطوى على الأدب الجم والتي كثيراً ما كان ينفد صبر جوليان عند سماعها ، فقال :
— إسمح لى يا عزيزى سورل أن أقدم إليك حلة زرقاء هدية منى ،
وإذا راقك أن تقبلها ، فستكون فى نظرى إذا ما لبستها الأخ الأصغر
للكونت شون أغنى ابن صديقى الدوق العجوز .

فلم يدرك جوليان تماماً ما يرمى إليه ، على أنه لبس فى نفس المساء
هذه الحلة الزرقاء وذهب إليه فعامله المركيز معاملة الأنداد . كانت نفس
جوليان تدرك الأدب الكامل حق الإدراك ، لكنه ما كان يعرف
الدقائق التى لا تفوت شباب الأرسقراطيين . يعلم حق العلم أن المركيز
يحسن وفادته دائماً ، وقد أكرم قبل ذلك مثواه حتى جعل يقول فى كل
فرصة : يا لعبقرية هذا الرجل ! ولما نهض تلك الليلة منصرفاً ، اعتذره
المركيز من عدم استطاعته القيام مودّعاً لأنه مريض .

وشغلته هذه الفكرة الغريبة فأخذ يسائل نفسه : أهو يسخر منى ؟
وذهب إلى الأب پيرار يشاوره فى الأمر ، فوجد الكاهن لا يحظى بأدب
المركيز ، فأخذ يصفر وهو يجمبه ، ثم تحدث إليه فى أشياء أخرى . وحلّ
اليوم التالى ، فذهب إلى المركيز بملابسه السوداء حاملاً حقيبة وخطابات
للتوقيع ، فاستقبله مولاه كما كان يستقبله قبل أن يرتدى الحلة الزرقاء .
وجاء المساء فلبس هذه الحلة فكانت لهجة المركيز معه وطريقته تنطويان
على الأدب الجم كما كان بالأمن تماماً ، وقال له :
— أصبحت أرى أن الزيارات التى تنفضل على بها لا تبعث

في نفسك اللئيم ، وأنا اليوم شيخ مريض ، فينبغي أن نتحدث إلىّ بما جرى لك في حياتك الماضية دون أن تحفى عنى شيئاً مهما يكن تافهاً . قصّ علىّ كل شيء في وضوح وبطريقة مسلية ، لأنه يجب على المرء أن يتسلّى ؛ فليس في الحياة شيء حقيقي إلاّ اللهو واللذة . ليس من المستطاع أن يتاح لى كل يوم رجل ينجى من الموت في الحرب ، أو يعطينى كل يوم مليوناً من الفرنكات . ولو أنّ ريفارول كان بجوار مقعدى هنا لانتزعتنى من الألم والسأم ساعة في كل يوم . لقد خالطته كثيراً أثناء الهجرة في همبورج .

ثم قصّ المركيز على جوليان قصص ريفارول مع أهل همبورج الذين كانوا يجتمعون أربعة أربعة ليتعاونوا على فهم فكاهات ريفارول .

وهكذا أصبح المركيز دى لامول لا يعاشر في تلك الحقبة ، على الرغم منه ، إلاّ هذا الشاب الذي يعدّ نفسه للكنيسة فأراد أن يدخل عليه السرور .

وحرّك فيه نزعة الشرف حين طلب إليه ألا يقول إلا الحق . فعزم جوليان على أن يعترف له بكل شيء ما عدا أمرين : أولهما تعصبه الشديد وإعجابه

بشخص يفضّض المركيز عضباً لا حدّ له إذا ما ذكر اسمه ، أما الثانى فهو عدم إيمان جوليان وججوده ججوداً تاماً مما لا يتمشى مع الحياة الكنسية

التي يعدّ نفسه لها . وجعل يتكلم فأعجبت المركيز قصته الصغيرة مع الفارس دى بوفوازى ، وضحك حتى سالت دموعه مما حدث بين جوليان

والجوذى في مقهى شارع سانت أونورى ، ومن الشتائم القذرة التي قالها له الجوذى . كانت هذه الفترة من حياة جوليان في قصر المركيز فترة صريحة

في علاقة الفتى بمولاه . وأخذ المركيز دى لامول يهتم بهذا العجيب . كان

في بادئ الأمر يتقبل من جوليان ما يقع فيه من خطأ ، وكان في ذلك مصدر سروره ؛ ولكنه سرعان ما أصبح يهتم بإصلاح أخطائه في رفق وهودة ، وينبهه إلى ما في طرائقه وطباعه من شذوذ لا يليق بالحياة التي يحياها الآن . وكثيراً ما كان المركيز يقول في نفسه : إن الرقيقين الذين يفدون على باريس يعجبون بكل شيء ، أما هذا الشاب فيكره كل شيء ؛ في طباعهم كثير من الزيف والتصنع ، أما هو فينقصه بعض هذا ، ولكن الحق يبدونه أحق .

طالت أزمة المرض على المركيز من برد الشتاء فاستمرت شهوراً . وطالما حدث نفسه قائلاً : كثيراً ما يتعلق الإنسان بكلب ، فأى ضمير على من أن أتعلق بهذا الشاب ؟ وأى خزي يصيبني من وراء ذلك ؟ إنه لفريد من نوعه . إنى أعامله معاملة الأب لابنه ، فلعمري أى عيب فيم أعمل ؟ وإن دامت هذه النزوة كلفتني مائة ثمنها خمسمائة لويس ينالها جوليان بعد مماتي ، وأنصّ عليها في وصيتي .

رأى المركيز صرامة خلق جوليان فعهد إليه كل يوم بأمر جديد . وارتاع جوليان حين رأى أن هذا السيد الخطير يعطيه قرارات متعارضة في مسألة واحدة . وأدرك أن هذا قد يجر عليه متاعب لا حد لها ، فأخذ لا يعمل معه إلا وييده سجل كبير يدون فيه القرارات ويوقع عليه المركيز . واتخذله كاتباً يدون القرارات الخاصة بكل مسألة على انفراد في سجل خاص ، تكتب فيه أيضاً صور الخطابات المتعلقة بها .

وبدا هذا النظام أول الأمر مصدر سخرية وإملاط ، لكن المركيز

أحسن فائدته كاملة بعد شهرين من العمل به . واقترح عليه جوليان أن يتخذ له كاتباً تعلم عند صيرفي^١ ليقيد جميع حساب الدخل والمنصرف لكل الأراضي التي يشرف جوليان على إدارتها .

وأضاعت هذه الإجراءات السبيل للمركز في أموره المالية ، حتى قام بنفسه بعمليتين ماليتين ، دون أن يلجأ إلى من كان يقوم بهذه الصفات من قبل ؛ وقد تبين له أن هذا الشخص يسرقه . وقال المركز يوماً ما لوزير الشاب :
— خذ لنفسك ثلاثة آلاف من الفرنكات .

— سيدي ، قد يعاب مسلكي إن فعلت هذا ، ففضب المركز وسأله :
— ماذا تريد إذن ؟

— أن تنفضل فتكتب بخطك في السجل قراراً بإعطائي هذا المبلغ ؛
على أن الأب بيرار هو صاحب الفكرة في طريقة المحاسبة التي أسير عليها الآن . وتجهّم وجه المركز كما يفعل المركزدي مونسكاد^(١) ، وهو بصغى إلى حسابات السيد بواسون مدير أعماله ، ثم كتب لجوليان القرار .

ولما رجع إليه في المساء مرتدياً حلته الزرقاء ، لم يتحدث إليه المركز إطلاقاً في الأمور المادية ؛ وهذا حسن معاملة دائم من المركز يرضى كرامة جوليان المعذبة دائماً إرضاء تاماً ، فشعر على الرغم منه برابطة نفسية قوية تربطه بهذا الشيخ الظريف . ولم تكن حساسيته السبب في هذا كما يذهب الباريسيون ، ولكنه لم يكن وحشي الخلق ، لم يتحدث إليه إنسان منذ مات الجراح العجوز بهذه الطيبة التي يظهرها له المركز . وقد

(١) يشرف ستندال هنا إلى مسرحية طالما شاهدها وهي تمثل وكثيراً ما ذكرها مؤلفاته هي : مدرسة البرجوازيين من تأليف دي ليتفال سنة ١٧٢٨ — العرب —

لحظ أن يتحاشى جرح كبريائه بطرق لم يعهدها في صديقه الجراح ، لأنها تنطوي على الأدب الكثير . وأدرك أخيراً أن الجراح كان أشد فخراً بوسام الصليب من المركيز بوسام الحبل الأزرق . وكان أبو المركيز سيداً له مكاتته وخطره .

وفي جلسة من جلسات الصباح التي يرتدى فيها جوليان ملبسه السوداء ، سُرّ منه المركيز سروراً عظيماً واستبقاه ساعتين ، وأراد أن يمنحه بعض أوراق مالية أحضرها له المتعامل باسمه من البورصة ، وأصر المركيز على أن يقبلها جوليان ، لكنه قال له :

— أرجو يا سيدي المركيز ألاّ أبتعد عن الاحترام العميق الذي أكنه لك إذا رجوتك في أن تتفضل فتسمح لي بكلمة .
— تسكلم يا صديقي .

— ليسمح لي سيدي المركيز أن أرفض هذه الهبة . إنها لم تقدم إلى ذى الملابس السوداء ، وستفسد تماماً الطرق التي تتفضل فتغضى عنها حين تصدر من ذى الحلة الزرقاء . ثم حياّه في احترام كبير وانصرف دون أن ينظر إليه .

سُرّ المركيز كثيراً من هذا التصرف ، ثم قصه في نفس المساء على الأب پيرار :

— يجب أن أعترف أخيراً لك بشيء يا عزيزي الكاهن . أنا أعرف نشأة جوليان ، وأرجو ألا يكون ما قلته لك سراً .
ثم قال في نفسه : إن تصرفه معي هذا الصباح لا يصدر إلاّ

من شريف ، وأنا أعمل على أن يكون شريفاً .

واستطاع المركز الخروج بعد ذلك بوقت قصير ، فقال لجوليان :

— إذهب لتقضى شهرين في لندن . وسيحمل إليك البريد السريع وغيره الخطابات التي تصلني وعليها ملاحظاتي . وستكتب أنت رد كل خطاب وترسله إليّ ، على أن ترفقه بالخطاب . وقد قدرت أن التأخير لا يعدو خمسة أيام .

وكان جوليان في طريقه إلى كاليه ، فأخذ يستعرض الأعمال التي كلف أداءها في لندن فوجدتها تافهة لا تحتمل هذه الرحلة .

ولا تريد أن نعرض إلى الكراهية والاحتقار اللذين استوليا على نفس جوليان حين وطأت قدماه الأراضي الإنجليزية ، لأن القاري يعرف شغفه الكبير بيونابرت . فقد كان يرى في كل ضابط تقع عينه عليه « السير هيدسون لو » وفي كل سيد كبير لورد باثورست الذي ارتسكب أموراً شائنة في سانت هيلانه ، وكوفيء على ذلك بأن ظل وزيراً عشرة أعوام . رأى في لندن الغطرسة بأجلى مظاهرها : وصادق شاباً من الروس كرام المحند علموه ما كان ينبغي له أن يعلم ، قالوا له :

— أنت قد أعددت خير إعداد يا عزيزنا سورل ، إن وجهك ليبدو فيه الفتور ولا تظهر عليه أبداً أحاسيس عصرنا ، وهذا ما تتمناه جميعاً لأنفسنا وقال له الأمير كورازوف .

— إنك لم تفهم القرن الذي تعيش فيه : إعمل دائماً عكس ما ينتظر منك . وأقسم لك أن هذا هو المبدأ الذي يسير عليه عصرنا الحاضر .

لا تكن مجنوناً ولا متصتماً ، لأن الناس يتوقعون منك إذا أعملا جنوبية
أوزيقاً ، وعلى هذا فلن يتم تطبيق المبدأ .

نال جوليان مجداً كبيراً في صالون الدوق فيتزفولك الذي دعاه هو
والأمير كورازوف لتناول الطعام . فتأخر جوليان عن مواعده ساعة كاملة .
والطريقة التي اتبعها وهو يدخل على عشرين شخصاً ينتظرون قدومه جميعاً
لا يزال يرددها كل الشبان من موظفي السفارات في لندن ، إذ كان وجهه
عجيباً إلى أبعد الحدود .

ذهب ليرى فيليب فان الرجل الشهير والفيلسوف الوحيد الذي ظهر
في إنجلترا بعد لوك ، ذهب ليراه في السجن وقد أتم السنة السابعة في غياهبه ؛
وكان أصدقاء جوليان المدللون قد نصحواله بالألا يفعل فلم يستمع . ولما
رأى فان قال في نفسه : إن لارستقراطية في هذا البلد لا تعرف المزاح
وفضلاً عن هذا فإن فان مشرد محقر .

رآه جوليان رجلاً مديد القامة ، يتميز غيظاً من الطبقة الأرستقراطية .
فقال في نفسه وهو يغادر السجن : هذا هو الرجل المرح الوحيد الذي لقبته
في إنجلترا كلها .

قال له فان : الفكرة التي تقدم للطغاة أجل الخدمات هي فكرة
الإلهة ... ولا تريد أن نعرض لبقية آرائه لأنها من بدع الفلاسفة .
ولما عاد إلى فرنسا سأله المركيز دي لامول :

— أى فكرة سارة حملتها إلى من إنجلترا فسكت جوليان ، وعاد
المركيز يقول في قوة :

— أى فكرة سارة أو غير سارة حملت إلينا؟

فأجاب جوليان :

— أولاً : أكثر الإنجليزية يجنّ ساعة في كل يوم ، وشيطان الانتحار

الذى يعدّ إليه إنجلترا يزوره ويتردد عليه .

ثانياً : الذكاء والعبقرية يفقدان ٢٥ ٪ من قيمتهما حينما يصلان

إلى إنجلترا .

ثالثاً : ليس في العالم كله ما هو أجل ولا أعجب ولا أدق من المناظر

الطبيعية الإنجليزية .

— والآن — يقول المركيز — سأحدث أنا إليك .

أولاً : ما الذى حملك على أن تقول في حفل الرقص الذى أقامه سفير

روسيا : إن في فرنسا ثلثمائة ألف شاب في الخامسة والعشرين من عمرهم

يودون من صميم أفئدتهم أن تشتعل نار الحرب ؟ أتعقد أن قولك هذا

يرضى الملوك ؟ !

— لا يعرف الإنسان في الواقع كيف يتكلم مع كبار السياسيين فهم

يتظاهرون بأنهم يفتحون باب مناقشات جدية . وإذا اقتصر المسئول على

الآراء العامة التي ترددها الصحف قيل عنه إنه غر أحمق ، وأما إذا نصح

لنفسه بأن يقول شيئاً صحيحاً ذهلوا ولم يعرفوا كيف يجيبون ، وفي الساعة

السابعة من صباح اليوم التالي يرسلون إليه السكرتير الأول للسفارة ليقول له :

إنك قد جاوزت الحد . فضحك المركيز قائلاً :

— لا بأس . ولكنى أراهن أيها السيد البعيد النظر على أنك لم تعرف سبب ذهابك إلى إنجلترا .

— معذرة سيدى ، فقد ذهبت إليها لأتناول العشاء مرة كل أسبوع على مائدة سفير الملك الذى أعده أكثر الناس أدبا .

— ذهبت لتبحث عن هذا الوسام . لا أريد أن أحلك على أن تتخلى عن ثيابك السوداء ، ولقد اعتدت تلك اللهجة المسلية التى أتحدث بها مع الرجل ذى الثوب الأزرق . أصغ إلىّ واعمل بما أقول حتى أصدر إليك أوامر أخرى : حينما أحصل على هذا الوسام ، ستكون الابن الأصغر لصديقى الدوق دى شون ، وهذا الابن موظف فى السلك السياسى منذ ستة شهور على غير علم منه . ثم استطرد المريكيز يقول فى لهجة جادة لا تطرف فيها : لاحظ أنى لا أرغب فى أن أحلك على التخلي عما أنت فيه ، لأن هذا خطأ ونحسّ يقع فيهما ولىّ النعمة والمولى . ثم قال فى لهجة جافة : وحينما تزهد فى قضايائى أو أستغنى أنا عن خدماتك ، سأطلب لك خورية تدرّ عليك الرزق كخورية صديقتنا الكاهن بيرار ، لا أكثر من ذلك ولا أقل .

أرضى هذا الوسام كبرياء جوليان ، وأخذ يتكلم كثيراً أكثر من ذى قبل . واعتقد أن الإهانات أصبحت لا تتناوله فى سهولة ، وأخذ يزهو بما يقول ، وإن كان بعض كلامه لا يخلو مما يجانب الأدب حين يكون النقاش حاداً حامى الوطيس ، مثله فى هذا مثل الناس جميعاً .

وسبب له هذا الوسام زيارة ما كانت تخطر له على بال ، فقد أتى إليه البارون دى قالنو الذى وفد إلى باريس ليشكر أولى الأمر على البارونية ويتفاهم معهم . وكان البارون على وشك أن يعين عمدة لقرير بدلا من السيد دى رينال .

وكم ضحك جوليان فى نفسه حين أخبره البارون دى قالنو أنهم قد اكتشفوا أن السيد دى رينال يعقوبى ثأر . والحقيقة هى أن انتخابات جديدة كانت تعدّ ، وكان البارون الجديد مرشح الحكومة ، وفى أكبر مدرسة فى المقاطعة تعرف بالمغلاة ، ناصر الأحرار السيد دى رينال وحاول جوليان عبثاً معرفة بعض أخبار مدام دى رينال ، لأن البارون على ما يظهر كان لا يزال يذكر المنافسة القديمة بينهما من أجلها ، فلم يقل له شيئاً . وانتهى الحديث بينهما بأن طلب البارون من جوليان صوت أبيه فى الانتخابات التى ستجرى بعد قليل ، فوعده جوليان بأنه سيكتب إلى أبيه . ثم قال البارون :

— عليك يا سيدى الفارس أن تقدمنى إلى المركيز دى لامول .

فقال جوليان فى نفسه : يجب ذلك فى الواقع ولكن ياله من

وغد!

ثم قال للبارون :

— فى الحقيقة أنى أشغل مركزاً متواضعاً جداً فى قصر المركيز ،

لا يسمح لى بأن أقدم إليه أحداً .

ثم أخبر الماركيز بكل ما حدث ، وقص عليه في المساء غرور قائلو وكل
حركاته وأعماله منذ عام ١٨١٤ . فقال له الماركيز في جد :

— غداً تقدم إلى البارون الجديد وسأدعوه لتناول الطعام بعد غد ؛
إنه سيكون واحداً من حكام مقاطعاتنا الجدد .

فأجابه في فتور :

— إذا عين البارون حاكماً فإني أطلب بوظيفة مدير صندوق
الإحسان لوالدى .

فقال الماركيز في مرح ظاهر :

— لك ما تريد ؛ كنت أتوقع سماع محاضرة في الأخلاق ، لكنك
بدأت تدرك الأمور وتجازى الحوادث .

أخبر السيد قائلو جوليان أن رئيس مكتب « اليانصيب » قد مات ؛
فأراد جوليان أن يسند هذا المنصب إلى السيد شولان ، ذلك الشيخ
الأحمق الذي كتب طلباً إلى الماركيز يرجوه فيه إسناد هذا المنصب إليه ،
وقد عثر عليه جوليان في الغرفة التي كان يشغلها الماركيز بمنزل السيد
دى رينال . ضحك الماركيز ضحكاً شديداً وجوليان يقرأ عليه طلب شولان ،
وهو يوقع خطاباً إلى وزير المالية يطلب لشولان فيه هذا المنصب .

ولم يكف السيد دى شولان يمين حتى علم جوليان أن وفداً من
المقاطعة طلب هذا العمل للسيد « جرو » الرياضى الشهير ، الذى لا يزيد
دخله على ألف وأربعمائة فرنك في العام ، وكان يستدين سنوياً من المدير

المتوفى ستائة فرنك ليواجه بها نفقات أسرته .

ذهل جوليان ذهولا شديداً مما فعل ، لكنه قال في نفسه : ليس فيما فعلت ضير علىّ ، وسأرتكب مظالم أخرى إذا أردت أن أصل إلى ما أرمى إليه . على أن أخفيها تحت ستار عاطفي فأقول : مسكين السيد جرو ! إنه هو الذي يستحق الوسام الذي أحمله ، وعلى أن أعمل وفق أهواء الحكومة التي منحتني هذا الوسام .

الفصل الثامن

آية زينة تجلب الفخار؟

[قالت العبقريّة الظلمى : إن ماءك لا يرويني ومع ذلك فالير أعذب آبار ديار بكر] .

بليكو



عاد جوليان يوماً من أرض فيليكيه الجميلة على شاطئ السين ، تلك الأرض التي يعنى بها المركز عناية شديدة ، لأنها كانت ملكاً من قبل للرجل الشهير بونيفاس دى لامول ، فلما عاد ألقي المركيزة وابنتها قد رجعتا من هير .

أصبح جوليان الآن شاباً مولعاً بالزينة ، يتقن فن الحياة في باريس . وقد أبدى فتوراً تاماً حين رأى الأنسة دى لامول ، وتظاهر بأنه لم يبق في ذاكرته أى أثر من أسئلتها الكثيرة المرحة التي كانت توجهها إليه لتعلم تفاصيل سقوطه عن ظهر الجواد . ثم لحظت الأنسة دى لامول أنه قد طالت قامته وازداد شحوب وجهه فأصبحت هيئته وطييقته في كل ما يأتي به لا تمان عن شيء من عادات أهل الريف ؛ أما حديثه فلا يزال مصطبغاً بصبغته الريفية القديمة . . . فيه كثير من الجد ، ويواجه الواقع من الأمور وفضلاً عن هذه الصفات الجميلة فإن حديثه ليس فيه شيء من ذلة المرءوس للرئيس ، لما جبل عليه من عزة وكبرياء . ثم رأت أنه لا يزال يعلق أهمية

كبرى على كثير من الأشياء ، ولكنه كان يؤيد مايقول . فقالت لأبيها ،
وهي تداعبه في أمر وسام جوليان :

— تنقصه يا أبى الخلفة وإن كان يزينه العقل . لقد طلب منك أختي

هذا الوسام ثمانية عشر شهراً متصلة ، وهو من أسرة دى لامول ! . . .

— أجل يا بني ، ولكن جوليان يأتي بما لا يتوقع من الأمور ،

وهو ما لا يستطيعه من تتحدثين عنه من أسرة دى لامول .

وأعلن الخادم قدوم الدوق دى ريتز .

فأحست ماتيلد في الحال بملل لايقاوم ، لأنها تعرف ما يملأ صالون

أبيها من عادات مذهبة ومن يغشاه من الناس . وكانت في هيب تعرف

مقدار السأم الذي سيتولى عليها حين تعود إلى باريس ، ومع ذلك فكم

أسفت على فراقها باريس .

قالت في نفسها : ومهما يكن من أمر ، فأنا في التاسعة عشرة ! إنها

سنّ السعادة ، كما يزعم أولئك الحمقى في كتبهم ذات الجوانب المذهبة . ثم

أخذت تنظر إلى ثمانية مجلدات أو عشرة من الشعر الحديث أحضرت أثناء

رحلتها في « بروكس » ، ووضعت فوق قطعة من أثاث الصالون .

وكان من سوء حظها أنها أكثر ذكاء من السادة دى كروازينوا ،

ودى كالوسى ، ودى لوز وباقي أصدقائهم . وأخذت تتنبأ بما سيقولون

حين يلقونها ، فإن ما سيقولون لن يعدو جمال سماء البروكس والشعر

وجنوب فرنسا . . . ولحظت عيناها الجميلتان جوليان ، عيناها الغائتتان

اللتان يشع منهما الملل الموجه ، وما هو أدهى من الملل وأشدّ ، يشع منهما

يشع منهما القنوط من وجدان اللذة والسرور . فأخذت تقول في نفسها :
إنه على الأقل ليس كغيره من الشبان . ثم قالت له في صوت قوى موجز
العبارات ليس فيه شيء من صفات اللأئي ينتمين إلى الطبقة الراقية :

— يا سيد سورل ، هل ستشهد الليلة مرقص الدوق دي ريتز ؟

— إنني يا آنتي لم أنل شرف التعرف بالدوق . ونطق هذه الكلمة

بطريقة يخيل إلى السامع أنها قد جرحت فيه .

— لقد طلب من أخي أن يصحبك إلى المرقص ، وحينما نلتقي هناك

فستحدثني عن أرض فيل كيه وتمدني عنها بمعلومات ، لأنني أريد أن

أذهب إليها في الربيع . أحب أن أعرف هل يصلح القصر للسكنى ،

وهل الضواحي جميلة حقاً كما يصورونها ، لأن الشهرة في كثير من الحالات

لا تطابق الواقع ! . . .

وسمع جوليان هذا ، فلزم الصمت . فقالت بلهجة جافة :

— تعال إلى حفلة الرقص مع أخي .

فياها في احترام شديد ، ثم قال في نفسه : حتى في حفلة الرقص

ينبغي أن أدلى إلى أفراد الأسرة بمعلومات . ولم لا ؟ أأستأجر على

أنتي من رجال الأعمال ؟ ثم استمع إلى وحي نفسه التي لم تكن صافية ،

فكانت تقول : يعلم الله ما إذا كان ما أفضى به إليها لا يعوق

مشروعات أيها ، أو أخيها أو أمها ! هذا القصر كأنه بلاط أمير من الأسرة

للمالكة . يجب أن يلغى المرء نفسه تماماً ، على ألا يعطى أي إنسان سيلا

لأن يشكو .

استدعت المركيزة إبتها لتقدمها إلى بعض صديقاتها ، فنظر إليها جوليان وهي تسير ثم قال : كم أكره هذه الفتاة اللديدة القامة ! إنها تبالغ فيما تلبس ، وثوبها لا يعلق بكتفيها . . . هي أكثر شحوباً مما كانت عليه قبل رحلتها . . . يا لهذا الشعر الباهت من كثرة الشقرة ! يخيل إلى المرء أن الضوء لا يتخلله ! . . . لشد ما فطرت على كهرياء تبدو وهي تحيي الناس . . . ثم وهي تنظر إليهم ! إن حركاتها حركات ملكة ! . . . نادى الأنسة دى لامول أخاها ساعة غادر الصالون . واقترب الكونت نور بير من جوليان قائلاً له :

— أين تريد أن ألقاك يا عزيزى سورل عندما ينتصف الليل لتذهب معى إلى مرقص الدوق دى ريتز ؟ لقد شدد علىّ فى ضرورة حضورك . فقال جوليان وهو يحببها فى إكبار كثير :
— أنا أعرف لمن أنا مدين بهذه الرعاية الكبيرة .

ثم دفعه سوء مزاجه إلى التفكير فيما قاله له نور بير ، فرأى أنه ينطوى على الأدب والاهتمام به ؛ ولما استرجع ما قاله هو رأى أن إجابته عن هذه الكلمة الطيبة الرقيقة فيها شيء من الأخطاط .

ووصل إلى المرقص فى المساء ، فذهل لروعة قصر الدوق دى ريتز وخامته : فناؤه مغطى كله بنسج من الكتان قرمزى على شكل خيمة كبيرة ، علقت فى سماءها نجوم من الذهب ، فدل هذا على روعة وأناقة .
وتحوّل الفناء إلى غابة آهلة بأشجار البرتقال وأزهار الزقوم . ووضعت فيه أوان كثيرة على الأرض بعناية تخيل للناظر أن هذه الأشجار مغروسة

في أرض الفناء نفسها . أما الطريق الذي تسير فيه العربات فقد كان مفروشاً بالرمال .

ورأى هذا الشاب الريفى ذلك المنظر خارقاً للعادة ، لأنه لم يأنف مثل هذه الروعة ولم ير لها نظيراً فاضطرم خياله حتى فازقه غضبه وحزنه . وكان نور بير مرحاً كل المرح وهو قادم إلى المرقص فى صحبة جوليان الذى يبدو عليه هم وكآبة ، ولكنهما ما دخلا الفناء حتى تبدل حالهما ، فرأى نور بير أشياء صغيرة لم يعن بها العناية الكافية وسط هذه الزينة الفخمة فانتقدها ثم أخذ يقدر تكاليف كل ما يراه حتى إذا ما بلغ الرقم حداً عالياً ، رأى جوليان الغيرة تدب فى نفسه ويملك قلبه الغضب .

وصل جوليان إلى الصالون الأول الذى يدور فيه الراقصون فأعجب به كل الإعجاب وتنازعه إكبار وشىء من خجل لفرط ما تأثر بسحر هذه الزينة وذلك الزخرف . وكان الناس مزدحمين على باب الصالون الثانى ازدحاماً شديداً ، فلم يستطع أن يتقدم خطوة واحدة ، وكانت زينة هذا الصالون تمثل منظر الهمبرا بغرناطة . وطرق سمع جوليان حديث من شاب ذى شارب كان ملاصقاً له بحيث تمس كتفه صدر جوليان فسمعه وهو يقول لجاره :

— إنها ملكة المرقص ما فى ذلك شك .

فقال الجار : إن الأنسة فورمون ، التى ظلت طول الشتاء أجمل فتاة ،

ترى أنها أصبحت فى المكان الثانى ، أنظر إلى هيئتها العجيبة .

— حقاً إنها تستخدم كل وسيلة لتسحر الناس . أنظر إلى بسمتها

الساحرة حين تكون وحدها في الرقص . هذا شرف بعيد المنال .
— والآنسة دى لامول تظهر بمظهر المسيطرة على نفسها وذلك
لسرورها بانتصارها الذى تدركه تمام الإدراك . ويبدو عليها أنها تخشى
من أن يعجب بها من تتحدث إليه .

— حسناً جداً ! ذلك هو فن الإغراء .

حاول جوليان عبثاً أن يرى الفتاة الساحرة التى تحدثنا عنها ولكن
ثمانية رجال أطول منه قامه حالوا بينه وبين رؤيتها . ثم عاد
ذو الشارب يقول :

— إن فى التواضع النبيل الذى تظهر به للدلالا وفتنة .

— وهاتان العينان الكبيرتان الزرقاوان تفضان البصر قليلا حين
تعتقد أنهما ستفضيان بما فى نفسها . ليس فى بنات حواء أمهر منها؛ وأقسم
على ذلك . فقال شاب ثالث :

— إن الآنسة فورمون الجميلة لا تعد شيئاً بجانبها .

— وكان هيئتها تقول : كم أقدم إليك من لذة وسرور ، لو أنك
كنت الرجل الذى يستحقني !

— ومن ذا الذى يستطيع أن ينال ما تيلد الرائعة ؟ أمير من أمراء
البيت المالک ، جميل ، ظريف ، ممشوق القوام ، بطل فى الحرب ، لايزيد
عمره على خمسة وعشرين عاماً .

— أو الإبن الطبيعى لإمبراطور روسيا . . . على أن يتولى الحكم

إكراماً لهذا الزواج . . . أو على الأقل الكونت دى تالير بمظهره الذى ينم عن ريفى أنيق الملبس .

ثم خفت وطأة الزحام على الباب فاستطاع جوليان أن يدخل الصالون . وقال فى نفسه : يجب أن أخصمها عن قرب ما دامت تعدّ فاتنة فى نظر هذه الدمى ، لأرى مثل الجمال الأعلى فى نظر هؤلاء الشبان . وجعل يبحث عنها بعينيه فأبصرته ما تيلد . فقال فى نفسه : إن الواجب يناديني ، وقد كانت نفسه خالصة من الغضب والحزن ، بحيث لم يبق لها أثر إلا على مظهره فحسب . ودفعه حب الاستطلاع إلى أن يتقدم نحوها فى سرعة وسرور ، وزاد فرحه حين رأى ثوبها وقد كشف عن كتفيها ، وإن كان يرى أن هرولته إليها لا ترضى كرامته . وأخذ يقول فى نفسه : إن جمالها لينطوى على الشباب . وقف بينه وبينها خمسة من الشبان أو ستة عرف من بينهم أولئك الذين كانوا يتحدثون عنها بالباب . وخاطبته ما تيلد قائلة : — لقد كنت هنا ياسيدى طول الشتاء ، ألسنت توافقتنى أن هذه الحفلة خير حفلات الموسم ؟ لكنه لم يجب ، فاستطردت تقول .

— ورقصة كولان هذه بديعة حقاً ، وكم تجيد رقصها السيدات .

فتلقت الشبان ليروا الرجل السعيد الذى تلح عليه الآنسة دى لامول فى أن يجيبها لكنهم سمعوه يجيب إجابة غير مشجعة .

— لست أصلح حكماً فى هذا ياسيدتى ، لأننى أفضى حياتى

فى الكتابة . وهذا أول مرقص أعشاه فأرى الزينة البديعة الرائعة .

فارتاع ذوو الشوارب مما أجاب . وقالت ماتيلدا في لهجة تدل على إهتمامها به :

— أنت حكيم يا سيد سورل ، وإنك لترى هذه المراقص ، وتشهد الأعياد والحفلات كما يراها الفيلسوف وكما كان يراها من قبل جان چاك روسو . فهذه الحماقات تدهشك أكثر مما تعريك . فأجابها قائلاً :

— أنا أعدّ جان چاك روسو أحق حين يحكم على الطبقة الراقية ، إنه لم يستطع أن يفهمها ، فكأنه في أحكامه خادم حديث العهد بالثراء . فقالت في لهجة كلها إجلال :

— لقد كتب العقد الاجتماعي .

— على أنه يدعو إلى الجمهورية وإلى القضاء على الملكية . وكما كان هذا المحدث ثملاً بالسعادة لو تفضل دوق فغير اتجاه نزهته بعد العشاء ليرافق صديقاً من أصدقائه .

فقالت في لذة من يفتخر بعلمه ، لأنها في نشوة بما تعلم ، وكأنها عضو المحمم الذي اكتشف وجود الملك فيريرتيوس :

— آه ! نعم ، دوق لو كسمبورج في مونمورانسى حين اصطحب سيّدا يدعى كوانديه إلى ناحية باريس

ولكن نظرات جوليان ، ظلت عميقة قاسية ، فأثر فيها فتوره تأثيراً كبيراً ، وزايلتها الحماسة . وعجبت لأنها هي التي اعتادت أن تتحدث هذا الأثر نفسه في نفوس الآخرين .

وهنا أقبل المركيز دى كروازنوا مسرعاً نحو الأناسة دى لامول . وظل

واقفا لا يفصله عنها إلا ثلاث خطوات ، ولكنه لم يستطع التقدم لشدة الزحام . فنظر إليها وابتسم لأنه لا يستطيع الوصول إليها ، وكانت المركيزة دى روفراى الشابة على مقربة منه ، وهى ابنة عم الأنسة ماتيلد . وقد أمسك زوجها بذراعها ، وقد تزوجها منذ خمسة عشر يوماً . والمركيز دى روفراى شاب صغير السن ، ينبعث من عينيه حب أبله ، بعد أن تزوج زيجة لا يده له فيها ، وإنما هى من صنع الكتاب الحاسين ، زواج المصلحة ، إلا أنه وجد زوجته جميلة جداً فأحبها . وسيصبح هذا الزوج دوقاً بعد أن يموت عمه الذى بلغ من الكبر عتياً .

كان المركيز كروازينوا يبتسم لماتيلد ولا يستطيع الاقتراب منها من شدة الزحام ، وكانت هى قد سلطت عليه وعلى أصدقائه عينها الكبيرتين اللتين تجاكيان زرقة السماء وقالت فى نفسها : ما أكثر بلادة هؤلاء الشبان وما أقل أهليتهم ! هاهو ذا كروازنوا الذى يريد أن يتزوجنى ؛ إنه لظريف مؤدب ، كريم الخصال مثل دى روفراى . ولولا أن هؤلاء السادة يبعثون الملل فى النفوس لكانوا على جانب كبير من الرقة والظرف . لو تزوجنى لتبعنى إلى المرقص بدوره ، يبدو عليه الرضا وتشع من وجهه تلك الدلائل التى تدل على ضيق الأفق . ثم بعد عام من الزواج ، أنعم بعربة وحياد وثياب وقصر على بعد عشرين فرسخاً من باريس ، ولكن ناقية هذا كله بالنسبة إلى ؟ هذا الثراء يرضى حاجة امرأة حديثة العهد بالنعى ويشبع نفس سيده كالكونتس دى رداڤيل .

ودبّ إلى نفسها الملل من كثرة ما أمّلت . واقترب منها المركيز

دى كروازنوا ، وأخذ يتحدث إليها ؛ ولكنها كانت عنه في شغل بأحلامها ، كان صوت كلماته يختلط بضوضاء المرقص دون أن تعي آذانها كلمة واحدة مما يقول . وأخذت تنظر إلى جوليان في غير وعى ، بعد أن ابتعد عنها في احترام كبير فيه غضب وكبرياء . ورأت في ركن بعيد عن الجمهور الكونت ألتاميرا الذى حكم عليه بالإعدام في بلده ، والذى عرفه القارى من قبل . وكانت إحدى قرينات الكونت قد تزوجت أيام لويس الرابع عشر من أمير يدعى دى كونتى ، فحتمه هذه الرابطة من شر رجال الشرطة .

ولما رأته ماتيلدا قالت في نفسها : لا أكبر إلا رجلا يحكم عليه بالإعدام ، فهذا هو الشيء الوحيد الذى لا يشتري ولا ينفع فيه مال . آه ! هذه كلمة طيبة تلك التى قلتها الآن ! يا للخسارة ، ليتنى قلتها في مناسبة أخرى على مسمع من الناس لتجلب لى فخاراً ! كانت ماتيلدا ذات ذوق حسن في تنسيق جملة حسنة الوقع - صاعتها من قبل - في حديثها ، ولكنها كانت من ناحية أخرى شديدة الكبرياء راضية عن نفسها دائماً . وعند ما قالت هذه الكلمة حلّ محل الملل شعاع من السعادة والسرور ، فظنّ المرّكيز كروازنوا الذى لا يزال يتكلم إليها أنها تتقبل كلامه قبولاً حسناً ، فزادت ثرثرته ولم يسكت عن الحديث . على حين كانت هى لا تزال تقول في نفسها : من هذا اللعين الذى يستطيع أن يعترض على ما قلت ؟ إني أردّ على نقده بأن أقول : إن لقب بارون أو فيكونت يشتري بالمال ؛ والصليب يوهب ، فقد ناله أخى ، فما الذى

فعله ليستحق الصليب ؟ والرتبة تنال ، إذا قضى الإنسان عشرة أعوام في سكة ، أو كان وزير الحربية أحد أقاربه ، أو كان رئيساً لكتيبة من الكتائب مثل نوربير ، أو كان واسع الثروة ! . . .
على أن الشرط الأخير أصعب الشروط . إذاً فهو أقواها . هذا أمر عجيب يناقض تماماً ما نجد في الكتب . . . إن من يبحث عن الثروة عليه أن يتزوج ابنة السيد روتشلد .

حقاً إن جملي لها قيمتها ومغزاها . والحكم بالإعدام هو الشيء الوحيد الذي لا تنفع فيه الشفاعة . ثم سألت محدثها المركز :
— أتعرف الكونت ألتاميرا ؟

كان يبدو عليها أنها تخلق في آفاق بعيدة ، لأن سؤالها بعيد كل البعد عما كان يتكلم فيه المركز التعس منذ خمس دقائق . فجزحت كرامته دون أن تقصد . ولكن المركز كان شاباً ذا فطنة عرف بها بين أقرانه .
قال في نفسه : إنها غريبة الأطوار ، وهذه نقيصة فيها ، ولكنها تكفل لزوجها مركزاً اجتماعياً فريداً ! لا أدري ماذا يفعله المركز دى لامول ؛ إن علاقته وطيدة مع أحسن شخصيات الأحزاب كلها ، وهو بعد رجل لا تفنى شخصيته ولا ينسى . على أن هذه الغرابة التي تظهر في ماتيلد قد تفسر بالعبقرية . . . والعبقرية ليست سخرية إذا زانها كرم المحتد والغنى العريض ، هي فضيلة كبرى ! وماتيلد ، إذا أرادت ، كانت ذات فطنة وخلق وصلاحية ، وتلك هي الصفات التي تخلق الظرف في أتم معانيه

من العسير أن يتقن الإنسان عمل شيئين في آن واحد ، لقد أجاب
المركيز عن سؤال ماتيلد بطريقة تافهة وكأنه يلقي درساً . قال لها :

— ومن ذا الذي لا يعرف هذا البائس التاميرا ؛ ثم أخذ يقص
عليها أمر مؤامراته الفاشلة التي ينكرها العقل وتدعو إلى السخرية كما
وصفها لها نوربير . فقالت في صوت منخفض كأنها تحدث نفسها :

— في منتهى السخف ؟ ثم قالت للمركيز كأنها ترد على كلامه :

— أريد أن أراه ، فأحضره إليّ . فخرجت هذه الكلمات المركيز
جرحاً بليغاً .

كان الكونت التاميرا من المعجبين إعجاباً شديداً بتعالى الآنسة
دى لامول ، ذلك التعالى الذى قد يبلغ مبلغ القمة ، وكان يعدها
من أجل فتيات باريس . من أجل ذلك ، أسرع في الذهاب مع المركيز
وقال له :

— كم تكون رائعة لو ترقيت على عرش من العروش !

كثير من الناس يرون أن ليس في العالم ما هو أشرف من التأمير ؛
لأنهم يرون فيه تمرداً . وأى شيء أقبح من العصيان الذى يقضى
عليه بالفشل ؟

كانت نظرات ماتيلد تتم عن السخرية لحديث التاميرا مع
دى كروازينوا ، هذا الحديث الذى دلّ على الحرية وأنصتت إليه
في لذة وسرور .

وكانت تقول في نفسها : إن وجود متأمر في مرقص لتناقض جميل .

ثم نظرت إلى ألتاميرا ، فرأت شاربه الأسود ، ووجهه كأنه أسد
ربض ليستريح ، ولكنها سرعان ما أدركت أن فطنته تنحصر في حالة
واحدة : المنفعة ، الإعجاب بالمنفعة .

كان هذا الكونت الشاب لا يعنى إلا بشيء واحد هو أن يتيسح
لبلاده حكومة نيايية ، ثم لا يهمنه شيء بعد ذلك . ولم يكده ألتاميرا يرى
جنرالاً من بيرو ، حتى أسرع فترك ما تيلد أجل فتاة في المرقص ، لأن
التعس كان قد وصلت به حاله إلى حد أن يئس من أوروبا كلها وهداه
التفكير إلى أن ولايات أمريكا الجنوبية تستطيع أن تعيد إلى أوروبا
الحرية التي حققها لها ميرابو حينما تصبح هذه الولايات قوية فتية .

التفت جماعة من الشبان ذوى الشوارب حول ما تيلد التي أدركت
أن سحرها لم يؤثر في نفس الكونت ألتاميرا ، وغضبت لانصرافه عنها ،
وكانت ترى عينيه السوداوين تفيضان بالحماسة وهو يتحدث إلى الجنرال .
وكانت تنظر إلى هؤلاء الشبان الفرنسيين نظرات جد عميق تتقن فنه
الإلتقان كله وتعجز عنه غريمتها . وأخذت تسائل نفسها : من من هؤلاء
الشبان يستطيع أن يُقِيم على عمل يؤدي إلى أن يحكم عليه بالإعدام ،
مهما يكن مقتنعاً بأن الأمور في صالحه كلها ؟

وكانت نظراتها الغريبة هذه ترضى شعور أولئك الذين فطروا
على ذكاء قليل ، وإن أقلت الآخرين الذين خافوا خوفاً عظيماً
أن تصدمهم عبارة قاسية من هذه الغادة أو يعيهم جواب عن سؤال
توجهه إليهم .

واستمرت تقول في نفسها : إن كرم المحتد يتيح للانسان صفات كثيرة تسمّ النفوس لا أجدها مثلاً في جوليان ، ولكن شرف الأصل يقضى على صفات النفس التي تدفع المرء إلى أعمال تؤدى إلى أن يحكم عليه بالموت .

وفي هذه اللحظة ، كان يتحدث على مقربة منها شخص وهو يقول : الكونت التاميرا هو الابن الثاني لأمير سان نزار وبيمنتل ، وقد أراد أحد أفراد أسرة بيمنتل أن ينجي كونرادان من الموت حيث شنق عام ١٢٦٨ . وهذه أسرة من أشرف أسر نابولي .

فقلت ما تيلد في نفسها : هذا برهان يؤيد نظريتي حين أقول : إن المحتد الكريم ينزع من النفوس قوة الخلق ، التي لولاها ما استطاع الإنسان أن يقدم على ما يؤدى إلى الحكم عليه بالموت ! لقد كتب على الليلة إفلاس في التفكير ، وما أنا إلا امرأة كغيري من النساء ، إذاً فلأرقص . وأجابت المريكز إلى طلبه بعد أن ظلّ يلحّ عليها ساعة في أن تراقصه . وأرادت أن تشغل نفسها عما أصابها من فشل في الفلسفة ، فعملت على أن تكون فاتنة مغرية تلعب بالقلوب ، ولشدّ ماسرّ دى كروازينوا سحرها ودلالها !

غير أن الرقص والرغبة في أن تملك قلب رجل من خير رجال البلاط لم يرفها عنها . لقد نالت نجاحاً منقطع النظير ، فكانت ملكة المرقص ؛ وأدركت هذا كل الإدراك ، لكنّها لم تأبه له .

ومحدثت إلى نفسها قائلة حين عاد بها المركيز إلى مكانها بعد أن رقصا ساعة : أى حياة تافهة سألهاها مع شخص مثل كروازينوا .. واستطردت تقول فى حزن : أين السرور الذى ألقاه ، بعد أن غبت عن باريس ستة شهور ، لم أجده فى هذا المرقص الذى تتشبهه كل امرأة فى باريس ؟ وإن كنت أسمع فيه ثناء كثيراً من طبقة راقية لا يصور لى الخيال خيراً منها . . . مرقص ليس فيه من الطبقة البرجوازية إلا بعض أعضاء المجلس الأعلى ، وربما كان فيه واحد أو اثنان مثل جوليان . ثم ازداد حزنها فقالت : ومع ذلك فأى شىء ضنّ به القدر علىّ : أنا أتمتع بالجاه والثراء والشباب ! واأسفاه ! لقد أعطانى كل شىء ثم حرمنى من السعادة .

وأقوى صفاتى هى تلك التى تحذوا إلىّ عنها الليلة ، ويخيل إلىّ أنّى على جانب كبير من الذكاء لأنهم يخافونى جميعاً . وإذا واتهم الشجاعة فطرقوا موضوعاً جديداً ، فإن حديثهم لا يدوم أكثر من خمس دقائق تضيق بعدها نفوسهم ، وكانهم قد وصلوا إلى اكتشاف عظيم فى أمر ظلت أحدث إليهم فيه ساعة كاملة : أنا جميلة ، وهذه ميزة أخرى ودت مدام دى ستايل أن تضجى بكل شىء فى سبيلها ، ومع ذلك كله يكاد يقتلنى السأم وهل هناك ما يحملنى على الاعتقاد بأننى حين أغير اسمى باسم دى كروازينوا فإنى أشعر بملل أقل مما أشعر به الآن ؟ .

وودت لو أنها بكت ثم قالت : واسكن يا إلهى ! ليس هو بالرجل

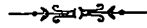
الكامل؟ إنه محفة من محف ربية قرنتنا الحاضر؛ لا يقع بصر
المرء عليه إلا رأى فيه شيئاً ينم عن ظرف وعن ذكاء كذلك، وهو
شجاع

ثم زايلها الحزن واستولى عليها الغضب وقالت: ولكن سورل هذا
شاب عجيب، لقد قلت له إنى أريد أن أتحدث إليه، ولكنه لا يسمح
بالحضور إلى مرة ثانية!

الفصل التاسع

المرقص

[يا لروعة الثياب وبهجتها ولضياء الشموع وشذى
العطور ، ورائحة الأذرع الجميلة ، والأكتاف الجذابة
وباقات الأزهار ، وموسيقى روسيني وصورسيري !
أنا لا أسيطر على نفسي حين أرى كل هذا ! .]
رحلات أوزيري



قالت المركيزة دى لامول لابنتها : إني أراك غضبي ، وهذا
ما لا يستحسن في مرقص ، وقد أعذر من أنذر . فأجابتها ماتيلد
في ازدراء :

— إني لا أشعر إلا بصداع ، لأن الجو هنا شديد الحرارة . وفي هذه
اللحظة شعر البارون الشيخ دى تولى بوعكة سقط على إثرها ، وكأنه إنما
فعل هذا ليؤيد كلام الأنسة دى لامول ، فاضطر بعض الحاضرين إلى
حملة خارج المرقص . وقد قيل إنه أصيب بالسكتة فأحدث هذا في نفوس
الحاضرين أنراً سيئاً .

أما ماتيلد فلم تعبأ بما جرى ، لأنها أخذت على نفسها من قبل
ألا تعبأ بالشيوخ ولا بالشخصيات الكبيرة إذا ما نزلت بهم نازلة حتى
تعفى نفسها من العطف والرثاء . ثم أخذت ترقص لتفرّج من الحديث
عن السكتة القلبية التي لم تكن سكتة ، لأن البارون ظهر بين الناس
بعد يومين

وفرغت من الرقص فقالت : ولكن السيد سورل لم يأت بعد .
فبحثت عنه بعينها ، حتى عثرت عليه في صالون آخر . ولشد ما دهشت
حين رأته مظهره لم يعد يدل على الفتور الذي يوحى بأنه ثابت الجنان
لا يؤثر فيه شيء وأن ذلك طبع فيه ، لم تعد تبدو عليه الصبغة الإنجليزية .
فقالت : إنه يتحدث مع الكونت ألاميرا الذي حكم عليه بالموت !
وعيناه يبدو فيهما شعاع غريب ، كأنه أمير متنكر ؛ وفي نظراته كبر
أكثر من قبل .

اقترب جوليان من مكان ماتيلد ، وهو لا يزال يتحدث إلى الكونت
فأخذت تنظر إليه في ثبات محاولة أن تتبين في وجهه تلك الصفات الرفيعة
التي تؤهل الرجل لأن يحكم عليه بالإعدام .
وسر جوليان بها وهو يقول للكونت :

— نعم ، لقد كان ماتون رجلاً ! فقالت في نفسها :

— أيصبح مثل دانتون في يوم من الأيام ! ؟ إن وجهه يدل
على النبيل ، أما دانتون فقد كان قبيحاً جداً ، . . . وكان وجهه وجه جزار
على ما أعتقد . وكان جوليان لا يزال على مقربة منها ، فلم تتردد في أن
تناديه ، وألقت عليه سؤالاً تعرف تماماً أنه لا يجدر بفتاة أن تسأله ؛ ولكن
كبرها دفعها إلى أن تقول :

— ألم يكن دانتون جزاراً ؟

فقال لها جوليان في لهجة ازدراء لم يحاول أن يخفي ما فيها ، ونظراته
تنم عن قوة وحيوية ، بقيتا من أثر حديثه مع الكونت ، قال لها :

- نعم ، يعدّه بعض الناس كذلك ، ولكنه كان محامياً في ميرى سيرسين ، وهذا ما لا يرضى أرباب الحسب والنسب مع الأسف الشديد ، ثم استطرد في لهجة شرسة : ومعنى هذا يا آنستى أنه بدأ حياته كما بدأها كثير من أعضاء المجلس الأعلى الذين أراهم هنا الليلة ، ومن الحق أن أقرر أن دانتون كان منقصة في نظر الجمال ، لأنه كان دميماً إلى أبعد حد .

قال عباراته الأخيرة في سرعة وبلهجة غير عادية ليس فيها أدب كثير ، وسكت لحظة ، وقد أحنى قليلاً من قامته اللديدة بما يدل على تواضع ربما لا يخلو من كبر . فكان كأنه يقول لها : إننى أتقاضى منكم مالا لأجيب عن أسئلتك ، وأنا أعيش من مال آخذته منكم . ولم يشأ أن يرفع عينيه لينظر إليها . أما هي فكانت عيناها الجميلتان لا تفتآن تنظران إليه حتى كأنها جارية من جواريه . فلما رأى الصمت قد ساد وطال نظر إليها كما ينظر خادم إلى مولى ينتظر منه الأوامر . والتفت عيناها بعينها اللتين كانتا لا تزالان تنظران إليه ، فلم يعبا بها وابتعد عنها في سرعة لم تخف عليها .

ولما أفاقت من أحلامها أخذت تقول : هو جميل ، ومع ذلك يثنى على القبح هذا الثناء المستطاب ! إنه لا يخالف ضميره أبداً على عكس كايوس وكروازينوا . ويشبه والدى بعض الشبه حين يحاكي ناپليون في المرقص محاكاة بديعة . وكانت ما تيلد قد نسيت تماماً حديثها عن دانتون فأخذت تقول : أنا في الواقع ملول هذه الليلة . وأمست ذراع

أخيها واضطرتة على كره أن يسير معها في المرقص قليلا ، مبتغية من وراء ذلك أن تنصت إلى حديث جوليان مع هذا المحكوم عليه بالإعدام .
كان الزحام شديداً ، لكنها استطاعت أن تقترب منهما حين كان التاميرا يمد يده ليتناول بعض الثلجات من فوق صينية ، وكان بينها وبينهما خطوتان لا تزيد ، والكونت يتحدث إلى جوليان ملتفتاً إليه التفاتة غير كاملة ، فرأى ذراعاً في كم مزركش تمتد لتنال قطعة من الثلجات إلى جوار القطعة التي أخذها . فأثار التطريز انتباهه ، واستدار ليرى صاحبة هذا الذراع . وفي نفس اللحظة بدت في عينيهِ الجيلتين اللتين تمان عن السداجة ، علامات الاحتقار ، وقال بصوت خفيض يخاطب جوليان :

— انظر إلى هذا الرجل ، إنه أمير دي أراسيلي ، سفير وقد

طلب هذا الصباح من السيد دي نرفال وزير الخارجية تسليمي إلى حكومتى . إنه هناك يلعب الورق . أما السيد دي نرفال فلا يمنع في تسليمي لأنه كان من بيننا اثنان أو ثلاثة من المتأمرين هنا عام ١٨١٦ . وإذا أسلمت إلى مليتكى . فسأشوق بعد أربع وعشرين ساعة . وسيكون من يقبض على واحدٍ من هؤلاء السادة ذوى الشوارب الجميلة . فصاح جوليان صيحة تكاد تكون مسموعة :

— يا لهم من أنذال !

ولم يفت ما تيك من حديثهما حرف واحد فذهب عنها السأم .
وقال الكونت :

— إنهم ليسوا أنذالا كما تتصور . لقد حدثتكَ عن نفسى لترانى

في صورة واضحة حية . أنظر إلى الأمير دي أراسيلي ، إنه ينظر كل خمس دقائق إلى وسامه الذهبي ؛ وهو شديد الإعجاب بالزخرف الثافه الذي يزين صدره . هذا المسكين ليس في الحقيقة إلا غلطة تاريخية لأن الوسام الذي يفاخر به كان يشرف حامله منذ مائة عام ، لقد قدم عليه العهد وأصبح لا يعتز به أحد إلا أمثال أراسيلي . وهو لم يتردد في أن يشق مدينة بأمرها ليحصل على وسامه هذا . فسأله جوليان في قلق :

— أحصل عليه بهذا الثمن ؟ فأجابه ألتاميرا في فتور :

— ليس هذا ما فعله بالضبط ، ولكنه ربما ألقى بثلاثين من أرباء بلده في النهر بحجة أنهم من الأحرار .

— ياله من شيطان رجيم !

كانت الأنسة دي لامول على مقربة كبيرة منه ، وقد أحتت رأسها للاهتمامها الشديد بما يقول ، حتى أن شعرها الجميل كان يلمس كتفه تقريباً . وقال له ألتاميرا :

— أنت حديث السن ! وقد أخبرتك بأن لي أختاً متزوجة في بروفانس ؛ لا تزال جميلة رقيقة ظريفة ؛ وقل : هي أم صالحة ، تقوم بواجباتها على خير وجه ، تقية ولكنها غير متعبدة .

عندئذ تساءلت الأنسة دي لامول : ماذا يريد أن يقول ؟ فاستطرد ألتاميرا :

— وهي سعيدة بحياتها ، كانت سعيدة عام ١٨١٥ . وكنت في ذلك

الوقت أختفى في أرضها القريبة من أنتيب ؛ ولما بلغها خبر إعدام المرشال في أخذت ترقص !

فحزن جوليان لما سمع وقال :

— أيمكن أن تفعل هذا ؟

— هذه روح الجماعة ، لم نعد نرى في القرن التاسع عشر عواطف

أكيدة متينة : وهذا هو السرّ في أن الناس يستولى عليهم الملل في فرنسا...
الناس يرتكبون الكبائر ولكن في غير قسوة .

— يا للخسارة ! ولكن إذا ارتكب الإنسان جرائم ، كان عليه

أن يرتكبها في لذة وسرور : وهذا هو الجانب الحسن في ارتكابها ،
أو أنهم لا يستطيعون تقليل جرائمهم إلا بهذا السبب نفسه .

أنسيت الآنسة دى لامول نفسها ومكاتها ، ووقفت بين التاميرا
وجوليان . وأخوها لا يزال يمد لها ذراعه ، وقد تعود أن يطيعها ، غير أنه
كان ينظر في القاعة ، ولكي يسوغ انصرافه عنها ، تظاهر بأن الزحام
الشديد حال بينه وبين أن يتقدم . كان التاميرا يقول :

— إنك على حق . . . الناس يقدمون على ما يفعلون فيرتكبون

الجرائم دون لذة ودون أن يتذكروا ما يعملون . أستطيع أن أريك
في هذا المرقص عشرة رجال ، كان يجب أن يحكم عليهم بالإعدام لأنهم
مجرمون سفاكون ، ولكنهم نسوا ما فعلوا ، ونسى الناس كذلك
كل ما اقترفوه .

كثير من الناس يتأثر كثيراً حين تكسر رجل كلب من كلابه

وعند ما نرى الزهر ينثر فوق قبورهم في بيرل شزّ نعتقد — أو هم يحملوننا على أن نعتقد — أن هؤلاء الموتى كانت لهم كل صفات الفرسان والشجعان ، وأن والد جده كان يأتي أعمالاً عجيبة في أيام هنرى الرابع . وإذا لم أشفق على الرغم من محاولات أراسيلى ، وبقيت لى ثروتى فى باريس ، فأى سادعوك إلى تناول الطعام مع ثمانية أو عشرة من هؤلاء المجرمين المبحلين الذين نسوا آثامهم .

ستكون أنت وأنا وحدنا الذين لم يُلوّثا بالدماء بين هذه الجماعة ، أما أنا فساكون محترماً ومكروهاً ؛ لأنهم يعدوننى شيطاناً سفاكاً ويعقوبياً نائراً ، وأما أنت فستلقى منهم الاحتقار وحده ؛ لأنك من صميم الشعب ، وقد حشرت فى زمرة الطبقة الراقية . فقالت الآنسة دى لامول :
— أنت تقول الحق الذى لا مربية فيه .

فذهل التاميرا ونظر إليها ، ولم يشأ جوليان أن ينظر إليها تعالياً وعظمة . واستمر الكونت يقول :

— لاحظ أن الثورة التى كنت أقودها لم تنجح لسبب واحد ، هو أنى لم أشأ أن أقتل ثلاثة رجال ولم أرد أن أوزع على أنصارى ثمانية ملايين كانت فى خزانة مفتاحها معى . وإن ملىكى الذى يود اليوم من كل نفسه أن يقتلنى — وكان قبل الثورة يخاطبنى كصديق — ما كان يبخل على بأعظم وسام فى مملكته لو أتى قتل هؤلاء الثلاثة ووزعت المال ، لأنى لو كنت فعلت هذا لأصبت نصف النجاح ، ولأصبح لبلدى دستور مهم يمكن من أمره فهو دستور على كل حال . . . العالم ينسج على هذا المنوال ،

وهو بمثابة لعبة الشطرنج . فقال جوليان والاهب يشع من عينيه :

— لم تكن تعرف اللعبة من قبل ، أما الآن . . .

— أريد أن تقول إنى سأقطع بعض الرؤوس ، ولا أكون

جبروندياً كما أردت أن تفهمنى من بضعة أيام ؟ . . . ثم استطرد
في لهجة حزينة :

— سأطلعك على رأبي حين تقتل رجلا في مبارزة ، وقتل الرجل
في المبارزة خير ألف مرة من قتله بيد الجلابد .

— يخيل إلى أن الغاية تبرر الوسيلة ! لو كان بيدي شيء من السلطان ،

لقتلت ثلاثة رجال لأبجى أربعة ، ولكنى لست شيئاً مذكوراً .

وكانت عيناه لا تزالان تشعان بما يكنه ضميره من احتقار لهذه الأحكام

التافهة التي يصدرها الناس ، والآنسة دى لامول على مقربة كبيرة منه

فالتقى بصره ببصرها ، وفي نظراته ازدراء شديد تزايد لما التقت عيونهما

فحل محل ما كان ينبغي أن يكون من ظرف وأدب . .

فعضبت أشد الغضب ، وانضرفت حزينة تجر أخاها من ورائها ولم

يعد في مقدورها بعد ذلك أن تنسى جوليان .

قالت في نفسها : يجب أن أشرب كثيراً من الپونش ويجب أن أرقص

كثيراً . على أن أتسلح بخير الوسائل لأحدث في النفوس أعظم الآثار

نأى ثمن كان ، حسناً ، ها هو ذا الكونت فرناك المشهور بالقحة ، ودعاها

للرقص فقبلت قائلة في نفسها : سيرى أيهما أكثر قحة من صاحبه ، . . .

فأحمله على الكلام لأستطيع أن أسخر منه سخرية شديدة ثم دفعها

الكلام إلى أن تنسى الرقص ، فهي توجه إلى النكوت عبارات قاسية اضطرب لها ولم يجد مايجيب به ما تيلد إلا عبارات ظريفة ، وأعيت الأفكار فاستاء وغضب . وكانت هي قاسية كل القسوة ؛ لأنها غاضبة فخرت صداقته . وبقيت ترقص حتى الصباح . ثم غادرت المرقص وقد أرهقها التعب وزكبت العربة مستعينة بالبقية الباقية لها من القوة وأطلقت العنان للهم والتعاسة ؛ وذلك لأن جوليان احتقرها ولكنها لم تستطع أن تزدرية . كان جوليان في أوج سعادته ، لقد أعجب بالموسيقى والأزهار والنساء الفاتنات ، التي سيطرت على الحفل ؛ على أن مصدر سعادته الحقيقية إنما كان يزينه له خياله من مكانة كبيرة لنفسه ومن حرية للناس جميعاً .
قال للكونت :

— يا له من مرقص بديع ! فأجابه ألتاميرا :

— ولكن تنقصه الفكرة .

ونمّ وجه ألتاميرا عن احتقار شديد يفر من الأدب ، على الناس ألا يظهروه فقال له جوليان .

— إنك تمثلها يا سيدي الكونت . ثم أليست الفكرة تنطوي

على شيء من التأسر ؟

— لقد دعيت إلى المرقص ، وكان لاسمى الفضل في دعوتي . ولكن

الناس لا يحبون الأفكار في صالوناتكم . فالفكرة التي تقال في صالون

يجب ألا تزيد عن الرأي الذي تحمله مقطوعة شعرية في رواية غنائية :

عندئذ يتقبلها الناس أحسن قبول . أما من اعتاد التفكير ، وتحمل قوله

قوة ورأياً جديداً فإنهم يعدونه سفيهاً لا حياء فيه . ألم يصف أحد قضائكم كورييه بهذا الوصف ؟ ولقد حكتم عليه بالسجن كما حكتم على بيرانجييه . وإن كل ما يصدر هنا عن فكرة أو فطنة وذكاء أو يعد شيئاً مذكوراً فإن الجمعية تدفع صاحبه إلى رجال الشرطة ليتولوا تأديبه ، وتطعن الطبقة الراقية إلى هذا الإجراء ذلك لأن مجتمعكم دبب الشيخوخة فيه ، فهو يضع الأدب في المكان الأول ... وأسمى الصفات عندكم هي الشجاعة الحربية ، لذلك تتمتعون بكثير من أمثال مورا وليس فيكم مثل واشنطن . إنني لا أرى في فرنسا إلا الزهو والغرور ، فالرجل الذي يتحدث حديث الأذكياء أو يدلى بمجديد سرعان ما يعثر لسانه فينطق بما لا يحسن قوله ، وهنالك تكون الطامة الكبرى لأن صاحب المنزل يؤمن بأنه قد جرح كرامته . وصل الكونت إلى هذا الحد من حديثه عند ما وقفت عربته أمام قصر المركيز دي لامول . ولقد أحبه جوليان حباً شديداً . وأثنى الكونت عليه كذلك الثناء الجميل ، أثنى عليه من كل قلبه حين قال له : لا أرى فيك طيش الفرنسيين ! إذ كردياً مبدأ المنفعة . وكان جوليان قد شهد أمس الأول تمثيل رواية مارينو فالبيرو من وضع السيد كازيمير ديلافني .

ثم أخذ هذا الشاب الشعبي الناثر يقول : أليس إسرائيل برتوكيو أقوى خلقاً من أهل البندقية جميعاً ؟ ومع ذلك فإنهم عريقون في الأرستقراطية . إذ يرجع عهدهم بها إلى عام ٧٠٠ أي قبل شارلمان بقرن كامل ، على حين أن كل أولئك الذين كانوا في مرقص دي ريتز هذه

الليلة لا عهد لأسرهم بالأرستقراطية إلا منذ القرن الثالث عشر ، وذلك أيضاً مع التساهل . وأشرف البندقية عريقو المتمد ، لكن إسرائيل يرتوكيو خيرهم جميعاً .

إن مؤامرة واحدة كفيلة بالقضاء على هذه الألقاب التي تملبها نزوات المجتمع . إذ أن كل إنسان ينال مرة واحدة اللقب الذي تؤهله له طريقته في استقبال الموت . وفي هذه الحالة تفقد النفس الكثير من سيطرتها ... لو كان دانتون يعيش في هذا العصر ، عصر أمثال فالنودى رينال ، فماذا كان يصبح أمره ؟ لو كان بيننا ، ما وصل إلى منصب وكيل النائب .. ماذا أقول ؟ لو أنه لا يزال حياً لباع نفسه للجمعية ولأصبح وزيراً ، لأن دانتون العظيم كان قد سرق من قبل . ولقد باع ميرابو نفسه كذلك وسرق ناپليون الملايين من إيطاليا ، ولولا هذا الحال الفقر بينه وبين انتصاراته العظيمة ، وكان مثله مثل بيكجرو . أما لافاييت فهو الشخص الوحيد الذى لم يسرق . ولكن هل ينبغي للإنسان أن يسرق ؟ أمن حق المرء أن يبيع نفسه ؟ وحله هذا السؤال على الأيتامى فى التفكير ، ففضى بقية ليلته يقرأ تاريخ الثورة الفرنسية .

وجلس يكتب خطابات فى المكتبة فى اليوم التالى ، وهو لا يفكر إلا فى حديث الكونت ألتاميرا .

ثم أفاق من حلم طويل قائلاً فى نفسه : الواقع أن هؤلاء الأسبانيين الأحرار لو أنهم ارتكبوا الجرائم وعرضوا الناس للخطر ، ما قضى عليهم

بهذه السهولة . كانوا أطفالاً ثرثارين متكبرين . . . ثم صاح بغتة كمن يستيقظ مرتجفاً : وإن مثلي كمثلهم تماماً !

ثم واصل حديثه : ماذا فعلته من جليل الأعمال حتى أعرض لنقد هؤلاء البائسين الذين لم يكادوا يولدون حتى ملكتهم الجراءة وأقدموا على العمل ؟ إننى كمن يقول وهو يغادر مائدة الطعام : لن أتناول عشاءى فى الغد ؟ ولن يحول هذا بينى وبين القوة والنشاط الذين أشعر بهما اليوم . ومن ذا الذى يعرف ما يعتور الإنسان من شعور وهو مقدم على عمل جليل إلا أنه لا يزال فى منتصف الطريق ؟ . . .

ودخلت الآنسة دى لامول عليه المكتبة بغتة ، فقطعت سلسلة أفكاره الجليلة . فقد كان تحت نوبة من الإعجاب بدانتون وميرابو وكارنو الذين عرفوا كيف يدفعون عن أنفسهم الهزيمة ، فوق نظره على ما تليد ولكنه لم يفكر فيها ، ولم يحيتها ، بل لم يكدها . لكن عينيه الواسعتين اللتين كانتا تحمقان ما لبثتا أن رأتهما فقترت نظراته . ورأت الآنسة دى لامول هذا التغير فأصابها حسرة وكمد .

طلبت منه مجلداً من كتاب تاريخ فرنسا من تأليف فيلى ، وهذا الكتاب فى أعلى رف من الرفوف ، فاضطر إلى إحضار أكبر السلمين ، ووضعها وأحضر لها الكتاب وقدمه دون أن يفكر فيها لأنه لا يزال مشغول البال فاصطدم مرفقه بمرآة من مرايا المكتبة وهو يحمل السلم ليعيده إلى مكانه فسقطت المرآة وأحدث كسرها ضوضاء أيقظته من الأحلام واسترجعته من الأفكار ، فسارع بأن يعتذر لها ؛ أراد أن يكون

مؤدباً فكان معها مؤدباً لا أكثر ولا أقل ، وأدركت ما تيلد في وضوح أن حضورها سبب له اضطراباً ؛ وودت لو عرفت ما كان يفكر فيه قبل أن تجيء ، ثم ودت لو أنه تحدث إليها . نظرت إليه طويلاً ثم غادرت المكتبة في خطوات ثقيلة . وأخذ هذا ينظر إليها وهي تسير . وأعجب بهذا الاختلاف الشديد بين ثيابها البسيطة التي ترتديها اليوم وبين زينة ليلة أمس وأناقة ثيابها في المرقص . وكان الفرق بين الوجهين كبيراً كذلك .. هذه الفتاة كانت هناك بالأمس مملوءة كبراً وغروراً ، ولكن نظراتها الآن تتم عن الضراعة . وأخذ يقول : حقاً يظهر هذا الثوب الأسود جمال قوامها ، ويصوره أبداع صورة وإن لها سمت الملوكات ؛ ولكن لم تلبس ثياب الحداد ؟ إني لو سألت أحداً عن سبب هذا الحداد ، لارتكبت خطأ . وكان في هذه اللحظة قد زابنته الحماصة فقال ! يجب أن أقرأ الخطابات التي كتبتها هذا الصباح ، لأنه لا يعلم إلا الله وحده عدد الكلمات التي تركتها وما أثبتت فيها من بلاهة وحمق . وجعل يقرأ الخطاب الأول ، محاولاً حصر انتباهه فسمع على مقربة منه حفيف ثوب من الحرير ؛ التفت إليه في سرعة كبيرة فأنى الأنسة دى لامول على بعد خطوتين من منضدته وهي ضاحكة السن ، لكنه حنق عليها لهذه المقاطعة الثانية أما هي فقد أدركت أنه لا يعبأ بها ، وكانت ترمي من وراء ضحكتها إلى أن تخفي الاضطراب وقد أفلحت ثم قالت له :

— لا ريب أنك تفكر في أمر مفيد يا سيد سورل . أتفكر في التأمير ؟ قل لي فيما تفكر فإني أرغب في ذلك رغبة شديدة ؛ سأكون

كثوماً للسر ، وأقسم على ذلك ! وذهلت حين سمعت نفسها تنطق
بهذه العبارة ، ترى ماذا دهاها ؟ أترجو مرءوساً لها ؟ وزاد اضطرابها فقالت
في لهجة لا تخلو من الخفة :

ما الذى غيرك هكذا ، فجعل منك شخصاً ملهماً ، بعد أن كنت قاتر
الطبع ؟ .. أصبحت وكأنك ميكيل آنج .

كان فى هذا السؤال حيوية ، وكان داخلاً فى صميم حياة جوليان
الخاصة ، فجرحه جرحاً بليغاً حتى ثارت ثائرتة ، وقال لها بغتة بلهجة ازدادت
شدتها كلما أمعن فى الحديث :

— هل أصاب دانتون حين سرق الأموال ؟ هل كان على ثوران
بييمونت أو أسبانيا أن يبلطخوا الناس بالجرائم ؟ أمن العدل أن يعطى
أناس لا أثر لهم فى شيء ، مناصب الجيش كلها وكل الأوسمة ! وهؤلاء الذين
حملوا الأوسمة ، ألم يكونوا خائفين من عودة الملكية ؟ أكان يجب
أن تسلب كنوز توران ؟ ثم اقترب منها والشر باد على وجهه وقال لها :
وأخيراً يا آنسى ، أو تعتقدين أنه يجب على من يريد القضاء على الجهل
والإجرام فى الأرض ، أن يكون كالعاصفة تصيب بالأذى كيفما اتفق ؟
فارتاعت ولم تقو على نظراته وتقهقرت خطوتين . ثم نظرت إليه
لحظة ، ثم خجلت من خوفها فغادرت المكتبة .

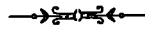
الفصل العاشر

الملكة مرغريت

[أيها الحب ! أية حماقة تتدخل فيها ولا تفعلنا

بالسرور ؟]

خطاب راهبة برتغالية



أعاد جوليان قراءة خطاباته . ودق جرس العشاء ، فقال في نفسه :
لشد ما كنت شيئاً يدعو إلى السخرية في نظر هذه الدمية الباريسية ! وكم
كنت أحمق حين أفضيت إليها بحقيقة ما كنت أفكر فيه ! لكنه ربما
لم يكن هذا جنوناً كبيراً ؛ فالصدق في هذه الحالة كان واجباً محتوماً .
ولكن ما بالها تسألني عما يخصني أنا وحدي ؟ ! لقد كان سؤالها فضولاً
وتطفلاً وقد خالفت العرف ؛ لأن آرائي في دانتون ليست داخلة في خدمتي
لأيها التي أخذ عليها أجراً .

ودخل غرفة الطعام فانصرف عن أفكاره وسكت عنه الغضب حين
رآها في ثياب الحداد ، لكنه زاد عجبته لما تبين أن بقية أفراد الأسرة
لا يرتدون الملابس السوداء .

وفرغ من الطعام فرأى نفسه قد فرغت من الحماسة التي لازمته طول
يومه ، وكان عضو المجمع الذي يعرف اللاتينية يتناول الطعام معهم ، فقال
جوليان في نفسه : هذا هو الرجل الذي لن يسخر مني ، كما أعتقد ، إذا سألته
عن أمر خداد الأنسة دي لأمول .

وكانت ما تيلد تنظر إليه نظرات عجيبة ، فتحدث إلى نفسه قائلاً :
ذلك هو دلال الباريسيات الذى حدثتني عنه مدام دى رينال . لم أكن
ظريفاً معها هذا الصباح ، ولم أجبها إلى رغبتها التى سيطرت عليها فى أن
تتحدث إلى . ومع هذا كله فأنا أزداد فى نظرها إكباراً . هذا من عمل
الشیطان ، لأنها ولا شك ستنتقم فيما بعد لكبريائها المجروحة . . . لقد
أثرتها وأخرجتها . وما أعظم الفرق بينها وبين من فقدت ! كم كانت لطيفة
بطبعها ! وكم كانت ساذجة ! كنت أدرك أفكارها قبل أن تفضى بها
إلى ، وكنت أرى هذه الأفكار ساعة تولد فى رأسها الجميل . ولم يكن لى
من عدو فى قلبها إلا خوفها على أطفالها من الموت ؟ وكان هذا شعوراً
طبيعياً معقولاً ، أستسيغه وإن كان يؤلمنى . كنت إذ ذاك أحمق ؛ لأن
الآراء التى شغلت نفسى وتفكيرى الدائم فى باريس ، حالت بينى وبين
أن أتمتع بهذه السيدة الجميلة .

ما أبعد الفرق بين الحالين ! ماذا أجد هنا ؟ أجد كبرياء وتعالياً
وكشفاً عن عزة النفس بكل ضروبها وألوانها ، لا أكثر من ذلك
ولا أقل . ولما غادروا مائدة الطعام ، قال فى نفسه : على ألا أترك عضو
المجمع يشغل فى الحديث مع الآخرين . واقترب منه وهو فى طريقه إلى
الحديقة ، واتخذ له مظهراً يدل على الرقة والخضوع ، وشاطره غضبه لنجاح
تمثيلية هرنانى ، وقال له :

... ليتنا كنا نعيش زمن الأوامر الملكية ! . . . فصاح عضو المجمع
مشيراً إشارة تمثيلية ثم قال :

— إذاً لما جرؤ على كتابة ما كتب .

ثم رأى جوليان زهرة فتلا بعض عبارات من جيورجيك لفرجيل ، وقال إن أشعار السكاهن دليل خيرا للأشعار كلها . وأقصد أن أقول : إنه توسل بكل الوسائل ليتملقه حتى قال في لهجة عادية ليس فيها أثر من الاهتمام :

— ينحيل إلى أن الأنسة دى لامول قد ورثت عما من أعمامها تلبس الحداد عليه اليوم . فتوقف عضو الجمع عن المسير فجأة وقال :

— ماذا؟ أنت لا تعرف إذاً جنونها ! إننى فى الواقع أعجب من سماح أمها لها بمثل هذه الأشياء ؛ ولكنى لا أخفى عنك أن قوة الخلق ليست الصفة التى تسيطر على هذا القصر . والأنسة دى لامول هى التى تزين وحدها بهذه الصفة ، لذلك فهى تسيطر عليهم جميعاً . نحن فى الثلاثين من إبريل . . . ثم سكت ونظر إلى جوليان نظرة لها مغزاهها ، فاستعان الشاب بكل ما وهب من ظرف حتى ابتسم له ، لكنه عاد يسائل نفسه : ما العلاقة بين كل هذا ، سيطرتها على الأسرة ، ولبس السواد ، والثلاثين من إبريل ؟ يجب أن أرتكب حماقة أخرى لأعرف السر .

ثم نظر إليه نظرات تم عما فى نفسه ، وقال :

— إنى أعترف لك . . . ووجد محدثه فرصة جميلة ليقص عليه قصة طريفة ، فقال له :

— هيا بنا نسير فى الحديقة . ماذا ؟ ألا تعرف ما حدث فى الثلاثين

من إبريل سنة ١٥٧٤ ؟

— أين ؟

— في ميدان جريث ؟

فذهل جوليان ذهولا شديداً ، لأن العبارة لم تشبع فضوله . ولعلت عيناه لمعاناً شديداً من حب الاستطلاع وتوقعه أن يسمع خبر مأساة ، وهو يحب المآسي بطبعه ، فسرتّ عضو المجمع بما يرى ؛ لأن القاص يحب دائماً أن يرى علامات الانتباه على وجه من يسمعه . ثم قال له : في الثلاثين من إبريل سنة ١٥٧٤ قتل بونيفاس دي لامول أجمل شاب في عصره مع صديقه أنيبال دي كوكوناسو ، إذ قطع رأسهما في ميدان جريث . وكان دي لامول خليل الملكة مرغريت دي نافار التي عبدته عبادة : واستطرد يقول :

وعليك أن تذكر أن الآنسة دي لامول تدعى ما تيلد مرغريت . وكان بونيفاس في الوقت نفسه صديقاً مقرباً إلى دوق فالنسون ، وصديقاً حميماً للملك نافار — زوج خليلته — منذ عهد الملك هنري الرابع . وفي يوم ثلاثاء المرفوع من عام ١٥٧٤ كان الملك شارل التاسع وبلاطه في سان جرمان ، وكان هذا الملك البائس يسلّم أنفاسه الأخيرة ، فأراد دي لامول أن يخلّص أصدقاءه الأمراء الذين احتجزتهم ماري دي موسيس في البلاط كسجونين . فأحضر مائتي جواد تحمّت جدران سان جرمان روّعت دوق فالنسون ، وسيق دي لامول إلى المشنقة .

وإن ما أثر في نفس الآنسة دي لامول — كما أفضت إلىّ منذ سبعة أعوام أو ثمانية حينما كانت في الثانية عشرة من عمرها ، لأنها ذات

أخبرته أن زوجة شابة كانت تعيش في عصر هنري الثالث رأت أن زوجها يخونها فطعمته طعنة مميتة : قرأت هذا في مذكرات إتوال ، وكانت مخلصاً في تقديرها لهذه المرأة ، صادقة في شعورها نحوها .

رضيت أنا نية جوليان بهذه العلاقة الجديدة ووجد فيها لذة ، لأن الفتاة التي يحيطها الكثير من التبجيل ، والتي تقود الأسرة كلها كما قال عضو الجمع ، نزلت عن كبريائها وأصبحت تتحدث إليه حديث ودّ وصادقة .

لكنه قال بعد قليل ! لقد أخطأت التقدير ، فهي لا تأنس بي ، إنما تتخذني نجياً وتتحدث إلىّ لحاجتها إلىّ من تتحدث إليه . إنّ الأسرة كلها تعدني عالماً ، فعلىّ إذاً أن أقرأ الآن براتوم وأويني وإتوال ، علىّ أن أستطيع أن أنكر بعض القصص التي ترويها لي الآنسة أو لعلّي أجادلها فيها . إنني أحب أن أخرج من هذا الموقف السلبي وألا أصبح كاتم السر فحسب .

ثم أصبحت أحاديثه مع هذه الفتاة الجائحة اللينة ، أجاديت حلوة طليدة . ونسى جوليان دوره ، دور الشعبي الثائر ، حين وجدها مثقفة معقولة . تغاير آراؤها التي تبديها في الحديقة أفكارها في الصالون تمام المغايرة ، وكثيراً ما كان يراها متحمسة صريحة ، وهي التي لا تظهر عادة إلا بمظهر التعالي والكبر وجمود العواطف .

قالت له يوماً : إن عصر الحروب الدينية هو عصر البطولة في فرنسا ؛ لأن المرء كان يحارب لينال كسباً جديداً لحزبه ولينتصر لمبادئه ، لا يقاتل

من أجل وسام كما كان يحدث في عهد امبراطورك . أرجو أن تقرنى على أن هذا العصر لم يكن عصر صغار ولا أنانية ، كم أحب هذا العصر ! . قالت هذا وعيناها تضيئان بحماسة وذكاء ، فقال لها :

— وكان بونيفاس دى لامول بطل هذا العصر .

— كان على الأقل محبوباً جداً كما ينبغي أن يحب كل إنسان . ثم

أية امرأة تعيش في عصرنا هذا ، لا تشمئز إذا لمست رأس حبيبها بعد أن يقطع ؟

دعت مدام دى لامول ابنتها . وقد رأينا جوليان يفضى إلى ما تيلد

ببعض سره عن إعجابه ببنابليون وكان عليه أن يدارى نفاقه حتى يحصل على ما ينبغي من ورائه .

وظلّ في الحديقة وحده بعد أن فارقتة الأنسة ، فقال في نفسه : الميزة

الوحيدة التي يفضلونها بها ، هي أن نسبهم يرفعهم عن كل عاطفة وضيعة ، وهم لا ينزلون دائماً إلى التفكير في ضروريات الحياة ! ثم استطرد في مرارة : يا للشقاء ! لست أهلاً للتفكير في مثل هذه المسائل الهامة . ليست حياتي إلا سلسلة من النفاق ، لأن دخلي لا يبلغ ألف فرنك أشتري بها خبزاً . وعادت إليه ما تيلد وهي تجرى وسألته :

— فم تحلم الآن يا سيدى ؟

وكان قد زهد من كثرة ما احتقر نفسه . ودفعته الكبرياء أن يعترف

بحقيقة ما يفكر فيه ، ولشد ما خجل وهو يتحدث عن فقره إلى هذه الفتاة الغنية . وحاول أن يفهمها أنه لا يطلب شيئاً منها ، فعمد إلى لهجة نمت عن الكبر . كان جميلاً في نظرها في تلك الساعة ؛ لما بدا عليه

مظهره من حساسية وصراحة ، لم ترها فيه من قبل .
ومضى أقل من شهر ، وطاف جوليان يتنزه في حديقة القصر ، وعلامات
التفكير بادية على محيائه ؛ ولكن وجهه لم يعد يحمل الصلابة ، ولا هذا
الادعاء الفلسفي الذي كان يرضى دائماً مركب النقص الذي فطر عليه . ثم
قاد الآنسة دى لامول حتى باب الصالون ، وكانت قد زعمت له أن قدمها
تؤلما على أثر جريها مع أخيها . واتسكأت على ذراعه بطريقة عجبية ! فأخذ
جوليان يحدث نفسه : أنا غرّ ، أم أنها حقيقة تميل إلى ؟ أراها تصغي
إلى في ظرف شديد ، ولو كنت أحدثها عن آلام نفسي ! وكم يذهل
المترددون على الصالون إن رأوا يوماً هذا الوجه وقد شعث منه هذه التعبيرات
اللطيفة ، إنها متكبرة على كل الناس ! ولا شك أن هذه الطيبة وهذا
الظرف لا تظهرهما لسواى من الناس .

وحاول ألا يبلغ في هذه الصداقة لأنه يؤمن بأنها خطيرة . وكانا
حين يلتقيان وقبل أن تسود بينهما المودة التي سرت في حديثهما بالأمس ،
يسائل كل منهما نفسه : هل سنكون اليوم أصدقاء أو أعداء ؟ وأدرك
أنه إن ترك تلك الفتاة المتعجرفة تخرج كبرياءه مره واحدة دون أن يقتص
منها ، لأضاع كل شيء . إذا كان لا بد لي من أن أقطع صلتى بها ، أفليس
من المستحسن أن يكون ذلك منذ البداية بدفاعى عن كرامتى ؟ هذا خير
وأبقى من أن أفق منها موقف من يعمل على أن يدفع عن نفسه أذى
احتقارها ، إذا ما تهاونت في الاحتفاظ بالكرامة والعزة .

وحاولت ما تملد مرات عديدة أن تتخذ معه لهجة السيدة الأرسقراطية

في تلك الأيام التي كانا يختلفان فيها ، مستعملة كثيراً من اللباقة في هذه المحاولات ، ولكن جوليان كان يدفع أساليبها في خشونة وغضب . وقاطعها بغتة في يوم من الأيام قائلاً لها : هل لدى الآنسة دى لامول بعض الأوامر فتكلف بها سكرتير أביها ؟ وأخذ ينصت إلى أوامرها وينفذها . في احترام شديد ، ولكنه لم يقل لها كلمة واحدة ، لأن الأجر الذي يتقاضاه لا يدخل فيه الإفضاء بالآراء .

وقضت هذه الطريقة الجديدة في حياة جوليان هي وشكوكه العجيبة على الملل الذي كان يملكه حين يجلس في الصالون الفخم الرائع ، ولكن التقاليد قضت عليه ألا يتهمكم من شيء أبداً .

أخذ يحدث نفسه يوماً فقال : قد يكون عجيباً أن تحبني ! وسواء أحببتني أم لم تفعل فإنني أجد فيها فتاة ذكية أفضى إليها بما في النفس ، فتقبله قبولا حسناً ، وهي التي يرتاع منها كل من في القصر ويخافها المركز دى كرازنوا خوفاً شديداً . وهو شاب فطر على الأدب الجم وعلى الظرف الكثير والشجاعة الفذة ، وفيه كل الصفات الحميدة التي يؤهلها لها كرم محتده وعظم ثروته ، والتي لو كان لي إحداها ما كنت معذب النفس وهو يحبها حباً شديداً ، ويريد أن يتزوج منها . وكمن الخطابات يكلفني المركز دى لامول أن أكتبها إلى مسجلي الأسترين ليعدا عقد الزواج أما أنا ، ذلك المرعوس الوضيع الذي يمسك القلم ليكتب ما يؤمر به ، فإنني أنتصر على ذلك للشاب الظريف بعد أن أفرغ من عملي بساعتين ، نعم أنتصر عليه هنا في الحديقة ، لأنني ألقى منها رعاية وتفضيلاً لا يلقاها

غيرى . ربما كانت تسكره لأنه زوجها المنتظر . وهى شديدة الكبر بسبب ذلك . أما ظرفها وطيبتها معى فصدرها أنى نجيّ ومرءوس أقل منها شأنًا ! ولكن لم هذه الظنون ؟ إما أنى مجنون . . . وإما أنها تغازلنى ، لأننى كلما أظهرت لها فتوراً واحتراماً اقتفت أثرى وازدادت تقرباً منى ، ربما تعدت ذلك أو ربما كانت متصنعة ، ولكنى ألحظ دائماً أن عينها تلمعان حين ألقاها بفتة . هل تستطيع نساء باريس المغالطة إلى هذا الحد ؟ وماذا يضيرنى من هذا كله ؟ ! الظواهر كلها فى صالحى ، فلاستمع بالظواهر . كم هى جميلة يا إلهى ! ومك تعجبنى عيونها الزرقاء الواسعة ، حين أراها عن قرب ، تنظر إلى نظراتها الساحرة ! ما أكبر الفرق بين هذا الريبع والريبع الماضى ، حين كنت أعيش فى بؤس وشقاء ، وأستمع بقوة خلتي على دفع أذى ثلثائة من المنافقين الأشرار القدرين ! لقد كدت أصبح مثلهم شريراً .

أما فى الأيام التى كان يعاوده فيها الحذر فكان يقول : هذه الفتاة تسخر منى . لقد اتفقت هى وأخوها على الهزء بى . ولكن كم تظهر لأخيها من احتقار شديد على فتوره ! لقد قالت لى : إنه شجاع فحسب . وليس له أى رأى يدفعه إلى الخروج على النطاق الذى رسم أمامه ؛ لأنه لا يجد فى نفسه القوة على ذلك . وأنا الذى أتولى الدفاع عن هذا الشاب . يا لها من فتاة فى التاسعة عشرة من عمرها ! أفى هذه السن تستطيع فتاة أن تحاسب نفسها على كل ساعة من ساعات النهار فتنفذ ما رسمته لنفسها من نفاق ؟ ومن جهة أخرى فإن الأناسة دى لامول حين تنظر إلى بعينها

الكبيرتين نظرات لها مغزاهما فإن الكونت نوربير يتعمد عنا دائماً .
وهذا المسلك يدخل الشك في نفسى ، كان ينبغى أن يفضب ويشور حين
يرى أخته تعامل خادماً من خدم منزلهم هذه المعاملة الكريمة . لقد سمعت
الدوق دى شون يتحدث عنى فيصفنى بأنى خادم . وتذكر جوليان ذلك
ففضب واختفت من نفسه الآراء الأخرى . هل يعدّ استعمال هذه الكلمة
إخلاصاً من هذا الدوق الأحمق للغة القديمة ؟

ثم أخذ ينظر نظرات النمر ، واستطرد يقول : إنها جميلة ! لا بدّ
أن أناها ثم أترك القصر من بعد ذلك ، والويل لمن يتعقبى وأنا
أولى الأدبار !

وشغلت هذه الفكرة عليه نفسه ، حتى لم يعد يفكر فى شىء آخر .
وأصبحت أيامه تمر وكأنها ساعات .

كان يحاول فى كل ساعة من ساعات النهار أن يشغل نفسه بأمر
جدية فلم يطاوعه فكره ، وكان يستيقظ من أحلامه وقلبه يدق دقات
سريعة ، ورأسه يضطرب اضطراباً شديداً ، لا يعرف من أمره إلا هذه
الفكرة : أهى تحبى ؟

الفصل الحادي عشر

ملكة فتاة

[أراني أعجب بجمالها ولكفي أخاف ذكائها]
مهيني



كان جوليان يشغل وقته في المبالغة بجمال ماتيلد، أوفى التحمس والحنق على مركز هذه الأسرة الخطير الذي لم تعبا به ماتيلد من أجله، ولو أنه لاحظ ما كان يجري في الصالون، لأدرك السر في مكانة ماتيلد وسيطرتها على كل من حولها. كانت إذا كرهت من شخص شيئاً عرفت كيف تعاقبه عليه فتوجه إليه نكتة لاذعة، تحسن اختيارها بحيث لا تنافي الأدب وترسلها في أوانها، وبذلك تجرح من كرهته جرحاً بليغاً، لأنه كلما فكر في النكتة ازداد ألمه. وصارت شديدة الوطأة قاسية كل القسوة على من يجرح كرامتها. كانت لاتعنى بكثير مما تعده الأسرة على جانب كبير من الأهمية، فتظهر لهم دائماً أنها ثابتة الجنان رابطة الجأش. وصالونات الطبقة الأرستقراطية لاتنفيد في شيء إلا أن يذكروها الذاكرون ساعة مغادرتها. هذه كل حسناتها؛ أما الأدب وحده فلا وجود له إلا في الأيام الأولى لحسب، وهو ما وصل إليه جوليان بعد أن انقضت فترة انبهاره بما يرى، وولى ما أصابه من دهشة في حياته الجديدة. قال يحدث نفسه: كل الأدب الذي نراه في هذا الصالون هو أن يتعد الإنسان عن الغضب الذي تخلقه العادات السيئة. وكثير

ما كان يستولى الملل على نفس ماتيلد أو كثيرا ما كانت تجر على نفسها السامة أينما حلت ؛ لذلك كانت كبرى لذاتها وأكثر ما يشغلها أن تؤلف قصيدة في الهجاء . وربما كانت تعمل على تشجيع المريكز دي كروازنوا والسكونت كايوس واثنين أو ثلاثة من الشبان أصحاب المركز الممتاز وتقر بهم إليها لتتخذ منهم نماذج لشعرها الهجائي ، وهذا خير لها من أن تهجو أبويها أو مرءوسيهما أمثال عضو الجمع وخمسة أو ستة ممن يعملون في القصر ويتملقون أسرتهما . ونعترف في كثير من الأسى - لأننا نحب ماتيلد - أنها تسلمت خطابات كثيرة من بعض هؤلاء الشبان ، وردت على بعضها . ولكننا نسارع فنقول : إنها لا تتقيد بأخلاق عصرها . على أننا لانستطيع أن نقول إن تلميذات ذلك الدير الجليل ، دير القلب المقدس لم يجبلن على الحذر .

وحدث أن ردّها لها المريكز دي كروازنوا خطابا يحطّ من شرفها ويثير حولها الشكوك ، كانت قد كتبتة بالأمس ، وكان يرجو من وراء هذه الالفة التي تنطوى على الحذر والبصيرة أن تزداد مكانته في قلبها ؛ ولكن ماتيلد كانت ترمي في خطاباتهما إلى ألا تكون حذرة لأن لها لذة في أن تقامر بمصيرها . وكان جزاء دي كروازنوا على فعلته هذه أنها خاصمته ستة أسابيع . كانت تلهو وتعبث بخطابات هؤلاء الشبان ، وإن كانت تعترف بأنها متشابهة كلها ، لأنها تفيض جميعا بحب عميق حزين . تحدثت إلى ابنة عمها قائلة :

إنهم جميعا مثل للرجل الكامل الذي يظهر أتم استعداد للرخيل إلى فلسطين . فهل تعرفين ماهو أترقه من هذا ؛ هذه هي الخطابات التي لن تنقطع

عنى طول حياتى ! وهى لا تتغير إلا كل عشرين سنة حين تتغير نظرات الناس إلى الحياة ، ويطراً عليهم مثل أخرى تشغل بالهم . ولا شك أن الخطابات أيام الأمبراطورية كانت أقل خرقاً مما هى عليه الآن ؛ لأن هؤلاء الشبان الكرام الأصل شاهدوا أو أتوا بأعمال تعد حقيقة نجيدة . إن عمى الكونت ... كان فى وجرام .

فقال لها : دى سانت هيريديتى ابنة عمها وهى تحاورها .

أعتقد أن طعنة بالسيف تتطلب فطنة ؟ ومع ذلك هم يمثلون الدنيا حديثاً عنها حين يقدمون عليها !

ولكن هذه القصص تدخل على نفسى السرور ! إن الإشتراك فى معركة حقيقية كاحدى معارك نابليون ، حيث كان يقتل عشرة آلاف من الجنود ، ليعذب ضرباً من ضروب الشجاعة . والتعرض للخطر يسمو بالنفس ويشفى من الملل الذى يطفى على هؤلاء الشبان المعجبين بى . والسأم مُعَدِّ سرعان ما يتسرب من نفسى إلى نفس . أى أولئك الشبان يفكر فى الإقدام على عمل خارق للعادة ؟ كل همهم أن يحصلوا على يدى ، فياله من عمل مجيد ! إبنى غنية ، وسيدفع والدى زوج ابنته إلى مدارج الرقى . آه ! ليتنى ألقى شاباً خيراً من هؤلاء ! .

و طريقة ما تليد فى حكمها على الأشياء شديدة واضحة بهيجة ، لكنها تفسد لغتها كما ترى . وكثيراً ما تؤذى كلمة منها شعور أصدقائها الذين جبلوا على الأدب الكثير . ولولا أنهم يعرفون مكاتبتها فى الأوساط الباريسية لظنوا أن لغتها لا تتلاءم تماماً مع ما فى النساء من رقة .

وأما هي فلم تكن عادلة مع أولئك الفرسان الوسماء الذين ينتشرون في كل أرجاء غابة بولونيا . كانت نظرتها إلى المستقبل لاخوف فيها لأن الخوف شعور قوى ، وإنما كانت نظرة اشمئزاز ؛ وهذه عاطفة غريبة ممن كان في سنها .

ثم ماذا كانت ترجو ؟ إن يد القدر قد وهبتها الثروة والأصالة والذكاء والجمال الذي يشهد لها به الناس وتؤمن به هي كذلك .

هذه هي الآراء التي كانت تدور في رأس الوريثة التي تعيش في ربحن سان جرمان ، تلك الوريثة المحسودة على ما تنعم به ، هذه هي أفكارها حين وجدت لذة في التحدث إلى جوليان . لقد أذهلتها كبرياؤه ، وأعجبت بمهارة هذا البرجوازي الضئيل . وأخذت تقول : سيعرف كيف يصل إلى منصب رئيس أساقفة كما فعل الكاهن موري من قبل .

وسرعان ما شغلت ماتيلد بصلابته الشديدة التي لا تكلف فيها ، وتحفظه حين يستمع إلى الكثير من آرائها ، وأصبحت تفكر في هذا كله وقصت على صديقتها كل ما دار بينهما من أحاديث ، ذاكرة كل حادثة وإن لم تستطع أن تصورها لها تصويرا دقيقا . وذات يوم تحدثت إلى نفسها والسرور يملأ قلبها قائلة : أراني رزقت اليوم سعادة الحب ، إنى أحب ، نعم أحب ، ما في ذلك من ريب ! وفتاة في مثل سنى وجمالى وذكاى ، كيف تستطيع التنفيس عن مشاعرها إذا لم تحب ؟ وقد حاولت عينا أن أحب كروازنوا أو كايوس أو غيرها من باقى هذه الجماعة . إنهم كاملو الخلق ، وز بما كانوا أكل خلقا أكثر مما يجب ، لكنهم يبعثون فى نفسى السامة .

وأخذت تستعيد إلى ذهنها كل أوصاف الحب ، التي قرأتها في مانون
ليستكو ، وهلويز الجديدة ، وخطابات زاهية برتغالية وغيرها . كانت تتوقع
حبا عاصفا عنيفا ، أما الحب الطارىء التافه فما كان يلائم فتاة في سنها
ولا في شرف محبتها . الحب عندها هو تلك العاطفة المجيدة التي تنطوي
على البطولة ، والتي كانت تسود فرنسا في زمن هنرى الثالث وبسومبيير ،
وهو الحب الذى كان لا يخضع فى سهولة ويسر للعواقب ، بل كان دافعا
إلى أعمال عظيمة . ثم أخذت تقول فى نفسها : يؤلمنى حقا أنه لم يعد
فى فرنسا بلاط حقيقى على نحو بلاط كاترين دى مدسيس أو لويس
الثالث عشر ! إنى أشعر فى نفسى بما يتطلبه مثل هذا البلاط من جرأة
وعظمة . كم كان فى استطاعتى أن أكون معبودة ، وكم كان فى مقدورى
أن أحمل لويس الثالث على الركوع عند قدمى ! كان فى استطاعتى أن أقوده
إلى فنديه ، ومن هناك يقوم بغزو مملكته من جديد ، كما يقول غالبا البارون
دى تولى ، وإذا تم له ذلك ألغى الدستور... وكان فى استطاعة جوليان أن
يعاوننى على ذلك . وماذا ينقصه ؟ اسم وثروة . أما الاسم ، فأعماله كفيلا
بتحقيقه له وأما الثروة فسيجمعها فى يوم من الأيام .

أما كروازنوا فلا ينقصه شيء ، وسيظل طول حياته دوقا فيه مغالاة
وفيه ميل للحرية ، لكنه سيظل مترددا أبدا ، بعيدا عن التطرف ،
وعلى هذا فسيظل دائما فى المكان الثانى . أى عمل مجيد لا يبعد متطرفا
عندما يقدم عليه المرء ؟ ولكنه حين يتم يراه العاديون من الناس سهلا يسيرا .

نعم ، إن الحب سيطرَ على قلبي بكل معجزاته ، وأحسنَ هذا من النار التي تتأجج بين ضلوعى .

لقد وهبتنى السماء هذه الميزة ، فهى لم تمنح عبثا كل هذه الميزات لإنسان : وستكون سعادتى مثل عظمة رائعة . لن تكون أيام حياتى مملّة متشابهة الحلقات ، وإنّ مسلكى الآن لينطوى على العظمة والجرأة لأنى أحببت رجلا بينى وبينه فارق اجتماعى كبير . ولكن هل سيظل دائما جديرا بحبى ؟ سأهجره ولا شك حين يبدوّ منه ضعف . لأن الفتاة الكريمة الأصل ذات المروءة ، كما يقولون لى (وهذه من كلمات أبى) ، لا يصح أبداً أن تكون حقا .

أليس هذا هو الدور الذى كنت أمثله ، لو أنى أحببت المريكز دى كروازنوا ؟ لو أنى فعلت لكنت سعادتى كسعادة بنات أعمامى ، وأنا أحتقر هذا اللون من السعادة احتقاراً شديداً . وأعرف مقدّما ما كل ما كان يقوله لى هذا المريكز التعس ، كما أعرف ما كنت أجيبه به . ماقيمة الحب الذى يدعو إلى السأم ويبعث على التثاؤب ؟ لخير من هذا الحب عندى أن أكون من الفاتنات العابدات . إنى سأنال عقدا كالذى نالته صفرى بنات عمى التى بالرغم من شفقة والديها ، فانهما لم يتبالا كما نفسيهما . وأظهِر الغضب حين أضاف مسجل الزوج إلى العقد شرطا جديداً .

الفصل الثاني عشر

أ يكون مثل دانتون

[الميل إلى القلق طابع خلق عمى الجميلة مرغريت دي فالوا، التي تزوجت ملك نافار، والذي تراه اليوم يحكم فرنسا تحت اسم هنري الرابع .

أما الميل إلى اللعب فهو السر الذي ينطوى عليه خلق هذه الأميرة الظريفة ؛ ومن هنا نشأت خلافاتها مع لإخوتها، ومصالحتها لهم منذ كانت في السادسة عشرة من عمرها . ولكن يمّ تستطيع فناة أن تلعب ؟ لأنها تخاطر بأعز شيء عندها : تخاطر بعرضها الذي يعد علامة التيجيل لها طول حياتها] .

مذكرات الدوق أنجوم، الأبن الطبيعي لشارلي التاسع .



لن يكون بيني وبين جوليان توقيع على عقد ، ولن يتدخل بيننا مستجل ؛ كل شيء سينطوى على البطولة، ويكون وليد المصادفة . وإن لي من حب مرغريت دي فالوا للشاب دي لامول ، الذي كان يعدّ خيرة شباب عصره ، مثلاً يغنييني عن ضعة محتد جوليان . أعلى يقع الخطأ إذا كان شباب البلاط شديدي التعصب « لما يليق » ، وتصفّر وجوههم إذا سمعوا عن مخاطرة فيها شيء من الغرابة ؟ إن رحلة إلى اليونان أو إلى إفريقيا تعدّ في نظرهم غاية في الجرأة ، وهم فضلا عن هذا لا يعرفون السير إلا جماعات . وإذا رأوا أنفسهم بمعزل عن الناس ، دبّ الخوف

في قلوبهم لامن ربح البدوى ، ولكن من السخرية وارتكاب مالا يليق ،
وهذا الخوف يفقدهم عقولهم .

لكن عزيزى جوليان على نقيض هؤلاء تماما ، لا يجب أن يعمل
إلا وحده . والوهوب لا يفكر أبدا أن يطلب العون من الناس أو يركن
إليهم ليأخذوا بناصره إلا أنه يحقر الناس ، وهذا هو السر في أنني
لا أحقره ..

ولو كان شريفا على الرغم من فقره ، لكان حبي له ضربا من الحماقة
البلهاء ، وكان زواجى منه لا تكافؤ فيه ، زواجا وضيعا لأريده
ولا أرغبه ؛ لأنه سيكون مقفرا مما يميز الحب القوى العاصف من صعب
شديدة يجب التغلب عليها ، ومن شك قائم يظله .

ملكك هذه الأفكار الجميلة على الآنسة دى لامول نفسها ،
حتى أنها في اليوم التالى أخذت ، على غير وعى ، تمدح جوليان أمام المركز
دى كروازنوا وأخوها . وكان حديثها طلقا فصيحاً جرحت به كبرياءها
دون أن تحس . قال لها أخوها :

— احذرى هذا الشاب يا أختاه تمام الحذر ؛ لأنه موفور النشاط ،
وإذا نشبت الثورة مرة أخرى فإنه سيسوقنا جميعا إلى المشنقة .

فلم تكلف نفسها مشقة الرد عليه ، ولكنها سارعت قتمكت
عليهما لما يبديانه من خوف ، هو في الواقع خوف من يخشى مواجهة شيء
لا يتوقع حدوثه ، وأنى لها أن يواجهها ما ينطوى على المفاجأة ؟
ثم قالت :

— إنكم تحشون دائما أيها السادة ما يعرضكم للسخرية ، ولكن هذا الشبح الخيف الذي يبعث الرعب في قلوبكم قد مات — مع الأسف — في سنة ١٨١٦ .

قال المرkezدي لامول يوما : إن البلد الذي فيه حزبان ليس فيه ما يدعو إلى السخرية . وقد أدركت ابنته هذه الفكرة فقالت لأعداء جوليان :

— ولهذا أيها السادة ، ستقضون حياتكم في خوف مقيم ، وبعد فوات الوقت يُقال لكم : لم يكن هذا ذئبا ، ولكنه كان ظل ذئب . ثم سارعت فأنصرفت ، وقد بعثت عبارة أخيها في نفسها اشمزازا كبيرا ؛ وأقلقتها كثيرا ، لكنها في اليوم التالي أدركت أنها خير ثناء يثنى به على جوليان .

في هذا الزمن الذي مات فيه كل نشاط ، أصبح نشاطه يخفيهما . سأحدثه بما قاله أخى لأرى ما يجيبني به . وسأختار لحظة من تلك التي تلمع فيها عيناه ، لأنه لن يكذبني الحديث فيها . ثم قالت :

— أياكون مثل داتون في يوم من الأيام ! وإذا فرضنا أن ثورة جديدة نشبت ، فأى دور يقوم به كروازنوا وأى دور يقوم به أخى ؟ أعرف هذا مقدما : هو الاستسلام البديع . سيكونان في شجاعة الخراف ، يذبحان من غير أن ينطقا بكلمة واحدة . وأخوف ما يخافانه وهما يلقيان حتفهما ألا يكونا مؤدبين لطيفين في ساعة الموت . أما عزيزي جوليان فسيقتل ذلك النائر الذي يأتي للقبض عليه ، مهما يكن سبيل النجاة غير

مأمون ، وهو لا يعبأ بأن يكون خشن المسلك غير ظريف في الطرق التي يتبعها .

وجعلتها هذه العبارة الأخيرة تفكير طويلا ، وأيقظت في نفسها ذكريات أليمة ، وانزعجت منها كل شجاعة وإقدام . ذكرتها سخرية كايوس وكروازنوا ولوز وأخيها من جوليان ، حين كانوا يصفونه بأنه قس : فيه وضاعة وفيه نفاق . ولكنها سرعان ما أخذت تقول وعيناها تلعبان من شدة الفرح :

— إن البغضاء ، والسخرية ليقطعان ، على الرغم منهم ، بأنه خير رجل لقيناه هذا الشتاء . وماذا تضرنى نقائصه وترهاته ؟ إنه لعظيم ، وهذا ما يعيظهم منه ، على الرغم من أنهم فطروا على الطيبة والتسامح . لا شك أنه فقير ، وأنه كان يدرس ليصبح قسًا ، أما هم فروساء كتائب ، ولم يكونوا في حاجة إلى الدراسة ؛ وهذا أمر هين يسير .

وعلى الرغم من عيوب حلتها السوداء التي يرتديها دائما ، ومن هيئة القسس التي يضطر إليها اضطرارا وإلامات البائس جوعا ، على الرغم من هذا كله ، فزاياد تبعث الخوف في نفوسهم ، وذلك لا يخفى على ذى بصيرة . على أن هيئة القسس لا تبدو عليه حين نكون معا على انفراد في تلك اللحظات القصيرة التي يسمح بها الزمن . وحين يقول هؤلاء السادة شيئا ظنوا فيه الذكاء والتجديد ، أليست نظراتهم توجه إلى جوليان أول ما توجه ؟ لقد رأيت هذه الظاهرة في وضوح وجلاء ، ومع ذلك هم يعلمون حق العلم أنه لا يوجه إليهم حديثا إلا إذا سئل .

لا يوجه الكلام إلا إلى ، لأنه يؤمن بسمو نفسى . ولا يجيب عن اعتراضاتهم إلا بالقدر الذى يظهر فيه أدبه فى معاملتهم ، ثم يظهر لهم بعد ذلك كل احترام . أما معى فهو يظل يناقش ساعات طويلة ، وإذا أبدت أقل اعتراض تشكك فى آرائه . لم يستعمل القوة طوال هذا الشتاء ، وإنما أراد أن يجذب إليه الأنظار بالكلام وحده . وأبى رجل ممتاز حقا ، يعمل على رفع مستوى أسرتنا إلى حد بعيد ، ويحل جوليان ويحترمه . أما الباقون فهم يكرهونه فى غير احتقار ، اللهم إلا صديقات أسس التقيات .

كان الكونت دى كايوس مغرما بالجياد أو كان متظاهرا بأنه مغرم بها على الأقل ؛ يقضى حياته فى حظيرة الخيل ، وكثيرا ما كان يتناول طعامه فيها . وإذا أضيف هذا النوع الشديد إلى أنه لا يضحك أبدا ، خلع عليه هذان المعنيان كثيرا من الاحترام بين أصدقائه فأهله ذلك لأن يكون نسر هذه الجماعة .

اجتمع هؤلاء الشبان فى اليوم التالى خلف وثيرة المركيزة دى لامول ، ولم يكن جوليان حاضرا ، فبدأ كايوس حين رأى الأنسة دى لامول يهاجم جوليان ويعرض برأيها فيه ، بدون ما سبب يدعو إلى ذلك ، وعضده فى هجاته كروازنوا ونوربير ففطنت ماتيلدا إلى ما يرمى إليه ، وسرت لهذه الحملة سرورا كبيرا . ثم أخذت تقول فى نفسها : هاهم أولاء جميعا قد تحالفوا ضد رجل له عقريّة ونبوغ ، وإن كان لا يملك دخلا يقدر بعشرة لويسات ، ولا يستطيع أن يتحدث إليهم إلا إذا طلب منه

الكلام . إنهم يخشونه وهو بملابسه السوداء فكيف بهم إن ليس
ذئبي العسكريين ؟

وقد كانت ماتيلدا في هذه الليلة بارعة كل البراعة ؛ لم تسكد ترى
الهجمات الأولى حتى انهالت على كايوس وحلفائه تهكما وسخرية ، حتى
إذا ما كسرت تماما شوكة هؤلاء الضباط الأذكياء قالت لكايوس :
— ماذا تقول لو أن نريا من سكان جبال فرانك كوتيه ، أعلن أن
جوليان ابن طبيعي له ، ومنحه اسمه وبضعة آلاف من الفرنكات ؟
إنه بعد ستة أسابيع سيكون ذا شارب مثلكم أيها السادة ، وبعد ستة أشهر
يكون ضابطا في الفرسان مثلكم أيها السادة . وعندئذ لاترون في قوة
خلقه نونا من ألوان السخرية . أراك تتراجع أيها الدوق المنتظر ، لتفضي
إلى بهذا الاعتراض القديم السخيف ، وهو أن أشرف البلاط أعظم
قيمة وأعز مكانة من أشرف الريف . ولكن ماذا تقول لو أنني جاريك
في اعتراضك ، واستعملت معك الدهاء ، وأخبرتك أن والد جوليان دوق
أسباني أسير حرب في بيزانسون منذ زمن نابليون ، ولما حانت وفاته ،
أراد أن يخلص زمته فاعترف بينوة جوليان .

وبعثت الاشمزاز في نفسى كروازنوا وكايوس هذه الفروض غير
الشرعية حول نشأة جوليان ، وهذا كل ما استطاعا أن يردا به على
ما ذهبت إليه ماتيلدا . ومهما يكن تحكم ماتيلدا في أخيها ، فإن حديثها
عن جوليان كان واضح المرى ، لذلك اتخذ أخوها مظهر الجد الذي لم
يكن يتلادم مع وجهه الضاحك وتقاطيعه الطيبة البرئية — وجروا على

أن يوجه إليها بعض العبارات : فأجابته متصنعة الوقار بدورها :
— ماذا دهاك يا صديقي ؟ أنت مريض ما في ذلك شك ، مادمت
تتحدث إلى في الأخلاق وأنا لأقول إلا هزلا . وهل تتحدث أنت عن
الأخلاق ؟ أتريد منصبا من مناصب حكام المقاطعات ؟

وسرعان ما نسيت ما على كايوس من غيظ ، ونسيت غضب أخيها
وهذا القنوط الصامت الذي يبدو على وجه كروازنوا ، شغلت عنهم جميعا
بفكرة استولت على نفسها .

وأخذت تقول : إن جوليان مخلص معي ؛ ومن كان في سنه وبؤسه
وطموحه الشديد كان في حاجة إلى صديقة ، وربما كنت الصديقة التي
ينشدها ؛ ولكني لأرى في وجهه دلائل الحب . لو كان يحبني ، لدفعه
مافطر عليه من إقدام إلى أن يفضي إلى بعاطفته .

وهذا الشك وهذه النجوى ، قد شغلا ما تيلد في كل لحظة من
لحظات أيامهما ؟ وكلما تحدث إليها جوليان رأت برهانا جديدا على
صدق ما فكرت فيه ، لقد شغلنها هذه الفكرة ، فلم يعد السأم يجد إلى
حياتها سبيلا .

كانت ما تيلد وهي في دير القلب المقدس موضع رعاية شديدة ،
وتماقت لاحد له ، لأنها ابنة رجل ذى فطنه قد يصبح وزيرا ، فيمنح
السكهنوت ما يملك من غابات . وهذا فساد لاسبيل إلى إصلاحه . بعثوا
في نفسها الغرور ، وأفهموها أنها أسعد حظا من غيرها ؛ لثروتها ونشأتها

الكريمة . . . وهذا هو مصدر السأم الذي يستولى على الأمراء ، كما أنه مصدر الحماقات التي يرتكبونها .

ولم تسلم من الأثر السيء الذي تتركه هذه الفكرة للشثومة . ومهما يكن ذكاؤها فهي لا تستطيع وهي في العاشرة من عمرها أن تحذر تملق دير بأسره ولا أن تتأثر به ، وقد دأت للظواهر كلها على أنه من خير الأديرة .

ومنذ عزمت على أن تحب جوليان ، لم يجد السأم إلى نفسها سيلا . وكانت كل يوم تنهى نفسها بما اعتزمته من إقدام على هذا الحب القوي الجارف . ولكنها كانت تقول : هذه اللذة لها أخطارها . ليكن ذلك ! نعم ليكن ذلك ألف مرة !

لقد كنت فريسة للملل الشديد في أزهى أيام حياتي من السادسة عشرة إلى العشرين قبل أن أعرف الحب . ضاعت سدَى زهرة شبابي ، حين كنت أضطر إلى الإنصات إلى صديقات أمي وهن يثرثن بكلام ، اعتقدن عكسه في كوبلنز عام ١٧٩٢ كما يقال ، وأنهن في هذه الآونة كن أقل صرامة وحزما من كلامهن اليوم . كان هذا هو كل السرور الذي أناله وأنا في هذه السن الفتية .

وبينما كانت هذه الشكوك الكثيرة تملكها ، كان جوليان لا يدرك سرّ نظراتها الطويلة التي تلقىها عليه . وقد رأى أن الكونت نوربير ازداد فتورافي معاملته ، وأصبح كايوس ولوز وكرازنوا يظهرون تعاليا عليه ويشمخون بأنوفهم ، أكثر من ذي قبل : على أنه اعتاد منهم هذا . وكان

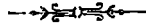
هذا الأذى يلحقه بعد انتهاء سهرة يظهر فيها من المواهب والذكاء أكثر من القدر الذي يسمح به مركزه . ولولا عناية ما تيلد به عناية خاصة ، وحب الاستطلاع الذي يدفعه إلى معرفة ما يدور في مجتمع هؤلاء الشبان الوسماء ذوى الشوارب ، ما تبعهم إلى الحديقة حيث كانوا يذهبون بعد العشاء ومعهم الأنسة دى لامول .

تحدث إلى نفسه قائلاً : نعم ، من العسير أن أخدع نفسى ، إن الأنسة دى لامول تنظر إلى بطريقة عجيبة . على أنى أرى فى عينيها الجملتين الزرقاوين ، وهى تنظر إلى نظراتها الساحرة لونا من ألوان الاختيار لى ، وهدهوا وقسوة . أيمكن أن يكون هذا هو الحب ؟ وما أبعد الفرق بين نظراتها ونظرات مدام دى رينال !

وحدث ذات مساء أن ذهب جوليان مع المركيز دى لامول إلى مكتبه ثم عاد سريعاً إلى الحديقة . وبينما كان يقترب فى حذر من أصدقاء ما تيلد ، سمع بعض كلمات تقال فى صوت مرتفع ، وتوجه إلى أخيها لوما شديداً وسمع اسمه يذكر مرتين فى وضوح . ولما وصل إليهم ساد بينهم بفتة صمت عميق ، وكان من العسير عليهم أن يتحدثوا ، لأن الأنسة دى لامول وأخاها كانا فى هياج شديد ، فلم يتح لهما أن يجدا موضوعاً آخر للحديث . أما كايوس وكروازنوا ولوز وصديق آخر فقد قابلوا جوليان بفتور شديد ، فانصرف عنهم .

الفصل الثالث عشر مؤامرة

إن في الآراء التي لا ارتباط بينها ، والمقابلات التي تسوقها المصادفة ، دليلا قاطعا لمن كان واسع المجال من الرجال على ما إذا كان القلب ينطوى على الحب شبل



وفي اليوم التالي فاجأ نورير وأخته وهما يتحدثان عنه مرة أخرى ، ولما وصل إليهما ساد بينهما صمت عميق كالذي ساد بينهما أمس . فازدادت شكوكه وجعل يقول : هل اتفق هؤلاء الشبان الظرفاء فيما بينهم على أن يسخروا مني ؟ يجب أن أعترف بأن هذا أكثر احتمالا وأقرب إلى العقل من أن أعتقد أن الأنسة دي لامول تشعر بحبها سكرتيرا بأنا مثلى . ولكن أيعرف الحب هؤلاء الشبان ؟ . السخرية هي حصنهم ؛ وهم يغارون منى لتفوقى عليهم في الكلام ، وهو تفوق تافه . والغيرة نقيصة من نقائصهم . كل شيء يفسر على هذا النحو : وهو أن الأنسة دي لامول تريد أن تمنعني بأنها تفضلني عليهم ، وما ذلك إلا لأنها تريد أن تسخر منى أمام خطيبتها .

وغير هذا الشك القاتل نفسيته ، وصادف هذا الرأي في قلبه بداية حب لماتيلد ، لم يكن من العسير أن يقضى عليه . حب يستند إلى روعة جمالها أو إلى طرقها التي تشبه ماتنفل اللسكات ، وإلى زيتها البديع كذلك . وقد كان في هذا اللون من التفكير حديث عهد بالنعمة حقا ، لأن المرأة الجميلة التي

تنسب إلى الطبقة الراقية ، هي كما يقولون : تلك التي تبعث الذهول في نفس ريفي ذكي الفؤاد حين يصل إلى مدارج تلك الطبقة . ولم يكن هذا في خلق ماتيلد ولا في طبعها ، وهي التي جعلت جوليان يحلم بها دائماً في الأيام السابقة . ولكنه فطر على سلامة الحكم على الأشياء ، وهذا خلق جديد لم يعرفه من قبل . وكل ما كان يشهده من جديد عندها ربما كان مرجعه إلى ظواهر الأمور فحسب .

فثلاً كانت لا تتخلف أبداً عن الصلاة يوم الأحد ، وكثيراً ما صحبت أمها إلى الكنيسة في الأيام الأخرى ، وإذا مانسى أحد المترددين على صالون دى لامول جلال المكان الذي هو فيه ، وسمح لنفسه بأن يشير إشارة بعيدة إلى العرش أو إلى الكنيسة في شئ قليل من السخرية ، وعرض بمصالحها الحقة أو المفترضة ، إذا حدث هذا ، فإن ماتيلد تظهر في الحال بمظهر الجدة الشديد الذي يحدث ارتباكاً شديداً للساخر ، وتنقلب نظرتها العميقة إلى نظرة تتم عن الكبرياء البالغة ، وهي نظرات تتجلى بوضوح في صورة قديمة من صور الأسرة .

كان جوليان يعلم حق العلم أن في غرفتها دائماً مجلداً أو مجلدين من أكثر كتب فولتير فلسفة . وكان هو بدوره كثيراً ما يسرق بعض مجلدات هذه الطبعة الفاخرة التجليد ، ثم يياعد بين الكتب لثلاً يظهر للعين أن أحدها ليس في مكانه ؛ لكنه سرعان ما اكتشف أن شخصاً آخر يقرأ فولتير فعمد إلى حيلة من حيل المدرسة ، ووضع خصلات صغيرة من شعر الخيل على

الكتب التي يظن أنها تعجب الأنسة دي لامول ، فاخفت هذه الكتب
أسابيع كاملة

وضاق المرకిزي دي لامول ذرعا ببائع الكتب الذي يمد مكتبة القصر ،
لأنه يرسل دائما - على حد تعبير المرకిز - المذكرات المكذوبة ،
فكلفت جوليان شراء الكتب الجديدة الجذابة . وأمره بوضعها في مكتبة
صغيرة في غرفة المرకిز ؛ لئلا تنتشر سمومها بين أفراد أسرته . وكان جوليان
على ثقة تامة من أن هذه الكتب سرعان ماستخفي ، مادامت تشهر عدا
هينا لمصالح العرش والكنيسة . ولا شك في أن الذي يقرؤها ليس
الكونت نوربير .

بالغ جوليان في أثر هذه التجربة ، إذ اعتقد أن الأنسة دي لامول
في دهاء مكياقلى . وكان يرى في أعمالها هذه فجورا محببا إلى نفسه ، بل
ربما كان هذا هو العمل المعنوي الوحيد الذي يقع عليه بصره وترضى عنه
نفسه ؛ وذلك لأنه كان يلتقي سأمًا شديدا من النفاق ، والآراء التي تنطوي
على الفضيلة ، فوقع في هذا الشطط .

وكان سلطان خياله عليه أكثر من سلطان حبه .

وظل يحلم وقتا طويلا بجمال قائمة الأنسة دي لامول ، وأناقة ثيابها ،
ورباض يدها وجمال ذراعها ، ورشاقة حركاتها ، حتى أحبها أخيرا .
ثم أراد أن يصفى عليها البقية الباقية من الروعة ، فشبها بكتارين دي
مدسيس . فحمل تشبيهه هذا كثيرا من العمق والفجور . وهذا هو المثل
الأعلى لنظائر مالون وفريلير وكاستاند الذين أعجب بهم جوليان في شبابه .

وعلى الجملة فقد كان يعد هذا المثل الأعلى في باريس .
ولكن ، أهناك ما هو أدمى إلى الضحك من أن يعتقد الإنسان أن
المخلق الباريسى ينطوى على العمق أو الفجور ؟
أخذ جوليان يقول فى نفسه : يحتفل أن هذا الثالث يسخر منى .
وأخذت نظراته إليها - حين تلتقى نظراتها - يبدو فيها الفتور الشديد
وتكاد تنطق بالجفاء ، وهذا لون من ألوان خلقه . فتذرعت بالجرأة
وأظهرت له الودّ مرتين أو ثلاثا ، فقابل هذا بتهمك ساخر . فأحقتها هذه
الغرابة المفاجئة ، لكن قلبها ازداد تعلقا به ، وكان قلبها مجبولا على الملل
والفتور ، لا يغيره شيء إلا الذكاء ، لكنه عاد إلى طبيعته الأولى فأصبح
قلب أنى يشغلها الحب . وزهدت فى السهرات والحفلات وفى اللذات
من كل لون ، وقد كانت من قبل راغبة فيها أشد الرغبة .
وكان أبغض شيء إلى نفسها أن تسمع الموسيقى التى يتخللها غناء فرنسى ،
لكن جوليان رآها مرات عديدة فى الأوبرا تلبى غالبا دعوة من يدعوها ؛
وكان يراها وهو واقف فى مكانه بجانب باب الخروج تنفيذ الأوامر المركز .
وخيل إليه أنها فقدت بعض الأشياء ، فقدت تلك الميزة من الكمال التى
تبدو سببا فى كل ماتعمل . وكانت تجيب أصدقاءها أحيانا فى سخرية
شديدة ، وذلك لحيويتها اللاذعة . وكان جوليان يرى أنها تعد المركزى
كروازنواشوما عليها ؛ وكثيرا ماحدث نفسه قائلا : يخيل إلى أن هذا
الشاب يجب المال حبا شديدا ، مادام لا يقوى على دفع هذه الفتاة عنه ،
مهما تكن غنية ! أما بطلنا فقد ازداد نحوها فتورا لأنه يريد أن ينتقم

منها لما توجهه إلى كرامة الرجال من إهانات، وكثيرا ما كان يجيبها إجابات لا تنطوي على الأدب .

كان عازما على ألا يحدع بما تظهره له من عناية شديدة ، لكن توددها إليه كان واضحاً جلياً في بعض الأيام ، فزانت الغشاوة عن عينيه حتى رآها رائعة الجمال ، وحتى بهره حسنهما في بعض الأحيان .

فقال في نفسه : إن مهارة شباب الطبقة الراقية وأناتهم سيمكناهم من الانتصار على لأنى قليل الخبرة . ثم عهد إليه التركيز في إدارة أراض قليلة و بعض منازل يملكها في ناحية لنجدول السفلى ، وكان لابد من رحلة يقوم بها في تلك الأراضى ، فوافق التركيز دى لامول على كره منه . وقد أصبح جوليان شخصا آخر فلم تبق له من صفاته الأصلية إلا طموحه الشديد . قال في نفسه وهو يعد العدة للرحيل : ومهما يكن من أمر فانهم لم يظفروا بى . وسواء أ كانت نكات الأنسة دى لامول مع هؤلاء الشبان حقيقية أم كانت ترمى من ورائها إلى أن تبعث الثقة في نفسى فأنا مسرور بها . وإذا لم تكن هناك مؤامرة على ابن النجار ، فان مسالك الأنسة ، حقيقة ، غير مفهوم ؛ ولكنها تعامل التركيز دى كروازنوا مثل المعاملة التى تعاملنى بها : فمثلا كان غضبها بالأمس واضحاً جدا ، وقد رأيت فى سرور كبير أنها انتصرت لى ، وما أنا إلا من العامة ، ضئيل الشأن ، انتصرت لى على هذا الشاب . الكثير المال الكريم المحمد بحق . وهذا أكبر انتصار حصلت عليه ، وسيبعث فى نفسى السرور وأنا فى رحلتى ، جالسا فى مقعد من مقاعد عربات البريد التى ستقطع بى سهولة لنجدوك .

لم يذع أمر رحيله ، ولكن ما تيلد كانت تعلم خيرا منه أنه سيغادرا باريس في اليوم التالي ، وستطول غيبته . فزعمت أنها مصابة بضداع شديد ، فازداد الصالون انقباضا على انقباضه . تنزهت في الحديقة وقتا طويلا وأخذت توجه إلى نوربير وكروازنوا وكايوس ولوز ، وغيرهم من الشبان الذين كانوا قد تناولوا الطعام على مائدة أبيها المركزي ، أخذت توجه إليهم نكات شديدة لاذعة حتى اضطرتهم إلى الخروج ، ثم أخذت تنظر إلى جوليان بطريقة عجيبة . فقال في نفسه : ربما كانت نظراتها هذه نظرات تمثيل لاعاطفة فيها ، ولكن ما بالها سريعة التنفس مضطربة ؟ ! ومن أنا حتى أحكم على هذه الأشياء حكما صحيحا ؟ إنها حقيقة أروع الباريسيات وأكثرهن فطنة ودهاء . وما هذا التنفس السريع الذي يكاد يلفح وجهي إلا ما تعلمته من ليوتتين فاي^(١) التي تجبها ماتيلد حبا شديدا . وظلا وحدهما في الحديقة ، وقد دبّ في حديثهما فتور وملل فأصابها حزن شديد وقالت : لا ! إنه لا يحمل عاطفة نحوى .

ولما استأذنها منصرفا ، ضغطت على ذراعة ضغطا قويا وقالت في صوت متهدج لاتين نبراته :

— ستسلم لليلة خطابا مني . فتأثر سريعا من هذه العبارة ، على حين استطردت تقول :

— إن والدي يقدر خدماتك حق قدرها ، يجب ألا تسافر في الغد ، وعليك أن تتحلل أي عذر . ثم ابتعدت عنه وهي تعدو .

(١) اسم ممثلة في مسرح « الجناز » كانت تمثل مسرحيات سكرية رثاءت نجاما كبيرا .
« العرب »

كانت قامتها بديعة ، وقدمها رائحة الجمال ، وكم كانت جميلة وهي تجرى ! وفرح جوليان بما رأى ، واسكن فيم كان يفكر بعد أن تورات عن بصره ؟ لقد غضب من لهجتها التي تم عن الأمر حين قالت : يجب عليك . وقد غضب لويس الخامس عشر من قبله وهو يموت حين قال له طميبه : يجب عليك ، وكان الطبيب غير موفق في تعبيره . ولويس الخامس عشر لم يكن يحدث نعمة .

وبعد ساعة أتى إليه خادم وأعطاه خطابا فيه اعتراف بالحب . فأخذ جوليان يطبق على خطابها ملاحظاته الأدبية ، ليقدر على تحمل الفرح الذي ملأ نفسه وقلص حدوده واضطره إلى أن يضحك على الرغم منه وقال : إن أسلوبها لاتصنع فيه .

ثم صاح فجأة واستطرد يقول : كان الحب أقوى من أن يكتم ، وقد ملك مشاعرها فأفضت به إلى ، أنا ذلك الفلاح الوضيع ، لقد حصلت إذاً على اعتراف بالحب من سيده كبيرة !

ثم حاول أن يخفي سروره ما استطاع . واستطرد يقول : لا بأس بما حدث ، عرفت كيف أحفظ بما في طبعي من كرامة . إنى لم أقل لها : إنى أحبك . ثم أخذ يتأمل خطها الإنجليزي الصغير الجميل . وكان في حاجة إلى أن يشغل نفسه بشيء مادي ليخفف من حدة السرور الذي كاد يكون جنونا .

« إن رحيلك يضطرنى إلى أن أتكلم ... لأنه لم يعد في استطاعتي أن أحرم رؤياك » .

ثم طرأت عليه فكرة كانت كا اكتشاف جديد ، صرفته عن دراسة

خطابها، وزادت من سروره فصاح : لقد انتصرت على المركيز دى كروازنوا ، مع أنى لا أقول إلا كلاماً ينطوى على الجدّ ! وكم هو جميل ! له شارب وحلة بديعة ؛ وهو يجد دائماً ما يقول ، ويوفق إلى عبارات لطيفة يسوقها في موضعها وتنطوى على الفطنة .

كانت هذه اللحظة من أسعد لحظات حياة جوليان ، غمرته السعادة وأخذ يسير في الحديقة على غير هدى .

وبعد ساعة صعد إلى مكتبه ، ثم ذهب ليرى المركيز دى لامول الذى لم يكن قد غادر القصر لحسن الحظ . وأطلعه على بعض أوراق وصلت من نورمانديا، وأقنعه في سهولة أن من مصالح القضايا النورماندية أن يؤجل سفره إلى لنجدوك . ولما فرغ من استعراض بعض الأعمال ، قال له المركيز : — يسرّنى أنك قد أجتلت الرحيل ، لأنى أحب أن أراك . وانصرف متضايقاً من هذه العبارة الأخيرة .

وحدث نفسه قائلاً : أما أنا فساغرى ابنته ! وربما أفسدت مشروع زواجها بالمركيز كروازنوا ، ذلك الزواج الذى يبني المركيز عليه آمالاً عظيمة : وإذا لم يصبح دوقاً ، فإن ابنته ستكون على الأقل من أولئك اللاتى يترددن على البلاط . وفكر فى الرحيل إلى لنجدوك على الرغم من خطاب ما تيلد إليه ، ومن الأعداء التى قدمها إلى المركيز ؛ غير أن هذا التفكير الذى دفعته إليه الفضيلة ، سرعان ما اختفى .

وأخذ يقول فى نفسه : ما أكثر طيبتى ! أنا هذا الشعبى الذى تأخذه الرحمة بهذه الأسرة الراقية ؟ أنا الذى يصفى الدوق دى شون بأنى خادم !

كيف يعمل التركيز على زيادة ثروته ؟ إنه يبيع إرادته حين يعلم من القصر أن الدلائل تدل على قيام ثورة في اليوم التالي . لقد زجّ بي القدر القاسي في أحط الدرجات ، لقد أنعم على القدر بقلب رقيق ، وجرمني دخلاً يبلغ ألف فرنك ، أي أنه حرمني كسرة الخبز ، إذا لم نشأ أن نعرض لذكر الخبز ، فكيف أعرض عن لذة تسمى إلى ؟ ! إنه ينبوع صاف يروي ظمئي وأنا في هذه الصحراء المحرقة ، صحراء الوضاعة التي أقطع عرضها في جهد جهيد ! فعلى ألا أكون غيباً إلى هذا الحد ؛ فكلّ يعمل لنفسه في فيافي الأنانية التي يسمونها الحياة .

ثم تذكر تلك النظرات التي كانت تتم عن الاحتقار التي كانت توجهها إليه مدام دي لامول ، وصاحباتها على الأخص .

واستولى عليه سرور شديد لما انتصر على التركيز دي كروازنوا ، ففاضت في نفسه كل فكرة توحى بها الفضيلة .

وأخذ يقول : كم أودّ لو غضب ! لأنني أعرف الآن كيف أطمئه بسيفي وأنا آمن مطمئن ، وألزمه بأن يقوم بدور الجنيب في المباراة ! كنت من قبل وغداً ، أعتد في حقارة على شيء وهبته من الشجاعة . أما بعد هذا الخطاب فقد أصبحت ندأ له .

ثم تحدث إلى نفسه في لذة شديدة وبطء وهوادة : نعم ، لقد فوغل بين صفاتي وصفات التركيز ، ووضعت مزايا كل منا تحت الحكم ، فخرجت كفة نجار جورا التمس .

وصاح : حسناً ! لقد وجدت ما أجيها به : يا آنسة دي لامول أنتي

لا أنسى حالتى . سأفهمك وأشعرك بأنك قد تخلّيت عن واحد من سلالة هذا الرجل العظيم دى كروازنوا الذى اشترك مع سان لويس فى الحروب الصليبية . نعم ، تخلّيت عنه من أجل ابن نجار .

كان فرحه عظيما ، وسعادته تغمر نواحي قلبه ، حتى خيل إليه أن غرفته التى أغلق بابها بالمفتاح ، صغيرة لاتسع سروره العظيم ، ولا يستطيع أن يتنفس فيها فنزل إلى الحديقة . وأخذ يردد ماقاله من قبل : ما أنا إلا فلاح تعس من جورا ، حكم على أن أرتدى دائما هذه الملابس السوداء الحزينة ! وأسفاه ! لو أننى وجدت قبل ذلك بعشرين عاما إذا للبتت الحلل العسكرية كما يلبسون ! لقد كان من على شاكتى من قبل يقتل فى الحرب أو يصبح جنرالا ، وهو فى السادسة والثلاثين من عمره . وكان ذلك الخطاب الذى ظل ممسكا به فى يده قد خلع عليه هيئة الأبطال وصفاتهم . فاستطرد يقول : أصبح هذا الثوب الأسود فى الواقع يدرّ على لابسه الذى يبلغ الأربعين أجرا قدره مائة ألف فرنك والوسام الأزرق مثل نولك رئيس أساقفة بوفييه .

ثم ضحك ضحكة مفيتو فليس ، وقال : حسنا ! إننى أذكى منهم جميعا ، وقد عرفت كيف أختار ملبسا يلائم عصرى . وأحس طموحه يزداد وتعلقه بالثياب السوداء الكنسية يشتد وقال : كم من كردينال كان أكثر ضعة منى ، ومع ذلك كانت فى أيديهم مقاليد الأمور ! وأنا أعرف مثلا لذلك . . . هو مواطنى جرانقل .^(١)

(١) ولد الكردينال جرانقل فى بيزانسون عام ١٥١٧ وكان وزيرا زمن شارلمان وفى عهد فيليب الثانى .

وهذا اضطرابه قليلا قليلا ، وعاد إليه حذره الفطرى وأخذ يتمثل
بقول أستاذه ترتوف ، الذى كان يحفظ دوره عن ظهر قلب :
أستطيع أن أصدق هذا القول ، فهو دهاء يقبله العقل .

.....
لن أشك بعد هذا فى هذه الآراء اللطيفة الطلية .
فبعض مظاهرها الطيبة تجعلنى أطمئن إلى تصديقها جميعا ، بعد أن
كانت نفسى مسرحا للتمهيدات .

ترتوف : الفصل الرابع ، المنظر الخامس
لقد أصاعت ترتوف امرأة ، وكان مثله مثل أى إنسان آخر .
واستطرد چوايان يقول فى بطن وقسوة شديدة : قد يطلع المركيز على
إجابتي . . . على أنى استعمل لذلك هذا العلاج ، سنبدأ بعبارات قوية
نشير فيها إلى خطاب ماتيلد الرائعة .

نعم ، ولكن ربما هاجمنى أربعة من خدم كروازنوا وانتزعوا منى
خطابها . لا ، لن يتمكنوا من هذا ، لأنى مسلح تسليحا كاملا ، وهم يعاونون
أنى اعتدت اطلاق النار على الخدم .

ولكن ، قد يكون فيهم خادم شجاع ، فيهجم علىّ ، لأنهم وعدوه
مكافأة قدرها مائة ناپليون . سأقتله أو سأجرحه ، وهذا ما يريدونه من
كل قلبهم . وسيزجّ بى فى السجن تطبيقا للقانون ؛ وأحاكم على فعلتى
هذه ، ويرسلونى إلى بواسى لأشترك فى السجن مع السيدين فوتتان^(١) وماجالون ،
ويكون هذا جزاء عادلا ، وحقا تفضى به عدالة القضاة . على أنى سأناهم

(١) كانا مديرين لمجلة صغيرة هجائية تسمى «الألبوم» وقد سجننا عام ١٨٣٠

بسبب نشرة هجائية .

«العرب»

في يواسى مع أربعمائة من الرعاع لافارق بيننا جميعا . . .
ثم نهض وصاح في حدة : وسيعطف على هؤلاء الناس بعض
العطف ! ولكن هل يعطفون على أبناء طبقة العامة حين يقعون تحت
رحمتهم !؟

وكانت هذه العبارة بمثابة انتزاع عطف المريكزى لامول عليه من
نفسه ، الذى كان على الرغم منه يقسو عليه .

مهلا ، أيها السادة الأشراف ، إننى أدرك هذه الخديعة التافهة ؛
وليس فى استطاعة الكاهن مالون أو السيد كاستاند اللذين غادرتهما
فى المدرسة ، أن يفعلوا أحسن مما فعلتم . إنكم ستأخذون منى خطاب الإغراء
هذا ، وسيكون مثلى كمثل الكولونيل كارون^(١) دى كولمار .

أمولونى قليلا أيها السادة ، فسأرسل الخطاب الذى ساقه إلى القدر
إلى الكاهن پيرار ، وأضعه فى حزمة تكون وديعة عنده ، بعد أن
أحسن ختمها . إنه رجل أمين ، لن يجد المال سيلا إلى إغرائه : نعم ،
إنه كذلك ، ولكنه يفتح الخطابات . . . سأرسله إلى فوكيه .

ويجب أن نعترف بأن نظرات جوليان كانت قاسية ، وأن وجهه
كان كريها ، تظهر فيه الجريمة واضحة جلية . لقد كان هذا الرجل البائس
الذى يشتبك فى حرب مع المجتمع كله . وصاح بطلنا وهو يقول : إلى السلاح !
ثم قفز درجات السلم الخارجى للقصر قفزة واحدة . وذهب إلى كوخ
الكاتب فى زاوية الشارع ، فأدخل الرعب فى قلب الرجل ، وأعطاه جوليان

(١) كان الكولونيل كارون دى كولمار قد أعدم عام ١٨٢٢ بسبب التآمر .
وكثيرا ما تحدث ستندال فى مؤلفاته عن إعدامه . « العرب »

كتاب الأنسة دى لاموال ، وقال له :

- اكتب هذا .

كان الرجل مكبا على نسخ الخطاب ، وچوليان يكتب إلى فوكيه :
«ورجاه أن يحتفظ له بوديعة لها قيمتها عنده . ولكنه انقطع فجأة عن
الكتابة وقال : إن المكتب الأسود فى مصلحة البريد سيفتح خطابى
ويسلمكم الكتاب الذى تحاولون الحصول عليه . . . ، لا أيها السادة ،
لن أمكنكم من ذلك ، تم ذهب واشترى إنجليلا ضخما من صاحب مكتبة
بروتستانتى ، وأخفى خطاب ماتيلدا فى غلاف الإنجيل بمهارة فائقة ، وأرسله
إلى عامل من عمال فوكيه ، لا يعرف أحد فى باريس اسمه .

ثم عاد إلى قصر دى لامول بعد ماعل ، والسرور يملاً جنبه ، وقال
بعد أن أغلق باب غرفته وخلع ثيابه السوداء : لقد جاء دورنا ! ثم كتب
إلى ماتيلدا :

« ماذا ! أهى الأنسة دى لامول التى أرسلت مع أرسين خادم أيها ،
خطابا مغريا إلى نجار بئس من جورا ، إنها ولا ريب تريد العبث به ... »
ثم كتب العبارات الجليلة التى جاءت فى الخطاب الذى تسلمه .

وكان خطابه ينطوى على حذر سياسى شديد يرجع الفضل فيه إلى
الفارس دى بوڤوازى . كانت الساعة لاتزال العاشرة ؛ وقد أحس چوليان
أن السعادة تعمه ، وماسكه شعور بقوة ، لا يزال جديدا بالنسبة لهذا
البئس ، فذهب إلى الأوبرا الإيطالية . وسمع صديقه چيرونيمو وهو يعنى ،
ولم يتأثر من قبل بالموسيقى كما تأثر بها هذه الليلة لأن نغماتها كانت إلهية .

الفصل الرابع عشر أفكار فتاة

[كم ألقى من قلق وحيرة ! وكم أفضى ليلى لا أنا
فيها ! يا إلهي ! هل سأكتب على نفسي أن تحترق ؟
إنه سيحترقني هو نفسه . ولكنه سيرحل ، ويبتعد
عني] .

ألفرد دي موسيه



وجدت ماتيلد عناء شديدا في الكتابة إلى جوليان . ومهما يكن
من أمر بداية تعلقها به ، فانها سيطرت على كبرياتها التي شغلت قلبها منذ
عرفت الحياة . وشغلت هذه النفس المتعالية الفاترة لأول مرة بعاطفة قوية
عاصفة ، كبحت جماح الغرور وإن لم تقض عليه تماما . وظلت ماتيلد شهرين
كاملين فريسة لمشاعر جديدة غيرت كيانها تغييرا شاملا .

ظنت أن السعادة أضحت في متناول يدها . وهذا الشعور الكبير إذا
سيطر على نفس قوية شديدة الذكاء ، كان عليه أن يكافح طويلا ضد
الكرامة ، وضد كل المشاعر التي تتعلق بالواجبات التافهة . وحدث أن دخلت
ماتيلد على أمها صباح يوم في الساعة السابعة ، ورجتها أن تسمح لها بالالتجاء
إلى فيلكيبه ، فلم تشأ المركيزة أن تجيها وطلبت منها أن تأوى إلى الفراش
فكانت هذه المحاولة آخر مجهود بذلته ، مدفوعة بالحكمة العامية واحترام
الآراء التي ثبتت عليها .

أما خشيتها من أن ترتكب شططا أو أن تخرج على الآراء التي بعدها مقدسة أمثال كايوس ولوز وكروازنوا ، فكانت لانقيم لهذا وزنا ؛ لأن أمثال هؤلاء لا يستطيعون أن يفهموها كما تزعم ؛ إنها لا تتردد في أن تستشيرهم لو كانت عازمة على شراء عربة أو أرض . وكان أخوف ما يخافه الأبرص عنها جوليان .

ولكن أليس من الجائز ألا يكون مخبره كظهره ، وألا يكون الرجل الممتاز الذي تنشده ! وهي تسكره ضعف الخلق كراهة شديدة ، وكان هذا هو اعتراضها الوحيد على الوسماء من الشبان الذي يحيطون بها . وكما سخروا في ظرف مما لا يتفق مع ذوق العصر أو مما ينحرف عنه ، قلّ تقدير ماتيلد لأفكارهم ، لأنهم قوم يؤمنون باتباع ما فرضه عصرهم .

قالت ماتيلد في نفسها : أهم صفاتهم الشجاعة . ولكن ما سبيل هذه الشجاعة ؟ أهى المبارزة ، لكن المبارزة ليست إلا حفلا ، يعرف مقدما كل شيء فيه ، حتى ما يقال وقت أن يقع الإنسان على الأرض . فهو حين يشمدد على العشب ، ويده فوق قلبه ، يجب على خصمه أن يصفح عنه صفحا كريما ، ويقول كلمة لفتاته الجميلة التي قد لاتسكون إلا في خياله ، أو تذهب إلى المرقص يوم موته خوفا من أن تشير حولها الشكوك .

إن المرء ليواجه الأخطار وهو يقود كوكبة تلمع بالفولاذ ، ولكن الخطر العجيب غير المتوقع الذي يهدد المرء في عزلة ، أيعد حقا خطرا قبيحا ؟

ثم استطردت ! وأأسفاه ! كان بلاط هنرى الثالث يملؤا رجال

عظاء الخلق والنشأة معا! آه! لو أن جوليان خدم في چارناك أو في مونكوتور،
إذا لتبددت كل شبهاتي ، ولزالت مخاوفي جميعا . لم يكن الفرنسيون
في ذلك الزمان كالدمى ؛ لأنه كان عصر بأس وقوة . فاليوم الذي كانت
تقوم فيه معركة ، يعتبر أقل الأيام قلقا وحيرة .

لم تكن حياتهم حبيسة كالأجسام التي حنطوها لقدماء المصريين ،
ولم تكن ذات لون واحد ، لانتغير ولا تتبدل . ثم استطردت : نعم ،
كانت الشجاعة في ذلك العصر أقوى منها في عصرنا هذا ، وكان الخروج
من قصر سواسون حيث تقيم كآرين دي مديس في الساعة الحادية عشرة
مساء ، عملا ينطوي على الشجاعة أكثر من المغامرة في الجزائر . وكانت
حياة كل رجل سلسلة من المصادفات . ولكن الحضارة قضت اليوم على
المصادفات ، واختفى من حياتنا عنصر المفاجأة . وإذا ظهر في آرائنا جديد
قوبل بالهجم والقدح الشديد ، وإذا تناول بعض الحوادث ذعرنا منه .
ومهما ارتسكنا في سبيل الخوف من حماقات ، فإن ذلك لا يضيرنا . فياله
من قرن انحطت فيه القيم وأصبح مجلبة للأسام ! ماذا كان يقول بونيفاس
دي لامول لورفع رأسه المقطوع من قبره ورأى في عام ١٧٩٣ سبعة عشر
شخصا من سلالة يقبض عليهم كما تمسك الخراف ، ويشنقون بعد ذلك
ببومين ؟ لقد كان الموت محققا ، ولكن الدفاع عن النفس وقتل واحد
أو اثنين من الثوار كان في نظرهم خطيئة . آه ! لو أننا كنا نعيش في ذلك
العصر الجيد ، عصر بونيفاس دي لامول ، لكان جوليان رئيسا لكتيبة

من الفرسان ، ولكان أخى قساً شاباً له أخلاق عالية ، تنطوى نظراته على الحكمة ، ويفترق لسانه من عقل مكين .

وكانت ماتيلد من قبل ذلك ببضعة شهور تألم؛ لأنها رأت رجلاً يخالف ما تواضع عليه الناس ، ويحيد عن سبيل عصرها . وكانت تجرد في سماحها لنفسها أن تكتب لبعض شبان الطبقة الراقية لونا من السعادة . وهذه جرأة لا تتفق أبداً مع الاخلاق ، ولا مع الحذر الذى ينبغى للفتاة ، وقد تتلم شرفها في نظر المركيز دى كروازنوا ووالده الدوق دى شون، وفي نظر جميع من يترددون على قصر الدوق دى شون ، الذين يرون أن الزواج المنتظر لم يتم ، ويحبون أن يعرفوا سبب ذلك . وفي تلك الأيام التى كانت ماتيلد تكتب فيها الخطابات ، كانت تظل ساهرة لا تعرف إلى النوم من سبيل . لكن كتبها لم تكن إلا ردوداً على خطابات هؤلاء الشبان .

وفي هذه المرة جرئت على أن تقول : إنها تحب ، فكتبت أول خطاب — ويالها من عبارة قاسية — إلى رجل من أدنى طبقات المجتمع . ولو كشف هذا الأمر لجرّ عليها عارا أبدياً . وأية امرأة من النساء اللائى يترددون على أمهات تجرؤن على أن تنتصر لها ؛ ثم أى عبارة يمكن أن تردّد لتجفف من المهانه التى تلحق بهم من هذه الزلة فى الصالونات كلها ؟

كان الكلام وحده فى هذا بحر العار ، فما بالك بالكتابة ! « إن هناك من الأشياء مالا يكتب . وهذه عبارة قالها نابليون عندما علم بتسليم بايلن ، وأخبرها جوليان بها ! وكأنه كان يعطيها درسا مقدما .

على أن هذا كله لم يكن شيئاً ، فقد كان خوف ماتيلد يرجع إلى

أسباب أخرى . لقد تفاضت عن كل ما أحدثها فعلتها من أثرسيء في المجتمع ، فهي تجر عليها العار والامتهان ، نسيت هذا كله ، لأنها كانت تسب طبقتها دائما ، وكتبت إلى شخص يخالف كروازنوا ولوز وكابيلوس وأمثالهم مخالفة تامة .

وكان عمق جوليان في خلقه ، وما يخفي عليها منه يربعها حين تقوم بينها وبينه علاقة عادية ، فكيف يكون خوفها وقد أرادت أن تجعل منه خليلا وتتخذة سيّدا !

أيّ كبر لا يظهره إذا ما أصبح منسيطرا على ؟ ولو صحّ هذا التمثل بقول ميدي ! أنا وسط هذه الأخطار الكثيرة ، أحتفظ بكلمة أنا .

ظننت أن جوليان لا يحترم بتاتا طبقة الأشراف بالدماء . وخيل إليها أن نفسه لا تحمل لها لونا من ألوان الحب !

وفي اللحظات الأخيرة لشكها القاتل ، شغلته الآراء التي تسيطر على الغرور النسوي . وفرغ صبرها ، فصاحت تقول : كل شيء يجب أن يكون غريبا في مصير فتاة مثلي . وأضحى كبرها الذي تعلمته وهي في المهد في نزاع مع الفضيلة . وعزم جوليان على الرحيل في هذه الفترة ، فكان ذلك سببا في تعجل الأمور .

ومثل هذا الخلق نادر جدا لحسن الحظ .

وفي ساعة متأخرة من الليل ، طرأت على جوليان فكرة خبيثة ، فقد أنزل عند البواب حقيبة ثقيلة ، ودعى الخادم الذي يغازل وصيفة الأنسة حتى لا يموت ليحملها . وأخذ يقول في نفسه : قد لا تترتب على هذا العمل

نتيجة ، ولكنه إن نجح ظنت أنني سافرت . ونام فرحاً مسروراً من هذه الدعاية . أما ماتيلدا فلم تذق للنوم طول ليلتها طمعا .
وأصبح الصباح فغادر جوليان القصر في ساعة مبكرة حتى لا يتنبه لخروجه أحد ، لكنه رجع ثانياً قبل الساعة الثامنة .
ولم يكذب يدخل المكتبة حتى كانت الآنسة دي لامول يبابها ؛ فأعطاه رده على خطابها . واعتقد أن الواجب يفرض عليه أن يتحدث إليها ، ولم يكن هذا أمراً عسيراً عليه ، ولكن ماتيلدا لم تشأ أن تسمع إليه ففكرته منصرفه بسرعة ، وسرّه هذا لأنه لم يكن يعلم ما يقوله لها .
ثم أخذ يقول : لو لم يكن كل هذا أمراً دبره الكونت نوربير ، فلا شك أن نظراتي التي يشع منها الفتور ، هي التي أوقدت نار حرب نزع تشعر بهذه الفتاة الكريمة المحمد . لو أنني تركت نفسي تنقاد لهذه الدمية الشقاء ، لكنت على جانب كبير من الحق . وشغلته هذه الفكرة فزاد غموراً وحذراً .

واستطرد : والمعركة التي ستدور بيننا ، وسيكون فيها أصلها النبيل كأنه تلّ عال يكون بيني وبينها موقعا حربيا . إنني أحب أن أهاجمها من هذه الناحية . لقد أخطأت كثيرا إذ أقمت في باريس ؛ وتأجيل سفري سيخط من شأني كثيرا ، ويقلل من قيمتي إن صح أن كل هذا الأمر حيلة أريد بها السخرية مني . وأى خطر لو أنني رحلت ؟ لو فعلت هذا اسخرت أنا منهم على حين أنهم يريدون أن يعيثنوا بي . ولو أنها تهتم بي حقا ، لزاد اهتمامها مائة مرة لو أنني لم أوجل سفري .

لقد سبب له خطابها فرحا شديدا واستمبعا ينطوى على الكبر ، وأخذ يضحك مما حدث ، حتى أنساه ضحكه أن يفكر في السفر تفكيرا جديا .

كان يحس ما يرتكب من الأخطاء إحساسا بعيدا ، وهذا لون من ألوان طبعه لامفرّ له منه . وكان غاضبا على نفسه من جراء ذلك ، ولم يعد يفكر في هذا النصر الكبير الذى سبق هذا الفشل اليسير ؛ غير أن الأنسة دى لامول ظهرت بباب المكتبة فى الساعة التاسعة وأتت إليه خطابا ثم ولت الأدبار . فجعل يحدث نفسه وهو يتناول الخطاب : يخيل إلى أنها قصة فى رسائل . لقد زلت قدم العدو ، أما أنا فساظهر الفتور والفضيلة . وسألته فى خطابها أن يرد عليها ردا شافيا ، لكن لهجتها كانت متكبرة ، فزاد هذا من فرجه الداخلى . ووجد لذة كبيرة فى أن يكتب إليها صفحتين ، تناول فيها بالقدح كل أولئك الذين يحاولون أن يسخروا منه ، ثم أخذ يعبت بها فى آخر الخطاب فأخبرها بأنه راحل فى صباح اليوم التالى .

ولما انتهى من كتابه ، قال : ستنجح لى الحديقة فرصة أسلمها فيها كتابى لأنها ولا شك ذاهبة إليها . وأخذ يطالع نافذة غرفتها التى تقع فى الطابق الأول بجوار مسكن أمها ، غير أن هناك طابقا مرتفعا بين أسفل المنزل وأعلىه .

وكان هذا الطابق مرتفعا جدا حتى أن جوليان وهو فى الحديقة يتنزه ماشيا فى طرقات أشجار الزيزفون والخطاب فى يده ، كان لا يرى من

نافذة الأنسة دى لامول ، لأن الأشجار — وإن كانت مشدبة — إلا أنها تكون قبة تستر السائر في الحديقة فلا يراه من كان في النافذة . وسرعان ما استولى عليه الغضب ، وأخذ يقول : ماذا أنا فاعل !؟ إننى لأرتكب حماقة جديدة ! لو فرضنا أنهم يعملون على السخرية منى ، فليس لى أن أظهر وييدى خطاب ، لأن هذا يخدم أعدائى .

وكانت غرفة نوربير فوق غرفة أخته تماماً ، بحيث لو غادر جوليان القبة التى تضربها الأغصان المشدبة ، لراه الكونت وأصدقائه ، ولا استطاعوا أن يتبعوا حركاته كلها فى سهولة ويسر .

ثم ظهرت ماتيلد خلف زجاج نافذتها ، فأشار جوليان إليها إشارة خفيفة ، وأظهر لها جزءاً من الخطاب ، فلما غضت من بصرها أسرع يجرى إلى غرفته ، وهناك على السلم الكبير قابلته مصادفة ، ماتيلد الجميلة الفاتنة ، وأخذت منه الخطاب فى غير مشقة وعيناها تضحكان .

عندئذ قال فى نفسه : كم كانت نظرات مدام دى رينال التعسة ، تنطوى على حب قوى وسعادة ، حين جرؤت على أن تأخذ من يدي الخطاب بعد أن عاشرتها ستة شهور ! ويخيل إلى أنها لم تنظر إلى مرة واحدة فى حياتها بعينين باسنتين .

ولكنه اقتضب فكرته ولم يبينها بوضوح ... هل كان يرى أن ما يسوقه من الأدلة لا قيمة له ؟ ولكن خاطره سرعان ما أدرك البون الشاسع بين ماتيلد ومام دى رينال ، عندما رأى أنها فى ثوب الصباح ؛ وبالروعة قدها وجماله ! وإذا ما أبصرها الناظر السليم الذوق على بعد ثلاثين خطوة

أدرك مكاتبتها الاجتماعية . وهذا هو ما يسمونه الميزة الظاهرة .

كان جوليان يبعث لكنه لم يكشف تماما عن فكرته ؛ فدام دي رينال لم يكن يجانبها شخص مثل المركيز دي كروازنوا تضخى به من أجله . وما كان له من غريم فيها إلا هذا التافه الحقير السيد شاركو ، نائب حاكم للمقاطعة ، الذي أطلق على نفسه اسم دي موجيرون ، حين علم أن سلالة موجيرون فنيت كلها .

وفي الساعة الخامسة وصل إليه خطاب ثالث ، ألفت به إليه من باب المكتبة ، ثم ولت الأدبار كما فعلت من قبل . فضحك جوليان قائلاً : ما أعجب هذا الجنون ! في مقدورنا أن نتحدث معاً في سهولة ويسر ! . من الحق أن العدو يريد أن يحصل مني على كتب كثيرة ! ولم يتعجل فتح الخطاب الجديد . ثم قال في نفسه : لعلها جمل طريفة في هذه المرة كذلك . لكن الشحوب علا وجهه وهو يقرأ ، ولم تكن ماتيلد قد كتبت إلا ثمانية سطور لاتزيد ، وكانت تقول : أريد أن أتحدث إليك ، يجب أن أتحدث إليك الليلة عندما تدق الساعة الأولى صباحاً فذهب إلى الحديقة ، ثم خذ السلم الكبير الذي يستعمله البستاني — وهو على مقربة من البئر — وضعه على نافذتي وادخل إلى إن القمر مكتمل الضياء ولكن ذلك لا يضير .

الفصل الخامس عشر أهذه مؤامرة ؟

[آه ! ما أقسى الزمن الذي تقضيه بعد الشروع في عمل
عظيم وقبل تنفيذ هذا العمل ! ويا لتلك المخاوف التي
لا مسوغ لها ! ويا للحيرة والتردد ! إنها هي الحياة بل
إنها أعز من الحياة : إنه الشرف !]

شير



أخذ جوليان يعمل فكره ويتحدث قائلاً : أصبح الأمر جدا
مصرار واضحاً جلياً . ماذا ! هذه الأنسة الجميلة تستطيع أن تتحدث إلى
في المكتبة في حرية واسعة . والحمد لله على أن المراكز يخشى أن أطلعها على
الحسابات ، فهو لذلك لا يدخل على المكتبة أبداً . ثم ماذا ! إن المراكز
دي لامول والكونت نوربير هما اللذان يترددان على المكتبة ، وهما
غائبان طول النهار ، ويمكن بكل سهولة أن تعلم ساعة عودتهما إلى القصر .
على الرغم من هذا كله أرى الغادة الجميلة ؛ التي إن طلب يدها أمير من
الأسرة المألوفة كان الرابع ، أراها تريد مني أنا أن أرتكب هذه
الحماقة البالغة ! .

من الواضح أنهم يريدون القضاء على ، أوهم على الأقل يحاولون
السخرية مني . لقد حاولوا أول الأمر أن يقضوا على بخطاباتي ، فألقوها
برزينة لا تطرف فيها ، فعمدوا الآن إلى عمل أكثر وضوحاً من بياض
النهار ! ويعتقد هؤلاء السادة الشبان الوسماء ، أنني على جانب عظيم من الغباء
أو الحماقة . يا للشيطان ! أصدد بسلام إلى الطبقة الأولى في ليلة يضيء فيها

القمر وأكون على ارتفاع خمس وعشرين قدماً! سيتاح لهم وقت لرؤيتي ، وسيراني أصحاب المساكن المجاورة كذلك . كم أكون جميلاً فوق سلمي !
وصعد إلى غرفته وأخذ يعد حقيبته وهو لا ينقطع عن الصفير . وذلك لأنه عزم على الرحيل دون أن يردّ على خطابها . ولم يبعث هذا القرار الحكيم الطمأنينة في قلبه ، فسرعان ما أخذ يقول في نفسه بعد أن فرغ من إعداد الحقبة : إذا صحّ أنها صديقة العاطفة فسيصبح دورى في رأيها دوراً جين وحقارة ! إننى لا أنتسب إلى أسرة كريمة ، ولهذا يجب أن أنال ميزات جديدة لها قيمتها ، لا بدّ لى من المال الحقيقي الذى يتمثل في أسهم عظيمة القيمة .

وفكر ربع ساعة ، ثم قال في نفسه : لم أنكر هذه الحقيقة ؟ سأصبح جباناً في نظرها . ولن أفقد أجمال وأذكى فتاة في الطبقة الراقية كما وصفوها في مرقص الدوق دى ريتز فحسب ، بل أفقد أيضاً لذة كبيرة حين أراها وهى تضحى من أجلى بالمرکز دى كروازنوا ، وهو ابن دوق وسيصبح دوقاً كذلك . وهو شاب وسيم له كل ما ينقصنى من صفات : فهو سريع البديهة ، كريم الأصل ، كثير المال .

إننى لو فعلت هذا لحالفى الندم طول حياتى ، لامن أجلها ، فان فى العالم كثيراً من الخليلات ! .

... ولكن ليس لأحد من الناس إلاشرف واحد ! كما يقول الشيخ دون هيبينج . وإننى لأراجع الآن أمام أول خطر حقيقى يعترضنى ما فى ذلك اشك ، لأن مبارزتى مع السيد دى بوفوازى لم تكن إلا شيئاً ثانياً . أما

الآن فهذه مسألة أخرى فيها كثير من الجذ . قد يطلق على النار أحد الخدم ، وهذا أهون الأخطار، وقد يتعرض شرفي للاهانة ويلحقني العار . ثم استطرد في فرح شديد وفي لهجة فيها كبرياء : الأمر جد أيها الشاب فالشرف هو الذي يتعرض للأذى . إن شخصا آخر يأثما مثلي ، لم تعرض له في حياته هذه المصادفة السعيدة ، ولم تتح له هذه الفرصة التي لاتعوض ، سأحصل على مال كثير ، ولكن عن طريق غيرى .

وأخذ يفكر طويلا ، وهو يسير بسرعة ويتوقف عن المسير بين آونة وأخرى . كان في غرفته تمثال جميل من الرخام للكردينال ريشيليو ، فكان ينظر إليه بين لحظة وأخرى على الرغم منه . وكان هذا التمثال كان يؤنبه أشد تأنيب على خور عزيمته ، وعلى أنه لا يتمسك بالشجاعة التي تعد فضيلة من فضائل الفرنسيين . فأخذ يقول : لو كنت في زمنك أيها الرجل العظيم فهل كنت أقع تحت طائلة التردد ؟

واستطرد : إن فرضنا أسوأ الفروض ، وكان هذا فخا ينصب لى ، فمن المؤكد أنه يلوث سمعتها ويقضى على شرفها . فهم يعلمون أننى لا أركن إلى الصمت . وعلى هذا يجب عليهم أن يقتلوني . على أن قتلى كان ممكنا عام ١٥٧٤ أيام بونيفاس دى لامول ، أما اليوم فلن يجرؤ أحد عليه ؛ لقد تغيرت طباع هؤلاء الشبان . وكم يحسد الناس الآنسة دى لامول ! إن أربعمائة صالون ستردد في الغد فضيحتها في لذة وسرور !

والخدم يثرثرون فيما بينهم بما يكونونه لى من الاحترام ، أعرف هذا تماما ؛ فانى سمعهم يتحدثون به .

وخطاباتها من ناحية أخرى ! . ربما اعتقدوا أننى أحملها معى : وإذا

ما باغتوني في غرقتها ، فسيحاولون أخذها مني . وهل ستقع معركة بيني وبين رجلين أو ثلاثة أو أربعة ؟ الله أعلم بعددهم . ولكن أتى لهم بالرجال ؟ أفي باريس مرءوسون يكتمون الأسرار ؟ إن العدالة تخفيهم . . . يا الله من أمثال كايوس وكروازنوا ولوزا !

في اللحظة التي أبأغت فيها ، ستعلو وجهي ، وأنا بينهم ، علامات الحماقة التي أعجبتهم من قبل . فحذار من مصير أبيلارد ، أيها السكرتير ! ولكن حذار أيها السادة ! إنني سأترك في وجوهكم آثار صفعاني ، كما فعل جنود القيصر في فرسال . . . أما الخطابات فني استطاعتي أن أضعها في مكان أمين .

ونسخ جوليان صوراً من الخطابين الأخيرين ، وأخفاها في مجلد جميل من كتب فولتير ، أما الخطابان فقد ذهب بهما بنفسه إلى البريد . ولما عاد أخذ يسائل نفسه في دهشة وذعر : أية حماقة سأرتكبها ؟ ثم ظل ربع ساعة لا يستطيع التفكير جدياً في مشروع الليلة القادمة . سأحتقر نفسي فيما بعد إذا أنا تراجعت ! وسينتأبني الشك طول حياتي ، والشك عندي شر البلايا جميعاً . ألم أندم من قبل يوم تركت خليل أماندا ؟ ! ويخيل إلي أنني أصفح صفحاً كريماً عن جريمة واضحة المعالم ، فإني لا أعود أفكر فيها حين أعترف بها .

ماذا يعتريني ! أتناح لي فرصة في ، أن أكون منافساً لرجل يحمل اسماً من أشرف الأسماء الفرنسية وأشهرها ، ثم أنزل عن ذلك فأكون أقل

منه قيمة وقدرًا؟! هذا في الواقع منتهى الجبن . وقطعت هذه العبارة سبيل كل شك . فنهض وصاح : إنها لرائعة الجمال

لو لم تكن هذه خيانة منها ، فأى جنون ترتكبه من أجلى ! . . .
وإذا كان الأمر سخرية واستهزاء ، فأقسم لكم أيها السادة على أننى سأبدل الهزل جدًّا ، وإنى على ذلك لتقدير !

واكن ، ما العمل إذا ما ربطوا ذراعى عند ما أدخل الغرفة ؟ إنهم يرتكبون بذلك عملا ينطوى على المهارة حتمًا ، وربما استعملوا حيلة ماهرة للايقاع بى .

ثم ضحك وقال : إنها ستكون أشبه بمبارزة ، وفي المبارزة يمكن تجنب كل طعنة ، كما قال لى معلمى فى السلاح ، أما إذا أراد الله أن يقضى على حياة أحد المتبارزين فإنه ينسيه أن يدافع عن نفسه . وعلى كل حال ، فستكون هذه إجابتى : وأطلق من مسدساته التى فى جيبه عدة طلقات ، ثم غير طلقاتها وإن كانت تدوسى .

ثم رأى أن فى الوقت متسعًا ، فأراد أن يقوم بعمل ، فجلس يكتب إلى فوكيه : لا تفتح يا صديقى الخطاب الذى تجده داخل كتابى هذا إلا إذا حدث لى حادث ، أو سمعت أن شيئًا غريبًا وقع لى . وإذا علمت بشيء من ذلك ، فاصح أسماء الأعلام الواردة فى الخطاب الذى أرسله إليك ، وانسخ منه ثمانى نسخ ترسلها إلى صحف مرسيليا ووردو وليون وبروكسل وما إليها ؛ وبعد ذلك بعشرة أيام ، أطبع هذا المخطوط وأرسل أول نسخة منه إلى

المركزى دى لامول ؛ ثم ألق بباقي النسخ ليلا في شوارع فريير، بعد ذلك بخمسة عشر يوماً .

كانت هذه المذكرة الصغيرة التي تبرر موقفه، والتي أمر فوكيهه بالألا يفتحها إلا إذا حدثت لچوليان حادثة، قد جعلت على شكل قصة، وقد حاول چوليان قدر استطاعته ألا يتهم فيها الأنسة دى لامول، ولكنه رسم فيها بوضوح موقف هذه الفتاة .

ولما انتهى من كتابه، دق جرس العشاء، فدق له قلبه، لأن خياله كان في شغل بالقصة التي كتبها، ويغلب على شعوره الشؤم والفجیعة . كان يرى نفسه وقد أحاط به الخدم، وقيدوه ووضعوه في قبوكمتم الفم ثم أقاموا على حراسته خادماً، وإذا اقتضى شرف هذه الأسرة الكريمة أن تحتم هذه المغامرة بخاتمة مخزنة، فمن اليسير أن يقضوا عليه بالسوم التي لا تترك واءها أثراً؛ وعندئذ يزعمون أنه مات على أثر مرض ثم ينقل إلى غرفته ميتاً .

وكان متأزماً حقاً بالقصة التي ألفها، كأنه مؤلف دراما تأثر لما ألف، وقد شعر بخوف حقيقي وهو يدخل غرفة الطعام . وأخذ ينظر إلى هؤلاء الخدم في ملابسهم البديعة ويتأمل وجوههم، ويسائل نفسه: أي هؤلاء قد اختير اليوم للحملة الليلية؟ هذه الأسرة لا تزال تحتفظ بذكريات بلاط هنرى الثالث، وتردها كثيراً، فإذا ما أحست إهانة، كانت أكثر إقداماً من كل الأسر التي علي شاكتها . ثم أخذ ينظر إلى الأنسة دى لامول ليقرأ في وجهها ما دبرته له أسرتها، فألقاها شاحبة، وجهها كوجه آل العصور

الوسطى . ولم يرها من قبل أجل مما هي عليه الآن ، فقد كانت حقيقة رائعة عظيمة . فأصبح مغرماً بها ، وأخذ يقول في نفسه : إن شحوبها ليبنى ، بما اعتزمته من جليل الأعمال .

وحاول عبثاً أن يتنزه في الحديقة بعد العشاء ، لأن الأنسة دى لامول لم تذهب إليها . ولو أنه تمكن من أن يحدثها لأزال عن قلبه هما كثيراً . ولم لا نعترف بالحقيقة ؟ لقد كان جوليان خائفاً مذعوراً . وبما أنه عزم على أن يعمل ، فإنه صم على ألا ينجعل أو يستحي ، وأخذ . يقول : كل ما أطلبه أن تواتيني الشجاعة وقت العمل ، وما قيمة ما أشعر به الآن ؟ ثم ذهب ليرى مكان السلم ويعرف مقدار ثقله .

ضحك قائلاً في نفسه : لقد عزمت على استعمال هذه الأداة ! وإني هنا كما كنت في قرير . ولكن ما أعظم الفرق ! ثم تنهد واستطرد : كنت هناك لا أشك في إخلاص المرأة التي أعرض حياتي من أجلها للخطر . ثم ما أعظم الفرق بين الخطرين !

كان من اليسير أن أقتل في حدائق السيد دى رينال ، ولكن شرفي لما كان يجرح ، لأنه من السهل عليهم أن يخفوا سبب موتي . أما هنا ، فأى قصص كريمة مؤلمة ستقص في صالونات شان وكايوس ورتز وغيرها ! بوأى تصوير مربع يضمني على في كل مكان ؟ سأكون شيطاناً في نظر الأجيال القادمة .

ثم ضحك ساخراً من نفسه واستطرد يقول : سأظل شيطاناً يتحدثون

عنى عامين أو ثلاثة أعوام . ولكن من ذا الذى يستطيع التماس المماذير لى ؟
وإذا فرضنا أن فوكيه طبع المنشور فيما بعد ، فلن يكون ذلك إلا حقارة
جديدة . ماذا ! أأعيش فى منزل ألقى فيه الحفاوة والإكرام البالغين ،
ثم تحدثنى نفسى أن أطبع منشوراً يعرض لما حدث ! وأهاجم فيه
أعراض النساء ! آه ! إنى أفضل ألف مرة أن أكون غراً جاهلاً ! وكانت
السهرة كريهة ممقوتة .

الفصل الثامن عشر

الساعة الأولى صباحا

[كانت هذه الحديقة شاسعة ، خططت منذ سنوات قليلة في كثير من الروعة . ولكن الأشجار كان قدمضى عليها أكثر من قرن ، وهى مصطبغة بالصبغة القروية.]
ماسنجر

كان يكتب إلى فوكيه خطابا آخر ، يطلب منه ألا ينفذ ما كلفه به في خطابه السابق ، حين دقت الساعة الحادية عشرة . وأخذ يعث بقفل الباب محدثا جلبة؛ ليوم السامع بأنه أغلق على نفسه باب غرفته . ثم ذهب بعد ذلك في خفة وحذر ليرى ما يحدث في البيت؛ وخاصة في الطبقة الرابعة التي يقيم فيها الخدم ، فلم يجد شيئا خارجا عن المألوف . وكانت وصيفة من وظيفات المركيزة تحيي سهرة والخدم يشربون البنش في فرح وسرور؛ فأخذ جوليان يقول في نفسه : إن الذين يضحكون هكذا لن يشتركوا في الحملة الليلية ، بل سيكونون المشتركون أكثر جدا ووقارا من هؤلاء .

وذهب أخيرا إلى الحديقة واتخذ مقعده في جانب مظلم ، وتحدث قائلا : إن كانوا عازمين على أن يخفوا الأمر على الخدم فلا بد أنهم سيحضرون من كلفهم القيام بهذه المهمة من فوق جدران الحديقة لياغتوني في غرفتها .

وإذا كان السيد دى كروازنورا يحتفظ بشيء من الهدوء في كل

هذه المغامرة ، فعليه أن يباغتني قبل أن أدخل غرفة الفتاة التي يريد أن يتزوجها حتى يصون عليها عرضها .

ثم جعل يستكشف المكان استكشافا حرييا على جانب كبير من الدقة، وقال : شرفي هو الذي يتعرض للضياع ، فلو اني ارتكبت خطأ أو عثرت في عثرة ماجازى لي أن أقول : لم أفكر في هذا ؛ وليس هذا يعد عذراً . كانت ظلمة الليل حالكة سوداء ، شقها بزوغ القمر في الحادية عشرة حتى أضاء واجهة القصر التي تطل على الحديقة في منتصف الساعة الأولى . ودقت الساعة الأولى صباحا ، ونوافذ الكونت نوربير لا يزال الضوء يري من خلالها ، ولم يستول على جوليان رعب طول حياته كما استولى عليه الرعب في هذه الليلة ، فقد رأى أن العمل محفوف بالمخاطر ، وقد كل حماسة في أن يقدم عليه وأخذ يقول : إنها المجنونة !

ولكنه ذهب وأحضر السلم ، وانتظر خمس دقائق ، علمها تشير عليه بأن يرجع ومضت خمس دقائق بعد الساعة الأولى فوضع السلم على نافذة ماتيلد ، وصعد في خفة ، ويده تقبض على مسدسه ، والذهول يملكه لأنهم لم يهجموا عليه . ولما اقترب من النافذة ، فتحت في سكون شديد ، وسمع ماتيلد تقول في تأثر شديد :

— هأتذا قد جئت ... إنني متبعة حركاتك منذ ساعة .

وكان شديد الاضطراب لا يعرف مايفعل ، لأن قلبه لم يكن يحمل لها شيئا من الحب ، وحسب وهو خيران أنه لا بد له من الجرأة ، فحاول أن يقبلها ، لكنها دفعته قائلة :

— تبالك !

وسره كثيرا أنه أعنى مما كان مقدا عليه ، وأسرع فألقى نظرة على ماحولة : كان ضوء القمر ساطعا وضاء ؛ حتى أن الظلال التي ألقاها في غرفة ماتيلد كانت شديدة الظلمة ، فأخذ جوليان يقول : قد يكون هنا رجال كامنون بحيث لا أراهم ، فسرهما أنها وجدت موضوعا تتحدث إليه فيه ، لأنها كانت فريسة لعذاب أليم ، من مشاعر الخجل والتحفظ التي سيطرت عاينها من جديد ، وهي مشاعر تتصف بها كل فتاة تنشأ نشأة كريمة ، سألته قائلة :

— ما هذا الذي أراه في خبيك الجاني؟ وسره هو كذلك أنه وجد ما يقوله :

— هي أسلحة مختلفة ومسدسات كثيرة .

— يجب أن ترفع السلم من موضعه .

— إنه ضخم وأخشى أن يكسر زجاج نوافذ الصالون أو زجاج

الطبقة الأرضية .

— يجب ألا يكسر الزجاج . وحاولت وهي تقول هذه العبارة أن

تتخذ لهجة الحديث العادي ، ولكنها لم تستطع ، ثم استطردت : يمكنك

أن تخفض السلم بواسطة حبل تربطه في الدرجة العليا . وإني أحتفظ دائما

بشيء من الحبال في غرفتي .

فعجب لأمرها وأخذ يقول : أهذه فتاة عاشقة؟! إنها لتجروا على

أن تقول إنها تحب! وهذا الهدوء الشديد ، والحكمة البالغة فيما تتخذه

من احتياط ، يدلانني على أنني لن أنتصر على كروازنوا كما كنت أعتقد

جهلاً وغفلة ، نعم لن أنتصر عليه وإن كنت أخلفه فقط . ولكن ماذا يضيرني من وراء ذلك؟! هل أحبها؟ إني أنتصر على المريكز في أن سيكون الله من يخلفه وهذا يغضبه ، ويزداد غضبه حين يعلم أنني أنا الذي أخلفه ! كم كانت نظراته إلى بالأمس في مقهى تورتونى تنطوى على الكبر ! لقد زعم أنه لا يعرفنى . ولما لم يجد مفراً من أن يحينى ، كانت تحيته تنم عن الكراهية والشر !

ربط الحبل في الدرجة العليا وأخذ يخفض السلم قليلاً قليلاً ، وانحنى من الشرفة انحناءة شديدة حتى لا يكسر زجاج النوافذ ، وبينما هو يفعل ، قال في نفسه : إنها للحظة طيبة لقتلى ، ، إذا كان هناك من اختفى في غرفة ما تيلد ليفتك بى . ولكن السكون كان شاملاً في كل مكان .

وصل السلم إلى الأرض ، واستطاع جوليان أن يضعه في ممشى الحديقة بجوار الحائط في مكان زرعت فيه نباتات غريبة تعنى بها المريكزة . فقالت ماتيلد : — ماذا ستقول أمى حين ترى نباتاتها الجميلة وقد تلفت ! ثم استطردت تقول فى هدوء تام : يجب أن نلقى بالحبل بعيداً ، لأنه لو شوهد معلقاً بالشرفة ، لكان من العسير على أن أسوغ وجوده . فسألها جوليان فى لهجة مرحة ، متخذاً لغة سكان المستعمرات (وكانت إحدى وصيقات القصر من سكان سان دو بنج) :

— وكيف أنصرف أنا إذن ؟ فقالت والسرور يغمرها :

— ستخرج من الباب . ثم قالت فى نفسها : آه ! هذا الرجل

جذير بحى حقاً !

ترك جوليان الحبل يسقط في الحديقة ، وضغطت ماتيلد على
ذراعها ، فظن أن عدوا من أعدائه قد أمسك به ، فاستدار مسرعا
وأمسك بمنجبر . وخيل إلى ماتيلد أنها تسمع فتح إحدى النوافذ ، فظلا
واقفين وهما جامدان لا يتحركان . وكان ضوء القمر يغمرهما . ولم يلبث
الصوت الذي سمعته ماتيلد أن انقطع ، فزابلها القلق .

لكن ارتبا كهما بدأ مرة أخرى ، وكان شديدا . وذهب جوليان
إلى الباب ليرى أهو مقفل بكل المزاليج ؛ وود لو أنه فتش تحت السريـر
كذلك لكنه لم يجرؤ ، وخـيـل إليه أنه ربما يكون قد كمن تحته خادم
أو خادمان . ثم خشي أن يلوم نفسه في المستقبل على ذلك فتشجع ونظر .
أما هي فكانت تحت سطوة حياء شديد ، واشتأرت من مسلكها
كثيرا ، ثم سألته :

— ماذا فعلت بخطاباتي ؟

فقال في نفسه : هذه فرصة طيبة أبعث بها القلق في نفوس هؤلاء
السادة الذين ربما كانوا يسترقون السمع ، ولأتجنب معركة تنشب بيني
و بينهم ! ثم أجابها :

— أما الخطاب الأول فقد أخفى في إنجيل بروتستنتي ضخم وحملته
عربة سفر الأمس إلى مكان بعيد .

كان يتكلم في وضوح شديد محاولا ذكر كل التفاصيل ليسمع
أولئك الذين عساهم أن يكونوا كامنين في صوانين كبيرين من خشب
الكابلي ، لم يجرؤ على تفتيشهما . ثم استطرده :

— أما الخطابان الآخران فهما في طريقهما بالبريد إلى المكان الذي أرسل إليه الأول .

فذهلت وقالت :

— يا إلهي ! ولكن لم كل هذه الاحتياطات ؟

فسأل نفسه : لم أكذب عليها ؟ ثم قصّ عليها كل ما خالجه من خوف فصاحت في لهجة تحمل الجنون أكثر مما تحمل الحب :

— ذلك إذن هو سبب الفتور في خطاباتك !

ولم يفتن إلى ما في حديثها من رقة ، لأن مخاطبته بصيغة المفرد أذهلته ، أو بددت وساوسه على الأقل . وجرؤ على احتضان هذا الجمال الرائع الذي طالما بعثت صاحبته في نفسه كثيرا من التجلة والاحترام . فدفعته عنها في رفق هذه المرة .

واستعان بذكريته كما فعل في بيزانسون من قبل مع أماندا بينيه ، وأخذ يصبّ في أذنيها بعض عبارات جميلة من هلويز الجديدة . فقالت وهي لاتصغى كثيرا إلى مايقول :

— إن قلبك قلب رجل ، وأعترف لك أني أردت أن أتبين مقدار شجاعتك . إن شكوكك وعزمك على القيام بما طلبت منك لتدل على أنك أكثر إقداما وشجاعة مما ظننت .

وبذلت مجهودا كبيرا في مخاطبته بصيغة المفرد ، حتى شغلها طريقة التحدث معه أكثر مما شغلها ما تقوله له ، لأنها لم تعتد ذلك من قبل . إلا أن طريقة حديثها معه كانت لا تتم عن الحب ، فلم يسرّ جوليان

وذهل من أنها لا تشعر بشيء من السعادة . وقد أراد هو أن يرجع إلى عقله ليستوحيه سعادة يشعر بها . فرأى أن هذه الفتاة المتكبرة تقدره تقديرا شديدا ، وقد فطرت على ألا تسوق المدح جزافا ؛ وساعده هذا التفكير على أن يرضى كبريائه ويشعر بشيء من السعادة .

لكن هذه السعادة لم تكن تضارع لذة روحية لقيها في بعض الأحيان عند مدام دي رينال ؛ لأن عواطف ماتيلد لم يكن فيها شيء من الحنان في تلك اللحظات الأولى . لقد أرضى طموحه إرضاء كاملا — وهو طموح بطبعه — وشرع يتحدث إليها مرة أخرى عن الذين تدور حولهم شبهاته ، وعن الاحتياطات التي اتخذها ودفعه خياله إليها ؛ ثم حاول وهو يتحدث أن يستغل الانتصار الذي ظفر به .

كانت لاتزال كبيرة الاضطراب شاعرة بالأسف على ما فعلت ، ولكن سرها أن تجمد موضوعا للحديث . وتناول حديثهما طريقة اللقاء ، فسر جوليان مرة أخرى من القنطة والشجاعة اللتين أبداهما . كانا يعلمان أن لا بد لهما أن يحذرا أناسا فطروا على الذكاء والحرص ، فتانبو الصغير جاسوس ما في ذلك ريب ، ولكن جوليان وماتيلد لم يكونا أقل منهم حرصا ومهارة .

ثم هل هناك طريقة أجدى عليهما من أن يلتقيا في المكتبة ليتفقا على كل شيء ؟ قال لها جوليان :

— في استطاعتي أن أذهب إلى أي مكان في القصر دون أن تحوم حولي الشبهات ، وفي مقدوري أن أدخل مخدع المر كيزة ، دون أن تظن (م - ١٢ - سنندال - ج ٢)

بني شيئاً . وكان على السائر أن يمر بغرفة المركيزة كي يصل إلى مخدع
ابنتها ، ولكن إذا فضلت ماتيلد أن يلقاها عن طريق السلم ، فإنه
يتعرض لهذا الخطر الضئيل وقلبه يرقص من الفرح .

وغاز ماتيلد منه وهي تنصت إلى حديثه ، أن تسمعه يتكلم بلهجة
المنتصر . فعجبت قائلة في نفسها : لقد أصبح إذا السيد المسيطر على !
فصارت فريسة لتأنيب شديد ، وأوحى إليها عقلها أنها ارتكبت جنونا
وحماقة لا حد لهما . وخيل إليها أنها لو استطاعت أن تقضى على نفسها
وعليه لفعلت . وفي اللحظات التي كانت قوة إرادتها لاتصور لها قبح
ما فعلت ، كان ينتابها شعور بالخجل الشديد والخفر المهدر فتحنس ألما
قاسيا . إنها لم تفكر إطلاقا في الحالة التي تنتابها الآن !

وأخيرا أخذت تقول في نفسها : على أنه يجب على أن أتحدث إليه ،
فالتقاليد تقضى بأن تتحدث الفتاة إلى عشيقها . ثم بدأت تكلمه ، مدفوعة
بالواجب لا أكثر ولا أقل ، ففاض كلامها بحب وحنان ، وإن خلت
منهما لهجة الحديث ؛ وأفضت إليه بكل ما اعترفته في سبيله في هذه
الأيام .

كانت مصممة على أن تهيبه نفسها إن استطاع الوصول إليها . بسم
البستاني كما قضت مشيئتها . ولكنها قالت ذلك في هدوء كامل وأدب
كثير . ولكن مثل هذه العواطف تلتقي إلى الأحياب في غير هذه الصورة :
إذ لا يزال لقاؤها حتى الآن فاترا إلى أبعد الحدود، جديرا بأن يقلب الحب

كراهية ؛ فيأله من درس في الأخلاق تتلقاه فتاة طائشة ! أتساوى هذه اللحظة أن تضيع مستقبلها ؟

وسادت بينهما شكوك كثيرة يظنها من يراها بنظرة عابرة أنها نتيجة كراهية شديدة ، مادامت المرأة متحكمة في عواطفها بقوة إرادتها ، سامعة نداء العقل معرضة عند نداء المشاعر . لكنها أخيرا أسلمته جوهره عرضها وأصبحت له خلية ظريفة .

وأبدت من النشوة واللذة قدرا كانت تريد أن تظهره ، ولم يكن هو ما تحسه في الواقع لأن الحب الجارف إنما كان مثلا يمتدنى أكثر مما كان حقيقة واقعة .

وقد اعتقدت الآنسة أنها تقوم بواجب نحو نفسها وعشيقها إذ حدثت نفسها قائلة : هذا الشاب التعس أبدى شجاعة كبيرة ، فمن حقه أن يكون سعيدا ، وإلا كنت تافهة المسلك . على أنها ودت لو تخلصت من حالتها الراهنة ، ولو تحملت في سبيل ذلك شقاء مقبلا .

وعلى الرغم من اضطرابها الشديد كانت مسيطرة تماما على ماتقول . لم يفسد ليلتهما ندم ولا عتاب ، تلك الليلة التي اعتبرها جوليان غريبة أكثر مما اعتبرها سعيدة . وأى بون شاسع يا إلهي بين ليلته تلك وبين ما استمتع به في أربع وعشرين ساعة قضاها في فريبير ! هذه الطرق الباريسية الجميلة قد وجدت سبيلا إلى إفساد كل شيء ، حتى الحب . كان هذا حديث جوليان مع نفسه وكان مدفوعا فيه بظلم شديد . وهذه هي الآراء التي شغلت تفكيره وهو قائم في أحد الصوانين الكبيرين المصنوعين من

خشب السكابي ، دخله حين أحسا الحركة تدب في المسكن المجاور لمخدع ماتيلد ، وهو مسكن المركيزة . وذهبت الفتاة مع أمها إلى الكنيسة ، ثم شعر جوليان أن الوصيفات غادرن الغرفة ، ففر من مخبئه في سهولة ويسر قبل أن يعدن ليتممن أعمالهن . وركب جوادا ليجث عن العزلة في مكان يأحدي الغابات التي تجاور باريس ، لأنه كان ذاهلا أكثر مما كان سعيدا ، بحيث كانت سعادته التي يشعر بها بين الفينة والفينة مثل السعادة التي تهبط على قلب ملازم أتى بعمل مجيد ، فرقاه رئيسه دفعة واحدة إلى رتبة «السكرولونل» . شعر بأن مركزه قد سما سما كبيرا ، فأصبح ما كان بعيد المنال بالأمس بين يديه الآن أو أقل من ذلك شأنا . ثم أخذت سعادة جوليان تزداد قليلا قليلا كلما ابتعد عن القصر وعن باريس .

أما عدم شعوره بالحب والحنان وما يشابه الحب والحنان ، فذلك راجع إلى أن ماتيلد كانت مدفوعة في سلوكها معه بواجب تقوم به ، وإن بدأ ذلك غريبا . لم تجد جديدا في ليلتها هذه ، إذ حدث كل ما رسمته وتوقعته من قبل ؛ فلم تشعر إلا بالخلوى والألم بدل أن تحس السعادة التي تحدث عنها القصص .

وأخذت تسائل نفسها : أتراني أخطأت التقدير ، فإنني لا أحس

في قلبي أى لون من ألوان الحب له ؟ !

الفصل السابع عشر

سيف قديم

[أريد الآن أن أكون وقوراً فقد حان وقت الجد ،
وأصبح الضحك في أيامنا هذه يعد تفریطاً في جانب
الجد ، وسخرية الفضيلة من الرذيلة تدعى جريمة .]
دون جوان



لم تظهر ما تيلد في غرفة الطعام وقت الغداء ، وذهبت في المساء إلى
الصالون وبقيت فيه لحظة لكنها لم تنظر إلى جوليان ، حتى عجب من
مسلكتها الغريب ، لكنه قال في نفسه : أنا أجهل عاداتهم ، وستفسر هي
هذا تفسيراً واضحاً . على أنه كان مدفوعاً بحب استطلاع شديد ، فأخذ
يدرس تقاطيع وجهها حتى رأى في وضوح وجلاء أن فيه جفوة وشراً .
كانت ولا شك امرأة غير امرأة الليلة الماضية التي أظهرت من النشوة
والسعادة ما لا يمكن أن يصدق ، وما لا يمكن أن يكون حقاً لأنه كان
أكثر مما ينبغي .

وأظهرت له في اليومين التاليين نفس الفتور ، كانت لا تنظر إليه ،
وكأنها لا تشعر بوجوده . فاستولى عليه قلق واضطراب لا حد لها ولم يعد
يفكر إطلاقاً في شعور الانتصار الذي ملك عليه نفسه في اليوم الأول .
وأخذ يسأل نفسه : هل يعد مسلكتها هذا رجوعاً إلى الفضيلة ؟ ولكن

هذه العبارة كانت مما يليق بالبرجوازيين ، لا بما تيلد الجبارة .
واستطرد : إنها لا تؤمن بالدين في الحوادث العادية الأخرى التي
تصادفنا في الحياة ، بل تحب الدين لأنه يفيد مصالح طبقاتها فائدة كبيرة .
ولكن ألا تدفعها رقتها إلى أن تؤنب نفسها تأنيباً شديداً على الجرم
الذي ارتكبته ؟ وقد اعتقد جوليان أنه أول عشيق عرفته ما تيلد .

ولكنه في لحظات أخرى كان يقول : على أن أعترف بأن ليس
في مسلكها ما ينطوى على البساطة أو السذاجة أو الرقة ؛ لم أرها من قبل
أشد جبروتاً منها الآن . فهل تحمقني ؟ إنها جديرة بأن تؤنب نفسها
على ما فعلت من أجلى لأننى سيء النشأة حقير الأصل .

كانت الأوهام مسيطرة عليه ، تلك التي تعلمها من الكتب ومن
ذكريات فريير ، وجعل يتتبع أباطيل خلية رقيقة لم تعد تفكر في نفسها
منذ أسعدت عشيقها ، كان هو كذلك وكبرياء ماتيلد نائرة عليه أشد ثورة .
ولم يجد السأم إلى نفسها سبيلاً منذ شهرين فأصبحت لا تخافه كما
كانت تخافه من قبل ، ولهذا فقد جوليان في نظرها أكبر ميزة له دون
أن يتسرب إليه أدنى شك من ذلك .

واستولى عليها حزن قاتل كانت فريسة له في كل آن ، وأخذت تقول :
لقد فرضت على نفسى سيدياً ! إنه يتمسك بالشرف من حسن حظي ،
ولكنى إذا جرحت كبرياءه انتقم منى بأن يذيع سرنا بين الناس . لم يكن
لماتيلد عاشق من قبل ، وجرت العادة بأن نرى ، في مثل هذا الظرف
موجة من السعادة والحنان والرقة تغمر أكثر النفوس قسوة وجفوة ، ولم

تسكن هي كذلك بل كانت فريسة لأشد الآراء مرارة وهولاً .
كانت تقول : إنَّ له على سلطاناً كبيراً ، ما دام يتحكم في بما يوجيه
من تخويف ، وفي استطاعته أن يعاقبني عقاباً صارماً ، إذا أغضبته . وكان
هذا الرأي وحده كفيلاً بأن يدفعها إلى إهانة جوليان ، لأن الشجاعة من
أقوى صفاتها ، فهي تخاطر بحياتها دائماً ، تضطرب تارة ويزول السأم
الذي يستولى عليها في كثير من الحالات ، وتملك نفسها فكرة ، هي أن حياتها
كلها رهينة المصادفة .

وكانت في اليوم الثالث مصرة على ألا تنظر إليه ، فتبها بعد الطعام
إلى حجرة البلياردو وإن كانت لا تريد ، فغضبت غضباً شديداً ،
وقالت له :

— إنك تعتقد يا سيدي أنه قد صارت لك حقوق على ، ما دمت
تريد أن تتحدث إليّ وأنا لا أريد ، أليس كذلك ؟ ... أتعرف أن ليس
في العالم كله من جرؤ على أن يفعل ما تفعل ؟

وكان حديث العاشقين ينطوي على السخرية ؛ فقد كان كل منهما
مدفوعاً بكرهية صاحبه دون أن يحس . فلايحتمل مايقوله الآخر ، ولوأنهما
متخلفان بأخلاق الطبقة الراقية ، وسرعان ماوصل الأمر بينهما إلى أن يعلن
القطيعة في صراحة . قال لها جوليان :

— أقسم ألا أبوح بالسر أبداً ، وأستطيع أن أقول : إنني لن أتحدث
إليك ، إذا كان كلامي يؤذي سمعتك ، أو إذا كنت تشعرين بالندم
على ما حدث . ثم حياها في احترام وانصرف .

عمل هذا في سهولة كأنه يقوم بواجب مفروض ، لأنه كان واثقاً من أنه ليس مولعاً بها ولا محباً لها . ولا شك في أنه ما كان يحبها قبل ذلك بثلاثة أيام ، ليلة أخفته في الصالون الكبير في مخدعها . ولكن سرعان ما تغير في نفسه كل شيء حين رأى أن أمرها قد صار إلى القطيعة . وأخذت ذاكرته الجبارة ترسم من جديد كل ظروف الليلة التي قضاها معها . وتذكره بأدق التفاصيل ، وإن لم يشعر بلذة في تلك الليلة . وفي الليلة التي أعلن فيها قرار القطيعة ، كاد يحن حين ألقي نفسه مضطراً إلى أن يعترف بأنه يجب الآنسة دى لامول .

وصارت نفسه ساحة لنزاع شديد حين اكتشف هذا ، وتبدلت عواطفه تماماً . وبعد ذلك بيومين كاد يقبل المريكز دى كروازنوا ويبيكي بين يديه ، بعد أن كان يظهر له العزة والكبرياء .

ثم أكسبه ما اعتاده من الألم نوراً أضاء بصيرته ، فعزم على الرحيل إلى « لنجدوك » ، وأعد حقييته ، وذهب إلى حيث عربات السفر .

وقد كاد يغشى عليه حين وصل إلى مكتب السفر فأخبر بأن المصادفات العجيبة قضت بأن يكون له مكان في اليوم التالي في العربة الذاهبة إلى تولوز . فحجز هذا المسكان وعاد إلى القصر ليعلم المريكز بعزمه على السفر . وكان المريكز قد خرج ، فذهب جوليان إلى المكتبة منهوك القوى

لينتظر عودته . ولكن ماذا أصابه حين وجد فيها الآنسة دى لامول ؟

وقع بصرها عليه فتصنعت القسوة وبدت غاضبة الملامح ، فظن أن الأمر جد خالص ، وكان متضععاً من الألم مذهولاً من المفاجأة ،

هقال لها بلهجة رقيقة خرجت من أعماق نفسه : ألم تعودى تحيينى إذن ؟
فترقرقت فى عينها دموع الأسف على نفسها وقالت :

— شدّ ما أحتقر نفسى لأتى فرطت فى عرضى لأول قادم .

فصاح جوليان .

— لأول قادم ! ثم أسرع فأمسك بسيف قديم من سيوف العصور
الوسطى كان فى المكتبة كأثر من الآثار .

وكان جوليان معتقداً ساعة تحدث إليها أنه شديد الألم ، ولكن
ألمه زاد مائة مرة حين رآها تسكب دموع الندم . واعتقد أنه سيكون أسعد
الناس لو أنه استطاع أن يقتلها . وجعل يخرج السيف الأثرى من غمده
القديم ملاقياً فى ذلك بعض الصعوبة فهبطت على ماتيلد فى هذه اللحظة
راحة وسعادة بهذا الإحساس الجديد، الذى لا عهد لها به من قبل ، فتقدمت
نحوه فى كبرياء وقد جفت دموعها المسفوحة .

وتذكر جوليان المريكز دى لامول فجأة ، تذكر الرجل الذى يحسن
إليه ، فقال فى نفسه ، أقتل ابنته ! يا للعار ! ثم استدار ليلقى السيف
من يده . واستطرد يقول : لا شك أنها ستغرق فى الضحك حين ترى هذه
الحركة التمثيلية ، وأعادت إليه هذه الفكرة هدوء نفسه . فأخذ ينظر إلى
حد السيف القديم فى عناية وإعجاب ، كما لو كان يفتش عن بقعة
من الصدأ ، ثم وضعه فى غمده ، وعلقه من جديد فى مسامره البرنزى المذهب
وهو هادىء ساكن ؛ وكانت حركاته جدّ بطيئة آخر الأمر فاستغرقت

دقيقة ؛ فأخذت الأنسة تنظر إليه في ذهول ، وقالت في نفسها : لقد كنت على وشك أن أقتل بيد عشيقى !

وذكرتها هذه الفكرة بأحسن الأيام زمن شارل التاسع وهنرى الثالث . كانت واقفة تجاه جوليان لا تبدى حراكا ، وكان قد أعاد السيف إلى مكانه ، وأخذت تنظر إليه بعينين لا ترى فيهما الكراهة . ويجب أن نعترف بأنها كانت مغرية في هذه اللحظة إلى أبعد حدود الإغراء ، لأنها ولا ريب دمية باريسية (وكان هذا هو الاعتراض الشديد الذى يبديه جوليان على نساء باريس) .

وأخذت تقول في نفسها : إنى أشعر نحوه بشيء من الضعف ، إنه يحس حقاً أنه أصبح سيدى ومولاي ، وإلا ما استطاع أن يسدد إلى هذه الضربة في اللحظة التى كنت أتحدث إليه فيها بمجد وصرامة . ثم ولت الأدبار .

ورآها جوليان تجرى فقال في نفسه : يا إلهى ! كم هى جميلة ! إنها بعينها تلك التى كانت تعانقنى بقوة منذ ثمانية أيام . . . وهذه اللحظات لن تعود أبداً ! وما ذلك إلا من خطئى ! لأننى لم أقدر عملها فى حينه حتى قدره ، لم أقدر عملها الخارق الذى غمرنى بلذة لا حد لها ! فيجب إذن أن أقرر أننى فطرت عل خلق فيه غفلة وسفاهة .

ثم عاد المركز ، فأسرع جوليان يخبره برحيله . فسأله :

— إلى أين ؟

— إلى لنجدوك .

— لا أوافق إذا سمحت ، لأنى أريد أن أكلفك القيام بعمل خير من ذلك وأكرم ، وإذا قدر لك السفر فسيكون نحو الشمال ... وإن شئت أن أستعمل المصطلحات الخريية نهت عليك بعدم مغادرة القصر . إنك تضطرنى ألا أتغيب عن القصر ساعتين أو ثلاث ساعات ، ورمما احتجت إليك بين لحظة وأخرى .

خياه جوليان ، وانصرف دون أن يتكلم ، وترك المركيز فى ذهول شديد ، لأن بطلنا كان فى حالة لا تسمح له بالكلام . ثم ذهب إلى غرفته وأغلق عليه الباب ، حيث يستطيع أن يبكى ، فى حرية واسعة ، قسوة مصيره . قال فى نفسه : لم أعد قادراً إذاً على الابتعاد عن هذا المكان ! ويعلم الله كم يوماً يستبقينى فيها المركيز بياريس . يا إلهى ! ماذا سيكون أمرى ؟ وليس لى صديق أستطيع مشاورته : فالكاهن پيرار لا يتيح لى فرصة آثم فيها أول جملة أقولها له ، والكونت ألتاميرا يقترح على أن أشارك فى مؤامرة من المؤامرات .

ومع ذلك فأنا مجنون ، نعم ، أشعر بأننى مجنون !
فمن ذا الذى يرشدنى ؟ وماذا سيكون أمرى ؟

الفصل الثامن عشر

لحظات قاسية

[وإنما لتعترف لى بذلك ! وتذكر فى إسهاب أدق الظروف وأنفها ! إن عينها الجميلة تنظر إلى عيني ، ويرسم فيها الحب الذى تشعر به نحو غيرى !]

شيلر

سرت الأنسة دى لامبول ، ولم تعد تفكر إلا فى السعادة التى ملكت نفسها حين كانت على وشك أن تقتل . وأخذت تقول فى نفسها : إنه جدير بأن يكون سيدى ؛ لأنه جروء فهم يقتلى . فكم شابا من الذين نلقاهم فى المجتمع ، نستطيع أن نصرهم جميعا ليقدروا على الإتيان بمثل حر كته هذه ، الصادرة عن شعور صادق ؟ يجب أن أعترف بأنه كان رائع الجمال فى اللحظة التى وقف فيها على المقعد؛ ليضع السيف فى مكانه الأنيق الذى اختاره له النجار ! لم يكن حظى من الجنون كبيرا حين أحببته . ولو عرضت عليها فى هذه اللحظة طريقة مشرفة تعود بها سيرتها الأولى مع جوليان ، لأقبلت عليه فى لذة وسرور . أما جوليان فقد أغلق باب غرفته عليه ، وكان فريسة لأشد الآلام : تعتربه آراء جنونية فيود لو ارتمى عند قدميها . ولو أنه انتقل بين الحديقة والقصر بطريقة تمكنه من انتهاز الفرص ، بدل أن يعتزل كل من فى المنزل ، لأمكن أن يتبدل حزنه الأليم سعادة تامة فى لحظة واحدة . غير أنه لو كان ما عرا لحالت مهارته بينه وبين الإتيان بهذه الحركة البديعة حين أخذ السيف ، تلك الحركة التى خلعت عليه جمالا كثيرا

في نظر الأنسة دى لامول. ولكنه ليس ماهرا ، فقد ظلّ في غرفته نهارا كاملا. أما ماتيلد فقد أخذت تصور لنفسها تلك اللحظات القصيرة التي أحبته فيها ، وندمت على فوات هذه اللحظات .

وتحدثت إلى نفسها قائلة : هذا الشاب التعس يرى أنى لم أحبيه إلا ابتداء من الساعة الأولى بعد منتصف الليل ، حين صعد إلى غرفتي بالسلم ، وقد حمل سلاحه في جيبيه الجانبي ، حتى الساعة الثامنة صباحا . على أنى لم أبدأ في التفكير في أنه سيصبح ذا سلطان مطلق علىّ إلا بعد ذلك بربع ساعة ، وأنا أستمع إلى الصلاة في سانت فالير ، وخيل إلىّ أنه سيخضعني لطاعته بما يبثه في نفسى من رعب وتخويف .

وبعد العشاء ، لم تفر ماتيلد من جوليان بل تحدثت إليه وحملته على أن يتبعها إلى الحديقة . فامتثل دون أن ينتبه إلى هذا الدليل المادى ، ذلك أنها — على غير علم منها — استجابت لداعى الحبّ وأحست لذة كبيرة وهى تسير إلى جواره ، وأخذت تنظر إلى يديه في شغف عظيم ، وهما اليدان اللتان قبضتا على السيف في الصباح تريدان أن تقتلاها .

لقد قضى هذا العمل وكل ماحدث بينهما على حديثهما القديم . وأخذت ماتيلد تكشف له عن قلبها شيئا فشيئا . وكانت تجد لذة كبيرة في هذا الضرب من الحديث ، وأخبرته بما أحسنه من قبل ، للسيد دى كروازنوا وكايوس ؛ وإن كان هواها لها هوى عابرا ... فصاح جوليان والغيرة الشديدة تفيض من عبرات هذا العاشق الموله :

ماذا ! والسيد دى كايوس أيضا ! غير أنها أدركت أن الغيرة هى

التي دفعته إلى ماقال، فلم تغضب .
وظلت تعذبه عذابا شديدا، فقضت عليه أدق تفاصيل مشاعرها الماضية
في صورة جذابة وفي لهجة صدق ومودة . وراها تصور له ما كان يقع
تحت بصرها ، وتألم كثيرا وهي تحدثه حين وجدها تكشف بعض
دخائل نفسه .

وتسلطت عليه نار الغيرة، وأخذت تعذبه عذابا شديدا؛ لأن مجرد الشك
في أن غريمه ينال بعض حبها أو يحظى ببعض عطفها، يؤلمه ألما بالغا، فما
بالك به وهو يراها الآن تعترف له في إطناب، بما أوحته من هوى، وتحدثت
إليه عن مشاعرها نحو الآخرين . لقد بلغ به الألم أقصى الغايات، لأنه أصبح
يعبدها . وكم لقي جزاءه في هذه اللحظة على تلك الحركات التي تنطوى على
الكبر، والتي كانت تصدر منه حين يتيه على كروازنوا وكيلوس ! وكم أخذ
يبالغ الآن على الرغم منه في صفاتها الضئيلة ! ثم كم كان مخلصا في
احتقاره لنفسه !

كان يراها جديرة بالعبادة ، وقد أعجب بها إعجابا لاسبيل إلى وصفه .
وبينما كان يسير إلى جانبها كان يسترق النظر إلى يديها وذراعيها وقوامها
المياس . وود أن يركع عند قدميها وقد سحقه الحب والألم . ويصيح بها :
رحمة بي ! على أن هذه العادة الرائعة الفذة في كل شيء ، إذا كانت تجبني
الآن فستحب بعدي وعمما قريب السيد دي كيلوس !

كان لا يشك في إخلاصها وصدقها في كل ما قالت له، وأرادت أن تزيد
في ألمه، فقضت عليه حقيقة مشاعرها نحو كيلوس أيام أن كانت تحبه ،

قصتها في صورة أوحث إليه أنها مازالت تسكن له الحب ، حتى رأى في وضوح وجلاء أن لهجتها نتم حقيقة عن الحب .

ولو أن رصاصاً صُهر وصب في صدر جوليان ، لكان عذابه أقل مما يلقاه الساعة وكيف السبيل إلى أن يعرف هذا الشاب التعس ، وهو يلقى ما يلقاه ، أن الآنسة دى لامول أخذت تستعيد في ذاكرتها هذا الحب الذي أحسته لكايوس ولوز ، ووجدت لذة في ذلك ، لأنها تتحدث إليه هو وحده ؟

وأحسن بضيق شديد ، وهو ينصت إلى اعترافها المطول عن حبها لأناس ، وهما في نفس المكان الذي كان يجلس فيه منذ أيام تحت أشجار الزيزفون ، ينتظر دقائق الساعة الأولى صباحاً ليصعد إلى غرفتها . لا يستطيع الإنسان أن يتحمل من الألم أكثر من هذا المقدار .

وظل هذا الود القاسي ثمانية أيام كوامل . وكانت ماتيلد تبحث عنه تارة ولا تفر من لقائه تارة أخرى وتتحدث إليه . على أن موضوع الحديث ما كان يتغير ، فسكانا كأنهما يجدان لذة قاسية ممضة في أن تتحدث إليه عن عواطفها نحو الآخرين ، وحبها لهم : وذكرت له الخطابات التي كتبتها إليهم ، وقصت عليه بعض مافيهما وقرأت بعض جملها . وفي الأيام الأخيرة بدت كأنها تنظر إليه في فرح ينطوى على الخبث . وكانت آلامه مصدر لذة كبيرة لها .

ويظهر لنا واضحاً أن جوليان ليس خبيراً بالحياة ، وأنه لم يقرأ شيئاً حتى القصص ؛ ولو أنه كان أقل غفلة مما هو عليه ؛ لقال لهذه التي يعبدها في هدوء

تام حين أفضت إليه بما أفضت : عليك أن تعترفي بأني أنفرد بحبك من دونهم جميعا ، وإن كنت أقل شأننا من هؤلاء السادة .

لو أنه قال لها هذا لكان من المحتمل أن تشعر بالسعادة من أنه أدرك ماترى إليه ، أو كان نجاحه — على الأقل — متوقفا على ما يبيديه من ظرف ساعة يقول لها هذا ، وعلى حسن اختياره للمناسبة التي يختارها . لكنه قد خرج من هذا المأزق منتصرا على كل حال ، بعد أن كادت ماتيلدا تسأم من هذا الموقف ، فقد حدث يوما أن قال لها وهو فريسة للحب والألم :

إنك لم تعودى تحبيننى وأنا الذى أعبدك ! فكان هذا التصريح أشد حماقة ارتكبتها ، لأنه قضى فى طرفة عين على اللذة التى كانت تلقاها الآنسة دى لامول فى الإفضاء إليه بما فى نفسها . وبدأت تعجب من أن لم تجرحه كل هذه القصص التى قصتها على مسامعه ، حتى أضحت على وشك الاعتقاد بأنه ما كان يحبها ، قبل أن يفضى إليها بهذا التصريح المنطوى على الحق والبلاهة ، وكانت تقول فى نفسها : لاريب أن كبره قد قضى على حبه إياى . إنه ليس بالرجل الذى يرى نفسه خيرا من كايوس ولوز وكروازنوا ، فهو يعترف بأنهم جميعا أفضل منه ، لا ، لن أراه بعد الآن را كما عند قدمى ! كان جوليان فى الأيام الماضية يتحدث إليها فى سذاجة ، مثنيا فى إخلاص على صفات هؤلاء السادة وفضائلهم ، كان يبالغ كثيرا فيما يقول . ولم يخف هذا على الآنسة دى لامول ، وقد عجبت منه ، لكنها لم تدرك السر فى ذلك . أن جوليان كان ينشد السعادة وهو يثنى على غريم يعتقد أن قلبه يته لا يزال يضم له حبا .

على أن هذه العبارة الصريحة إلى أبعاد الحدود، والتي تنطوي على الغفلة، غيرت الموقف كله في الحال، فقد أصبحت ماتيلد واثقة من أنها محبوبة، فاحتقرته تماما.

كانت تنزهه معه ساعة أفضى لها بهذا التصريح السفيه، فغادرته في الحال، وفي نظراتها الأخيرة التي ألقتها عليه أحتقار شديد، وعادت إلى الصالون، ولم تنظر إليه نظرة واحدة طول السهرة. وجاء اليوم التالي والاحتقار يملأ قلبها، ولم تعد تفكر في هذه الحركة التي أتاها، والتي رفعته في عينها ثمانية أيام كاملة، وجعلته صديقها المقرب. لقد أصبحت الآن لاتطبق أن تنظر إليه، واستولى عليها شعور بالاشمئزاز منه، وكرهت كراهية شديدة أن تملأ منه بصرها إذا وقعت عيناها عليه.

لم يستطع جوليان أن يدرك شيئا مما يدور في نفسها منذ ثمانية أيام، لكنه أدرك ما تنطوي عليه نفسها من التحقير. فرأى ألا يظهر أمامها إلا قليلا، وألا ينظر إليها إذا ما التقيا.

ثم عزّ عليه ألا يلقاها، وشعر بألم مرير من حرمانه منها، وأحس أن شقاءه قد زاد كثيرا عن ذي قبل، فقال: إن شجاعة الرجل لاتزيد على ذلك.

وأخذ يقضى أيامه في نافذة الطبقة العليا في القصر؛ مغلقا مصراع النافذة في عناية شديدة، وناظرا إلى الآنسة دي لامول حين تسير في الحديقة.

وماذا كان أمرها حين تتنزه بعد الطعام هناك مع كايوس ولوز وغيرهما من الشبان الذين اعترفت له بأنها كانت تحبهم من قبل؟؟ وكان جوليان يشعر حين يراها بألم شديد ، فكم من مرة كاد يصيح ، وأصبحت هذه النفس القوية الجريئة مضغضة خائفة .

وكانت كل فكرة لآتمت بصلة إلى الأنسة دى لامول ، تعدّ بغيضة إلى نفسه ، ولم يعد قادرا على أن يكتب أسهل الخطابات ، حتى قال له المرకిزيوما :
إنك لمجنون .

فاضطرب جوليان لأن المرకిزي قد كشف أمره ، وادعى أنه مريض فصدقه دى لامول في كل ماقاله . وأخذ من حسن حظه يداعبه وقت العشاء متحدثا عن رحلته المستقبلية ؛ فادركت ماتليد أنها ربما كانت طويلة الأمد . وكان جوليان منذ أيام حريصا على أن يفرّ منها ، وحاول الشبان الذين كان لهم من الصفات والمزايا ما حرّمه ذلك الشاب الشاحب العبوس أن ينتزعوا ماتليد من أحلامها ؛ فلم يستطيعوا إلى ذلك سبيلا .

كانت تقول في نفسها : إن الفتاة العادية تبحث عن بغيثها بين هؤلاء الشبان الذين ترمقهم الأبصار في كل الصالونات ، لكن الفتاة الممتازة في الخلق والعبقرية ، لا تنزل إلى هذا المستوى العادي .

سنتجه إلى الأنظار دائما حينما أكون رفيقة رجل كجوليان ، لا ينقصه إلا لئال ، الذي أمالك منه الكثير ، ولن أصبح في الحياة شيئا مهملا . لن

أخشى دائما قيام الثورات ، كما تخشى ذلك بنات عمومتى اللأى يخفن العامة كثيرا فلا يجرؤن على تأنيب سائق عربة يسيء معاملتهن ، أما أنا فواثقة من أننى سألعب دورا خطيرا هاما ، لأن الرجل الذى اخترته شريكا فى حياتى ، يتصف بالخلق الطيب وبالطموح الشديد . ثم ماذا ينقصه ؟ الأصدقاء والمال ؟ سأتيح له الأصدقاء وسأمنحه المال . ولكن عقلمها كان يحمل من جوليان شخصا وضعيا ، تضطره إلى أن يجهبها متى شاءت .

الفصل التاسع عشر

أوبرا بوف

[كم يشبه ربيع الحب هذا

تلك الهجة المادعة ليوم من أيام أبريل ؛ تشرق

فيها الشمس بكل جمالها

ثم لاتبث سحابة أن تخفي معالم اليوم]

شكسبير

كانت ماتيلدا مشغولة بالتفكير في المستقبل ، وبالذور العجيب الذي تطمع في أن تقوم به ، وأخذت تندم على ما فرط منها من مناقشات جافة مع جوليان ، وأحاديث تتناول ما وراء الطبيعة كثيرا ما كانت تعرض لها إذا تحدثت إليه . لقد سئمت الأفكار السامية ، وكانت تأسف أحيانا على فوات لحظات السعادة التي لقيتها بجواره ، على أن هذه الذكريات الأخيرة شابهها بعض الندم ، وكثيرا ما كانت تلقي العذاب الأليم من هذه الذكريات .

كانت تقول في نفسها : إذا صح أن لكل إنسان ناحية ضعيفة ، فمن واجب فتاة مثلي ألا تنسى ما كتب عليها إلا من أجل رجل ممتاز ؛ لن يقال : إن شاربه الجميل هو الذي سحرنى ، ولا رشاقته وهو يركب جواده هي التي فتنتني ، ولكن سحرنى منه آراؤه العميقة عن مستقبل فرنسا ، وأفكاره عن مشابهة الأحداث السيئة التي ستقع لنا ، للثورة التي قامت في إنجلترا عام ١٦٨٨ . وكثيرا ما كانت تواجه الندم الذي يلاحقها

فتقول : لقد أغريت ، فيالى من امرأة ضعيفة ! ولكنى على الأقل لم أضل ، ولم تخدعنى المظاهر الخارجية التى تؤثر فى قلوب الدمى .

وإذا شئت ثورة فلم لا يلعب جوليان سورل فيها دور رولان ، وأقوم أنا بدور مدام رولان ؟ إنى أفضل هذا الدور على دور مدام دى ستايل : إن الانحلال الخلقى سيكون عقبة فى عصرنا هذا . لاشك أنى لن الام إذا سقطت مرة ثانية ، ولكنى إن فعلت متّ من الخجل .

لم تكن أحلامها كلها خطيرة كالتقدر الذى نقلناه من أفكارها . كانت تنظر إلى جوليان ، فتجد أعماله جميعاً تنطوى على ظرف كبير .

وكانت تحدث نفسها : لاشك أنى توصلت إلى القضاء على كل فكرة فى نفسه ، ترمى إلى أن تكون له أذى حقوق على . لقد كانت هيئته وهو يبدى إلى هذا التصريح الغرامى منذ ثمانية أيام ، تدل على الألم والحب الشديد ، وتؤيد قولى فى أن ليس له على حق من الحقوق ؛ وينبغى أن أعترف بأن مسلكى كان خطلاً لأننى غضبت من عبارة فيها احترام شديد وفيها حب عنيف .

ولم أغضب ؟ ألسنت زوجته ! لقد كانت عبارته طبيعية ، ولا بدلى من الاعتراف بأنه كان ظريفاً . إنه لا يزال يحببى على الرغم من المناقشات الكثيرة التى دارت بينى وبينه ، وكنت قاسية عليه حين اعترفت له بأنى أحببت بعض هؤلاء الشبان الذين يغار منهم ، على أن هذا الحب إنما دفعنى إليه سأم الحياة التى كنت أحيها . آه ! ليته يعلم أنه لاخطر

عليه منهم ! وليته يعلم أنى أفضله عليهم ، وأنهم جميعا صور متطابقة ، يشبه بعضهم بعضا !

كانت مستغرقة في أفكارها ، فأخذت تخطط بالقلم كيئها اتفق على ورقة من مجموعة صورها . ثم نظرت فرأت أنها آمت صورة جانبية ذهات من رؤيتها ، وأعجبت بها إعجابا كبيرا ، فقد كانت الصورة تشبه جوليان شها تاما . ففرحت كثيرا وصاحت قائلة : إنه صوت السماء ! وإنه من معجزات الحب ، وقد رسمت صورته من حيث لا أدرى .

ثم فرت إلى حجرتها وأغلقت عليها الباب ، وحاولت أن ترسم صورة له بصفة جدية وبمهارة ، ولكنها لم تفلح ؛ لأن الصورة الجانبية التي رسمتها المصادفة كانت تشبهه أكثر من الأخرى ، وسرت بها ماتيلد ورأت فيها برهانا قاطعا على الحب العميق .

ولم تترك مجموعة الصور إلا في ساعة متأخرة حين استدعتها المركبة لتذهب إلى الأويرا الإيطالية . ولم تطراً عليها في هذه اللحظة إلا فكرة واحدة ملكت نفسها ، وهى أن يقع نظرها على جنوليان ، فتطلب من أمها أن يرافقهما ، لكنها لم تصادفه ، ولم يكن معهما في المقصورة إلا أشخاص عاديون . وظلت ماتيلد طوال الفصل الأول تحلم بالرجل الذى أحبته حباً ملك عليها قلبها ؛ أما في الفصل الثانى فقد سمعت مقطوعة غنائية عن الحب ، تصحبها موسيقى بديعة جذيرة بسيا روزا . فأثرت في نفسها أثرا بليغا ، وكانت البطلة تغنى قائلة : يجب أن أعاقب على شدة حبي إياه ، إنى لأهيم به وأعبده !

سمعت ماتيلد هذه الأغنية الرائعة ، فلم تعد تفكر في أى شيء
في العالم .

كانوا يتحدثون إليها ، ولكنها لا تجيب ؛ ولامتها أمها ، فلم تستطع
أكثر من أن تنظر إليها . كانت روحها تخلق بعيدا عن ترى في حمية
شديدة وحب قوى ، وانتابتها نفس الشاعر التي ملكت جوليان منذ
بضعة أيام من أجلها هي . كانت الأغنية تنطوى على ظرف غير محدود
وخيل إليها أن الحكمة التي تنطق بها الأغنية تنطبق على حالتها تماما ،
فشغلت بها في اللحظات التي كانت لا تفكر فيها في جوليان بطريقة
مباشرة . ودفعها حبها للموسيقى أن تكون في تلك الليلة كما كانت مدام
دى رينال ، دائما ، وهي تفكر في جوليان . إن الحب الذى مصدره العقل
أكثر فطنة من الحب الحقيقى ما فى ذلك ريب ، ولكنه لا يكون قويا
إلا فى بعض اللحظات ؛ إنه يعرف نفسه حق المعرفة ، ويحكم دائما على
نفسه ، ولا يضل الفكر لأن الفكر هو الذى خلقه .

ولما عادت إلى المنزل ، لم تستمع إلى قول أمها ، وادعت أنها
محمومة ، وقضت شطرا من الليل تردد على معرفتها الأغنية التي سمعتها .
أخذت تعنى عبارات هذا اللحن الجميل الذى ملك عليها نواحي نفسها :

Devo Punirmi, devo Punirmi
Se troppo amai. etc,

« يجب أن أعاقب على فرط عبادتى له ، ، »

« إني أهيمن به وأحبه حبا عميقا ... »

ثم كانت نتيجة هذه اللية الجنونية أن ظنت ماتيلد أنها انتصرت على حبها .

(ستمىء هذه الصفحة إلى المؤلف التعس ، إساءة بالغة لأن النفوس البليدة ستمهمه بعدم التحفظ والاحتشام . وافترض وجود فتاة واحدة تتأثر بمركات جنونية تفسد خلق ماتيلد ، لا يضير الباريسيات اللأى يزدهرن فى الصالونات . على أن هذه الشخصية من خلق الخيال ، وقدروى فيها إخراجها من العادات الاجتماعية التى تطبع حضارة القرن التاسع عشر بطابع رفيع .

واللأى اشتركن فى مراقص هذا العام من الفتيات ، لا ينقصهن العقل ولا تعوزهن الفطنة . وأنا لا أعتقد أنهن قد يتهمن بإظهار الاحتقار الشديد للبراء العريض أو الخليل أو الأراضى الجميلة أو لكل ما يكفل مركزا ممتازا لصاحبه فى الحياة . ونحن لا نؤمن بأن هذه المزايا تنطوى على السأم فحسب ، فهى عادة بيت القصيد لرغبات يسعى إليها دائما ، ولو وجد فى القلوب حب لكان لها .

وليس الحب هو الوسيلة لجلب المال لشبان يمتازون ببعض العبقرية مثل جوليان ، إنهم يرتبطون بعصبة سياسية ارتباطا قويا ، وحينما يثرى هذا الحزب ، تتساقط عليهم خيرات المجتمع . وويل للمتعم الذى لا ينتهى إلى جماعة من هذه الجماعات ، فهو يلام حتى على ما يصيبه من نجاح تافه ضئيل ، وينتهى به الأمر إلى أن تنتصر عليه الفضيلة العامة فتسلبه ماله . ومع ذلك فالقصة ياسيدى مرآة ينعكس فيها كل ما فى الطريق العام ، فهى تارة

تعكس زرقة السماء ، وتارة تعكس الوحل الذي يجلّل الطريق .. أما الرجل الذي يحمل المرأة فأنت لا تتردد في اتهمه بأنه لا يعري الأخلاق ! لأن حرّاته تريك الوحل ، وأنت تتهم المرأة ! أولى بك أن تتهم الطريق العام الذي جلّته الأوحال ، بل أولى من ذلك وأصح أن تتهم مفتش الطرق الذي ترك الماء يأسن ، فتراكت بسببه الأوحال .

وعلى هذا فمن المتفق عليه أن خلق ما تيلد لا يوجد في عصرنا الذي يعري الحذر والفضيلة . ولا أحب أن أستمر في سرد حماقات هذه الفتاة) . وظلت ما تيلد طول اليوم التالى ترقب المناسبات؛ لتتأكد من أنها انتصرت على حبها الجنونى . وكان أهم ما يشغلها أن تأتى من الأعمال ما يفضب جوليان ؛ ولكنها لم تفتها أى حركة من حرّكاته .

أما جوليان فكان بأسأ كل البؤس مضطرباً أشد الاضطراب ، فلم يدرك شيئاً من مناورات هذا الحب المعقد ، ولم يفطن إلى ما يدور فى نفسها من إكبار لشخصه : لقد كان فريسة ، ولم يبلغ به الألم من قبل ما بلّته الآن من عذاب أليم . ولم تكن أعماله تخضع لقطنته إلا قليلا ، ولو أن فيلسوفاً محزوناً قال له : « فكّر فى أن تنتهز هذه الميول التى فى صالحك بسرعة : لأن هذا اللون من الحب العقلى الذى نراه فى باريس قاتل ، لا يدوم على حال واحدة أكثر من يومين . » لو أن هذا الفيلسوف قال له ذلك ، ما فهم جوليان ما يرمى إليه . وعلى الرغم من أنه ذو حمية وحماسة، فهو يحافظ على الشرف ويتمسك به . وكان الكتيمان أول واجب عليه ؛ وقد قدره حق قدره . ولو أنه طلب المشورة ، فأفضى بألامه لإنسان

لشعر بسعادة تعادل سعادة التعس الذي يخرق الصحراء في شدة القيظ فمطره السماء ماء عذباً كثيراً . لكنه أدرك الخطر الذي يهدده إن كشف عن دخيلة نفسه ، وخشى أن يذرف الدموع بين يدي سائله الذي يجب أن يعرف كل شيء ، فأتر أن يبقى في غرفته بمعزل عن الناس .

رآها تتنزه في الحديقة وقتاً طويلاً ، فكث إلى أن غادرتها ثم نزل هو إليها ؛ واقترب من شجرة ورد كانت قد اقتطفت منها وردة .

وكان الليل شديد الظلام ، وفي استطاعته أن يطلق لآلامه العنان ولا يخشى أن يراه أحد . وكان يؤمن بأن الآنسة دي لامول تحب أحد الضباط الذين كانت تتحدث إليهم في مرح شديد . لقد أحبته هو كذلك ولكنها كانت تشعر بوضاعته :

وأخذ يقول في نفسه ودلائل الاقتناع بادية عليه : إن مؤهلاتي ضئيلة في الواقع إلى أبعد حد ! لست إلا رجلا لثيماً ، دنيثاً ، مملاً في نظر الآخرين ، ولا أحتمل في نظر نفسي . لقد زهد زهداً شديداً في مزاياه وفي كل شيء أحبه من قبل كثيراً ، وكان خياله وهو في تلك الحالة ، خيالا معكوسا وقد أخذ يحكم على الحياة بهذا الخيال . وهذا خطأ يقع فيه الرجل الممتاز .

فكر مرات عديدة في الانتحار، وظهر له هذا الرأي في صورة جذابة ، لأن فيه راحة لذيدة ، فكان مثل كوبة من الماء الثلج تقدم للمسافر التعس الذي يحرقه الظمأ في مجاهل الصحراء . ولكنه سرعان ما صاح قائلاً : سيزيد موتي من احتقارها لي : فأى ذكريات هذه التي أتركها بعد مماتي !

وحيثما يصل المرء إلى مثل هذه الحالة من الألم والشقاء ، فإنه لا يجد

مأوى له إلا شجاعته ! ولكن جوليان لم تسمحفه المواهب في أن يقول :
يجب أن أتذرع بالجرأة والإقدام ؛ ثم رأها تطفىء النور وهو ينظر إلى
نافذتها ، فاستعاد ذكريات هذه الغرفة البديعة التي لم يرها - مع الأسف
الشديد - إلا مرة واحدة في حياته ! ولم يستطع أن يستخلص خياله مما
يدور فيها حتى دقت الساعة الأولى ؛ وسمع دقاتها فقال : سأصعد إلى الغرفة
بالسلم ولو لحظة قصيرة .

وتتابعت عليه آراء سديدة وأسباب معقولة كقبس النور ، فأخذ يقول :
هل في المقدور أن أكون أشد تعاسة مني الآن ! ؟ ثم جرى إلى السلم
فوجد البستاني قد ربطه بسلسلة ، فاستعان على قطعها بأحد مسدساته
الصغيرة ، وكان يشعر في ذلك الوقت بقوة خارقة ، فلوى حلقة السلسلة
التي تربط السلم في بضع دقائق ، ثم حمه ووضعها إلى نافذة ماتيلد .

هل ستغضب مني ، أو تزدريني ؟ هذا كله لا يضيرني . سأقبلها القبلة
الأخيرة ثم أصعد إلى غرفتي وأقتل نفسي ... ستأس شفتاي وجهها قبل
أن أموت ؟

ثم صعد إليها في سرعة كبيرة ، وطرق مصراع النافذة ؛ وبعد لحظات
سمعت ماتيلد الطرقات ، فأرادت أن تفتح النافذة ، ولكن السلم حال دون
ذلك : فتعلق جوليان بالمرلاج الحديدى الذى تفتح به النافذة ، مخاطرا بحياته ،
ثم هز السلم هزة عنيفة فنقله قليلا من مكانه . ثم قفز داخل الغرفة أقرب
إلى الموت منه إلى الحياة . ورأته ماتيلد فارتمت بين ذراعيه قائلة :

أهوانت إذا !

كيف السبيل إلى وصف سعادة جوليان ؟ أما ما تيلد فكانت سعادتها تعادل سعادته . قالت وهي تضمه بين ذراعيها ضما قويا يكاد يحمدا أنفاسه : عاقبني على كبريائي الشديدة ؛ إنك سيدى ، وأنا عبدة لك ، يجب أن أركع أمامك ؛ لأننى أردت أن أثور عليك . ثم تركت ذراعيه لتجشو عند قدميه . وغمرتها السعادة والحب فاستطردت تقول . نعم ، أنت مولوى وسيدى ، تحكم فى كيفية شئت ، وعاقب أمتك عقابا صارما حين تحدثها نفسها بأن تثور عليك أو تعصى لك أمرا .

ثم انتزعت نفسها من بين ذراعيه ، وأوقدت شمعة ، ثم أرادت أن تقص كل شعرها الذى يغطى جانبها من رأسها ، فحال بينها وبين ذلك ، ووجد مشقة كبيرة فيما فعل ، فقالت له :

أريد أن أتذكر دائما أنى خادمتك : وإذا أضلتنى هذه الكبرياء الكريهة مرة أخرى ، فلوح لى بهذا الشعر وقل لى : لم تعد المسألة بيننا الآن حبا ، ولست أبالى بما يدور فى نفسك فى هذه اللحظة ، لقد أقسمت على طاعتي ، فتمسكى بالشرف ، وأطيعينى والحكمة تفرض علينا ألا نعرض لوصف هذا الضلال البعيد ، وتلك السعادة البالغة .

وكانت شجاعة جوليان تعادل سعادته ، وحين رأى نور الفجر يبرز على أعلى المداخل فى الناحية الشرقية من الحديقة ، قال لها : يجب أن أغادر الغرفة بالسلام كذلك ، وإن التضحية التى أقدم عليها لهى جديرة بك ،

إني لأحرم نفسي من سعادة بضع ساعات ، وهي ألدّ سعادة تتذوقها روح بشرية ، إنها لتضحية من أجل سمعتك ؛ لو أنك عرفت ما يدور في قلبي ، لأدرت جسامه ما أقدم عليه . هل ستظلمني لي دائما كما أراك في هذه اللحظة ؟ ولكن الشرف استولى عليه ، فقال لها : يجب أن تعلمي أن الشكوك لم تتجه إلى اللصوص بعد لقائنا الأول . فقد أقام المرّكيز حرسا في الحديقة ، وأصبح السيد دي كروازنوا محاطا بجواسيس ، يعلمون ما يفعله في كل ليلة . فضحكت ضحكة عالية ، فاستيقظت أمها وإحدى وصيفاتها على إثر ضحكتها ؛ ثم حدثتاها من خلف الباب . فنظر جوليان ورآها وقد اصفر لونها وهي تؤنب الخادمة ، ولم تشأ أن تجيب على حديث أمها ، فقال لها :
لوأنهما فتحتا النافذة لرأيتا السلم !

واحتضنها مرة أخرى ، وأسرع إلى السلم فانزلق فوقه بأسرع ممّا لو كان ينزل درجاته ، وفي لحظة واحدة كانت قدماه على أرض الحديقة . وبعد ثلاث ثوان ، كان السلم في موضعه في ممر أشجار الزيزفون ، فسلم شرف ماتيلد . ثم اتبته جوليان إلى نفسه فوجد الدماء تنزف منه ، لأنه كان شبه متجزد من ثيابه . لقد جرح وهو ينزلق نازلا على السلم في غير حذر .

وردت عليه السعادة التي غمرته ، صلابه خلقه وقوته ؛ حتى لو أن حشرين رجلا هاجموا في هذه الساعة ، لوجد لذة كبيرة في دفعهم عنه . لكنه لحسن الحظ لم تتعرض لشيء من ذلك شجاعته الحربية ، ولم توضع في موضع التجربة .

ووضع السلم في موضعه الأصلي ثم أعاد السلسلة التي تربطه ؛ ولم ينس أن يزيل الآثار التي تركها السلم في ممر النباتات الغربية من تحت نافذة ماتيلد . وجعل يتحسس الأرض الطرية في الظلام ليتأكد من أن جميع الآثار قد زالت تماما ، فشمع بشيء يسقط فوق يده ، فلما أمسكه وجدته خصلة كبيرة من شعر ماتيلد ، قصتها ورمتها إليه ، وكانت لاتزال في النافذة ، ثم قالت له في صوت عال :

— هذا ما ترسله إليك خادمتك دليلا على الطاعة الأبديّة . ولن أعمد بعد ذلك إلى الاعتماد على عقلي ، فكن سيدا لي .

فأحس جوليان أنه قد غلب على أمره ، وكاد يذهب ليعيد السلم ويصعد إليها مرة أخرى ؛ ولكن عقله تغلب عليه .

ولم يكن الدخول من الخديقة إلى القصر أمرا سهلا يسيرا . وقد تمكن من أن يكسر بابا من أبواب القبو ، فلما أصبح داخل المنزل ، كسر باب غرفته دون أن يحدث جلبة أو ضوضاء . وقد دفعه الاضطراب والعجلة إلى أن ينسى في غرفة ماتيلد كل شيء حتى مفتاح باب الذي كان في حيب ثوبه . فأخذ يقول : لعلها لاتنسى أن تخفي الآثار التي تركتها . وكان سعيدا كل السعادة ، ولكن التعب غلبه ، والشمس تبرغ من خدرها وقت الصباح ، فاستسلم لنوم عميق حتى دق ناقوس الغداء ، فاستيقظ متناقلا وذهب إلى غرفة الطعام على كره . ثم أتت ماتيلد بعد قليل فرأى الحب يشع من عيني هذه الفتاة الرائعة الجمال ، المحاطة بالإجلال والإكبار ، فشمع بسعادة أرضت غروره ، ولكن الحذر عاوده فذب في نفسه الخوف .

وزعمت ماتيلدا أن لم يكن لديها من الوقت ما يكفي لتصفيف شعرها ، وقد نظمته بطريقة تسمح لجوليان أن يرى من أول نظرة جسامة التضحية التي ضحيتها من أجله ، حين قصت شعرها في الليلة الماضية ... لقد قصت جانبا كبيرا من شعرها الأشقر الجميل ، بحيث لم تترك منه إلا ما يقرب من نصف بوصة . ولو أن وجهها الوسيم كان يفسده شيء ، ما أحجمت ماتيلدا عن عمله من أجل الحبيب .

وكانت كل حركاتها أثناء الطعام تتم عما يدور في نفسها من حماقات شديدة ، بحيث يخيل إلى الناظر أنها أخذت على نفسها أن تكشف للناس جميعا عن حبها الجنوني لجوليان . لكن لحسن الحظ كان التركيز حتى لأمول والمركيزة مشغولين بالحديث عن إنعامات جديدة بالأوسمة الزرقاء ، ولم يكن اسم السيد دي شون من الذين أنعم عليهم . وفي نهاية الوجبة تحدثت ماتيلدا إلى جوليان فناده بقولها : يا مولاي . فالتهب وجهه بحمرة الخجل .

لم تبق وحدها لحظة واحدة في ذلك اليوم ، ولسنا ندرى ما إذا كان ذلك قد وقع مصادفة ، أو كان من تدبير المركيزة دي لأمول . وفي المساء بينما كانت في طريقها إلى الصالون وجدت لحظة وهي تغادر غرفة الطعام فقالت لجوليان :

— لقد قررت والدتي أن تقضى إحدى الوصيفات الليل كله معي في مخدعي ، فأرجو أن تصدقني ولا تمتدني أننى أتعمل .

ثم انقضى اليوم كأنه كان لحظة ، وشعر جوليان بسعادة كبيرة
تغمره ، وفي الساعة السابعة من صباح اليوم التالي ، ذهب إلى المكتبة
على أمل أن تتفضل الأنسة فتذهب لتلقاه ، وكان قد كتب لها
خطاباً طويلاً .

ولكنه لم يرها إلا بعد ذلك بساعات طويلة . رآها وقت الغداء ،
وقد صفت شعرها في عناية شديدة ، مخفية ما جُز منه في مهارة وفن .
ونظرت إليه مرة أو مرتين . نظرات مهذبة هادئة ، لم يقرأ جوليان فيها مانادته
به من قبل ، حين دعته بقولها : يا سيدى .

فذهل ذهولاً شديداً حتى لم يقدر على التنفس . . . لأنها ندمت
على ما فعلته من أجله أشد الندم .

لقد فكرت في الأمر تفكيراً هادئاً ناضجاً ، فهداها التفكير إلى أنه
إذا لم يكن عادياً جداً ، فهو على الأقل ليس ذا أصل كريم فيستحق هذه
الأعمال الجنونية التي أقدمت عليها من أجله . وعلى الجملة فقد كانت
لا تفكر في الحب في يومها هذا ، لأنها كانت متعبة من الحب . .

أما جوليان فقد كان ما يضطرم في قلبه أشبه شيء بما يضطرم في قلب
طفل في السادسة عشرة من عمره ، فاستولى عليه شك قاتل ، وذهول وقنوط .
أثناء هذه الوجبة التي خيل إليه أنها دامت دهوراً طويلاً .

ولم يكذب يغادر المائدة في وقار وتؤدة ، حتى أسرع إلى حظيرة الخيل
ووضع السرج بنفسه على جواده ، وركبه ثم استحثه على العدو ، وكان

أخوف ما يخافه أن يظهر الضعف فيلحقه الذل والموان . كان الجواد
يركض به في غابة ميدون ، وهو يقول :
يجب أن أقتل قلبي ، بما أجره على جسمي من التعب والنصب ،
ماذا فعلت ؟ وماذا قلت حتى تعرض عني وتقاباني بهذا الصدود ؟
ثم أخذ يقول وهو يعود إلى القصر : يجب ألا أقول اليوم شيئا ،
فليت جسمي كما ماتت نفسي . وقد أصبح جوليان جسدا يتحرك
لأكثر ولا أقل .

الفصل العِشْرُونَ

الزهريّة اليابانية

[لم يدرك قلبه أول الأمر مقدار شقائه ؛ فقد كان يغلب عليه الاضطراب أكثر من التأثر . ولكن كما ناب إليه رشده ، زاد إحساسه بهوة الآلام التي يتردى فيها . وأصبحت لذات الحياة كلها لهوا وعبثا بالنسبة إليه فأعرض عنها ، ولم يعد يشعر إلا بالقنوط الشديد الذي يملكه . ولكن ما قيمة الحديث عن الألم الجسماني ؟ وأي قيمة للألم الذي يحسه الجسم اذا ووزن بما يلقاه من ألم ؟]
جان بول

ودق جرس العشاء ، فأسرع في ارتداء ملابسه ، ودخل الصالون ، قائلي ماتيلد ترجو أخاها والمركيز دي كروازنوا ألا يذهبا إلى سورن ليقضيا السهرة عند المرشالة مدام دي فرقاك .

وكان من العسير أن تكون أكثر فتنة وظرفا معهما مما كانت عليه تلك الليلة . وبعد العشاء أتى السادة دي لوز، ودي كايوس وكثيرون من أصدقائهما . وكان يخيل إلى من يرى الآنسة دي لامول أنها عادت سيرتها الأولى فأصبحت الصداقة الأخوية قريبة إلى قلبها ، كما رجعت إلى التقاليد الحقة . وعلى الرغم من أن الجو كان بديعا في ذلك المساء ، فقد أصرت علي ألا تذهب إلى الحديقة ؛ وأرادت ألا تباعد هي ومن معها عن الوثيرة التي جلست عليها المركيزة دي لامول . وأصبحت الوثيرة الزرقاء محورا التف حوله الشبان كما كانوا يفعلون أيام الشتاء .

كانت ماتيلد مغيزة من الحديقة، أو كانت تبحث في نفسها مللا شديدا، لأنها مرتبطة بذكريات جوليان .

وإن الألم ليضعف الفطنة ، من أجل ذلك ارتكب بطلنا حماقة حين ذهب ووقف بجوار ذلك المقعد الصغير المصنوع من القش ، الذي كثيرا ما شهد من قبل ، ما أصابه جوليان من نجاح كبير . لم يلتفت إليه أحد ، ولم يخاطبه إنسان ، وكأنهم لم يشعروا بوجوده ، وحتى أصدقاء الأنسة دى لامول الذين كانوا على مقربة منه ، عمدوا إلى أن يديروا ظهورهم إليه ، أو أنه ظن ذلك على الأقل .

فأخذ يقول في نفسه : إنه كسخط عام من البلاط . ثم أراد أن يتفرد في أولئك الذين يحاولون أن يحتقروه .

كان عم السيد دى لوز يشغل في بلاط الملك مركزا خطيرا ، لذلك كان يقول لمن يتحدث إليه أول ما يقول : إن عمه ذهب إلى سان كلو في الساعة السابعة صباحا ، وهو يعتزم أن يقضى الليلة هناك . وكانت هذه الخاصة اللاذعة ترد في كلام دى لوز كأنها فكاهة ، ولكنه كان لا ينساها إذا ما تحدث .

وكان جوليان يرقب دى كروازنوا بالعين القاسية عين الشقاء ، فلاحظ أن هذا الشاب الظريف الطيب يعلق أهمية كبيرة على الأسباب الخفية المستترة ، إلى حد أنه كان يحزن وينضب إذا رأى حادثا تافها يرجع لسبب بسيط وطبيعي .

فقال جوليان في نفسه : إن مسلكه هذا ينطوي على قليل من الجنون

وهذا الخلق يشبه شيئا كبيرا خالق الإمبراطور اسكندر كما وصفه لي
الأمير كورازوف .

كان جوليان في السنة الأولى من إقامته في باريس يعجب بهؤلاء
الشبان الظرفاء ؛ لأن كل شيء كان يبهره بجدته عليه ، ولأنه جاء إلى باريس
بعد أن ترك المدرسة الاكليريكية ، لكن خلقهم الحقيقي بدأ يتكشف
له شيئا فشيئا .

ثم قال في نفسه بعتة : إن مقامي هنا ليس مرغوبا فيه . وكان عليه
أن يغادر مقعده الصغير بطريقة فيها بعض المهارة . فأراد أن يخترع شيئا
جديدا فكان هذا عسيرا عليه ؛ لأن خياله ساجح في آفاق بعيدة . وعمد
إلى ذاكرته ، ولتعترف بأن ذاكرته لم تكن غنية في مثل هذه الظروف
فلم تستغف . وكان هذا الشاب التمس يجهل في الواقع كثيرا من العادات
التي يألؤها غيره ، فأدركه الفشل وأحاط به الارتباك وهو ينهض ليغادر
الصالون .

وظن الحاضرون كلهم إلى ما أصابه ، وكان الألم الشديد يظهر
واضحا في كل حركاته ، لأنه ظل ثلاثة أرباع الساعة يمثل دور شخص
غير مرغوب فيه ... شخص هو أدنى الموجودين جميعا ، فلم يخف عليه أنهم
لا يتحملون مشونة التفكير فيه .

وكانت ملاحظاته في نقد منافسيه تحول بينه وبين أن يعدد ألمه
كأزمة حقيقية نزلت به ؛ وكانت ذكريات ليلة أمس الأول تقوى من

كبريائه ، إذ أخذ يقول وهو يدخل الحديقة : إن ماتيلد لم تهب واحدا منهم ما تفضلت به عليّ مرتين في حياتي .

وقضت عليه الحكمة ألا يقول أكثر من هذا . على أنه لم يستطع أن يدرك أبدا خلق هذه الفتاة الغريبة ، التي ساقها له المصادفات لتحكم في سعادته تحكما مطلقا .

وعزم في اليوم التالي على أن يقتل نفسه وحصانه تعبا وإعياء ، وقد فعل ، وفي المساء ، لم يحاول أن يقترب من الوثيرة الزرقاء التي جلست عليها ماتيلد والتف من حولها جماعة الشبان . ولحظ جوليان أن الكونت نوربير لا يكلف نفسه مشقة النظر إليه إذا لقيه في المنزل . فقال : إنه يبذل في ذلك جهدا كبيرا ، لأنه فطر على الأدب الكثير .

كان النوم له راحة كبيرة . وعلى الرغم من النصب الجسمي الذي كان يلقاه ، فقد كانت ذكريات جميلة قد بدأت تملأ خياله . ولم تهدم العبقرية إلى أن يدرك أن هذه المسافات الطويلة التي يقطعها على ظهر جواده في غابات ضواحي باريس لا تؤثر إلا فيه وحده ، وليس لها صلة بما يدور في قلب ماتيلد أو في نفسها ، وقد ترك للأقدار أن تبت في مصيره .

وخيل إليه أن لأمله هذا نهاية ، وأن الشيء الوحيد الذي يخفف ما يلقاه هو أن يتحدث إليها . ولكن هل يجروا على أن يقول لها شيئا ؟ وفي الساعة السابعة من صباح أحد الأيام ، كان جوليان غارقا في أحلامه ، فأراها تدخل المكتبة عليه بغتة وتقول له :

— أنا أعرف ياسيدي أنك تريد أن تتحدث إليّ :

— يا إلهي ! ومن أنباك هذا ؟

— أعرف ذلك ، فما شأنك أنت إذا ؟ سأتحلى عنك حتى لو فقدت

الشرف ، أو أنا أجاول ذاك على الأقل ، ولكن هذا الخطر الذي اعتقد أنه ليس خطراً حقيقياً لا يحول بيني وبين أن أكون مخلصاً لك فيما أقول .
إنني لم أعد أحبك يا سيدي ، لقد خدعني خيالي . . .

كان قولها هذا شديد الوقع عليه ، فحاول أن يدافع عن نفسه مدفوعاً بما يضره لها من حب وبما في نفسه من ألم وشقاء . ولكن يا للسخرية ! كيف يدافع إنسان عن أنه ليس بمحبوب ؟ لكن العقل لم يعد يتحكم في أعماله . ودفعته غريزة عمية إلى أن يؤجل قرار الحكم في مصيره . وقد ظن أن ما بينهما لم ينته ما دام يتكلم إليها ، ولكنها لم تكن تصغي إليه ، وكان صوته يثيرها ويغضبها ، ولم تكن تتصور أنه قد وهب من الجراءة ما يدفعه إلى مقاطعتها .

استولت عليها في هذا الصباح فضيلة وكبرياء حتى ملكها الندم وأشقاها ، وكانت فريسة لفكرة ملكت عليها زمام نفسها وهي أنها أعطت قساً وضيعاً حقوقاً عليها ، وهو قس ابن فلاح حقير . وكانت تقول في اللحظات التي يشتد فيها ألمها : إن هذا يعدّ جرماً كبيراً كما لو أنني ارتكبت إنمأ مع خادم . وإن الطباع التي فطرت على الجراءة والكبر لا تفرق كثيراً بين غضب الإنسان على نفسه ، وغضبه على الآخرين ، وثورات الغضب في هذه الحالة تعدّ سروراً كبيراً .

وقد استطاعت الأنسة دي لامول في لحظة واحدة أن تصب على جوليان

كل ألوان الازدراء الشديد . لقد كانت ذات فطنة عظيمة ، يسعها ذكؤها
في أن تعذب الناس ، وتجرح كبرياءهم جروحاً بليغية قاسية .
ولأول مرة في حياة جوليان ، وجد نفسه أمام ذكاء خارق يسلطه
عليه الكره الشديد . ولم يدر في نفسه أن يدفع الأذى في هذه اللحظة ،
بل زاده ما يسمعه احتقاراً لنفسه ، وخيل إليه أنها على حق فيما تقول ، بل
أنها لم تقل فيه ما يكفي ، مع أنها كانت تعتمد إلى أن تقضى على حسن
ظنه بنفسه بما ساقته من عبارات تحقير محكمة ظهر فيها جانب كبير من
ذكائها وفطنتها .

أما هي فكانت تلقى لذة كبيرة ، وترضى كبرياءها حين تعاقب نفسها
وتعاقبه على ما شعرت به نحوه من إجلال شديد قبل ذلك بيضعة أيام .
ولم تكن في حاجة إلى أن تخترع هذه الأقوال الجارحة التي تلقىها
في ملاطفة شديدة ، ولم تكن تفكر فيها لأول مرة ، إنما كانت
تعيد ما دار في قلبها منذ ثمانية أيام ، من قول كان يردده ذلك الحامي
عدو الحب .

وزادت كل كلمة من كلماتها شقاء جوليان مائة مرة ، حتى أراد أن يقرب
منها لكنها أبقت به بأن أمسكت ذراعه في قوة وسلطان . فقال لها :
— أرجو أن تلاحظي أنك تتحدثين بصوت عال ، وإن من في الغرفة
المجاورة ليسمع ما تقولين . فأجابته في كبرياء .
— لست أقيم وزناً لذلك ! ومن ذا الذي يجزؤ على أن يقول إنه

سمعتي ؟ أريد أن أشفي كبريائك شفاء تاماً من تلك الآراء التي كوتتها
لنفسك على حسابي .

ولما غادر جوليان المكتبة ، كان مذهولاً إلى أبعد حدود الذهول ،
فشفاها هذا من قسوة ألم كان يلقاه . وأخذ يتحدث إلى نفسه بصوت مرتفع
كأنه يريد أن يعرف نفسه حقيقة مركزه : حسناً ! إنها لم تعد تحبني .
يخيل إليّ أنها أحببتني ثمانية أيام أو عشرة ، أما أنا فسأحبها طول حياتي .
هل لي أن أصدق الآن أنها لم تكن شيئاً مذكوراً ! نعم لم تكن
لقلبي شيئاً مذكوراً منذ أيام قلائل !

ونعمت ماتيلد بالكبرياء التي أظهرتها وارتاح قلبها ؛ فقد استطاعت
أن تقطع صلتها بجوليان إلى الأبد ! وشعرت بسعادة كبيرة لأنها شفت
نفسها من ميل قوى سرى في فؤادها . وعلى هذا فقد فهم السيد الصغير
أن لم يكن له على من سلطان ماحيت ، ولن يكون . وشعرت بالسعادة
تملك عليها نفسها حتى أنها لم تعد تحسّ الحب في هذه اللحظة .

لو أن هذا التوبيخ القاسي المقذع الهادم للكرامة ، وجه إلى من هو
أقل كرامة من جوليان لفضي على حبه القضاء الشامل . والآنة دى لامول
لم تحد لحظة واحدة عما يجب عليها نحو نفسها ، فوجهت إلى جوليان هذا
الكلام القاسي الذي أعدته في مهارة فائقة ، فكان كأنه حقيقة حتى عند
من يتذكره في هدوء .

وقد فهم جوليان منذ اللحظة الأولى بعد هذا التأنيب الشديد ، أن ماتيلد
عظيمة الكبرياء . وكان يؤمن إيماناً ثابتاً بأن كل شيء بينهما قد انتهى

إلى الأبد ، ومع ذلك كان في اليوم التالي وقت الغداء حياءً مرتبكا أمامها .
وذلك ضعف منه لم يؤنب عليه بعد . على أنه كان يعرف تماما ما يريد
أن يعمل ، ويقوم به على أكل وجهه ، سواء أكان ما يعرض له من الأمور
تافها أم جديا .

وبعد الغداء من اليوم نفسه طلبت منه مدام دي لامول أن يعطيها
مشورا ثوريا نادرا ، كان كاهنها قد قدمه إليها سراً وقت الصباح . فقام
جوليان ليأخذ المنشور من فوق قطعة أثاث ، فأسقط زهرية قديمة من الصيني
الأزرق تعتبر قبيحة إلى أبعد حد .

فنهضت المرкитеة من مكانها صارخة بشدة ، وأتت لتتنظر إلى حطام
الإناء عن قرب ، ثم قالت : لقد كانت زهرية يابانية ورثتها عن أخت
جدتي الكاهنة شل ؛ وهي هدية قدمها الهولنديون إلى الدوق أورليان
الوصى على العرش ، وقد أهداها بدوره إلى ابنته .

وكانت ماتيلد تتبع حركات أمها في انتباه ، فرحة بكسر هذه الزهرية
ثالثي تراها قبيحة إلى أبعد حد . على حين لزم جوليان الصمت ، ولم يبد
عليه شيء من الاضطراب ، ورأى الآنسه دي لامول على مقربة شديدة
منه ، فقال لها :

تقد كسرت هذا الإناء كسرا لايجبر ، كما قضى تمام القضاء على عاطفة
تسلطت على قلبي من قبل ، فأرجو أن تتكلمي فتتفري لي كل الحماقات
ثالثي دفعتني إليها هذه العاطفة ، ثم تركها وانصرف . فقالت مدام دي لامول :

يُخيل إلى أن السيد سورل قد سرّه ما فعل ، أو هو على الأقل يُظهر ذلك وهو منصرف .

فوقعت هذه العبارة على قاب ماتيلد وقعا شديدا ، وقالت في نفسها :
حقا إن أمي على صواب ، فهذه هي العاطفة التي يكتنّها قلبه . ثم زال
من نفسها في هذه اللحظة وحدها ، أثر السرور الذي داخلها من عمراكيا
مع جوليان بالأمس . وأخذت تحدث نفسها في هدوء ظاهر . حسنا ، لقد
انتهى كل شيء ، وبقي لي مما فعلت مثل رادع ، فيا لشناعة ما ارتكبت
ويا لقبح جريمتي ! ولكن هذا كله سيكون عظه لي طول الحياة .

أما جوليان فكان يقول في نفسه . ألم أقل الحق ؟ فلماذا لا يزال الحب
الذي كنت أضمره لهذه المجنونة معدّبا قلبي ؟

كان حبه لماتيلد بعيدا كل البعد عن أن يحب أو يموت ، بل لقد زاد
زيادة شديدة ، وأخذ يقول : حقا إنها مجنونة ، ولكن هذا لا يمنع من أن
تعبد ! أمن الممكن أن توجد فتاة في مثل روعتها وجمالها ؟ ثم ألم تخلع
عليها المدنية المترفة كل مظاهر اللذات ، حتى فاقت بنات جنسها جميعا ؟
وتغلغلت هذه الذكريات في نفسه ، فقضت في الحال على ما كان يرشده
إليه العقل والتفكير .

واحتدم صراع عنيف بين العقل والذكريات ، غلب فيه العقل
على أمره ، وزادت الذكريات في نفسه حلاوة .

وبعد أن كسر الإناء الياباني بأربع وعشرين ساعة ، كان جوليان
من أتص الناس .

الفصل الحادى والعشرون المذكرة السرية

[كل ما أقصه عليك قد شاهدته بنفسى ، وإذا كنت قد خدعت وأنا أراه ، فلا شك أنى لا أخدعك وأنا أقوله لك .]

خطاب إلى المؤلف



استدعى المركز جوليان ؛ وكان كأنه قد عاد فتيا ، وظهر البريق في عينيه ، ثم قال لكاتب سره :

لتحدث قليلا عن ذا كرتك ، فقد قيل إنها ذا كرة جبارة ! أنى استطاعتك أن تحفظ جيدا أربع صفحات ثم تذهب إلى لندن لتتلوها هناك ؟ بشرط ألا تغير فيها كلمة واحدة ! .

وتناول المركز صحيفة أخبار اليوم ، وهو يحاول عبثا أن يظهر بمظهر الجد والوقار ، والذي لم يره جوليان إطلاقا على محيا المركز من قبل حتى وهو يتناول أمر قضايا فريلير .

وكان جوليان قد تعلم أن يظهر بمظهر الغفلة ، إذا ما تحدث إليه في هجة تنطوى على الاستخفاف ، فقال للمركز :

وربما كان عدد هذه الجريدة غير مسل ؛ ولكن إذا سمع سيدي المركز تلوته عليه غدا .

ماذا ! حتى الإعلانات ؟

حتى الإعلانات كذلك ، زدون أن أنسى كلمة واحدة . فاصطبع وجه
للركيز بغتة بجد ووقار ، وسأله :

— هل تعدنى بشرفك أن تفعل هذا ؟

— نعم يا سيدى ، وإن الخوف من النسيان ربما كان هو الذى
يربك ذا كرتى .

— نسيت أن ألقى عليك هذا السؤال بالأمس : لأريد أن أستحلفك
على ألا تذيع ما تسمع ؛ لأنى أعرفك حق المعرفة فلا أحب أن أجرحك
حين أستحلفك على ذلك . لقد أعطيت أنا كلمة عنك بالأمس ، وسأذهب
بك إلى أحد الصالونات حيث يجتمع اثنا عشر شخصا ؛ وستكتب ما يقوله
كل منهم .

وأحب ألا تقلق ، لأن حديثهم لن يكون مضطربا ، فسيتكلم كل
شخص بدوره ، ولا أريد أن أقول إن كلامهم سيتكلم بنظام . قال له الركيز
هذا بلهجتة الرقيقة التى تبدو طبيعية . واستطرد : وحين نأخذ نحن
فى الحديث ، تكون أنت مكبا على الكتابة ، وستكتب عشرين صفحة ،
ثم تعود معى إلى هنا ، فنختصر ما كتبت فى أربع صفحات ، وهذه
الصفحات الأربع هى نفس التى ستتلوها على غدا صباحا بدلا من عدد الجريدة ،
ثم تسافر بعد ذلك تورا ويجب أن تظهر وأنت مسافر بمظهر الشاب الذى
يطلب اللذات فى الأسفار . واعدد إلى ألا يقطن إليك إنسان ؛ وستذهب
تلتقى شخصية خطيرة ، فاصطنع المهارة الشديدة ؛ ويجب أن تخدع كل من

حواله ، لأن بين كاتبى شره وخدمه أشخاصا يعملون لمصلحة أعدائنا ، ويتجسسون على رجالنا حين يفدون عليه ، وأينا حلوا .

وستزود بخطاب توصية لقيمة له ، وإذا ما نظر إليك صاحب السعادة ، فاعمد إلى أن تخرج ساعتى هذه من جيبيك وسأعيرك إياها إلى أن تعود من هذه الرحلة . خذها معك ، لأن هذا يقيدك . خذها وهات ساعتك . وستفضل الدوق فيكتب بنفسه الصفحات الأربع التى ستمليها عليه ، والتى حفظتها عن ظهر قلب .

وذا ما أتممت المهمة وسألك صاحب السعادة عما دار فى الإجتماع الذى مشهده الليلة فقص عليه ما سترى وتسمع ، ولكن حذار أن تقول شيئا فى غير موعده أو متطوعا به . والذى سيبعد السأم عنك طوال هذه الرحلة من باريس إلى مقر الوزير ، أن هناك أناسا على طول الطريق لا يطعمون فى أكثر من أن يقتلوا الكاهن سورل برصاصة ، فيقضون على المهمة التى أوفد فيها ، وهى مهمة لا تحتل التأجيل ، فكيف نعلم يا عزيزى يقتلك إذا ما قتلت ؟ إن حميتك ونشاطك لن يصلا إلى حد أن يخبرانى بمقتلك .

ثم قال له المركيزى لهجة جادة : اذهب حالا واشتر لنفسك حلة كاملة . ثم اتخذ النمط الذى كان سائدا منذ عامين . أما الليلة فلا أحب أن تكون أيقنا . وأما فى الرحلة فأحب أن تكون على تقيض ذلك . هل تعجب من هذا ؟ هل وصل حذرک إلى معرفة ما أرمى إليه ؟ نعم ، يا صديقى ، إن بين الأشخاص الوقورين الذين ستمسمعهم الليلة ، من يقدر

على أن يرسل بمعلومات عنك تؤدي على الأقل إلى دس شيء من الأفيون
لك في أي تزل نقصده لتتناول عشاءك . فقال جوليان :

خير لي أن أسير ثلاثين فرسخاً من أن آخذ الطريق العادي المباشر
الأقل طولاً . ويخيل إلى أن الحذر من روما

فعلت وجه المركيز علامات الكبر والاستياء ، وهي شيء لم يره
جوليان عليه منذ أن رآه في براى العليا ، وقال لجوليان :

ستعرف ياسيدى حين ما يبدولى أن أقول لك : أنا لأحب الأسئلة .
فاضطرب جوليان وقال :

أقسم لك ياسيدى أنتى لم أقصد سؤالك ، وقد كنت حسن القصد ،
أفكر في خير الطرق وآمنها .

نعم ، يخيل إلى أنك كنت محلقاً في آفاق بعيدة . ثم لاتنس
أن رسولا في سنك ، لا ينبغي له أبداً أن يظهر بمظهر الراغب في معرفة
كل شيء .

فتألم جوليان ألماً شديداً ، لأنه كان مخطئاً . وحاولت كبرياؤه أن تجد
عذراً لكنه لم يوفق ، وقال له المركيز :

— أحب أن تعرف أن المرء إذا أخطأ ندم على ما فعل بقلبه .

وبعد ذلك بساعة ، كان جوليان في غرفة المركيزة وقد لبس ثياباً
قديمة ، ورباط رقبة فيه شبه بياض ، وعلى ملامحه طاعة المرءوس ، بحيث
تدل هيئته كلها على هيئة وغد لثيم .

ورآه المركيز فتهقه ضاحكاً ، وصفح عنه صفحاً جميلاً . ثم أخذ يقول

في نفسه : لو خانتني هذا الشاب ، فعلى من أعتمد إذا ؟ على أنه لا بد لمن يعمل من أن يعتمد على إنسان . و ابني وأصدقاؤه الميامين الذي هم على شاكلته يتصفون بالشجاعة والإخلاص الشديد ، وإذا دخلوا في حرب ماتوا جميعاً على درجات العرش مدافعين عنه ، إنهم يعرفون كل شيء ... إلا ما يريد الإنسان الآن . ليس من بينهم من يستطيع أن يحفظ أربع صفحات عن ظهر قلب ، ويقوم برحلة تبلغ مائة فرسخ دون أن يلفت إليه الأنظار . إن نوربير ليعرف كيف يقتل مثل أسلافه ، وهذه ميزة الشخص الذي يُقترَع حديثاً ...

ثم أخذ يفكر مستغرقاً في أحلام عميقة ، ثم قال وهو يتهدد : ويقتل أيضاً ، وربما كان سوزل هذا أعرف منه بذلك ... ثم قال لجوليان كن يطرد فكرة استولت على ذهنه :

— لنصعد إلى العربة . فقال له جوليان :

— لقد حفظت الصفحة الأولى من جريدة أخبار اليوم يا سيدي في الوقت الذي شغلوا فيه بإعداد هذه الحلة .

فأخذ المركزيز الصحيفة وابتدأ جوليان يتلو ولا يخطيء في كلمة واحدة . فقال المركزيز في نفسه ، وكان في تلك الليلة على جانب كبير من المهارة السياسية : حسناً ، هذا سيشغله عن ملاحظة الشوارع التي نسير فيها .

ثم دخلا صالوناً قائم المظهر ، يغطي الخشب جزءاً منه ويغطي الخمل الأخضر منه جزءاً آخر ، وفي وسطه خادم عابس الوجه قد أعد مائدة طعام ،

صارت فيما بعد منضدة للعمل ، بأن وضع عليها بساطاً أخضر كبيراً لطخه المداد ، وقد سرق من إدارة حكومية .

وكان ربّ الدار رجلاً بديناً ، لم يذكر اسمه أبداً ، تدلّ هيئته وفصاحته على أنه رجل أكل . وأشار الماركيز إلى جوليان إشارة ، فأتخذ له مكاناً في الطرف الأقصى من المائدة . وأراد أن يشغل وقته بشيء ، فأخذ يبرى ريشا يكتب بها . وأحصى جوليان بطرف عينه سبعة أشخاص لم ير إلا ظهورهم . كان اثنان منهم يتحدثان مع السيد دى لامول حديث الأنداد ، أما الآخرون فكانت لهجتهم لهجة احترام .

ثم دخل آخر دون أن يعلن الخادم مقدمه ولا اسمه . فعجب جوليان وقال في نفسه : إنهم لا يعلنون القادمين في هذا الصالون ، فهل هذا احتياط أتخذه من أجلي ؟ ونهض الحاضرون جميعاً ليستقبلوا الزائر الجديد ، وكان يتزين بنفس الأوسمة الرفيعة التي كانت تزين صدور ثلاثة من الحاضرين .

كان الحديث يدور بصوت منخفض . وأراد أن يعرف شيئاً عن هذا القادم فاكتمى بالنظر إلى تقاطيع وجهه وهيئته ، فأنقاه قصير القامة ، ضخّم الجسم ، وردى اللون ، براق النظرات ، تم عينه عن الشر كانه خنزير برى .

ثم أتى بعد ذلك رجل يخالف الحاضرين كل المخالفة ، فأعرض جوليان عن الآخرين وأخذ ينظر إليه . كان مديد القامة ، نحيلاً ، يلبس ثلاث صدور أو أربعة ، تم نظراته عن اللذائف ، وتناهى حركته عن الأدب .

قال جوليان في نفسه : إن هيئته كهيئة الشيخ الوقور رئيس أساقفة بيزانسون . هو من رجال الكنيسة ما في ذلك شك ، ولم يبلغ بعد الحسين أو الخامسة والخمسين من عمره ، ومن العسير أن تجد نظرات أشد حنانا من نظرات هذا الرجل .

ثم أتى بعد ذلك رئيس أساقفة آجد ، فذهل حينما رأى جوليان ، وهو ينتقل يبصره بين الحاضرين . ولم يكن بطلنا قد خاطبه منذ حفلة براى العليا ، فاضطرب وغضب من هذه النظرات التي تدل على دهشة هذا الرئيس الشاب ، وأخذ يتحدث إلى نفسه قائلا :

ما معنى هذا ! إذا ما عرفت رجلا كانت معرفته شؤما على ؟ إن كل هؤلاء السادة الذين لم أرهم من قبل لا تعينى نظراتهم إطلاقا ، أما نظرات هذا الرئيس الشاب فهي تبعث في نفسى فتورا ! يجب أن أعترف بأنى رجل عجيب حقا ، وعلى درجة كبيرة من البؤس والشقاء .

ثم قدم بعد ذلك رجل قصير القامة ، شديد السواد ، دخل في جلبة شديدة وأخذ يتحدث منذ وطأت الباب قدماء ؛ كان شاحب الوجه ، تدل هيئته على نزق وطيش . ومنذ وصل هذا الثرثار ، تكونت جماعات من الحاضرين ، ليجتنبوا فيما يظهر ما يستولى عليهم من ملل لسماع حديثه .

كانوا يبتعدون عن المدفئة ، فكانوا يقتربون من طرف المائدة الآخر الذى يشغله جوليان . فأخذ يتخاذل قليلا قليلا ، لأن كلماتهم كانت تصل إلى أذنيه على الرغم مما كان يبذله من الجهد ، لكيلا يسمع ما يقولون ، ومع قلة خبرته رأى أنهم يتحدثون عن أشياء خطيرة دون مواربة أو مداراة ،

وإن كان هؤلاء السادة يحرصون حرصا شديدا على أن يظل مايقولونه سرا مكتوما ! ..

أخذ جوليان يبرى ريشا يكتب به في بطاء شديد ، فبرى عشرين ريشة ، ثم بطلت هذه الحيلة التي عمد إليها . وحاول عبثا أن يتبين في هينى المركز أمرا يقوم بتنفيذه ، لكن السيدى لامول كان قد نسى وجوده .

كان جوليان يبرى ريشة فأخذ يقول في نفسه : إن ما أفعله الآن يدعو إلى السخرية ، على أن هؤلاء السادة ذوى الوجه العادية الذين يقومون بهذا العمل من تلقاء أنفسهم أو مدفوعين إليه من غيرهم ، على درجة كبيرة من النزق .

إن نظراتى التعسة التى تتم عن التساؤل ولا تنطوى على الاحترام ، تفيظ هؤلاء السادة . ولو أنى أغضيت بصرى ، لكنت كمن يسترق السمع ليعرف ماذا يقولون . وكان شديد الاضطراب ، لأنه يسمع أشياء غريبة .

الفصل الثاني والعشرون

المنافسة

[الجمهورية — إذا كان هناك فرد يضحي بكل ماملك
في سبيل المصلحة العامة ، فهناك آلاف بل ملايين من
الناس لا يعرفون إلا لذاتهم ، وما يرضى كبرياءهم . فقى
باريس يحترم المرء من أجل عربته لامن أجل فضائله] .
نابليون : المذكرات

— — — — —

دخل الخادم على عجل وهو يقول : سيدي دوق ... فقال له الدوق
وهو يدخل :

— صه ، فما أنت إلا أحمق . قال هذه العبارة في كثير من العظمة ،
حتى أن جوليان اعتقد — على الرغم منه — أن مواهب هذا الرجل العظيم
محصورة في أنه يعرف كيف يفضب من خادم . ورفع جوليان بصره ثم
غضه في الحال ، لأنه أدرك من هو هذا القادم الجديد ، فخشى أن تكون
نظراته إليه لا تتفق مع المحافظة على الأسرار .

كان الدوق في الخمسين من عمره ، أنيق اللبس ، مختللا في مشيته ،
ضيق الرأس ، ذا أنف كبير ، ووجه مقوس بارز ، ومن المسير أن تجرد
مظهرها يدل على الأرستقراطية والتفاهة معا كظهر هذا الدوق . وبحضور
هذا الرجل افتتح الاجتماع .

وكان جوليان مشغولا بملاحظاته في تفرس وجوه الحاضرين ، فانزعجه
صوت المركيز دى لامول من تأملاته العميقة حين قال :

— أقدم لكم الشمس سورل ، وهو ذو ذاكرة عجيبة ؛ لقد تحدثت إليه منذ ساعة عن المهمة التي سيتشرف بالقيام بها ، ولكني يقيم الدليل على قوة ذاكرته ، حفظ الصفحة الأولى من جريدة أخبار اليوم . فقال صاحب المنزل :

— آه ! إنها أخبار غريبة بالنسبة إلى هذا التمس . . . ثم تناول الصحيفة على عجل ، ونظر إلى جوليان في لطف ، وكان يحاول أن يظهر بمظهر الجد والوقار ثم قال له : تكلم يا سيدي . وساد صمت عميق ، واتجهت الأنظار كلها إلى جوليان ، الذي كان يتلو تلاوة حسنة ، حتى أن اندوق قال له ، بعد أن تلاعشرين سطرا : يكفي هذا القدر .

وكان الرجل القصير ذو النظرات الوحشية قد جلس ، وكان هو رئيس الاجتماع ؛ إذ لم يكذب يتخذ مكانه من المنضدة حتى أشار إلى جوليان أن يحضر منضدة صغيرة بجواره ، وكانت تستعمل للعب . وجلس جوليان إلى هذه المنضدة الصغيرة ومعه كل أدوات الكتابة ، وقد أحصى وهو في مكانه اثني عشر شخصا جالسين حول البساط الأخضر ثم قال اندوق :

— اذهب إلى الغرفة المجاورة ياسيد سورل حتى نستدعيك .

فقلقى صاحب المنزل قلقا شديدا ، وقال لجاره بصوت يكاد يكون مسموعا :

— إن مصاريع النوافذ ليست مقفلة . ثم قال لجوليان في خفلة : يحسن الأتطل من النوافذ . وقد أخذ بطلنا يتحدث إلى نفسه : ها أنذا قد

زجّ بي في مؤامرة ، غير أنها لحسن الحظ ليست من المؤامرات التي تقود إلى ميدان چريف . على أنه إذا كان هناك خطر فأنا أستعين به من أجل التركيز .

كم أكون سعيدا لو أتيت لي فرصة أخفف بها الآلام التي سببتها لله بالأعمال الجنونية ، التي ارتكبتها والتي سيعلمها يوما من الأيام !
كان يفكر في حماقاته وشقاقه ، وهو ينظر إلى المكان بطريقة لا تتيح له أن ينساه . ثم تذكر أن التركيز لم يذكر للسائق اسم الشارع ، وأنه استأجر عربة على خلاف عادته :

أخذ جوليان يفكر كثيرا ، لأنه أتيت له وقت طويل يفكر فيه ، وكان جالسا في صالون فرش بالجل الأحمر وبه أترطة مذهبة . وكان على قطعة من الأثاث تمثل من العاج للمسيح وهو مصلوب ، وفوق اللدقاء كتاب « البابا » من تأليف السيد دي ميتر ، مذهب الجوانب وعليه جلد فاخر . ففتحه حتى لا يظن أنه يسترق السمع لأن المجتمعين في العرفة المجاورة كانوا يتحدثون بصوت عال بين لحظة وأخرى . وأخيرا فتح الباب ، واستدعى ليشهد الجلسة قال الرئيس للحاضرين :

— تذكروا أيها السادة أننا منذ الآن نتحدث أمام الدوق دي ... ثم أشار إلى جوليان ، واستطرد يقول : وإن هذا السيد الشاب الملتزم إلى قضيتنا المقدسة ، سينقل إليه كل ما نقوله ، مستعينا بذاكرته العجيبة ، ولن يغفل منه أتفه التفاصيل . ثم أشار الرئيس إلى الرجل ذي النظرات الرقيقة الذي يلبس ثلاث صدر أو أربعة ، وقال : الكلمة

الآن لك يا سيدي . وخيل إلى جوليان أنه كان من الأفضل أن يدعى هذا السيد باسمه . ثم تناول ورقا وكتب كلاما كثيرا .

وهنا أراد المؤلف أن يضع نقطا على صفحة كاملة ، فقال له الناشر : إن هذا ليس محمودا ، خصوصا وأن ماتكته ضرب من اللغو ، فإذا لم يتوفر الظرف فيما تكتب حكمت عليه بالموت . فقال له المؤلف :

إن السياسة كحجر يشد إلى عنق الأدب ، فلا يلبث أن يفرقه في زمن لا يزيد على ستة شهور . السياسة بين الانتاج العقلي كطلقة نارية في وسط حفل موسيقى . هي ضجة مفرعة ، لكنها ليست قاضية ، فهي لا تلامح أى صوت من أصوات آلات الموسيقى . وهذه السياسة ستضيق نصف القراء ضيقا شديدا ، وتوقعهم في الحرج ثم تجلب السأم إلى نفوس النصف الآخر حين يقرؤها في جريدة الصباح بصورة أخرى .

إذا لم ترد السياسة على السنة شخصيات قصتك ، فهم ليسوا إذن فرنسيين يعيشون في سنة ١٨٣٠ ، ولن يكون كتابك مرآة للحوادث كما تزعم .

كان محضر الجلسة الذي كتبه جوليان يتكون من ست وعشرين صفحة ، وهاك ملخصا موجزا شديدا الایجاز ؛ لأنه ينبغي دائما أن تحذف الأقوال التي تدعو إلى السخرية والتي تدل كذلك على السفه ومخالفة الواقع (انظر جريدة المحاكم) .

كان الرجل ذو الصدر الأربع يتسم كثيرا (ربما كان رئيس أساقفة) وحين كان يتسم تلمع عظام المسبلتان بريق عجيب وحزم تراه في تزايد .

وقد طلب منه أن يبدأ الكلام أمام الدوق « ولكن أى دوق ؟ كما كان جوليان يسائل نفسه » يبدأ الكلام ليشرح الآراء على ما يظهر وليقوم بمهمة النائب العام ، ثم رأى جوليان أن الرجل وصل إلى نتائج غامضة غير التي قررت ، وتسرب الشك إلى نفسه كما يحدث عادة لرجال القضاء . وفي أثناء النقاش وصل الأمر بالدوق إلى أن يلومه على ذلك .

وبعد أن ذكر هذا الرجل ، ذو النظرات العطوف والصدر الأربع ، عبارات تنطوى على الأخلاق والفلسفة التي ترمى إلى الصنف ، قال :

إن إنجلترا النبيلة التي كان يقودها رجل خالد عظيم هو بت ، قد انفتحت أربعين مليارا من الفرنكات للقضاء على الثورة . وإذا سمحت لي هذه الجمعية أن أطرق في شيء من الصراحة فكرة مؤلة ، قلت : إن إنجلترا لم تدرك تماما أن رجلا مثل بونابرت الذي لم يؤخذ عليه إلا كثير من المقاصد الحميدة ، والذي لم تنفع معه إلا الطرق الشخصية ... فقاطعه رب الدار والفاق باد على وجهه ، وقال :

آه ! إنك تمدح القاتل من جديد اوصاح به الرئيس في غضب وعيته التي تشبه عين الخنزير البري تلمع فيها وحشية غريبة ، قائلا :

أرجو أن تعفينا من مواعظك العاطفية . ثم احمرت جبهته ، والتهب سخاه وقال للمتكلم : استمر . فاستطرد الرجل يقول :

إن إنجلترا العظيمة قد تهدمت اليوم ، فكل إنجليزي يضطر اضطرارا إلى أن يدفع فوائد الأربعين مليارا التي أنفقت في سبيل القضاء على اليعاقبة ، قبل أن يدفع ثمن الخبز الذي يأكله . ولم يعد يوجد بين ساسة الانجليز رجل مثل بت ... فقاطعه أحد العسكريين بعد أن تظاهر بالخطورة قائلا :

إن انجلترا لا يزال فيها دوق ولنجتون . فصاح الرئيس :
أرجو أن تلتزموا الصمت أيها السادة ، وإن كنتم لاتزالون مختلفين
فيما بينكم ، فقد كان من العبث أن نستدعى السيد سورل . ثم قال الدوق
في غضب وهو ينظر إلى المقاطع ، وقد كان جنرالاً في جيش نابليون :
نحن نعرف أن السيد رجل غني بأفكاره . وقد رأى جوليان أن
هذه العبارة تنطوي على شيء شخصي يؤلم أشد الألم ؛ لأن الحاضرين
تبسموا جميعاً ، فغضب هذا الجنرال المتخلى عن نابليون غضباً شديداً . ثم
استطرد المتحدث ، وقد ظهرت عليه علامات القنوط التي تبدو على من
لا يستطيع إقناع سامعيه بما يقول :

لم يعد في انجلترا رجل مثل بت ، وإذا كان فيها بت جديد ، فلن
يتلاعب بأمة مرتين بنفس الوسائل ... فقاطعه العسكري مرة أخرى :
ولهذا السبب نفسه ، لن يوجد في فرنسا قائد عسكري غاز فاتح مثل بوناپرت
وفي هذه المرة لم يجرؤ الرئيس أو الدوق على إظهار الغضب ؛ وإن
كان جوليان قد قرأ في وجهيهما الرغبة فيه ، وغضا من ابصارهما واكتفى
بالدوق بأن تنهد تنهداً سمعه كل الحاضرين .

غير أن المتحدث ساءه أن يقاطع مرة أخرى ، وأخذ يتكلم بحماسة ،
حتى نسي الأدب اللطيف واللغة المترنة ، وكان جوليان يحسبهما طبعا فيه
لأ تطبعا يتكاف ، قال :

إنكم تتمجلوتني وتريدون أن أنتهى حالا مما أقوله . مع أنكم
لأ تلاحظون أبداً مقدار ما أبذله من جهد حتى لا أسيء إلى أحد منكم ،

فلا أخرج أسمعكم ، مهما يبلغ طول آذانكم . حسنا أيها السادة ، سأوجز القول . وإني أستطيع أن أقول لكم في عبارات عامية : إن إنجلترا لم تعد تملك شيئا أبدا تنفقه في تلك القضية العادلة . ولو أن بت نفسه عاد مرة أخرى ، ما استطاع على الرغم من عبقريته ونبوغه أن يعيث بصغار الملاك الإنجليز ، لأنهم يعلمون أن معركة واترلو القصيرة الأجل ، كلفتهم وحدها مليارا من الفرنكات . ثم استطرد وحميته تزداد شيئا فشيئا :

أقول لكم مادتم حريصين على سماع الواضح المفهوم : «اعتمدوا على أنفسكم» ، لأن إنجلترا لا تملك جنيتها واحدا تقدمه لكم ؛ وإذا توقفت إنجلترا عن الدفع فإن النمسا والروسيا وبورسيا ، تلك الدول التي تملك الشجاعة دون المال ، لا تستطيع أن تحارب فرنسا إلا في معركة أو معركةتين فقط .

إن الإنسان ليأمل أن ينهزم الجنود الشبان الذين يعدمهم الثوريون في معركة أو معركةتين ، أما في الثالثة فسيكون لكم جنود عام ١٧٩٤ ، الذين لم يكونوا على شاكلة الفلاحين ممن أدخلوا العسكرية عام ١٧٩٢ ، أقول هذا على الرغم من أنكم ترونني . نوريا بعيونكم الحذرة .

وهنا قوطع من ثلاث جهات أو أربع دفعة واحدة ، فقال الرئيس لچوليان .

أذهب أيها السيد إلى الغرفة المجاورة ، وابدأ في تبييض مقدمة محضر الجلسة التي كتبها . فخرج أسفا ؛ لأن المتحدث كان قد بدأ بعرض لاحتمالات كانت دائما موضع تفكير چوليان وتأملاته .

وأخذ يقول في نفسه : إنهم يخشون أن أسخر منهم ، ولما استدعى
ليشهد الجلسة ، كان السيد دي لامول يقول بلهجة وقار يعمده جوليان مدعاة
إلى السخرية لكثرة ما عرف المرئز :

نعم أيها السادة ، هذا الشعب التعس هو الذي يقال فيه : هل سيكون
إلها ، مائدة أو إربقا ؟

إن مؤلف الأمثال يصيح في قوة : إنه سيكون إلها ! وهذه العبارة
القوية العميقة النبيلة إلى أبعد الحدود ، يتوقف تحقيقها عليكم أنتم أيها
السادة . اعملوا بأنفسكم ، وستعود فرنسا سيرتها الأولى التي تركها عليها
أسلافنا ، أو إلى حالة قريبة منها ، كما كنا نراها قبل موت لويس
السادس عشر .

إن إنجلترا أو لورداتها النبلاء على الأقل ، يكرهون العقوبة المزدولة ،
كما نكرها نحن تماما : وبدون الذهب الإنجليزي ، لا تستطيع النمسا
ولا روسيا ولا بروسيا القيام بمركتين أو ثلاث معارك . فهل هذا
يكفي في القيام باحتلال ثابت ، كذلك الاحتلال الذي اتفق عليه السيد
ريشيليو في سنة عام ١٨١٧ ؟ أنا لا أعتقد ذلك .

فقوطع المرئز لكنه قضى على المقاطعة من كل جانب . وكان
مصدرها في هذه المرة أيضا ذلك الجنرال الامبراطوري السابق ، الذي كان
يود الحصول على الوسام الأزرق ، ويريد أن يكون بين الذين يحررون
المذكرة السرية .

ثم استطرد المرئز دي لامول يقول بعد أن انتهت الضجة : أنا

لا أعتقد ذلك . وضغط على كلمة أنا في قحة أعجب بها جوليان الذي أخذ يقول في نفسه وهو يكتب في سرعة كبيرة تعادل سرعة المركيز في كلامه . هذه غمزة لطيفة ، فقد قضى المركيز بعبارة لطيفة على المارك العشرين التي اشترك فيها الجنرال .

ثم قال المركيز في لهجة متزنة : إننا لا نستطيع أن نعتمد على الأجانب وحدهم في احتلال عسكري جديد . فهؤلاء الشبان الذين يكتبون مقالات مثيرة في « الجلوب » سيعطوننا ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف قائد ، قد نجد بينهم قوادا مهرة مثل كليبر وهوش وجوردان وپشجرد ، ولكنهم ليسوا أسلم طوية من القواد السابقين . فقال الرئيس :

— إننا لم نستطع تمجيده التمجيد الحق ، فكان يجب أن يكون من الخالدين .

واستطرد المركيز دى لامول : ثم يجب أن يكون في فرنسا حزبان ولا أريدهما حزبين اسميين ، وإنما أرمي إلى أن يكونا حزبين متميزين مختلفين تمام الاختلاف . لنعرف من ينبغي لنا أن نحطمه . فمن جهة سنواجه الصحفيين ، والقراء أو الرأي العام بإيجاز ، ثم الشبيبة وكل ما تمجده . وبينما تكون مكبة على إثارة هذه الآراء التافهة التي لا يقام لها وزن ، نكون نحن مكبين على استنفاد الميزانية .

وهنا قوطع مرة أخرى . فقال المركيز لمقاطعه في كبرياء شديدة ويسر عجيب :

— أنت يا سيدي لا تستنفد إذا كان التعبير لا يرضيك ، وإني

تبتلع من ميزانية الدولة أربعين ألفاً من الفرنكات وثمانين ألفاً تتسلمها من القائمة المدنية . وما دمت ياسيدى تستثيرنى فسأضرب بك المثل فى جراحة . كان يجدر بك ياسيدى وأنت تحصل على مائة وعشرين ألفاً من الفرنكات أن ترينا — كأجدادك البواسل الذين ذهبوا مع لويس المقدس واشتركوا فى الحروب الصليبية — كتيبة من الجند ، أو فرقة أو نصف فرقة مكونة من خمسين رجلاً مستعدين للقتال ، مخلصين لقضيتنا العادلة إخلاصاً أكيداً ! ولكن ليس لديك إلا خدم ، إذا قامت ثورة ، كانوا مصدر رعب لك .

إن العرش والكنيسة وطبقة الأشراف قد يقضى عليها فى الغد أيها السادة ، مادمتم لم تخلقوا فى كل مقاطعة قوة مكونة من خمسمائة رجل مخلصين ؛ وإنى أقول مخلصين ، لأن الشجاعة الفرنسية وحدها لاتكفى وإنما أبغى أيضاً أن يكونوا متصفين بالجلد الأسبانى كذلك .

يجب أن يكون نصف الجند من أبنائنا وأبناء أبنائنا وأحفادنا ومن أبناء الأشراف الحقيقيين . وسيكون بجانب كل ابن من أبنائنا فلاح ساذج فطر على الصراحة مثل كاتينو ، لا برجوازى ثرثار ؛ مستعد لأن يرفع العلامة الثلاثية الألوان إن جدت حوادث عام ١٨١٥ مرة أخرى ؛ فيستطيع أبنائنا تلقين هؤلاء الفلاحين المبادئ التى يسبرون عليها ، ويا حبذا لو كانوا إخوتهم فى الرضاة ؛ ليضح كل منا بخمس دخله حتى نكون هذه الفرق الصغيرة المخلصة ، فى كل مقاطعة خمسمائة جندي . وفى هذه الحالة تستطيعون أن تتقوا أن الجنود الأجانب سيعجزون عن

التوغل في بلادنا ، لأن الجندي الأجنبي لن يقدر على الوصول إلى أكثر من ديجون إذا لم يكن على ثقة من أن في كل مقاطعة جنودا منا يشدون أزره .

ولن يصغى لنا الملوك الأجانب إلا إذا أعلننا أن لدينا عشرين ألفا من السادة الأشراف على أتم استعداد لأن يفتحوا لهم أبواب فرنسا بقوة السلاح . إنها مهمة شاقة كما تقولون ، ولكن سلامتنا أيها السادة تتطلب ذلك . ثم إن حرية الصحافة تتعارض أشد المعارضة مع حياتنا وبقائنا كأشراف ، فعليكم أن تختاروا . إما أن تصبحوا صناعا أو فلاحين وإما أن تقاتلوا في سبيل وجودكم . كونوا متواضعين إذا شئتم ولكن لا تكونوا أغبياء ، وافتحوا أعينكم جيدا .

إني أهيب بكم أن تكونوا فرقكم كما تقول الأغنية اليعقوبية . وفي هذه الحالة سيوجد شخص نبيل مثل جوستاف أدولف يحزنه ما يهدد الملكية من خطر ، فيندفع ثلثمائة فرسخ خارج بلاده ، ويعمل لكم ماعمله جوستاف أدولف للأسماء البروتستانت ، هل تريدون أن تظلوا تقولون ولا تعملون؟ إنكم لو اتبعتهم هذه الطريقة فلن يكون في أوروبا بعد خمسين عاما ملك واحد ، وسيصبح الحكم في أيدي رؤساء جمهوريات . وهذه الحروف الثلاثة R.O.I كفيلة بالقضاء على القسس والأشراف . إنني لم أعد أرى إلا طلاب منافع يتملقون هذه الأغلييات الملوثة .

من العبث أن تقولوا : إن فرنسا ليس لها في الوقت الحاضر قائد فذ معروف محبوب من الجميع ، وإن الجيش الفرنسي أصبح الآن منظما

بطريقة تهدف إلى خدمة العرش والكنيسة ، وقد انتزع منه المحاربون
القدماء ، على حين يوجد في كل فرقة من الفرق البروسية والتمسلاوية
خمسون من صف الضباط الذين اشتركوا في المعارك .

إن مائتي ألف شاب من الطبقة البرجوازية يجنون الحرب حبا
شديدا ، ويودون لو اشتركوا في قتال ...

فقال رجل عظيم ، يشغل فيما يظهر مركزا خطيرا في الكنيسة ، بلهجة
متكبرة لم يغضب لها المركيز دى لامول ، بل ابتسم منها ابتسامة رقيقة ،
فكان هذا دليلا لجوليان على أن الرجل من الشخصيات الكبيرة :

— دع تعداد هذه الحقائق المرة ، ولننجز أيها السادة : إن الرجل
الذي كتبت عليه أن تقطع ساقه لأنها تعفت ، لا يجدر بنا أن نقول
لجراحه : هذه الساق المريضة سليمة جدا ، فأرجو أن تسمحوا لي بأن
استعمل نفس العبارة ، وأردد هذا القول : أيها السادة إن جرحنا هو ذلك
الرجل الكريم الدوق ...

عندئذ قال جوليان في نفسه : وأخيرا عرفت الجهة التي سأذهب إليها
الليلة ، إنني سأركض الليلة نحو ...

الفصل الثالث والعشرون

الكهنوت ، الغابات ، الحرية

[القانون الأول الذى يتمسك به كل إنسان هو المحافظة على نفسه ، ومعنى ذلك أن يمشى . إنك لا تجنى من الشوك العنب]

مكافيل

— — — — —

واستطرد هذا الرجل العظيم يتحدث ، ومما لا شك فيه أنه كان يعرف مايقول ، فأخذ يعرض آراءه فى بلاغة حلوة معتدلة أعجب بها جوليان ، وذكر الحقائق التالية :

أولا : إن إنجلترا لاتضع فى سبيل خدمتنا جنيا واحدا ؛ لأن الاقتصاد وهيوم هما أهم مايشغل الأنجليز فى الوقت الحاضر ، والتقديرسون أنفسهم لن يعطونا شيئا من المال ، وسيسخر منا السيد بروجهام .

ثانيا : لن يتسنى لنا أكثر من حملتين إذا لم يتح لنا الحصول على الذهب الإنجليزي ، وهاتان الحملتان لاتكفيان إطلاقا للقضاء على البرجوازية الصغيرة .

ثالثا : ضرورة تكوين حزب مسلح فى فرنسا ، وإلا ما أتيح لمبدأ الملكية فى أوربا مطعمه فى هاتين الحملتين .

أما النقطة الرابعة التى أقدم على عرضها عليكم كسألة بديهية هى أنه لا يمكن تكوين حزب مسلح فى فرنسا بدون الرجوع إلى الكهنوت .

أقول لكم هذا في جراءة؛ لأنى سأبرهن لكم أيها السادة على ما أقول .
يجب أن تعطوا كل شيء للكهنوت لأنه :

يعنى بالأمر ليلا ونهارا ، وعلى رأسه رجال أكفاء وممتازون بهيدون
عن هذه العواطف ، فهم على مسافة ثلثمائة فرسخ من حدودكم ... فصاح
رب الدار قائلا :

آه ! روما ، روما ! فقال الكردينال في فخار :

نعم ياسيدى ، روما ! ومهما تكن النكات التى كنت تسمعها، وأنت
شاب ، لاذعة ومنتشرة فى ذلك الوقت ، فإنى أستطيع أن أقرر فى قوة ونحن
فى عام ١٨٣٠ أن الكهنوت وعلى رأسه روما هو الذى يستطيع أن
يتحدث إلى الشعب .

خسون ألفا من القسس على أتم استعداد لأن يرددوا ما أقوله فى اليوم
الذى يعلنه زعمائهم . والشعب الذى نستمد منه الجنود سيضغى إلى صوت
هؤلاء القسس أكثر مما يضغى إلى أى شيء آخر فى العالم كله ... (كانت
هذه الشخصية تثير همسات من الحاضرين) واستطرد الكردينال فى صوت
مرتفع : رجال الدين لهم عبقرية أسمى من عبقريتكم ؛ فالخطوات التى قتم
بها فى هذه النقطة الجوهرية وهى أن يكون فى فرنسا حزب مسلح ، قد
قنا نحن بها . فمن ذا الذى أرسل ثمانين ألف بندقية إلى ثندى ؟ ...

وما دام الكهنوت لم يحصل بعد على غاياته ، فلن يقوم بأى عمل .
ففى الحرب الأولى كتب وزير المالية إلى عماله أنه لم يعد فى الخزانة مال
إلا للكهننة . والواقع أن فرنسا لا تؤمن بهذا ، وهى تحب الحرب . ومهما

يكن الباعث على هذه الحرب ، فانها ستصبح عامة يقبل عليها الناس جميعا ؛ لأن نشوب الحرب يجيع اليسوعيين إذا استعملنا التعبير العامي ؛ الحرب تشفى من الكبرياء هؤلاء المردة وهم الفرنسيون ، وتدفع عنهم التهديد الذى يصيبهم من التدخل الأجنبي .

كان الحاضرون يصغون إلى الكردينال فى انتباه كبير ... ثم قال : يجب أن يتخلى السيد دى نرقل عن الحكم ، لأن اسمه يفضب الناس فى غير جدوى .

ولما سمع الحاضرون هذه العبارة وقفوا جميعا ، وتحدثوا جميعا دفعة واحدة . وأخذ جوليان يقول فى نفسه : سيطلبون منى مرة أخرى أن أغادر قاعة الاجتماع . ولكن الرئيس الحكيم كان قد نسى وجود هذا الشاب بينهم فأغفله تماما . واتجهت الأبصار كلها نحو رجل عرفه جوليان عند مارآه ، لأنه قد رأى من قبل السيد دى نرقل رئيس الحكومة فى مرقص الدوق دى ريتز . وساد اضطراب ، وعمت الفوضى كما تقول الصحف حين تتحدث عن مجلس النواب . وبعد ربع ساعة ، ساد النظام الاجتماع بعض الشيء . فنهض السيد دى نرقل واتخذ لهجة الرسل ، وقال فى صوت غريب نـ لا أريد أن أقول لكم : إني زاهد فى الحكم .

لقد ثبت لى أيها السادة أن اسمى يضاعف من قوة اليعاقبة؛ لأنه يعزى ضدنا كثير من المعتادين . كان من الممكن أن أنحلى عن الحكم فى سرور ، لولا أن الله عهد إلى برسالة ، وإرادة الله لا يدركها إلا القليلون . ثم نظر إلى الكردينال واستطرد : لقد عهدت إلى السماء برسالة تقول : إما أن تحمل

(م - ١٦ ستندال - ج ٢)

وأسك إلى المقصلة وإما توطد الملكية في فرنسا ، وتقلل من سلطة مجلس النواب والشيخ ، بحيث تعود سلطتها كما كانت زمن لويس الخامس عشر ، وهذه المهمة أيها السادة سأقوم أنا بها .

ثم سكت وجلس ، فساد صمت طويل . وأخذ جوليان يقول في نفسه : إنه لمثل ماهر . لقد أخطأ هذه المرة ، كما يخطيء دائماً حين يفترض أن الناس مفسطورون على فطنة كثيرة . لقد كان دي نرقال متأثراً بما حدث الليلة من مناقشات ، ومن الإخلاص الذي كان يطبع هذه المناقشات . فكان يؤمن في هذه اللحظة بالرسالة التي تحدث عنها . وهذا الرجل خلو من كل فطنة وإن كان كبير الشجاعة .

دقت ساعة الحائط معلنة منتصف الليل حين خيم السكون بعد هذه العبارة الجميلة التي نطق بها دي نرقال : إني سأقوم بهذه المهمة . ولحظ جوليان أن دقائق الساعة كانت تحمل شيئاً من الحزن والجلال فتأثرت بها نفسه .

وسرعان ما احتدمت المناقشة من جديد في كثير من الحمية ، وإن لم تخل من سذاجة كبيرة . فكان جوليان يقول في نفسه : في بعض اللحظات : سيدس هؤلاء القوم السملى ؛ إذ كيف يتحدثون بمثل هذه الأشياء أمام شخص من الشعب؟ ثم دقت الساعة الثانية ، وهم لا يزالون يتحدثون ، أما صاحب المنزل فكان قد أوى إلى فراشه منذ وقت طويل . واضطر الماركيز دي لامول إلى أن يذق الجرم ليغير الخدم الشموع . وغادر السيد دي نرقال الاجتماع في الساعة الثانية إلا ربعا ، بعد أن أخذ ينظر طويلاً إلى جوليان في مرآة بجواره . وقد شعر جميع الحاضرين بالارتياح لرحيله .

قال الرجل ذو الصدر الأربع لجاره في صوت منخفض — والخدم يغيرون الشموع — يعلم الله ما سيقتضيه هذا الرجل على الملك ! إن في استطاعته أن يصورنا في صورة تدعو إلى السخرية وتقضى على مستقبلنا .
ومما لاشك فيه أن وجوده بيننا الليلة، ينطوى على عجرفة لا نظير لها قد تصل إلى حد السفه والقحة . لقد كان يأتي إلينا قبل أن يصل الحكم ، ولكن منصب الوزارة يغير كل شيء ، ويقضى على اللفتات الطيبة كلها ، وقد طفى هذا الشعور على صاحبنا الطفيان الكامل .

ولم يكذب يخرج الوزير حتى أسبل جنرال بوناپرت عينيه ، وأخذ يتحدث عن صحته وجروحه ، ثم نظر في ساعته وانصرف . فقال الرجل ذو الصدر : أراهن على أن الجنرال يعدو خلف الوزير الآن ، ليقدم المعاذير عن وجوده الليلة بيننا ، ومع ذلك هو يدعى أنه يريد أن يقودنا .
وحيثما انتهى الخدم من تجديد الشموع وهم بين اليقظة والنوم ، قال الرئيس :

لنتداول إذن أيها السادة ، ولنترك النزاع جانبا ، ولنفكر الآن في نص للذكرة التي ستكون بعد ثمان وأربعين ساعة في أيدي أصدقائنا في الخارج . لقد تحدثوا عن الوزراء ، ونستطيع أن نقول الآن : إن السيد دى نرقال قد تخلى عنا ، وماذا يصيرنا من الوزراء ؟

فوافق الكردينال على ما قيل بابتسامة فيها دهاء . وتحدث رئيس أساقفة آجد الشاب في حمية شديدة ونفس عن نفسه ما كان يعتلج بين ضلوعه من تعصب شديد فقال :

— يجبل إلى أن الأمر يسير حين نريد أن نوجز موقفنا . وكان هذا الشاب قد التزم الصمت طوال الوقت . وقد لحظ جوليان أن عينيه الرقيبتين الوديعتين كانتا ترميان بالشرر بعد الساعة الأولى من النقاش . أما الآن فقد أخذت روحه تتور وتضطرم كما تتور حمم بركان فيزوف ، واستطرد يقول :

— خطأ إنجلترا في المدة ما بين ١٨٠٦ و ١٨١٤ يرجع إلى أنها لم تعمل ضد نابليون بصفة مباشرة وشخصية . فهذا الرجل منذ اتخذ أدواقا وحجابا ، ومنذ أحيا العرش من جديد زالت عنه الرسالة التي كلفه الله أداءها . ولم يعد يصلح شيء إلا لأن يقضى عليه . والكتب السماوية تعلمنا في أكثر من موضع كيف نقضى على الطغاة . (وهنا أخذ يتلو نصوصا لاتينية كثيرة) .

واليوم أيها السادة ، لسنا بصدد القضاء على رجل ، وإنما نحن بصدد القضاء على باريس . إن فرنسا كلها تحاكي باريس . فما الفائدة من تعبئة خمسمائة رجل في كل مقاطعة ؟ هذا مشروع ليس النجاح محققا فيه ، وهو بعد هذا لا ينتهي . فلماذا ندخل فرنسا في أشياء تعتبر ياريسية محضة ؟ وباريس وحدها بصحفتها وصالوناتها هي التي توحى بالشر ، فلتسقط إذن بايولون الجديدة .

يجب أن تقضى على ما بين باريس والكنيسة . وإن في هذه الكارثة فائدة كبرى لمصالح العرش : ثم لم تستطع باريس أن تعترض أو تتور أيام بوناپرت ؟ سلوا عن هذا مدافع سان روش

لم يغادر جوليان والمركز قاعة الاجتماع إلا في الساعة الثالثة صباحا . وكان المركز نجلا متعبا ، تم لهجته عن الضراعة للمرة الأولى وهو يتحدث إلى جوليان . وقد استخلفه بشرفه ألا يبوح بما سمعه من طفرات النشاط على حد تعبير المركز ، عما ساقته المصادفات إلى سماعه . ثم قال له : لا تتحدث بهذا إلى صديقنا في الخارج إلا إذا أصر على معرفة ما يدور في نفوس شباننا المجانين . وماذا يضيرهم لو انقلب نظام الحكم ؟ إنهم سيصبحون كرادلة ويفرون إلى روما أم نحن فسيمزقنا الفلاحون في قصورنا شر ممزق . ولم ينته المركز من كتابة المذكرة السرية إلا في الساعة الرابعة إلا ربعا ، كتبها على ضوء المحضر الذي سطره جوليان عما دار في الاجتماع وكان يقع في ست وعشرين صفحة ؛ ثم قال لجوليان :

! كاد أموت من فرط التعب ، ويظهر هذا جليا في المذكرة التي ينقصها كثير من الوضوح في الجزء الأخير منها ، وذلك بحز في نفسي أكثر من أي شيء آخر اقترفته في حياتي . ثم استطرد يقول . هيا يا صديقي واذهب لتستريح بضع ساعات ، وسأغلق عليك باب غرفتك بنفسى خشية أن يختطفوك .

وحلّ اليوم التالي فقاد المركز جوليان بنفسه إلى قصر منعزل بعيد عن باريس . وهناك رأى بطلنا نزلاء عجيبيين ظنهم قسسا ، أعطوه جواز سفر باسم مستعار ، لكنه يشير إلى غرض الرحلة الحقيقية الذي كان يدعى دائما أنه يجهله . ثم استقل عربة وحده .

وكان المركيز مطمئنا تمام الاطمئنان إلى ذاكرة جوليان ، فقد تلى عليه المذكرة السرية عدة مرات ، لكنه كان يخشى أن يحال بينه وبين أن يستمر في الرحلة ؛ فأخذ يقول له في ود وعطف وهو يغادر الصالون : — لا تنس أن تتظاهر بأنك أحق يقتل الوقت بالأسفار . لأنه ربما

كان في اجتماع الأوس أكثر من زميل زائف .

كانت الرحلة سريعة حزينه إلى أبعد الحدود . ولم يكد جوليان يتعد عن المركيز حتى نسي المذكرة السرية ونسى المهمة التي أوفد فيها ، ولم يعد يذكر شيئا إلا أن ماتيلد تحقره .

وفي قرية تبعد عن منز بيضعة فراسخ ، أخبره رئيس مركز البريد بأن ليس لديه خيل . كانت الساعة العاشرة مساء ، وقد أصبح جوليان كاسف البال ، فطلب طعاما يتناوله . وأخذ يسير أمام الباب ، بحركات غير إرادية فمر بمخاطبة الخيل دون أن يظن إليه أحد ، فلم يجد بها جيادا . غير أنه أخذ يقول في نفسه : ومع ذلك فنظرات هذا الرجل تنطوي على كثير من الغرابة . لقد ظل يتفرسني في قحة .

وأخذ يتشكك كما ترى في صدق ما يقال له . وفكر في أن يتسلل بعد العشاء ، فغادر غرفته وذهب إلى المطبخ يطلب الدفء . وما ذلك إلا ليعرف شيئا عن المسكان الذي هو فيه . ولم كان سروره كبيرا حين التقى بالسنيور جبرونيمو ، ذلك المعنى الشهيرا

كان يجلس على مقعد وضع له أعلى مقربة من النار ، وكان الرجل كثير الشكوى يتكلم بصوت مرتفع ، لكنه كان يتحدث إلى نفسه أكثر

ما يتحدث إلى غيره من الألمانين العشرين الذين جلسوا حوله وعلى وجوههم علامات الذهول . وما كاد المعنى يرى جوليان حتى قال :

— إن هؤلاء الناس سيقتضون علىّ ، لقد وعدت أن أغني غداً في ماينس ، وقد هروا إلى البلدة سبعة من الأمراء العظام ليستمعوا إلى غنائي . ثم استطرد يقول في لهجة لها مغزاه : هيا بنا نستنشق الهواء .

وحيثما سارا ما يقرب من مائة خطوة على الطريق وأمن جيرونيمو أن لم يعد هناك من يسمعه ، قال لجوليان :

— هل تعرف ما يجري ؟ إن رئيس مركز البريد وغد لثيم ، وقد كنت أتزّه فأعطيت رجلا من المشردين فرنكا فأخبرني بكل شيء . إن هناك اثني عشر جوادا في حظيرة في الطرف الآخر من القرية . وهم يعمدون إلى تأخير بعض المسافرين . فقال له جوليان في لهجة تم عن البراءة :

— أحقا ما تقول ؟

ولم يكن اكتشاف هذه المكيدة هو كل شيء ، إذ كان عليهم أن يرحلا ، لكنهما لم يتمكنوا بعد ما أعلما فكرهما في سبيل الفرار ، فقال جيرونيمو : علينا أن ننتظر حتى الصباح ؛ لأنهم يخشوننا ويخدروننا وربما كانوا يريدونني أو يبحثون عنك . في صباح غد نطلب طعام الإفطار وندهم يمدونه ثم نخرج لنتزّه ، وهناك نستأجر جوادين إلى مركز البريد التالي .

وذن جوليان أن جبرونيمور ربما أرسل إلى القرية ليحول بينه وبين مواصلة السفر . فسأله قائلاً :

— وماذا تفعل بامتعتك ؟ ثم تناولوا الطعام وذهبا ايناما .
كان جوليان تحت سيطرة النعاس الأول حين استيقظ فزعاعلى صوت رجلين يتحدثان في غرفته دون مبالاه .

ونظر فرأى رئيس مركز البريد ويده مصباح يرى به من يحمله ولكن لا يرى حامله . وكان الضوء مسلطاً على صندوق العربة الذى طلب جوليان أن يحمل إلى غرفته . وبجانب رئيس البريد وقف رجل يفتش الصندوق المقترح فى هدوء وسكينة ، ولم ير جوليان منه إلا أكامه فألفاها سوداء وضيقة جداً .

فقال فى نفسه : إنه لباس الكهنوت ، وأمسك بهدوء مسدساته الضغيرة التى وضعها تحت وسادته . ثم سمع رئيس البريد يقول :

— لا نخش أن يستيقظ يا سيدي الكاهن ، لأن النيذ الذى قدم إليهما من الصنف الذى تحضره بنفسك . فقال الكاهن :

— إننى لأجد أوراقاً أبداً ، ولكنى أرى كثيراً من الملابس والروائح والأدهان وأشياء تافهة أخرى ؛ إنه شاب من شبان العصر ، ملكت لذاته عليه نفسه . أما الرسول فهو الشخص الآخر الذى يلوى لسانه بلهجة إيطالية .

واقتربا من جوليان ليفتسا جيوب ثيابه . وكم كان يود أن يقتلها محتللاً بأنهما يسرقانه ، وليس فى هذا خطر عليه فيما بعد ، وتملكته رغبة

قوية في أن يودى بحياتهما ... لكنه قال في نفسه : لو فعلت لكنت حقا أحمق ، ولانيت المهمة التي كلفتمنا بالانشغال . ثم انتهى الكاهن من تفتيش ثيابه فقال : ليس هذا الشخص ممن يقومون بمهمة سياسية . ثم ابتعد وحسنا فعل .

كان جوليان يقول في نفسه في هذه اللحظة : إذا لمسني في فراشي ، فالويل له كل الويل ، إن في استطاعته أن يطعنني بمخنجر ، وهذا مالا أطيعه وأدار الكاهن رأسه ، وجوليان يفتح عينيه قليلا ، ولشد ماذهل ! لقد كان الكاهن كاستانيد ! ولو أنه بدا للرجلين أن يتحدثنا بصوت متخفص ، فقد بدا لجوليان من أول الأمر أنه يعرف صوت الكاهن . واستولت عليه رغبة قوية في أن يسقى الأرض من دم هذا الوغد الذي كان يفتته مقتا شديدا . . .

غير أنه كان يعود فيقول في نفسه : ولكن ... المهمة التي بعثت من

أجلها !

وخرج الكاهن وحامل الضوء . وبعد ربع ساعة ، تظاهر جوليان بأنه استيقظ ، وأخذ ينادى فأيقظ كل من في المنزل . ثم صاح قائلا :
— لقد تسممت ، كم أقاسي من آلام شديدة ! وقد فعل هذا في الواقع ليسعف جيرونيهو ! ثم ذهب إليه فوجده يكاد يختنق من أثر خلاصة الأفيون التي دست له في النبيذ .

وكان جوليان يخشى أن يصيبه ما أصاب صاحبه ، فلم يطعم إلا الشوكلاته التي أحضرها من باريس . ولقد لاقى عناء كبيرا حتى

أيقظ جيرونيمو ، لكنه لم يتمكن من إقناعه بالرحيل ، إذ قال له المعنى :
- لو أنهم أعطوني مملكة نابولي ، ماقبلت في سبيل أن أنام الآن .
- ولكن مابال الأمراء العظام الذين ينتظرونك !
- فلينتظروا .

سافر جوليان وحده ، ووصل إلى العظيم الذي أرسل ليلقاه ، دون
أن يحدث له في الطريق حدث آخر . وظل صباحا كاملا يحاول عبثا أن
يحظى بلقاء هذا العظيم ؛ ولحسن الحظ أراد الدوق أن يستنشق الهواء في
الساعة الرابعة ، ورآه جوليان يسير على قدميه ، فلم يتردد في أن يقترب منه
ويسأله صدقه . ولما أصبح على بعد خطوتين منه ، أخرج جوليان ساعة
المركيذى لأمول من جيبه بتصنع ، فلم يلتفت إليه الدوق وقال له :
اتبعني من بعيد .

وعلى بعد ربع فرسخ من مكان لقاؤهما ، دخل نجاة مفهى صغيرا
وفي حجرة منسقة أبدع التنسيق في هذا المنزل ، تشرف جوليان بتلاوة
الصفحات الأربع على الدوق . وحينما انتهى قال له : أعدها ثانية ولكن
على مهل .

وأخذ الأمير يدون مذكرات ، ثم قال له : اذهب إلى مركز البريد
المجاور سعيا على الأقدام واترك هنا متاعك وعربتك . سافر إلى استراسبورج
كما اتفق لك ، وفي اليوم الثاني والعشرين (وكان اللقاء في اليوم العاشر)
تعال إلى هذا المقهى بالذات في منتصف الساعة الواحدة . لا تخرج قبل
نصف ساعة . والزم الصمت .

هذه هي العبارات التي سمعها جوليان . وكانت وحدها كافية لأن عملاً قلبه إعجاباً بهذا الدوق ؛ فأخذ يقول في نفسه : هكذا تقضى الأعمال ؛ ماذا كان يقول هذا الرجل العظيم لو أنه أنصت إلى ما كان يدور من ثرثرة شديدة منذ ثلاثة أيام ؟

ثم قطع المرحلة إلى استراسبورج في يومين ، لأنه ظن أن ليس له هناك عمل ، فسلك طريقاً طويلاً ؛ وأخذ يقول : لو أن هذا الشيطان الكاهن كاستاند عرفني ، ما تخلف عن اقتفاء أثرى لحظة ... وكم يسره أن يسخر مني وأن أُنمى بالفشل في مهمتي !

والأب كاستاند ، رئيس كل الشرطة التي وكل إليها مراقبة الحدود في الشمال ، لم يعرف جوليان من حسن حفظه . أما اليسوعيون في استراسبورج فلم يفسكروا أبداً في مراقبة هذا الشاب وإن كانوا متحمسين إلى أبعد حد . وأما بطلنا فقد شغل بوسامه وحلته الزرقاء ، وكان يبدو كأنه من شباب الجيش — معنياً بنفسه وشخصه .

الفصل الرابع والعشرون

ستراسبورج

[ياله من سحر ! إن لك من الحب قوته وبأس
لتشعر بمرارته وقسوته . إن لذاته الحلوة وامتعه الجلية
ليست في متناول يدك . وحينما أراها نائمة لا أستطيع أن
أقول : إنها لي بجمالها السماوي وضعفها الرقيق ! ها هي
ذى مستكينة لقوتي ، كما خلقتها السماء برحمتها لتسر قلوب
الرجال :]
مقطوعة من شعر شيلر



اضطر جوليان إلى البقاء في ستراسبورج ثمانية أيام ، فأخذ يتسلى
بآراء ... بالآراء الحربية الجيدة والإخلاص للوطن . فهل هو محب إذن ؟
إنه لا يعرف شيئا ، غير أنه رأى ماتيلد مسيطرة على سعادته سيطرة مطلقة
وتملك عليه دائما خياله . وكان لا بد له من أن يستعين بكل ما في خلقه من
قوة كي لا يتسرب إلى نفسه اليأس . ولم يكن في مقدوره أن يفكر في شيء .
لا تربطه بالآنسة دى لامول أية رابطة .

كان طموحه وما يصيبه من توفيق ضئيل يشغله من قبل عن أن يعنى
بالعواطف التي كانت مدام دى رينال تبثها في قلبه ، وكان غروره يحول
بينه وبين تعهد هذه المشاعر . أما الآن فقد سيطرت ماتيلد على كل شيء .
في نفسه ؛ بحيث يجدها ماثلة أمامه كما نظر إلى المستقبل .

وكان جوليان يرى الفشل في كل ناحية من نواحي مستقبله . وهذا
الشخص الذي رأيناه في ثريير معتدا بنفسه الاعتداد كله ، متكبرا إلى أبعد
حدود الكبر ، أصبح الآن متواضعا إلى درجة مزرية .

فند ثلاثة أيام ملكته رغبة قوية في أن يقتل الكاهن كاستاند ،
أما اليوم فلو أن طفلا من أطنال استراسبورج تحامل عليه من غير حق
وتشاجر معه ، لأظهر بطلنا أن الطفل على صواب ، وأنه هو المخطئ .
وحينا يأخذ في استعراض غرمانه وأعدائه الذين لا قام في حياته ، يجد
نفسه أنه قد كان على خطأ وأنهم كانوا هم المحقّين .

أصبح خياله الآن عدوه الحقّ القوي ، وهو الذي كان يرسم له من
قبل نجاحا باهرا ويمنيه بالتوفيق في الحياة .

وقد زادته الوحدة التي لقيها في هذه المدينة ألما على ألم ، وقوت من
الصور السود التي كان يرسمها له الخيال . كم ودّ أن يعثر على صديق له !
فالصديق في مثل هذه الحالة كثر ، ولكنه كان يسائل نفسه : وهل في
العالم قلب يحنق من أجلي ؟ وإذا كان لي صديق ، أفلا يفرض عليّ الشرف
أن ألتزم معه الصمت المطلق ؟

كان يتنزه على ظهر جواده والحزن يملأ قلبه في ضواحي كهل ،
الواقعة على الضفة نهر الرين والتي خلدها ديزيه وجوفيون سان سير . وكان
فلاح ألماني يريه الجداول الصغيرة والطرق وجزر الرين التي خلعت
عليها شجاعة هؤلاء القواد اسما خالدا . وكان جوليان ممسكا عنان جواده
بيده اليسرى ، أما اليد اليمنى فقد أمسك بها مصورا رائعا زينت به
مذكرات المارشال سان سير . كان ينظر إلى المصور حين حملته صبيحة
فرح على أن يلتفت إلى مصدرها .

إنه الأمير كورازوف صديقه في لندن ، الذي كشف له القناع منذ بضعة شهور عن قواعد الادعاء الشديد . وكورازوف على عادته مخلص لهذا الفن ، فأخذ يشرح لجوليان كل ما تقع عليه عينه ، مع أنه لم يصل إلى استراسبورج إلا أمس فقط ، وذهب إلى كهل منذ ساعة ، ولم يقرأ من قبل شيئا عن حصار سنة ١٧٩٦ . فأخذ الفلاح الألماني ينظر إليه ذاهلا ، لأنه يعرف الفرنسية بالقدر الذي يمكنه من تمييز الأخطاء الفاحشة التي مخطئها الأمير . وما كان جوليان يعني إطلاقا بآراء الفلاح ، بل كان ينظر في ذهول إلى هذا الشاب الجميل ، معجبا بظرفه وهو يركب جواده .

وأخذ جوليان يقول في نفسه : ياله من خلق ينطوى على السعادة ! إن سراويله متقنة الصنع ، وشعره مقصوص بشكل بدیع ! وأسفاه ! لو أنني كنت كذلك ، ما وقع لي أنها أحببتي ثلاثة أيام فقط ، ثم أبغضتني بعدها بغضا شديدا .

ولما انتهى الأمير من الحديث عن حصار كهل قال لجوليان : إن وجهك وجه رجل من رجال الدين ، لقد تجاوزت مبدأ الوقار الذي حدثتك عنه في لندن . إن الوجه الحزين لا يدل على الظرف ، وإنما هو الوجه الذي ييم على السأم . وإذا كنت حزينا ، كان ذلك دليلا على أن شيئا ينقصك أو أن هناك شيئا لم يكتب لك النجاح فيه .

ومعنى ذلك أنك تظهر بمظهر النقص . أما إذا بدا عليك السأم ، فعناد أن الشخص الذي يحاول عبثا أن يرضيك هو الذي يشعر بهذا النقص . فليكن أن تدرك إذن يا عزيزي أن الاحتقار وقمة خطير .

وألقى جوليان قطعة من النقود للفلاح الذي كان يصنعني إلى ما يقال
فاغرافاه ، ثم قال الأمير .

— حسنا ، إن هذا شيء ظريف ، عليك بالاحتقار الرفيع !
حسنا جدا ! .

ثم ركض بجواده ، وجوليان يتبعه ، وهو مبدي إعجابا ينطوي على الغباء
ومحدث إلى نفسه قائلا : آه ! لو أتيت كنت كذلك ، إذن ما فضلت
على كروازينوا ! وكلما حدثت عقله بتفاهة ما يقوله الأمير ، احتقر نفسه
لأنه لا يعجب بما يقال له ، واعتقد أنه بائس حقا ؛ لأنه خلو من هذه الصفات .
وإن احتقار المرء لنفسه لا يمكن أن يذهب إلى أبعد من هذا .

ورآه الأمير حزينا حقا فقال له وهما يدخلان استراسبورج : ماذا
يك يا عزيزي ؟ هل فقدت كل مالك أم تراك تحب ممثلة صغيرة ؟ إن
الروس يحاكون الفرنسيين ، في أخلاقهم ، ولكنهم يحاكونهم فيما مضى
عليه نصف قرن . فهم الآن إذن قد وصلوا إلى عصر لويس الخامس عشر
وجعل حديث الأمير العايب عن الحب ، الدموع تترقرق في عيني
جوليان ، فسأل نفسه بفتنة : لم لا أستشير هذا الرجل الظريف ثم قال للأمير :
نعم يا عزيزي ، إنك ترائي في استراسبورج محبا لأبعد حد ، وإن
كانت حبيبتي قد هجرتني . إن امرأة ظريفة تسكن بلدة مجاورة ، قد
تخلت عني بعد أن أحبتني ثلاثة أيام ، وهذا التعير يكاد يقتلني قتلا .
وصور للأمير أعمال ماتيلد وخلقها وإن كان قد خلع عليها اسما
مستمارا ، فقال له :

حسبي ماذا ذكرت ، وسأقص عليك أنا باقي قصتها ، لتتق بطبيبك .
إن زوج هذه المرأة الشابة يتمتع ببراءة عريضة أو أنها هي تنتسب إلى أعرق
الأسر في المقاطعة . ولا بد أنها معتدة بشيء ما .

فأوما إليه جوليان برأسه ، لأن الشجاعة ما كانت تواتيه ليتحدث إليه .
سأصف لك ثلاثة أدوية كلها مرّة ، وعليك أن تتناولها في الحال .
١ - يجب أن ترى كل يوم السيدة ... ما اسمها ؟

مدام دي بوا . فقال الأمير ضاحكا :

ياله من اسم عجيب ! ولكن معذرة فهو اسم بديع في نظرك ، ينبغي
أن ترى مدام دي بوا كل يوم ، على ألا تظهر أمامها بمظهر الفاتر الفاضب ،
وعليك أن تذكر دائما أهم مبدأ لعصرك : كن دائما على عكس ما ينتظر
منك . واطهر أبدا بالمظهر الذي كنت عليه قبل أن تظهر لك الود والمطف
بمانية أيام .

فصاح جوليان في يأس شديد :

آه ! لقد كنت أمتع بهدوء كبير ، وقد ظننت أول الأمر أن شفقتي
عليها هي التي تدفعني نحوها .

إن الفراشة لتجترق حين تقترب من الشمعة ، وهذا تشبيه قديم
قدم العالم .

١ - يجب أن تراها كل يوم .

٢ - عليك بمغازلة امرأة من طبقتها ، ولكن دون أن تبدو عليك

علامات الحب ، فهل تفهم هذا ؟ لا أخفي عليك أن الدور الذي تقوم به

سيكون شاقا ، فأنت تمثل دورا ، وإذا أدركت هي ذلك فقدتها إلى الأبد .
فأجابه جوليان في حزن شديد .

إنها عظيمة الفطنة ، وأنا على جانب قليل من الذكاء ، فيا لضيعتي !
— لا ، لست قليل الذكاء ولكنك كثير الحب ، إنك تحبها أكثر مما
كنت أظن . إن مدام دي بوا مشغولة بنفسها إلى أبعد حد ، مثلها في هذا
مثل جميع النساء اللاتي وهبتهن السماء : إما أصلا عريقا وإما مالا كثيرا .
إنها تعجب بنفسها أكثر مما تعجب بك ، فهي إذن لاتعرفك . أما الحب
الذي أظهرته لك مرتين أو ثلاثا فيرجع إلى عمل الخيال وقدرته ، فقد ظنت
أنك بطل أحلامها ، ولم تدركك على حقيقةتك .

ولكن يا للشيطان ! هذه مبادئ أولية . يعزى سورل ، فهل لاتزال
تلميذا غريبا ؟ .

ياإلهي ! هيا بنا ندخل هذا الخانوت ، فإني أرى ياقة سوداء بديعة ،
يظنها الرائي من صنع جون أندرسون في شارع برلنجتون ، فاسمح لي أن
أخذها وأن أطوح بعيدا بهذا الحبل الذي يتدلى من عنقك .

ثم استطرد الأمير يقول ، وهو يغادر أشهر محل للحياكة وبيع الشرائط
في استراسبورج : من هن صديقات مدام دي بوا ؟ ياله من اسم ! ياإلهي !
لاتغضب يعزى سورل ، أنا لا أستطيع إلا أن أعجب من هذا الاسم ...
من ستغازل ؟

— سأغازل فتاة تتظاهر بالوقار الشديد ، إنها ابنة تاجر جوارب غني
جدا . عيونها فاتنة حقا ، هي أجمل عيون في الدنيا ، تسيني إلى أبعد حد
(م — ١٧ استدال ج ٢)

سعين أنظر إليها؛ وهى ولا شك تحتل المسكناة الأولى فى المقاطعة كلها؛ ولكنها على الرغم من عظمتها هذه، تجعل خجلا شديدا يبلغ الاضطراب حين يتحدث إليها عن التجارة والحوانيت. وكان أبوها لسوء الحظ من أشهر تجار استراسبورج. فضحك الأمير وقال:

إنك إذا تحدثت إليها عن الصناعة، فأنت واثق من أن فتاتك الجميلة ستفكر فى نفسها لا فىك. إنها لسحرية بديعة ومفيدة، فهى لن تبيح لك أن تظهر أية حماقة لهذه العيون الجميلة. إن النجاح مؤكد.

كان جوليان يفكر فى أرملة اللرशल فرقائق التى كانت تتردد كثيرا على قصر دى لامول. وهى أجنبية جميلة تزوجت اللارशल قبل أن يموت بعام واحد. وقد وقفت حياتها كلها على أن تنسى أنها كانت ابنة رجل من رجال الصناعة، ولكى تخلق لها مكانة فى باريس، ظهرت دائما بمظهر الفضيلة.

أعجب جوليان بالأمير كثيرا حتى ودلوقدم أى شىء فى سبيل الحصول على تفاهاته! وطال الحديث بين الصديقين؛ وكورازوف مسرور كل السرور، لأن جوليان أول فرنسى استمع إلى حديثه كل هذه المدة الطويلة. وأخذ يحدث نفسه فى سرور بالغ: لقد أصبحت إذن قادرا على أن ألقى دروسا على أساتذتى، وهم مع ذلك يصنعون لى تمام الإصغاء ثم أعاد على جوليان ما قاله من قبل:

نحن إذن متفقان، على ألا يظهر فى حديثك مع الفتاة الجميلة، ابنة تاجر الجوارب، لون من ألوان الحب وأنت تتحدث إليها أمام مدام دى بوا.

ولكن إذا كتبت إليها فاجعل كتبك تنم عن حب عفيف ؛ فقراءة خطاب
حب كتب بأسلوب جيد يعد أكبر متعة تلقاها الفتاة ؛ إنها لحظة لا تشغل
فيها إلا بما تقرأ . وهي لا تمثل مهزلة من المهازل ، بل تجرؤ على الاستماع إلى
ما يقوله قلبها ؛ وعلى هذا فاكذب إليها خطابين كل يوم . فأجابته
جولييان في قنوط :

— أبدا ، أبدا ! خيل لي أن تستحق عظامي في هاون من أن اكتب
ثلاث جمل ؛ لقد أصبحت جثة هامدة يا عزيزي ، فلا ترج خيرا من ورائي
ودعني أمت على حافة الطريق .

— ومن ذا الذي طلب منك أن تنمق الخطابات بنفسك ؟ عندي ستة
مجلدات من خطابات الحب ، كلها مخطوطة . وهي تمثل ألوان النساء على
اختلاف طباعهن وأخلاقهن . عندي منها ما يلائم أكثر النساء تمسكا
بالفضيلة . ثم ألا تعرف أن كاليبسكي غازل أجمل زاهدة في إنجلترا كلها ،
تلك التي كانت تقيم في ريشموند لآتراس على بعد ثلاثة فراسخ من لندن ؟
كان جولييان أقل ألما وتعاسة حين غادر صديقه في الساعة الثانية صباحا .
وفي اليوم التالي استدعى الأمير نساخا ، ومضى يومان كان بعدهما
عند جولييان ثلاثة وخمسون خطابا من خطابات الحب ، رقت كلها ،
وتنطوى على الفضيلة في أرفع درجاتها ، وفي أشد حالاتها حزنا وكآبة .
وقد قال له الأمير :

أما الخطاب الرابع والخمسون فلم يكتب ، لأن الراهبة الجميلة تخلصت
من كاليبسكي ، ولكن ماذا يضريك إذا عاملتك ابنة تاجر الجوارب معاملة

سيئة ، ما دمت لا ترمى إلا لكسب قلب مدام دي بوا ؟
كانا يركبان الجياد كل يوم ، وقد أصبح الأمير متعلقا بجوليان تعلقة
شديدا . ولم يعرف كورازوف كيف يعبر له عن صداقته المفاجئة ، وعرض
عليه أن يزوجه باحدى قريباته ، وهى بنت من بنات أعمامه ورثت ثروة
طائلة فى موسكو ؛ واستطرد يقول : وحينما يتم هذا الزواج سأستعمل
نفوذى فأجعلك أمير آلاى بعد عامين ، وسيساعدنى فى ذلك هذا
الوسام الذى نلته .

— ولكن عليك أن تذكر أن هذا الصليب لم يمنحه لى نابليون .
— وماذا يعنيننا ، أليس هو مخترع هذا الوسام ؟ إنه لا يزال خير الأوسمة
فى أوروبا كلها .

وكاد جوليان يقبل ما عرض عليه ، لكن واجبه استدعاء فذهب للقاء هذا
الشخص العظيم ، ووعد كورازوف أن يكتب إليه . تسلم ردّ المذكرة السرية
ثم أسرع عائدا إلى باريس . ولم يكده يقيم بها وحده يومين متواليين ، حتى
رأى أن فى مغادرة فرنسا وترك ماتيلد عذابا ألما ، أشق على نفسه من الموت .
وقال فى نفسه : لن أتزوج الملايين التى عرضها على كورازوف ، ولكنى
سأتبع ما نصحنى به .

إن فن الإغراء — على كل حال — مهنة هذا الأمير ... هو شغله
الشاغل منذ أكثر من خمسة عشر عاما ، لأن عمره الآن ثلاثون سنة .
ولا يستطيع المرء أن يصفه بأنه قليل الفطنة ، فهو ذكى مراوغ ؛ لا يعرف
الحاسة ولا الشعر ، وهو نائب ، وقد علمه منصبه ألا يقع فى خطأ .

يجب أن أغازل مدام دي فرفاك . ربما جرّت عليّ بعض السامة ،
ولكنني سأنظر دائما إلى عينيها الجميلتين اللتين تشبهان تماما عينيّن لست أبتغى
عنهما بديلا في العالم بأسره .

إنها أجنبية ، وسيتيح لي هذا فرصة دراسة خلق جديد .

إني لمجنون ، إني أجر على نفسي المهالك ؛ لأنني أتبع نصائح صديق وأنا

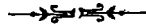
لا أؤمن بها .

الفصل الخامس والعشرون

وزارة الفضيلة

[لو أنني أقبلت على هذه اللذة فحذر شديد وتحفظ كبير ، ما عدت أشعر بأنها لذة] .

لوب دى فيجا



لم يكد جوليان يعود إلى باريس، ويفتاد مكتب المركيزدى لامول الذى كان مضطربا جدا من الرسائل التى قدمت إليه ، حتى أسرع ليلقى الكونت ألتاميرا . فهذا الأجنبي الجميل تنطوى نفسه على وقار ، ويشعر بسعادة العبادة ، فضلا عن أنه حكم عليه بالإعدام ؛ وهاتان الصفتان إذاً أضيف إليهما كرم محدد الكونت ، كان مفضلا عن مدام دى فرفاك التى تراه كثيرا .

واعترف له جوليان فى وقار ، بأنه مغرم بها محب لها إلى أبعد الحدود .

فقال له الكونت :

إنها تمثل الفضيلة فى أنصح معانيها وأرفع مراتبها ، لكنها منافقة قليلا ، محبة للعظمة . فى بعض الأيام أفهم كل كلمة تقولها ، ولكنى لا أفهم الجملة كلها بصفة عامة . وكثيرا ما أفكر فى أنى لا أعرف الفرنسية كما تعرفها هى حين تتحدث إلى . على أن معرفتك بها استديع اسمك ، وتثقل موازينك فى المجتمع . هيا بنا نذهب إلى بوستوس فقد غازل المرشالة وتودد إليها من قبل .

أخذ دون دييجو بوستوس، ينصت طويلا إلى ما يعرض عليه ، دون أن يقول شيئا ، مثله مثل المحامي في مكتبه . وهو ذو وجه ضخم كوجوه الرهبان وشارب أسود ، ووقار ماله من نظير ، وهو على الجملة ماسونى صالح . وبعد فترة طويلة ، قال لجوليان :

إنى أفهم ماتريد . ولكن المرشالة دى فراك !... هل اتخذت لها عشاقا ، أم لم تعرف تلك العلاقات ؟ ثم هل لك أمل فى أن تكسب قلبها ؟ هذا هو الإشكال . أما أنا فاعترف لك بأننى أخفقت . ولم أعد الآن ناقما عليها ، وقد كونت لنفسى عنها هذا رأى . إن الغضب يتسلط عليها فى بعض الأحيان كما سأخبرك ، وهى لهذا محبة للانتقام .

ولا أراها تتصف بالمزاج الصفراوى الذى يميز العبقريّة ويخلع على الأعمال كلها لونا من ألوان الشغف . بل هى على عكس ذلك تميل إلى الخمول والهدوء ، وهما طابعا الهولنديين ، وإليهما يرجع جمالها النادر ولونها الرائع .

فرغ صبر جوليان من بطاء هذا الإسباني ومن هدوئه الشديد ؛ وعلى الرغم منه كانت تفلت من بين شفثيه بعض كلمات من آن إلى آخر ، فكان دون دييجو بوستوس يقول له فى وقاره المعهود :

— أتريد أن تصغى إلى ؟

— أرجو أن تغفر لى هذه الحدة الفرنسية؛ أنا مصغ إليك كل الإصغاء .

— إن مدام دى فراك تملأ الكراهية نفسها ويستولى عليها الحقد ،

فهى تقاضى أناسا لم ترمم فى حياتها ، وتضطهد محامين بأسيين وأدباء ألفوا

أغاني مثل « كولييه » ، فهل تعرفها :

إني مولع بحب ماروت ولعا شديدا ...

واضطر جوليان إلى سماع الأغنية كلها ، لأن هذا الإسباني كان

يشعر بارتياح شديد وهو يغنى بالفرنسية .

ولم يكتب لهذه الأغنية الجميلة أن تسمع في ضيق وفروغ صبر، على

النحو الذي سمعها به جوليان . ثم انتهت فقال له دون دييجو بومستوس :

لقد طردت المرشالة مؤلف هذه الأغنية .

الحب ذات يوم في الحانة ...

وقد ارتاع جوليان وخشى من أن يضطر إلى سماع هذه الأغنية كذلك ،

لكن الإسباني اكتفى بتحليلها . وقد كانت تنطوي في الواقع على
الفجور والإلحاد .

ثم استطرد دون دييجو يقول : لما استولى الغضب على المرشالة بسبب

هذه الأغنية ، أخبرتها بأنه لا يجعل بسيدة في مكاتها أن تقرأ كل الحماقات

التي تنشر . ومهما انتشر التقى والوقار في فرنسا ، فسيظل بها دائما أدب

الحانة . وعندما طرد المؤلف البائس من منصبه الذي كان يدرّ عليه ألفا

وثمانمائة من الفرنكات ، قلت لها : حذار من من هذا الرجل ، فقد استعنت

بأسلحتك الخاصة على عزله من منصبه ، ولكنه كشاعر يستطيع أن يبادلك

شرا بشره مستخدما قوافيه : سيؤلف أغنية في الفضيلة . ستكون الصالونات

المذهبة إلى جانبك وتترك على ماتفعلين ، ولكن الذين يؤثرون الضحك

سيرددون أهاجيه . فهل تعرف ياسيدي ماذا كان جوابها ؟ ... قالت :

إنني لأعيا في سبيل الله بأن تحسرنى باريس في زمرة الشهداء ، وسيكون هذا منظرا جديدا لم تشهده من قبل فرنسا . وسيتعلم الناس كيف يحترمون الجوهر . وإنّ هذا سيكون أجمل يوم في حياتي . وكم كانت عيناها جميلتين وهي تقول ماقلت . فصاح جوليان :

— إن لها عينين ساحرتين .

— أرى أنك عاشق حقا ... واستطرد دون ديبجو بوستوس في وقار :

إنها لم تفطر على الشر الذي يؤدي إلى الانتقام . أما رغبتها في الإيذاء فترجع إلى أنها هي نفسها بائسة . وأعتقد أن بؤسها في قرارة نفسها . أليست امرأة جميلة زهدت في مهنتها نفسها ؟

ثم أخذ الأسباني ينظر إلى جوليان في صمت لحظة طويلة . ثم قال له في وقار :

هذه هي المسألة بحذافيرها قد عرضتها عليك ، ويحيل إلى أنك إن أصبت نجاحا فإنما تصيبه من هذه الناحية . لقد فكرت فيها كثيرا أثناء العامين اللذين كنت فيهما خادمها المطيع . وإن مستقبلك أيها السيد العاشق متوقف على هذه المعضلة الكبيرة : أهي سيدة زهدت في مهنتها ، وتقدم على الشر لأنها بائسة ؟ وهنا بدأ الكونت التاميرا يتكلم بعد أن لزم صمما طويلا فقال :

أو أنها كما قلت لك عشرين مرة تتصف بالكبرياء الفرنسية ؟ وذكري أيها الذي كان تاجرا مشهورا للأصواف ، هي التي خلعت عليها هذا الخلق الجلف الحزين . إن سعادتها الحقة هي أن تقيم في تولد ، وهناك تلقى كل

يوم قسيسا تعترف أمامه ، فيعذبها عذابا شديدا ، ويربها جهنم فاعرة لها فافها .
وبينما كان جوليان يهيم بالانصراف ، قال له دون ديبجوفى وقار .
الدائم : لقد أخبرتني ألتاميرا أنك منا . إنك ستساعدنا يوما فى أن نستعيد
حريتنا ، وإذن يسرنى أن أعاونك فى هذه المهمة الصغيرة . يحسن أن
تعرف أسلوب المرشالة ، فأليك أربعة خطابات بخطها . فقال له جوليان :
— سأنسخها وأردها إليك .

— على الأ يعلم إنسان بكلمة واحدة مما دار بيننا ، أتفعل ذلك ؟

— نعم ، وأقسم لك بشرفى !

— أسأل الله لك المعونة ! ثم التزم الصمت ، وشيخ جوليان وألتاميرا
إلى سلم المنزل . سرّ جوليان بهذا النظر حتى كاد يبتسم ، وأخذ يقول
فى نفسه : ها هو ذا ألتاميرا الورع يعاوننى فى مشروع ينطوى على الفجور .
وكان جوليان أثناء هذا الحديث الذى يسوده الجدة والوقار منتبها إلى
دقات ساعة قصر اليجر .

إن جرس العشاء سيدق بعد قليل ، وسيرى ماتيلد إذن ا عاد إلى
القصر ، وارتدى ملابسها فى كثير من العناية . وأخذ يقول وهو يهبط السلم :
هاهى ذى أولى الحماقات التى أرتكبها ، ولكن على أن أتبع إرشادات
الأمير وأطبقها حرفيا .

ثم عاد إلى غرفته ولبس حلة من ثياب الرحلة فظهر بمظهر البساطة .
ثم أخذ يقول : والآن وقد انتهيت من ملابسى ، فقد جاء دور النظرات .
كانت الساعة السادسة قد انتصفت ، والعشاء فى تمام السادسة ، فخطر له

أن ينزل إلى الصالون فألقاه خاليا . ثم وقع بصره على الأريكة الزرقاء ، فتأثر كثيرا حتى كادت تدمع عيناه ؛ واحمر خداه احمرارا شديدا . فغضب وقال في نفسه : يجب أن أشغل هذه الحساسة بشيء لأنها تحوننى . ثم تناول صحيفة ليقطع الوقت في قراءتها ، وتردد بين الصالون والحديقة ثلاث مرات أو أربعا .

اختفى خلف شجرة من أشجار السنديان ؛ فعراه اضطراب شديد ، ثم أقدم على النظر إلى نافذة غرفة الآنسة دى لامول . كانت النوافذ مغلقة كلها تماما ؛ وكاد يقع على الأرض لولا أن ظل يستند إلى الشجرة وقتا طويلا . ثم ذهب في خطوات مضطربة ليرى سلم البستاني . فوجد الحلقة التي كسرها من قبل في ظروف تغاير — ويا للأسف — ظروفه الحاضرة ، لاتزال كما هي ، لم يصلحها أحد ، فقرّبها من شفّتيه في حركة جنونية . وبعد أن ظل وقتا طويلا ينتقل بين الصالون والحديقة ، أحس أنه متعب إلى أبعد حدّ فحسّر شعورا قويا بأن هذا أول نجاح بصييه ، قال : لن تكون نظراتي براءة . ولن تفضح أمرى ! ثم أخذ المدعوون يفدون على الصالون قليلا قليلا ، ولم يفتح الباب مرة من المرات إلا ودبّ الفزع في قلب جوليان .

اختلف المدعون جميعا إلى المائد ، وظهرت أخيرا الآنسة دى لامول التي تتمسك بعادة فطرت عليها ، وهي أن تتأخر عن الحضور . ووقع بصرها على جوليان ، فاحمر وجهها جدا ؛ لأنها لم تكن تعلم من قبل أنه قد حضر . واتبع جوليان إرشادات الأمير كورازوف ، فأخذ ينظر إلى يديها

فوجدتها ترنح . وكان هو كذلك مضطربا كثيرا حين اكتشف
الرجفة التي أصابتها ، ثم كان سعيدا لأن وجهه لا يلم إلا عن التعب .
أثنى المركيزدى لامول على جوليان ، ووجهت إليه المركيزة الحديث
بعد لحظة واحدة ، وامتدحت الإعياء الذى يبدو عليه . وكان جوليان
يقول فى نفسه دائما : يجب ألا أنظر طويلا إلى الآسنة دى لامول ،
ولكن ينبغى ألا تفوت عيني أى حركة من حركاتها . ثم على أن أظهر بما
كفت عليه قبل أن يصيبني الشقاء بثمانية أيام .

وفرح بما أصابه من نجاح ، وبقي فى الصالون ، ولأول مرة كان شديد
الانتباه إلى ربة الدار ، فبذل مجهودا كبيرا فى أن يحمل من معها من الرجال
على الحديث ، لتظل المناقشة قوية .

وقد كوفى على أدبه ، إذ حضرت المارشالة دى فرثاك فى الساعة
الثامنة . فاختنى من الصالون ثم غاد سريعا وقد تزيا بأحسن زى . فقدرت
مدام دى لامول عمله حق ؛ قدره لأنه ينطوى على الاحترام والتبجيل ،
وأرادت أن تبرهن له عن رضاها عنه ، فأخذت تحدث مدام فرثاك
عن رحلته .

وجلس جوليان على مقربة من المارشالة فى وضع لا يسمح لماتيلد بأن
ترى عينيه . جلس هذه الجلسة متبعا كل قواعد الفن ، وأخذ يبدى
إحجابا بدمام دى فرثاك قويا شديدا . واستعار قطعة نثرية تعالج هذه العاطفة
الناشئة ، جاءت فى الخطاب الغرامى الأول من تلك المجموعة التي أهداها
إليه الأمير كورازوف .

نم أعلنت المرشالة أنها ذاهبة إلى أوبرا بوقا . فأسرع جوليان بالذهاب إلى الأوبرا ، وهناك وجد الفارس دى بوثوازي الذى قاده إلى مقصورة السادة أعضاء مجلس النواب ، الواقعة بجوار مقصورة المرشالة . وأخذ جوليان ينظر إليها دائماً ، ويقول فى نفسه : يجب أن أدون حين أعود إلى القصر مذاكرات الحصار وإلا نسيت خطوات الهجوم . وتحامل على نفسه فكتب صفحتين أو ثلاث صفحات عن هذا الموضوع الممل ، ولشد ما دهش حين وفق فى كتابتها ! ولم يكذب فى الآنسة دى لامول وهو يكتبها .

أما ماتيلد فقد نسيت أثناء رحلته . وأخذت تقول فى نفسها : إنه إنسان عادى على الرغم من كل شيء ، وإن اسمه سيد كرنى دائماً بما وقعت فيه من أكبر خطأ ارتكبته فى حياته . يجب أن أومن بالأدراء العامية التى تنطوى على الحكمة والشرف ؛ وإن المرأة لتفقد كل شيء حين تنساها . وقد أظهرت استعداداً فى أن يتم زواجها بالمركيز كروازنوا الذى أعدت له العدة منذ زمن طويل . وفرح المركيز الشاب بهذا فرحاً شديداً ؛ ولشد ما يذهل لوقيل له : إن ماتيلد تشعر بالاستسلام فى قرارة نفسها ، لقد كان الكبير يملك عليه نفسه .

ولكن الآنسة دى لامول ما كادت ترى جوليان حتى غيرت رأيها تماماً ، وأخذت تقول فى نفسها : هذا — فى الواقع — هو زوجى ، ولو أننى أخذت بالحكمة ، لتزوجته هو دون سواه .

كانت تتوقع لحاجة من جوليان ، وألوانا من الشقاء يظهرها لها ، وكانت

قد أعدت العدة لذلك ، وعرفت ماذا تجيبه به ؛ إذ خيل إليها أنه سيحاول أن يقول لها بعض كلمات حين ينتهى العشاء . ولكنه لم يفعل شيئا من هذا أبدا ، وظلّ جالسا فى الصالون فى عزيمة قوية ، ولم يلتفت إلى الحديقة مرة واحدة ، ويعلم الله مقدار ما بذل من جهد فى سبيل ذلك ! فقالت فى نفسها : يحسن أن أعرف سبب ذلك فى الحال . وذهبت وحدها إلى الحديقة ، لكن جوليان ظلّ جالسا فى الصالون . ثم عمدت إلى أن تسير على مقربة من أبواب الصالون المطلّة على الحديقة ، فرأته مشغولا بوصف آثار القصور القديمة ، التى تتوج التلال التى على ضفاف الرين وتخلع عليها زرعة وجمالا . وكان حديثه متجها إلى مدام دى فرناك . وقد أفلح فى أن يطرق موضوعا عاطفيا جميلا يسمى اللقانة فى بعض الصالونات .

لو كان الأمير كورازوف فى باريس لكان فخورا بما أولاه من نصح وإرشاد ، فقد انقضت هذه السهرة على النحو الذى أراده تماما . لو كان فى باريس لأقر جوليان على مسلكه نحو ماتيلد فى الأيام التالية . وقامت مؤامرة خفية بين أعضاء الحكومة ، ترمى إلى الاستئثار ببعض الأوسمة الزرقاء ، إذ صممت المرشالة فرناك على أن يمنح أخو جدها وساما من طبقة فارس . وطلب المركيز دى لامول الطلب نفسه لصهره ؛ وتضافرت جهود المركيز والمرشالة ، فكانت تأتى كل يوم إلى قصر دى لامول . وقد علم منها جوليان أن المركيز سيعين وزيرا ، وأنه قدّم لرجال البلاط مشروعا دقيقا يرمى إلى تعطيل الدستور ثلاثة أعوام دون أن يحدث شعب ما

وكان جوليان يطمع في أسقفية إذا ما أصبح المريكز وزيراً ؛ إلا أن هذه المصالح الكبيرة كلها كانت قد أسدل عليها ستار ، فعيناه لا تراها ، وخياله لا يدركها إلا في غموض شديد ، لبعدها عنه ، ولأنها في آفاق سحابة . وقد كتب عليه شقاؤه أن يصبح مضعضع الخواص ، وصور له مقدار السعادة التي ينالها لو عاش مع ماتيلدا . وبدأ يعتقد أنه لو بذل مجهوداً وعنى بها لأحبه مرة أخرى بعد خمسة أعوام أو ستة .

فحن نرى إذن أن هذا العقل الذي كان يتناول الأمور في هدوء وفتور قد أصيب بالغباء والركود . وذهبت عنه كل صفاته الحميدة ولم يبق إلا قليل من العزم . لقد طبق مبدأ الأمير كورازوف مادياً ، وسار على النهج الذي رسمه له ، فكان يجلس كل ليلة على مقربة من متعد مدام دي فرفاك ، ولكنه كان يجد مشقة كبيرة في أن يقول لها شيئاً .

كان المجهود الذي يبذله حتى يظهر أمام ماتيلدا بأنه قد شفى من حبها تماماً ، قد استنفد جميع القوى المسيطرة على نفسه ، فكان يجلس بجوار المارشال وكأنه شخص زابلته الحياة ، وفقدت عيناه كل بريق ، كأنه فريسة لآلام بدنية حادة .

وبما أن آراء مدام دي لامول نفذت صدى لآراء زوجها الذي يستطيع أن يجعلها دوقاً ، فقد أخذت تطرى مزايا جوليان إطراء كثيراً .

الفصل السادس والعشرون

الحب الخلقى

[وكان في أدلين بالطبع نعمة مادئة في الحديث شأنها في ذلك شأن النبلاء الرومانيين ، فهي لا تتجاوز إطلاقا خط الاستواء من كل ما تجلي عنه الطبيعة ، كالوظف الصبغى الذى لا يسره شيء ، وأقل ما هنالك أن مسلكته لا يلم على أن شيئا مما يقع عليه بصره يمكن أن يشبه الأعجاب] .

دون جوان : الفصل ١٣ — المقطوعة ٨٤



كانت مدام دى فرفاك تقول في نفسها : في هذه الأسرة مس من الجنون ، إنهم جميعا مولعون بقسمهم الشاب الذى لا يعرف إلا أن يصغى إلى الحديث بعينين جميلتين مافي ذلك شك .

أما جوليان فقد وجد بدوره أن في طرق المرشالة هدوءا تاما ، فهي مثل للهدوء البطريقى الذى يوحى بالأدب الحق ، ولا يصدر عنه انفعال قوى . والحركات غير المتوقمة وعدم سيطرة الإنسان على نفسه يؤذيها أشد إيذاء ، كما يؤذيها عدم الظهور بالعظمة أمام من هم أقل منها شأنًا . وأقل علامة تدل على الحساسية تعتبرها مدام دى فرفاك لونا من ألوان النشوة النفسية التى تحجل منها ، وتؤذى صاحب المكانة العالية وتخط من قدره . وأكبر سعادة لها هي أن تتحدث عن آخر رحلات الملك في الصيد ، وكتابتها المفضل هو مذكرات الدوق سان سيمون ، وعلى الأخص الجزء الذى يتناول الأنساب .

كان جوليان يعرف المكان الذي يتلام مع نوع جمال مدام دي فرفاك ، تبعاً لموقع الأنوار . فكان يجلس على مقربة منه إلى أن تأتي ، لكنه كان حريصاً على أن يدير مقعده حتى لا تراه ماتيلد ، التي أعجبت من مئذنته على إخفاء وجهه منها . فغادرت الأريكة الزرقاء ذات يوم وأتت تعمل بجانب منضدة صغيرة قريبة من مقعد المرشالة . وراها جوليان قريبة منه ، وكانت نظراته تمتد إليها من تحت قبعة المرشالة ، فأزعجته حينها أول الأمر؛ لأنهما تملكان البت في مصيره ، ثم انتزعته بعد ذلك من البلادة التي رافقتة أخيراً ، فأخذ يتحدث ، وكان موثقاً في الحديث .

كان يخاطب المرشالة على حين يرمى إلى أن يؤثر في نفس ماتيلد . واستولت عليه حمية شديدة حتى أن مدام دي فرفاك لم تعد تفهم ما يقول . وكانت هذه الطريقة أولى الميزات ، ولو أن جوليان أضاف إلى طريقته هذه عبارات من العبادة الألمانية ، فيها تقى شديد وتنطوى على اليسوعية ، لعدته المرشالة ظفراً واحدة من أولئك الممتازين الذين يصلحون للحكم .

عندئذ قالت الآنسة دي لامول في نفسها : لن أصغى إلى حديثه . ما دام غير سليم الذوق ، فيتحدث هذا الحديث الطويل إلى مدام دي فرفاك في حمية شديدة . ونفذت ما قالت طوال السهرة وإن لاقى في سبيل ذلك عنتاً شديداً .

وفي منتصف الليل كانت تحمل الشمعدان لتوصل أمها إلى غرفة نومها ، فوقفت مدام دي لامول على السلم وأخذت تثني على جوليان بناءً

(م — ١٨ . ستندال — ج ٢)

مستظابا ، فتراد ذلك في غيظ ماتيلد حتى لم يطرق النوم جفوتها طوال ليلتها . على أن فكرة طرأت عليها فبعثت في نفسها الهدوء : إن من أحقره ، يستطيع أن يكون في نظر المرشالة رجلا ذا مواهب كثيرة .

أما جوليان فقد قل شقاؤه ، لأنه عمد إلى العمل ؛ وقع بصره مصادفة على الحقيبة التي أخذت من الجلد الروسى والتي وضع فيها الأمير كورازوف الثلاثة والخمسين خطاباً حين أهداها إلى جوليان . ورأى جوليان في أسفل الخطاب الأول هذه الملاحظة : يرسل هذا بعد اللقاء الأول بثمانية أيام .

فصاح قائلاً : لقد تأخرت كثيراً ! لأنى أرى مدام دى فرناك منذ زمن طويل . وسرعان ما أخذ ينسخ الخطاب الغرامى ؛ لقد كان موعظة حافلة بعبارات في الفضيلة ، وموعظة عملة إلى أبعد حد ؛ حتى إنه شعر بسعادة كبيرة حين نام وهو ينسخ الصفحة الثانية .

وبعد ذلك بيضع ساعات ، طلعت عليه الشمس وهو نائم على المنضدة . وكان يعدّ طلوع النهار شؤماً عليه حين يستيقظ من النوم ، لأن كل صباح يذكره بشقاؤه : أما في ذلك الصباح فقد أتم الخطاب وهو يضحك ، وأخذ يقول : أمن الممكن أن يكون هناك شاب يكتب بهذه الطريقة ! وأخذ يحصى عدة جمل ، تشغل كل منها تسعة سطور . ورأى في أسفل الخطاب ملاحظة أخرى كتبت بالرصاص ، جاء فيها :

على الرجل أن يحمل بنفسه هذه الخطابات إلى محبوبته : راجباً جوداً ، لا بسار رباط رقبة أسود وردنجوتاً أزرق . ويسلم الخطاب إلى البواب

بطريقة حزينة : وأن تتمّ النظرات عن همّ كثير . وعليه إذا رأى وصيفة
أن يمسح عينيه خفية ، وأن يتحدث إلى الوصيفة .
ونفذ جوليان هذا كله في دقة كبيرة .

وعند ما كان يغادر قصر دي فرناك أخذ يقول : هذا عمل ينطوى
على الجرأة ، ولكن هذه هي تعليمات كورازوف . أأجرؤ على الكتابة
إلى من اشتهرت بالفضيلة والطهر؟! سأنال الكثير من احتقارها ، على
أنّ هذا سيسرّي عن نفسي كثيراً . وهذا الأمر هو المهزلة الوحيدة التي
أستطيع تمثيلها .

نعم ، إني لأمرّ حين تسخر سخرية لاذعة من هذا البغيض الذي
هو أنا ، وأن الأمر ليصل بي في بعض الأحيان إلى التفكير في ارتكاب
جريمة لأسرّي عن نفسي :

كانت أسعد لحظة في حياة جوليان منذ شهر هي اللحظة التي كان
يدخل الحصان فيها إلى الحظيرة . وقد حرّم عليه كورازوف تحريماً باتاً
أن ينظر إلى الخليعة التي هجرته مهما يكن الباعث إلى هذه النظرة .
ولكن خطوات الحصان التي تعرفها ماتيلد معرفة تامة ، وطريقة جوليان
في قرع باب الحظيرة بعصاه ليستدعي سائساً ، كل ذلك كان يجذب
ماتيلد إلى النافذة فتختفي من وراء ستار . ولكن النسيج كان رقيقاً
ممكن جوليان من أن يرى ما وراه . وكان ينظر بطريقة خاصة
من تحت حافة قبعته ، فيرى قوام ماتيلد دون أن يرى عينها . وكان

يقول في نفسه: وعلى هذا فهي لا تستطيع أن ترى عيني ، إذن فكأنني لا أراها .

وفي المساء ، كانت معاملة مدام دي فرفاك له لا تخالف إطلاقاً معاملتها له في الليالي السالفة ، كأنها لم تتسلم هذا البحث الفلسفي المتصوف المتدين ، الذي أعطاه جوليان لبواب قصرها في حزن وكمد .

لقد ساقته إليه المصادفة بالأمس الطريقة التي يكون بها فصيح اللسان ، فجلس جلسة يرى فيها عيني ماتيلد التي غادرت بدورها الأريكة الزرقاء بعد وصول المرشالة بلحظة قصيرة ، ومعنى هذا أنها قد هجرت من مجلس عادة معهم . وبدا الحزن على وجه المريكز دي كروازنوا لهذه النزوة الجديدة ، فانتزع هذا الألم الظاهر من نفس جوليان ما كان يلقاه من شقاء مرير .

كانت هذه اللباغت الجديدة كبيرة الوقع على نفسه ، فأخذ يتكلم في روعة وطلاوة ؛ وبما أن حبّ الذات قد يصل إلى القلوب التي تعدّ معابد للفضيلة ، فقد أخذت مدام دي فرفاك تقول في نفسها وهي تصعد إلى عربتها : إن مدام دي لامول لعلى حق ، فهذا القسّ الشاب ممتاز حقاً . يظهر أنه كان ينجبل منى في الأيام الأولى . والواقع أن بكل ما نلقاه في هذا المنزل ينطوي على الخفة ؛ إنى لا أرى غير فضائل مصدرها الكهولة ، كانت في حاجة شديدة إلى مرآة الشيخوخة لتعكس عليها . وقد أدرك هذا الشاب الفرق بين الحلتين ، إنه يكتب كتابة حسنة ،

لكننى أخشى أن يكون طلبه فى أن أهديه سواء السبيل كما جاء فى كتابه ،
ليس إلا عاطفة لا يزال يجهلها .

ومع ذلك فكم بدئت تغييرات على هذا النحو ، ومما يجعلنى
أنتفعل بهذا الخطاب أن أسلوبه يفاير أساليب الشبان الذين قرأت
خطاباتهم . ومن المسير ألا يعرف المرء الطلاب الظاهري ، ونثر هذا
الشاب الدينى فيه جد عميق ، وأنا واثقة من أنه يعتقد ما يقول اعتقاداً
راسخاً ، إنه سيتحلى بهذه الفضيلة الحلوة ، فضيلة ماسيون ..

الفصل السابع والعشرون خير مناصب الكنيسة

[الخدمات ! المواهب ! النبوغ ! كل ذلك لا قيمة له !
فانتم إلى حزب من الأحزاب] .

تلك هي



أصبحت فكرة الأسقفية مرتبطة في رأس جوليان للمرة الأولى بفكرة امرأة ستوزع عاجلا أو آجلا خير مناصب الكنيسة في فرنسا . لكن هدم الميزة لم تكن موضع تفكير عند جوليان ؛ لأن فكره أصبح مشغولا بما يلقاه من شقاء فحسب ، وقد كان كل شيء يزيد في ألمه وبؤسه ، فكان — مثلا — حين يرى غرفته لا يطبق النظر إليها . وإذا ما صعد إليها في المساء والشمعة في يده ، كانت كل قطعة من الأثاث ، وكل حلقة من الحلي كأنها تذكره بشقائه ، وتوحى إليه في صوت بغيض لونا جديدا من ألوان العذاب .

كان يتحدث إلى نفسه ، وهو عائد إلى غرفته في ذلك اليوم ، في حمية لم يمهدها في نفسه منذ زمن طويل . كان يقول : إني مكلف اليوم عملا شاقا ، وأرجو أن يكون الخطاب الثاني كثير الإملال كالخطاب الذي سبقه . لكن الخطاب كان أكثر من سابقه إملالا ، بحيث رأى أن ما ينسخه يتم عن سخف شديد ؛ حتى إنه أخذ ينسخ سطرا بعد سطر دون أن يفكر في معنى ما ينسخ . وقد أخذ يقول في نفسه : إن أسلوبه أكثر جزالة من

الوثائق الرسمية لمعاهدة مونستر التي كلفني كتابتها أستاذي في علم السياسة بلندن .
وتذكر في هذه اللحظة ، خطابات مدام دي فرفاك التي نسي أن يرد
أصولها إلى الإسباني الوقور دون ديبجو بوستوس . فبحث عنها وقرأها
فإذا بها تنطوي على مثل هذا الهذر الذي جاء في خطابات السيد الروسي
الشاب . كانت شديدة الغموض ، قد يفهم الإنسان منها كل شيء وقد
لا يفهم شيئاً أبداً . هذا الأسلوب عجيب حقاً ، فبينما أجد فيه آراء سامية عن
الفناء والموت واللانهاية وما إليها ، إذ بي ألمح خوفاً شديداً حقيقياً من السخرية .
كانت مناجاة جوليان نفسه ، هذه التي عمدنا إلى اختصارها ، تشغل
عليه حياته خمسة عشر يوماً متتالية . كان النوم يغلبه وهو مكب على نسخ
خطابات هي كشروح لأبو كاليبس ، ويذهب في اليوم التالي حاملاً الخطاب
في وجوم شديد ، ثم يعيد الحصان إلى الحظيرة عليه يرى ثوب ماتيلد ، ثم
يؤدي عمله ، وفي المساء يذهب إلى الأوبرا إذا لم تأت مدام دي فرفاك إلى
قصر دي لامول ؛ هذه هي الأحداث المملة التي شغلت حياة جوليان .

أما إذا أتت مدام دي فرفاك إلى قصر دي لامول ، فإن حياته تتغير
بعض الشيء ، لأنه كان يرى عيني ماتيلد من تحت قبعة المرشالة فينطلق
لسانه . وتنعو عباراته الجميلة العاطفية نحو مؤثراً أنيقاً .

كان جوليان يؤمن بأن ما يقوله لاتعمده ماتيلد إلا هراء ولنغوا ، ولكنه
كان يرى إلى أن يؤثر في نفسها ببراعة إقائه . وكان يقول في نفسه :
كما أعمنت في تناول ما ليس صحيحاً من الآراء ، تعجب بي ؛ ثم دفعته
جرأة مردولة إلى أن يغالي في بعض مظاهر الطبيعة . وسرعان ما فطن إلى

أن المرشلة لأتعب الآراء المنطقية البسيطة ، فكان يحتب هذه الآراء حتى لاتسقط عندها مكانته . فظل على هذا يطنب مرة ويوجز أخرى ، حسبما يراه من نجاح أو فشل في عيون هاتين السيدتين اللتين يحرص على إرضائهما . وتبدو حياته أقل شقاء و بؤسا حين يشغل بما بين يديه من أعمال ، ولكن الويل إذا ما هبطت عليه البطالة .

أخذ يحدث نفسه ذات مساء ويقول : هأنذا أكتب الآن الخطاب الخامس عشر من هذه البحوث الكريهة ، وقد سلمت بنفسى أربعة عشر خطابا من قبل إلى حاجب المرشلة . ونيخيل إلى أنى سأشرف بملء أدرج مكتبها . ومع ذلك هى تعاملنى كما تعامل من لا يكتب إليها اثم ما نهاية كل ذلك ؟ هل تبعث هذه الثابرة فى نفسها السأم كما تبعته فى نفسى ؟ يجب أن أعترف بأن هذا الروسى صديق الأمير كورازوف ، والذي كان يحب راهبة ريشموند الجميلة ، كان رجلا مزحجا فى زمانه ، إذ لا يمكن أن يصل إنسان إلى ما وصل إليه من إقلاق وإملال .

لم يفظن جوليان إلى الطريقة التى اتبعها الشاب الروسى للتأثير فى قلب اللانجايزية اخسنا ، فكان مثل بطلنا كمثل الأشخاص العاديين الذين تسوقهم المصادفة إلى رؤية خطط قائد كبير . كان الأربعون خطابا الأولى ترمى إلى طلب الصفح عنه منها لأنه جرؤ على الكتابة إليها . وقد أراد أن تألف هذه الفتاة الرقيقة عادة تسلم خطابات منه كل يوم ، وربما كانت حياتها تنطوى على السأم ، بل ربما كانت هذه الكتب أقل مرارة من حياتها اليومية .

وتسلم جوليان ذات صباح خطابا عرف منه علامات دى فرقاك ،
فأسرع فى فضه ، وكان يرى ذلك مستحيلا منذ بضعة أيام : لكن الكتاب
لم يكن إلا دعوة لتناول العشاء .

جرى ليستشير تعليمات الأمير كورازوف ، ولكنه — لسوء حظه —
رأى أن الشاب الروسى فى هذه الحالة كان نزقا إذ مثل دورا كان ينبغى أن
يكون بسيطا ومفهوما ؛ وعلى هذا لم يستطع جوليان أن يعرف مكاتته
المنعوية عند المرشالة أثناء العشاء .

كان الصالون فى أبهى زينة ، وهو مذهب مثل قسم ديانا بقصر
التويلرى ، وفيه لوحات زيتية تزين الجدران ، ولكن بها بقعا ظاهرة .
وقد علم جوليان فيما بعد أن موضوعات هذه اللوحات لم تكن عفيفة
ظاهرة ؛ فى نظر ربة الدار ، فعدلت ما فيها من رسوم ؛ فأخذ جوليان
يقول : ياله من عصر خلقى !

رأى فى هذا الصالون ثلاثة أشخاص ممن حضروا كتابة المذكرة
السرية . أحدهم هو مونسيدور رئيس أساقفة ... عم المرشالة ، وكان معه
قائمة الرواتب الدينية ، وهو كما يقولون لا يرفض لابنة أخيه طلبا . فابتسم
جوليان فى حزن وقال : ما أعظم الخطوة التى خطوتها ، ولكن ما أقل
شأنها عندى ! ها أنذا أتناول الطعام مع هذا الرجل المعروف رئيس أساقفة ...
كان العشاء متوسطا ، والحديث يدعو إلى الجزع ، فلم يرض جوليان
عن مائدة المرشالة . وكان المدعوون يتناولون الموضوعات العويصة
فى التفكير الإنسانى فى زهو كثير ؛ لكنه لا يكاد المرء يستمع إليهم

ثلاث دقائق حتى يتساءل : ما الذى يعنيه من سماع هذه الجزالة التى يعتمد إليها المتكلم فى أسلوبه ، ثم يرى فى وضوح ، مقدار الجهل الذى ينبغى عنه كلامه .

لعل القارئ قد نسى هذا الشاب الأديب الذى يدعى تانبو حفيد عضو المجمع والذى سيصبح مدرساً ، ذلك الذى يخيل إلى المرء أنه كان تسميم جو قصر دى لامول بأحقاده الوضيعة .

كان هذا الشاب أول من أخبر جوليان بأن مدام دى فرناك — وإن كانت لا ترد على خطاباته — راضية عن هذه العاطفة التى توحى بكتابة ما يكتب . كان الحقد يتأجج فى نفس السيد تانبو التى فطرت على الشر حين يرى ما يناله جوليان من نجاح وما يصيبه من توفيق . وكان يحدث نفسه قائلاً : إن مثل صاحب المواهب كمثل الأحق تماماً لا يستطيع أن يوجد فى مكانين فى وقت واحد ، فلو أن جوليان أفلح فى أن يصبح خليل المرشالة ، لأسندت إليه منصباً رفيعاً فى الكنيسة ، وبذلك يجلولى الجو فى قصر دى لامول .

ووجه الكاهن يبرار إلى جوليان مواعظ طويلة لنجاحه فى قصر دى فرناك . وكانت تنطوى على الغيرة المذهبية بين هذا الرجل المتعصب لمذهب ينسينوس وبين هذا الصالون اليسوعى الذى أحبته المرشالة دى فرناك ووثقت فيه المبادئ الملكية .

الفصل الثامن والعشرون

مانون ليسكو

حينما اقتنع تماما بمحاقة رئيس الديرو ببلادته ، منح بعض النجاح في تسمية الأسود أبيض والأبيض أسود ليشترج



كانت التعليمات الروسية تقضى بصفة قاطعة ألا يعارض الإنسان بصوت مرتفع آراء من يكتب إليها . وعليه ألا يجيد مهما تكن الظروف عن أن يظهر بها إعجابا شديدا : وكانت الخطابات كلها تركز على هذه المبادئ .

وفي إحدى الأمسيات أخذ جوليان يثنى كثيرا على المقطوعة الموسيقية مانون ليسكو وهو في مقصورة مدام دي فرفاك في الأوبرا . ولم يكن الباعث على هذا القول إلا أنه ألنى الرواية تافهة . وقالت المارشالة : إن هذه الرواية الموسيقية أقل شأنا من قصة الأب بريفو . فأخذ جوليان يسائل نفسه في ذهول وعبث : كيف هذا ! سيدة تتمدك بالفضيلة إلى هذا الحد تسمح لنفسها بأن تثنى على قصة ! وكانت مدام دي فرفاك تظهر احتقارها الشديد للكتاب مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع وتنحى عليهم باللائمة ؛ لأن كتبهم الفاسدة ت تلف الشبيبة التي تقبل هذه الآراء بكل أسف ، قبولاً حسناً !

ثم أخذت المارشالة تقول : هذا اللون الخطر من الأدب الذي لا ينطوى على الخلق القويم يشغل مكانة كبيرة في مانون ليسكو ، إذ يقال

أن الضيف والملع الشديد يظهران بوضوح وجلاء ، في ذلك القلب الذي فطر على الإجرام والذي تصوره هذه القصة تصويرا حقيقيا عميقا ، حتى أن بوناپرت الذي تعجب به أنت إعجابا شديدا ، قال عنها وهو في سانت هيلانه إنها قصة كتبت للخدم .

أثارت هذه العبارة كل ماني نفس جوليان من حمية وقوة . وحدث نفسه قائلا : لقد أريد أن أفقد مكاتي عند المرشالة ، فحدثوها عن إعجابي بناپليون وتحمسي له . وقد ساءها ذلك ولم تستطع أن تمنع نفسها من الإفضاء به إلى . وسرّه هذا الاكتشاف طول السميرة ، وخلع عليه ظرفا تجلي في حديثه . وبينما كان يستأذن المرشاله في أن ينصرف ، وهما في ردهة الأوبرا قالت له : تذكر ياسيدي أنه لا ينبغي لك أن تحب بوناپرت مادمت تحبني . وكل ما يطيته الإنسان هو أن يقبله كضرورة فرضها علينا القدر . أما فيما عدا هذا فإن نفس هذا الرجل لم تكن من المرونة بحيث تحس ماني الفنون من روعة وجمال .

فأخذ جوليان يردد في نفسه قولتها : مادمت تحبني ! ويقول : هذه الجملة تفيد كل شيء أو لا تفيد شيئا . فهذه أسرار اللغة التي لا يعرفها المساكين من أهل الريف . وظل يفكر طويلا في مدام دي رينال وهو ينسخ خطابا طويلا ليبعث به إلى المرشالة . وفي اليوم التالي سألته المرشالة في لهجة عمدت فيها إلى عدم المبالاة ، فقالت :

— كيف تحدثت إلى في الخطاب الذي كتبتك مساء أمس ، بعد أن غادرت دار الأوبرا على ما أعتقد ، عن لندن وريشموند ؟

فارتبك أشد ارتباك ، لأنه كان ينسخ الخطاب سطرا سطرا دون أن يفكر فيما كتب ، وقد نسي أن يبدل بلندن وريشمووند، باريس وسان كاو وحاول أن يقول لها جملة أو جملتين ، لكنه كان يبدأ الحديث ولا يعرف كيف يتم الجملة ؛ وأحس بأن رغبة قوية تدفعه إلى أن يفرق في الضحك .
وبدنا كان يبحث عما يقوله ، طرأت عليه هذه الفكرة : لقد كانت نفسى تخلق وأنا أكتب إليك في آفاق بعيدة ، فشغلت بأسمى ما يشغل النفس الإنسانية ، من أجل هذا أنسيت ، فخطت يدي هذين الاسمين دون أن أحس .

ثم أخذ يقول في نفسه : أرانى قد استطعت أن أوثر في نفسها ، وعلى هذا أحب أن أوفر على نفسى الليلة ما ألقاه من ملل . ثم غادر قصر مدام دى فرناك وهو يندو . ولما رجع إلى أصل الخطاب الذى نسخه لها بالأمس ، فانه سرعان ما وجد المكان الذى تحدث فيه الشاب الرومى عن لندن وريشمووند . ولشد ما ذهل جوليان حين أنى هذا الخطاب ينم عن عاطفة رقيقة .

كانت آراء جوليان تنطوى على شيء من النزق وتعارض مع خطاباته التى تتم عن عمق وسمو وامتياز . وكان طول الجمل أهم ما يعجب المارشالة فيها ، فكانت تقول : لست أرى أسلوبه راقصا كأسلوب فولتير هذا الرجل الكافر ، الذى نشر هذا اللون من الكتابة بين الناس ! ومع ما بذله جوليان من مجهود كبير فى أن يخلو حديثه من سلامة المنطق ، فقد نم حديثه عن شيء من الإلحاد ومعاداة الملكية ، ليخفيا على مدام

دى فرفاك . وكانت نحاطة يقوم تمسكوا بالأخلاق والدين ، إن كنت لا تكاد تسمع منهم رأيا واحدا طوال السهرة ، لكن هذه السيدة كانت تتأثر بما يبدو عليه أنه جديد، وإن احتفظت لنفسها بالحق في أن تغضب منه . وكانت تسمى هذه النقيصة : الاحتفاظ بطابع النزق الذى يسود العصر

مثل هذه الصالونات لم يكن يغشاها المرء إلا إذا رغب في أن يغشاها، وإن القارئ ليشعر بالسأم الذى ملأ حياة جوليان التى أصبحت تافهة عديمة الجدوى ، وتلك هى الأرض القاحلة التى نلقاها في رحلتنا . كانت الآنسة دى لامول فى أشد حاجة إلى أن تتعامل على نفسها حتى لا تفكر فى جوليان، وهو منصرف عنها متقربا من مدام دى فرفاك . وكانت نفسها فريسة لأشد الأهواء وأكثرها تباينا : فكانت تنهى على نفسها حين تحتقر هذا الشاب الكاسف البال ، ولكنها على الرغم منها كانت عذوبة حديثه تشجئها . وكان أكثر ما يذهلها هو الطابع الكاذب الذى يلم حديثه عنه ؛ إنه لم يقل للمارشلة كلمة واحدة تنطوى على الصدق ، فحديثه معها كذب كله، أو يخفى بطريقة مردولة حقيقة آرائه التى عرفتها ما تبلى من قبل، فى كل موضوع من الموضوعات معرفة كاملة . لقد أذهلتها هذه المراوغة إذ هالا شديدا ، فأخذت تقول فى نفسها : ما أعمق تفكيره ! وما أوسع البون بينه وبين أولئك الحقى المتحذلقين، أو اللصوص العاديين أمثال السيد تانبو من أوائلك الذين يتكلمون نفس اللغة !

ومع ذلك كله فقد كان جوليان يلتقى في بعض الأيام آلاما شديدة . فكان عليه أن يتردد كل يوم على صالون المارشالة أداء لهذا الواجب الثقيل على نفسه . واستنفد قواه هذا المجهود الذى يبذله في تمثيل دوره . وكثيرا ما كان يتغلب على القنوط الذى كان يملكه ، وهو يغادر قصر المارشالة أثناء الليل ، بما فيه من بقية من قوة الخلق وآثار من فطنة . وكان يقول في نفسه : لقد تغلبت على اليأس وأنا فى المدرسة الأكليريكية ، مع أننى كنت أحيأ هناك حياة مرة لقد كنت فى طريق بناء مستقبل أو إضاعته ، على أننى فى الحالتين كنت أرانى مضطرا إلى أن أفضى حياتى مع قوم هم أحقر بنى الإنسان وأشدهم وضاعة . وفى الربيع التالى أى بعد مضى أحد عشر شهرا لحسب ، كنت أسعد أندادى من الشبان جميعا .

لكن هذه الحجج القيمة كانت لا تقلل من وطأة الحقيقة المرة . كان يرى ماتيلد مرتين كل يوم أثناء العشاء والعشاء . وكان قد عرف من الخطابات التى أملاها عليه المركيزدى لامول بالأمس ، أنها ستزوج السيدى كروازنوا . وكان هذا الشاب الظريف يغشى قصردى لامول مرتين فى كل يوم ؛ وكانت عين الغيرة لهذا العاشق المهجور ترى كل حركة من حركات هذا الشاب السعيد .

ولما ظن جوليان أن ماتيلد تعامل خطيبها معاملة حسنة ، لم يستطع أن يحول بين نفسه وبين النظر إلى أسلحته فى كثير من الحب والولع . وأخذ يحدث نفسه قائلا : آه ! لو أننى كنت عاقلا لحدت موقفى ،

ولذهبت إلى غابة منعزلة تبعد عن باريس عشرين فرسخاً ، ولرّعت
حدا لهذه الحياة الكريهة ! وبما أنني غير معروف بين أهالي المنطقة التي
أنتحر فيها ، فلن يعرف موتى قبل خمسة عشر يوماً ، ومن ذا الذي يفكر
في خمسة عشر يوماً من عمالي .

كان هذا الرأي سيديداً ، لكنه رأى ذراع ماتيلد في اليوم التالي
تبدو في كم ثوبها وقفازها ، فكان ذلك كافياً لأن يعيد إلى رأس
فيلسوفنا الشاب ، ذكريات شديدة الوقع على قلبه ، ولأن يحمله على التمسك
بالحياة . وأخذ يقول في نفسه : حسناً ! سأطبق السياسة الروسية حتى
النهاية . ولكن ما مصير كل هذا ؟

إنني حين أنتهى من نسخ الثلاثة والخمسين خطاباً للمرشالة ، فلن
أكتب لها أكثر من ذلك . وأما ماتيلد فإن هذه الأسابيع الستة التي
أمثل فيها مهزلة شاقة على نفسي ، ربما جعلتها تتمسك بغضبا على ، وربما
أتاحت لي لحظة أصالحها فيها . يا إلهي ! لو تمّ هذا لكنت أسعد الناس !
ولم يستطع أن يتم رأيه .

وبعد أن ظلّ غارقاً في أحلامه وقتاً طويلاً أخذ يعاود التفكير
ويقول في نفسه : سيتاح لي يوم سعيد ، ثم تظهر لي القسوة مرة أخرى .
وأسفاه على ! إن السلطان القليل الذي كان لي في نفسها قد انقضى ووتى ،
لقد ضعت إلى الأبد وانتهى أمرى عند هذا الحد . . .

أى ضمان تستطيع أن تضعه بين يدي وهي على هذا الخلق ؟
وأسفاه ! لست بها جديراً . إن طرقى ليست رقيقة ، وكيفية حديثي
عملة ثقيلة يا إلهي ! لم خلقتني هكذا .

الفصل التاسع والعشرون السأم

[ليضح الإنسان في سبيل أهوائه ، ولكن هل يضحى
في سبيل أهواء لا وجود لها في نفسه ؟ ! يالك من
قرن تمس ! أيها القرن التاسع عشر !]

جبروده

أصبحت مدام دي فرفاك مشغولة بالخطابات الطويلة التي يكتبها لها
جوليان بعد أن كانت تقرؤها في غير لذة أول الأمر ، لكن شيئا واحدا
كان يحز في نفسها فتقول : أية خساره في أن السيد سورل لم يصبح بعد
قسيسا ؟ لو أنه كان ذلك لآخذته رفيقا لي في حياتي الخاصة ؛ ولكن هذا
الثوب البرجوازي وهذا الوسام يعرضاني لأسئلة قاسية ، وبم أجيب ؟ ولم
تم فكرتها. ولعل صديقه ما كرة تستطيع أن تفترض وتذيع بين الناس
أنه أحد أقاربها، أسندت إليه عملا لأنه قريب أبي ، أو هو تاجر أنعم عليه
الحرس الوطني بوسام .

كانت مدام دي فرفاك حتى اللحظة التي عرفت فيها جوليان ،
يسرها كثيرا أن تكتب إلى جوار اسمها كلمة مارشالة . ثم استولت عليها
كبرياء من كانت حديثة النعمة ، وهو غرور مَرَضِيٍّ يجرحه كل شيء ،
فكانت تقاوم ما بدأت تحس في نفسها من اهتمام به .

كانت المارشالة تناجي نفسها قائلة : من اليسير علىّ جدا أن أعينه

(م - ١٩ - ستندال - ج ٢)

غائب أسقف في أسقفية بجوار باريس ! ولكنه السيد سورل فحسب ،
وفوق هذا سكرتير المر كيزدى لامول ! إنه لشيء محزن .

وللمرة الأولى أصبحت هذه النفس التي كانت تحشي كل شيء ،
متأثرة بمصلحة لا تمت إلى ما يملك عليها قلبها من معرفة الطبقات والصدارة
الاجتماعية . وكان بوابها العجوز يلحظ أنه ما من مرة يحمل إليها خطابا
من هذا الشاب الوسيم الذي يبدو عليه الحزن ، إلا اختفت علامات الضجر
والمهوى التي تظهر بها حين يقرب منها أحد خدمها .

والمثل من تلك الطريقة الطمّوح التي ترمى إلى التأثير في الجماهير ،
دون أن يثير نجاحها في قلبها أي فرح حقيقي ، قد أصبح عسيرا لا يحتل منذ
عرفت جوليان ، وكان يكفي أن تقضى مع هذا الشاب العجيب ساعة أثناء
السهرة لترضى عن وصيفاتها طول اليوم التالي . وهذه الثقة التي نشأت
في نفسها لم تتأثر بالخطابات المجهولة التي كانت تتلقاها ، وقد كتبت كتابة
حسنة . ولم تجد الوشائيات التي لفقها في مهارة تانغو الصغير وأخبرها السادة
دى لوز ودى كروازنوا ودى كايوس ، فأذاعها هؤلاء في لذة كبيرة دون
أن يتحققوا من صحة هذه الاتهامات . أفضت المراسلة إلى ماتيلد بشكوكها ،
فكانت تجد عندها العزاء في كل وقت ، لأن نفس مدام دى فرقاك لم
تسكن من تلك النفوس التي تقاوم هذه الطرق الوضيعة .

وسألت مدام دى فرقاك في يوم واحد ثلاث مرات عن خطابات لها ،
وعزمت بغتة على أن تجيب على رسائل جوليان . وفي هذا انتصار على
المثل الذي استولى عليها . وفي الخطاب الثاني كادت تتوقف عن الكتابة

لأنه لا يليق بها أن تكتب بخطها هذا العنوان المسف : إلى السيد سورل
حرف السيد المركزي دى لامول .

وقالت في المساء لجوليان بلهجة جافة : يجب أن تحضر إلى ظروفًا قد
كتب عليها عنوانك . فأخذ يقول : هاأنذا قد أصبحت صديقًا في منزلة
خادم . ثم انحنى في سرور مقطبًا وجهه ، كما يفعل أرسين العجوز خادم المركزي .
وفي المساء نفسه أعطاها ظروفًا ، فتسلم في ساعة مبكرة جدا من اليوم
التالي خطابًا ثالثًا : قرأ منه خمسة سطور أو ستة من أوله وسطرين أو ثلاثة
من آخره ... وقد كتب الخطاب في أربع صفحات بخط صغير ضيق .

ثم ألقت مدام دى فرناك هذه العادة اللذيذة ، عادة الكتابة كل
يوم . أما هو فكان يرد على خطاباتنا بنسخ أمينة من الكتب الروسية ،
وهذه هي ميزة الأسلوب المتصنع الذي يرمى إلى الجزالة . ولم تدهش المارشال
كثيرًا من أن الردود ليس لها علاقة بخطاباتها .

ما أشد ما كانت تخرج كبرياء مدام دى فرناك ، لو أن تانبو الصغير
أخبرها بأن جوليان يلقى بخطاباتها جميعًا في الدرج كيفًا اتفق دون أن يفض
غلاف واحد منها ، وقد جعل من نفسه جاسوسًا يتتبع حركات
جوليان وسكناته .

وفي صباح يوم حمل إليه البواب في المكتبة خطابًا من المارشال ؟
وكانت ماتيلد قد قابلت الرجل ورأت الخطاب معه وقد كتب عنوانه بخط
جوليان . فدخلت المكتبة والبواب يغادرها ، وكان الخطاب لا يزال على
حافة المكتب ؛ وجوليان مكب على الكتابة فلم يكن قد وضعه
بعد في الدرج .

فتناولت ماتيلدا الخطاب وصاحت قائلة :

لا أستطيع احتمال ذلك . أنت تنساني تمام النسيان ، وما أنا إلا زوجتك . إن سلوكك شائن ياسيدي .

ولم تسكد تنطق بهذه العبارات حتى ذهلت كبرياؤها من شناعة ما فعلت ، فاضطربت اضطرابا شديدا ؛ وضجت بالبكاء ، وراها جوليان بعد قليل تأخذ أنفاسها بصعوبة . أما هو فقد ذهل واضطرب ، حتى لم يستطع أن يحسن ما تنطوي عليه هذه الغضبة من سعادة وتوفيق . وساعدها على الجلوس ، فكادت ترمى بين ذراعيه .

عمره فرح شديد في اللحظة الأولى حين أبصر هذه الحركة ، أما في اللحظة الثانية فقد انجم فكره إلى كورازوف ، وقال في نفسه : إن كلمة واحدة قد تفقدني كل هذا .

وتصلبت ذراعاها ، لأن الجهود الذي كان يبذله في مراعاة الأدب كان شاقا . وأخذ يقول في نفسه : لا ينبغي أن أسمح لنفسى بأن أضم هذا الجسم اللدن البديع إلى صدرى حتى لا يحتقرنى وتسىء إلى . فياله من خلق تمقوت ! وبينما كان يسب أخلاقها ، كان حبه لها قد زاد مائة مرة عن ذى قبل ، وخيل إليه أنه يضم ملكة بين ذراعيه .

زاد فتوره الشديد في جرح كبرياء الأنسة دى لامول ، واستولى عليها ألم كان يمزق نفسها . وفارقها هديرها ؛ فلم تظن إلى أن تنظر في عينيه لترى ما تكنه لها نفسه في هذه الساعة . ولم تستطع أن تعتمد إلى النظر إليه ، فقد كانت تخشى أن تتم نظراته عن الاحتقار .

كانت جالسة على أريكة المكتبة ، جامدة في مكانها، ورأسها في الناحية المضادة لجوليان ، وكانت فريسة لأشد آلام الكبر والحب، التي لا تقوى نفس بشرية على احتمالها . إنها لذلة عظيمة تلك التي ارتكبتها ، وهوان لا قبل لها به !

لقد كتب عليّ هذا ، فيألى من بآسة ! كتب عليّ أن يدفعني عنه ! ومن ذا الذي يطردني ؟ فتجيب كبرياؤها المجروحة . يطردني خادم من خادم أبي . ثم قالت في صوت مرتفع :
إنني لا أطيق هذا .

ووقفت في غضب شديد ، وفتحت درج منضدة جوليان وهي على بعد خطوتين منها . ولكنها ظلت جامدة مذهولة من شدة الرعب حين رأت ثمانية خطابات أو عشرة لم تفتح بعد ، وهي تشبه تماما ذلك الخطاب الذي تسلمه جوليان من البواب . وقد عرفت خط جوليان في جميع عناوين تلك الرسائل ، وإن حوّر بعض التحوير .
فغضبت غضبا شديدا وصاحت قائلة :

إذن فليست علاقتك بها وطيدة فحسب ، ولكنك تحتقرها كذلك .

أنت رجل لاتساوى شيئا ومع هذا تحتقر المارشالة دي فرؤك !

وركمت أمامه واستطردت تقول : آه ! معذرة يا صديقي ، احتقرني إذا شئت ، ولكن أحييني ، لن أستطيع بعد الآن أن أعيش إذا حرمت حبك . ثم سقطت وقد أغمى عليها إغماء شديدة . فقال جوليان في نفسه :
هاهي ذى إذن تلك المتكبرة عند أقدامى !

الفصل الثالثون

مقصورة في أوبرا بوف

[كما تنبئ السماء القائمة عند أغزر العواصف]

دون جوان ١ - ٧٢

وقف جوليان إزاء هذه الحركات المثيرة ذاهلاً أكثر بما هو سعيد ،
فقد علمته شتائم ماتيلدا مقدار ما تنطوي عليه السياسة الروسية من حكمة
وأخذ يقول . خير طريقة لسلامتي أن أتكلم قليلاً وأن أعمل قليلاً .
ثم أنهضها من سقطتها وأعادها إلى الأريكة ، فجعلت الدموع تترقق
في عينيها قليلاً قليلاً . وأرادت أن تشغل نفسها بشيء فأخذت خطابات
مدام دي فرناك ، في يدها وفضتها في بطاء . وملكته حركة عصبية شديدة
حين عرفت خط المارشالة . وأخذت تنظر إلى صفحات هذه الكتب دون
أن تقرأها ، وكان أكثر هذه الرسائل قد كتب في ست صفحات .
وأخيراً قالت له في صوت ينم عن الضراعة : وهي لا تجرؤ على
النظر إليه :

— أجبني . أنت تعلم حق العلم أنني متكبرة بفطرتي . وأعترف
بأن هذا أتعمس ما في موقفى وخلقى . هل استولت مدام دي فرناك
على قلبك فسلبتني إياه ؟ . . هل ضمت لك بما ضحيت أنا به ؟
فكان جواب جوليان عن أسئلتها صمتاً خفيفاً . وأخذ يسائل نفسه :

بأى حق تطالبني بإذاعة سرّ وهذا لا يليق برجل أمين ؟ .
وحاولت ماتيلدا أن تقرأ خطابات المارشالة ، ولكن عينها كانتا
مملوءتين بالدمع ، فلم تستطع متابعة القراءة .

كانت تشعر منذ شهر بشقاء كبير ، ولكن نفسها الأبية ما فكرت
أبدأ في الاعتراف بما ينتابها من عواطف . والمصادفة وحدها هي التي أدت
إلى هذا الانفجار . وقد تغلبت الغيرة والحب في هذه اللحظة على الكبرياء .
كانت جالسة على الأريكة على مقربة شديدة منه ، فرأى شعرها وأبصر
جيدها وكأنه من مرمر أبيض ؛ فنسى كل ما أخذه على نفسه من عهود ،
وطوق خصرها بذراعه ، وكاد يضمها إلى صدره .

فأدارت نحوه رأسها في بطاء : وذهلت لشدة الألم الذي ارتسم
في عينيه ، لقد كانتا تمان عن ألم ذفين أخفى عنها معالمها الطبيعية .

وأحسّ جوليان أن قواه قد خارت ، لأنّ تسكّفه بالشجاعة كان قد
حمّله فوق ما يطيق . ثم قال في نفسه : لن ينطبع في عينها إلا الأزدراء
الشديد ، إن تركت نفسي على سجيّتها فسعدت بحبها . ومع ذلك فإنه اعتذر
لها عما بدر منه في صوت خافت وعبارات لم تواته شجاعته على أن يتمها ،
وأخبرها بأن كرامته هي التي دفعته إلى أن يفعل ما فعل ، قال لها :

- إن لي كرامة أنا كذلك . قال هذا في صوت ضعيف خافت ،

وتقاطيع وجهه مكسوة بتعب بدنيّ شديد .

فالتفتت إليه بقوة ، لأن سماع صوته سعادة كبيرة لم تعد تؤمل فيها .

ولم تذكر كبرياءها في هذه اللحظة إلا لتصب عليها أشد اللعنات ، إذ كانت

تود أن تحدث أعمال خارقة بعيدة عن أن تُصدّق ؛ لتبرهن على مقدار حبها له وبفضها لنفسها . واستطرد جوليان يتحدث :

— ربما كان السبب في تفضيلي على غيري في وقت مضى هو ما يملأ نفسي عزة وكرامة ، على أن تقديرك الآن يرجع إلى هذا الحزم الجريء الجدير برجل شجاع . قد أكون مجباً للمرشالة .

فانتفضت وشعثت من عينيها نظرات غريبة . لقد سمعت الحكم على نفسها . ولم تفت جوليان هذه الحركة فشر بقواه تخور .

وأخذ يقول في نفسه وهو يسمع تلك الكلمات الكاذبة التي يجري بها لسانه ، وكأنه يسمع وقع ضوضاء غريبة عليه : آه ليتني أستطيع أن أتم خديك الشاحين هذين ، دون أن تنتهي إلى ذلك ! ثم استطرد يقول وصوته يضعف شيئاً فشيئاً :

— قد أكون عاشقاً للمرشالة . . . على أنى لا أرى دليلاً قاطعاً على

أنها تحبني .

فنظرت إليه ، لكنه استطاع أن يصمد لنظراتها ، أو كان يرجو على الأقل ألا تخونه تقاطيع وجهه . وأحس الحب يتقلقل في نفسه حتى ووصل إلى قلبه من الداخل . لم يعبدها من قبل كما يعبدها الآن ، كان مجنوناً كجنونها تماماً . ولو أنها تدرعت في حركاتها بشجاعة وهدوء لجنا عند قدميها ، وأعرض عن هذه المهزلة السخيفة . لكنه كانت لا تزال لديه بهية من شجاعة ، فأخذ يناجي نفسه قائلاً : آه ليتك هنا يا كوزازوف !

كم أنا في أشد الحاجة إلى كلمة منك ، تبين لي الخطة التي أسلكها ! وفي أثناء ذلك كان صوته يقول لما تيلد :

لو أنني أغضيت عن كل العواطف الأخرى ، لكان الاعتراف بالجحيل كافياً لانتزاعي من المارشالة ؛ لقد أظهرت لي الود ، وغمرتني بمطقتها حين كنت تحتقريني . . . إن الظواهر كلها تدل على أنها تبدى لي عطفاً شديداً يرضى كبريائي ويحسدني غيري عليه ، ولكن ربما لن يدوم ذلك طويلاً . فصاحت ما تيلد :

— آه ! يا إلهي ! عندئذ قال لها في لهجة حازمة قوية ، وكأنه آثر أن يدع جانباً عباراته التي يملها عليه الحذر وتحميها عليه السياسة :

— حسناً ! ولكن ما الضمان الذي تبذله لي ؟ أي ضمان يكفل لي أن ما تعرضينه علي الآن قد لا يدوم أكثر من يومين ؟ فالتفتت إليه وأمسكت بيديه وقالت :

— فرط حبي لك ، وشدة شقائي من أنك لم تعد تحبني .

التفتت إليه بقوة فأنحسر رداء كتفها عنهما قليلاً . فرأى جوليان كتفها الجميلتين ، وذكروه شعرها المبعثر قليلاً بشيء عزيز عليه .

كان على وشك أن يسلمها زمانه ، لكنه أخذ يقول في نفسه : إن كلمة طائشة تجعلني أحميا من جديد تلك الحياة المريرة التي يملؤها القنوط . كانت مدام دي رينال تجد من الأسباب ما يحملها على عمل ما يمليه عليها قلبها : أما هذه الفتاة الأرستقراطية فلا تترك قلبها ينبض بالحب ، إلا إذا اقتنعت هي بأن هناك أسباباً وجيهة تحمله على ذلك .

أدرك هو هذه الحقيقة في طرفة عين ، وسرعان ما استرد شجاعته ، فسحب يده من يدي ما تيلد وكانت تضغطها ، ثم ابتعد عنها قليلاً في احترام كثير . وإن شجاعة الرجل لا تستطيع أن تذهب إلى أبعد من هذا .

ثم أخذ يجمع خطابات مدام دي فرناك المبعثرة على الأريكة ، وقال في أدب جم ، لكنه كان قاسياً أشد القسوة في تلك اللحظة :

— هل تسمح لي الآنسة دي لامول في أن أفكر في كل هذا؟ ثم ابتعد مسرعاً وغادر المكتبة ؛ وسمعته يغلّق الأبواب كلها خلفه . فقالت في نفسها : هذا الوحش لم يضطرب أبداً ..

ولكن لم أقول وحشاً؟ / إنه عاقل ، حذر ، طيب ؛ أنا الذي ارتكبت خطأ شنيعاً لا يمكن تصوّره .

وظلت تفكر على هذا النحو وقتاً طويلاً . وشعرت في ذلك اليوم بسعادة كبيرة ؛ لأن الحب وحده سيطر على عواطفها كلها ؛ ومن رآها في يومها هذا ظن أنها لم تعرف الكبرياء من قبل ، وأي كبرياء !

وجلست في الصالون وقت المساء ، ولم يكده الخادم يعلن قدوم مدام دي فرناك حتى انتفضت ذعراً ؛ فقد كان صوت هذا الرجل نذير سوء في رأيها ، ولم تستطع أن تنظر إلى المارشالة ؛ فأسرعت منصرفه ، ولم يستول الكبر على جوليان كثيراً لهذا الانتصار المرير ، وكان يخشى أن تفضحه نظراته فلم يتناول عشاءه على مائدة دي لامول .

وزاد حبه وسعادته زيادة كبيرة كلما ابتعد عن زمن المعركة ؛ حتى إنه ليلايم على ذلك . وأخذ يحدث نفسه قائلا : كيف كنت أستطيع أن أظهر لها الهجر ، لو أنها لم تعد تمنيني ؟ ! إن لحظة واحدة لكفيلة بأن تغير هذه النفس المتجبرة ، ويجب أن أعترف بأنني عاملتها معاملة سيئة .

وعزم في المساء على أن يذهب إلى مقصورة مدام دى فرناك في أوبرا بوف . وقد ألحت المارشالة عليه في أن يحضر : وسرعان ما تعرف ماتيلدا حضوره أو تتبين غيابه الذي لا ينطوي على الأدب . وعلى الرغم من وجاهة هذا التفكير ، لم تواته الشجاعة في أن يختلف إلى الناس في أول السهرة ؛ لأنه إذا تكلم فقد نصف السعادة التي غمرته .

دقت الساعة العاشرة مساء ، وكان لزاما عليه أن يذهب إلى المارشالة . ولحسن حظه وجد مقصورتها قد امتلأت بالنساء ، فجلس وحده على مقربة من الباب ، وقد أخفته قبعات السيدات . وأنقذه هذا المجلس من سخرية كانت ستناه لاشك ؛ لأن النغمات الساحرة اليايسة التي كانت ترددها كارولين في ماتريمونيو سجريتو ، قد جعلته يضحج بالبكاء . ورات مدام دى فرناك دموعه التي كانت لاتلائم حزم رجولة ينم عنها وجهه ، فتأثرت بذلك ، تأثرت هذه السيدة الكبيرة بما بقى في قلبها من مشاعر جميلة لم يقض عليها غرور جلبته حدائث النعمة . وحلتها البقية الباقية لها من قلب المرأة على أن تتحدث إليه .

فقد أرادت أن تنعم بسماع صوته في هذه اللحظة ، فقالت له :

— هل رأيت سيدات دى لامول ؟ إنهن في المقصورة الثالثة

فاتكأ جوليان فى الحال على حافة المقصورة بطريقة غير مؤدبة ،
فراى ماتيلد والدموع تترقق فى مآقيها . فقال فى نفسه :

لقد جاءتا ، ومع ذلك فليس اليوم يوم مجيئهما إلى الأوبرا . فيالها
من عجلة شديدة !

كانت ماتيلد قد زينت لأمها أن تذهب معا إلى أوبرا بوف ، على
الرغم من أن المقصورة التى أهدتها إليهما سيدة من المتردات على القصر
لم تكن تتفق مع مكانتهما . وكانت ترمى بذهابها إلى الأوبرا إلى أن
تعرف هل يقضى جوليان السهرة مع المارشالة دى فركاك .

الفصل الحادى والثلاثون

شبح الخوف

[إن هذه هى المعجزة الخارقة لدينكم ! لقد جعلتم
من الحب أمرا عاديا] .
بارناف

أسرع جوليان إلى مقصورة مدام دى لامول ، والتقت عيناه أول
الأمر بعيني ماتيلدا المفرورقتين بالدموع ؛ فقد كانت تبكى بكاء شديدا ،
ولم يكن فى المقصورة إلا بعض ناس لاخطر لهم مثل الصديقة التى أعارتهما
المقصورة وبعض رجال من معارفها . وضعت ماتيلدا يدها على جوليان ؛
كأنها نسيت كل خوفها من أمها . وكانت دموعها تمحول بينها وبين الكلام
فلم تقل له إلا هذه الكلمة وحدها : ضمانات !

وكان كذلك متأثرا إلى حد كبير ، فأخذ يخفى عينيه بقدر ما يستطيع
متعللا بأن ضوء الشموع مسلط على الطابق الثالث للقاصير ، وكان يقول
فى نفسه : يجب على أن ألزم الصمت ، لأننى إذا حدثتها أدركت بسهولة
أننى متأثر منها ، وسيكشف صوتى عن أمرى وفى هذا ضياعى مرة أخرى
وهذه كما يخيل إلى خلة ليست من خلال جوليان ، فإن من يستطيع
أن يبذل هذا الجهود ، وأن يضبط نفسه إلى هذا الحد ، لجدير بأن يقطع فى
الحياة شوطا بعيدا .

وصممت الآنسة دى لامول على أن يعود معها جوليان إلى القصر .
وكان المطر غزيرا لحسن الحظ ، فأجلسته المركيزة أمامها ، وأخذت تتحدث

معه طوال الوقت ، حتى لم تمكنه من أن يقول لابنتها كلمة واحدة . وكان يحيل إلى الإنسان أن المركيزة حريصة على إسماع جولييان ؛ ولم يمد يده نحو أن يفقد شيئاً لأنه لن يطلق لتأثره العنان .

هل لي أن أجزؤ على أن أقول : إن جولييان لم يكده يعود إلى غرفته حتى جثا على ركبتيه ، وأخذ يقبل رسائل الحب التي أخذها من الأمير كورازوف ؟

وصاح من جنونه يقول : يالك من رجل عظيم ! كم أنا مدين لك ! ثم أخذ هدوؤه يعود إليه قليلاً قليلاً . وصار يوازن بين نفسه وبين قائد كاد يكسب معركة كبيرة . ثم قال في نفسه : لقد كسبت اليوم كسباً عظيماً ، ولكن ترى ماذا سيحدث في الغد ؟ إن لحظة واحدة الكفيلة بأن تضيع كل شيء .

وأقبل في شغف على المذكرات التي أملاها ناپليون في سانت هيلانة وظل ساعتين كاملتين يحمل نفسه على أن يقرأ ، كان يقرأ بعينه بحسب ، ولكن ماذا يضيره مادام يحمل نفسه على القراءة . وبينما كان يضطلع بهذه القراءة العجيبة ، كان عقله وقلبه يعملان دون أن يحس ويحلقان في آفاق سامية .

وأخذ يحدث نفسه : إن هذا القلب يغاير قلب مدام دي رينال . . . ولم يذهب إلى أكثر من ذلك .

ثم طوح بالكتاب وصاح فجأة : على أن أبث في قلبها الرعب ، فالعدو لن يطيعني إلا إذا أخفته ، وعلى هذا فلن يقدم على اختقاري .

وأخذ يسير في غرفته الصغيرة وقد غمره الفرح . وقد كانت السعادة التي سيطرت على نفسه — في الواقع — ترجع إلى الغرور أكثر من رجوعها إلى الحب .

ثم ردد عبارته في زهو : على أن أثبت في قلبها الرعب ! وقد كان على حق في غروره . واستطرد يقول : إن مدام دي رينال كانت في أسعد لحظاتها تخاف أن يكون حبي لها معادلا حبها لي . أما هذه فشيطان يجب أن يخضع ؛ إذن فعلى أن أذلها .

كان يعلم حق العلم أن ماتيلد ستذهب إلى المكتبة في تمام الساعة الثامنة من صباح الغد ؛ فلم يذهب هو إلا في التاسعة ، يكاد الحب يلهب نفسه ولكن عقله كان مسيطرا على قلبه . وكان يقول في كل دقيقة : هل لي أن أتركها فريسة لهذا الشك المرير : أهي تجبن ؟ إن مكانتها الكبيرة ، وما تسمعه دائما من ثناء ، ليعبثان في نفسها الغرور .

ولما دخل المكتبة وجدها هناك شاحبة هادئة جالسة على الأريكة ، تبدو كأنها لا تستطيع حراكا . ثم مدت يدها إليه وقالت :
— لقد أهنتك يا صديقي ، وهذا حق لا مريية فيه ؛ فهل أنت غاضب عليّ ؟ ..

لم يكن يتوقع منها هذه اللهجة البسيطة ، وكاد أمره يفتضح . وساد بينهما صمت ، كانت ترجو أن يقطعها حبيبها بالحديث ، فلما لم يفعل استطردت تقول :

— أنت تريد ضمانا يا صديقي ، وأنت محق في ذلك . اخطفني ،

ولنذهب معا إلى لندن ... سأفقد مكانتي وشرفي إلى الأبد ... وجدت في نفسها الشجاعة لتسحب يدها من جوليان لتغطي عينيها . لقد استولت عليها كل معاني الفضيلة والاستقامة النسوية .. ثم تهتت وقالت : حسنا ! مجردى من شرفي ، فهذا ضمان بين يديك .

فقال في نفسه : لقد كنت بالأمس سعيدا لأن الشجاعة واتتني ، فكنت شديدا على نفسي . وبعد فترة قصيرة ساد فيها الصمت ، قال لها بلهجة بالغة الفتور ، بعد أن تمكن من السيطرة على نفسه :

— من ذا الذي يضمن لي حبك ، ونحن في طريقنا إلى لندن ، أو إذا جردت من شرفك ، على حد ما تقولين ؟ كيف أعلم أنك لاتعدين وجودي بجوارك في مقعد العربة إزعا جالك ؟ أنا لست شيطانا مريدا ، فإذا فقدت مكاتك بين الناس كان هذا شقاء جديدا يحل بي . ليس مركز في المجتمع هو العقبة ، بل العقبة الحقيقية هي أخلاقك . فهل تستطيعين أن تؤكدي لنفسك أن حبك لي يدوم ثمانية أيام ؟

وأخذ يناجي نفسه في صوت منخفض : آه ! ليها تحبني ثمانية أيام ! لو أنها فعلت لمت من فرط سعادتي . وماذا يضيرني من المستقبل ؟ وماقمة الحياة عندي بعد ذلك ؟ إن هذه السعادة الكبيرة قد تبدأ من الآن ، لو أنني أردت ذلك ، فكل شيء يتوقف على أنا وحدي !

ورأته ماتيلد يفكر ، فأخذت بيده وهي تقول له :

— إذن أنا لست جديرة بك أبدا .

فقبلها جوليان ، ولكنه سرعان ما أمسكت اليد الحديدية ، يد

الواجب قلبه ؛ وقال في نفسه : إذا تبينت مقدار حبي ضاعت منى إلى الأبد . واسترد كرامته كاملة قبل أن تفلتها ذراعاه ، استرد تلك الكرامة الجديرة برجل .

وهكذا استطاع في ذلك اليوم ، وفي الأيام التالية أن يخفى عنها ما كان يشعر به من سعادة وهناءة ؛ وكانت تمرّ به لحظات يرفض فيها لذة العناق والتقبيل ، وهناك لحظات أخرى طغت فيها نشوة السعادة على كل نصيحة أملاها عليه الخذر .

اعتاد من قبل ، أن يذهب إلى الحديقة، فيلجأ إلى عريش من بنات زهر العسل يُحبّباً السلم فيه ، ومن هناك يرقب مصراع نافذة ماتيلد من بعد، ويبكي لصدّها وهجرها . وكان على مقربة منه شجرة سنديان ضخمة ، يخفيه جذعها فلا يراه الرقباء .

كان يسير هو وماتيلد في نفس المكان الذي يذكره بقوة ما لاقاه من عذاب أليم ، فكان التناقض الشديد بين الألم الذي افترسه في الماضي ، والسعادة الهائلة التي يحظى بها الآن — أقوى بكثير من أن يحتمله خلقه ؛ فترقرقت في عينيه الدموع ، وتناول يد صديقه فقبلها ، وقال لها :

— لقد عشت هنا مفكراً فيك ؛ وكنت أنظر من هنا إلى مصراع نافذتك ؛ واطالما انتظرت ساعات طويلة أرقب تلك اللحظة السعيدة التي أرى فيها هذه اليد تفتح الشباك ...

وغلبه الوهن ، فأخذ يصور لها ما كان يلقاه من مرارة الألم تصويراً

صادقا ، لم يكن في حاجة إلى أن يخترعه ؛ لأنه كان يحسه ، ولكن هتافات قصيرة تدل على سعادته الحاضرة ، وضعت جدا لهذا الشقاء الكبير...

ثم عاد جوليان إلى نفسه فأخذ يقول : يا إلهي ! ماذا قلت ؟ لقد أضعت نفسي .

وفي سورة الزغب الذي ملكه ، ظن أنه يرى الحب في عينيها أقل من قبل ، وكان هذا وهما لاحقيقة ، ولكنه سرعان ما تغير وجهه وكساه شحوب كشحوب الموتى . ثم انطفأ بريق عينيه لحظة ، فتمت نظراته بعد ذلك عن كبر شديد ينطوى على الشر ، بعد أن كان يلمع في عينيه الحب الحق ، الذي لا يعرف قيда من القيود . فارتاعت لما رأت وقالت له في رقة وحنان :

— ماذا بك يا صديقي ! فأجابها مفضبا :

— إنني أكذب ، نعم إنني أكذب عليك . وأنا أؤنب نفسي على ذلك ، ويعلم الله أني أجلك فكان ينبغي ألا أكذب . إنك تحبينني ، وتخلصين لي ، فلست في حاجة إلى أن أخترع ما أنال به رضاك من كلام .

— يا إلهي ! أكان هذا الكلام الحلو الذي قلته منذ دقيقتين

شيئا اخترعته ؟

— وإني لنادم على ما فعلت يا صديقتي العزيزة . كنت أعددتها

من قبل لامرأة أختتني وبعثت في نفسي السأم ... هذا عيب في خلقي ،
وها أنذا أكشف لك عن نفسي فاغفري لي .

فسالت على خديها دموع غزيرة مريرة . على حين استطرد جوليان :
— إنني لا أكاد أستغرق في حلم ، حتى توحى إليّ ذا كرتي اللعينة
شيئا يعكر عليّ صفوى فأبالغ فيه ، وأنا أصبّ اللعنة على هذه الذاكرة .
وقالت له في سداجة طريفة :

— لقد ارتكبت إذن ما يسوؤك وأنا لا أدري ؟

— أذكر أني كنت أمرّ في يوم من الأيام على مقربة من نيات زهر
العسل ، فرأيتك تقطفين زهرة ، فأخذها منك السيد دي لوز ، وتخلّيت عنها
له . كنت على بعد خطوتين منك يومئذ . فأجابته وقد ظهرت من ملاحظها
الكبرياء التي طبعت عليها ، قالت له :

— السيد دي لوز؟ هذا مستحيل ، فما أنا ممن يفعلن ذلك .

فأجابها في حمية شديدة :

— أنا واثق مما أقول تمام الوثوق . ففضت من طرفها في حزن ،

وقالت له :

— حسنا ! إن ماقلته صحيح يا صديقي . وكانت واثقة تماما من أنها

لم تسمح لدى لوز من أن يفعل هذا منذ بضعة شهور .

فنظر إليها جوليان في حنان شديد وقال في نفسه : لا ، إن حبها

لي لم ينقص .

وأخذت في المساء تضاحكه وتلومه على هيامه بمدام دي فرفاك :

بجر جوازي يحب امرأة حديثة عهد بنعمة ! إن قلوب مثل هذه الطبقة من النساء هي القلوب التي تستعصى على حبيبي جوليان ، وأخذت تعيث بشعره وتقول : لقد جعلت منك رجلا مهتما بالثياب والزينة ، وقد كان جوليان في الوقت الذي اعتقد فيه أن ما يتلذذ تحمقره ، مولعا بملابسه ، حتى كان من أكثر الباريسيين أناقة . لكنه كان يمتاز عن غيره بأنه لا يفكر في ثيابه ولا يهتم بها بعد أن يرتديها .

وداوم جوليان على نسخ الرسائل الروسية وإرسالها إلى المرشالة ، وهذا ما كان يغضب ماتيلد .

الفصل الثانی والثلاثون

النمر

[واأسفاه ! لم حدثت هذه الأشياء ولم يحدث
سواها؟]
يومرشيہ

يقول سائح انجليزى عاش مع نمر فى مودّة وصفاء : لقد ربّيته وداعبته،
ولكنى كنت أضع دائماً على ماأبدي مسدساً خشوته بالرصاص .
لم يكن جوليان يظهر السعادة التى تنغمه إلا فى اللحظات التى
لا تستطيع ماتيلد قراءة ذلك فى عينيه . وقد أخذ ينفذ فى دقة ما فرضه
على نفسه من أن يسمعها كلمة قاسية بين آن وأن .
وإذا بلغ حنان ماتيلد وإخلاصها له منتهاها ، حتى يكاد يفقدانه
سلطانه على نفسه ، كانت الشجاعة تواتيه على أن يتركها فجأة ، وإن كانت
رقتها تذهله .

لقد أحبّت ماتيلد لأول مرة فى حياتها . وأصبحت ترى الأيام تمرّ
سراعاً بعد أن كانت بطيئة الخطا من قبل .
وبما أن الكبر لا بد له أن يظهر فى أى لون من الألوان ، فقد أرادت
ماتيلد أن تتعرض فى جرأة لكل الأخطار التى يجلبها عليها هذا الحب .
وكان جوليان هو الذى يوصيها بالحذر، فكانت لا تنزل على إرادته إلا فيما
يختص بمواجهة الأخطار ، أصبحت مطيعة له، خاضعة لأمره بقدر ما كانت

تظهر لوالديها وخدمها وجميع من يقترب منها في القصر من تعال وكبرياء .
وفي المساء كانت تناديه وهما في الصالون على مرأى ومسمع من ستين
شخصاً، ثم تتحدث إليه حديثاً خاصاً طويلاً .

وجلس تانبو الصغير على مقربة منهما يوماً ، فطلبت منه أن يذهب
إلى المكتبة ليحضر لها كتاب « سمولت » الذي تحدث فيه عن
نورة ١٦٨٨ . ولما رأت علامات التردد على وجهه ، قالت له في كبرياء
ظاهرة، كانت برداً وسلاماً على قلب جوليان : ليس هناك ما يدعو إلى
العجلة . فقال لها جوليان عندئذ :

— هل لحظت نظرة هذا الشيطان الصغير؟

— إن عمه قد قضى عشرة أعوام أو اثني عشر عاماً في هذا الصالون
يؤدي خدمات ، ولولا هذا لعملت على طرده في الحال .

وكان مسلكها نحو دى كروازنوا ودى لوز وغيرهما ينطوي على الأدب
الجم شكلاً ، لكنه كان في الواقع مثيراً . وأخذت ماتيلدا تلوم نفسها لوماً
شديداً على ما اعترفت به من قبل لجوليان ، خصوصاً وهي لا تستطيع
أن تصرح له بأنها بالغت فيما قصته عليه من قبل ، وأن علاقتها بهؤلاء
السادة كانت علاقة بريئة .

وعلى الرغم من أنها كانت تصرّ كل يوم على أن تقول له : لقد
شعرت باللذة وأنا أتحدث إليك، واصفة لك هذا الضعف الذي يحملني على
أن أسحب يدي، حين كان السيد دى كروازنوا يضع يده على مائدة رخامية

فسيّ يدي مسافر فيقاً . كانت تودّ أن تقول له ذلك ، ولـسكن غرورها النسوى
كان يمنعا .

أما اليوم فلا يكاد شاب من هؤلاء الشبان يتحدث إليها بضع
لحظات حتى تجد شيئاً تقوله لجوليان ، وكان ذلك ذريعة إلى أن تستبقه
على مقربة منها .

ثم أحست بالجنين في أحشائها ، فزفت إلى جوليان البشرى فرحة
مستبشرة :

— والآن هل تشك فيّ ؟ أليس هذا ضمناً ؟ إنني زوجتك إلى الأبد .
فذهل لهذا الخبر ذهولاً شديداً . وكان على وشك أن يتناسى مبدأه
الذي سار عليه في معاملة ماتيلد . وقال : كيف يتسنى لي أن أظهر بالفتور
فأجرح هذه الفتاة اليائسة ، التي تقضى على نفسها من أجلّي ؟ لقد كان
الإعياء بادياً عليها ، فلم يعد يجد في نفسه الشجاعة على أن يقول لها كلمة
قاسية ، وإن كانت ضرورية — بحسب خبرته — لمدّ أجل الحب بينهما ،
نعم لم يعد يجرحها حتى في الأيام التي كانت توحى إليه الحكمة بأن
يفعل ذلك .

قالت له ذات يوم :

— أريد أن أكتب إلى والدي ؛ إنه ليس والدي لحسب ، بل
وصديقي كذلك . وعلى هذا فإني أجد أنه لا يجدر بي ولا بك أن نحاول
خديعته ، ولو برهة قصيرة . فارتاع جوليان وقال لها :

— يا إلهي ! علام تقدمين ؟ فلمعت عيناها فرحاً وقالت :

١ - سأعمل ما يفرضه عليّ الواجب .
لقد كانت أعلى همة من عشيقها .
- ولكنه سيطر دني شر طرده !
- هذا حق له ، فعلينا أن نحترم هذا الحق . سأمدُّ لك ذراعي
لفخرج معاً من بوابة القصر في وضح النهار .
فذهل ورجاها في أن تؤجل الكتابة أسبوعاً آخر ، فقالت :
- لا أستطيع ، إن الشرف يتكلم ، والواجب يناديني ، فلألبه
في الحال .

- حسناً ! ولكنني أمرك بأن تؤجلي الكتابة . إن شرفك في مأمن
من أن يمس ، وأنا زوجك . وحالة كل منا ستغير تغيراً تاماً بهذا العمل
الهام . وأنا بدوري لا أعدو حتى . اليوم يوم الثلاثاء ؛ والثلاثاء القادم هو
يوم الدوق دي ريتز ؛ وحين يعود السيد دي لامول في المساء إلى القصر
يسلمه البواب الكتاب المشثوم .. إنه لا يفكر إلا في أن تكوني دوقة ،
وأنا على تمام الثقة من هذا ، فتصوري إذن مقدار ألمه !

- هل تريد أن تقول : تصوري مقدار انتقامه ؟
- قد أشعر بالشفقة على من أحسن إليّ ، ويملكني الحزن إذا
أسأت إليه ، ولكنني لا أخشى ولن أخشى أي إنسان .

فصدعت بالأمر . وكانت هذه أول مرة يتحدث إليها جوليان في سلطة
وسيادة ، منذ أنبأته بحالتها الجديدة . ولم يحبها من قبل كما أحبها الآن .
وكان يجد سعادة كبيرة في أن ناحية الحنان تغلب عليه لما قد حدث لها ،

قلم يعد يسمعها كلاماً يؤذيها . لكن الاعتراف للسيدى لامول كان
يسبب له اضطراباً شديداً . وأخذ جوليان يسائل نفسه : هل سيحال بيني
وبين ماتيلد ؟ ثم ما مقدار حزنها على فراقى ؟ ولكن هل ستفكر فى
بعد أن يمضى شهر على رحيلى ؟

كانت نفس جوليان تلتقى من الأذى بمقدار التأنيب العادل الذى
الذى سيصيبه عليه المركز . وفى المساء ، أفضى إلى ماتيلد بالسبب الثانى
لحزنها ، وبعد قليل غلبه الحب على أمره ، فحدثها عن السبب الأول .
فتغير لونها ، وقالت له :

— هل تشعر حقيقة بالألم إذا ابتعدت عنى ستة شهور ؟ !
— أشعر بألم شديد ، هو الألم الوحيد الذى أخشاه فى هذه الحياة .
فعمرت نفسها السعادة ، وواصل جوليان تمثيل دوره فى مهارة فائقة ،
حتى تمكن من أن يجعلها تفكر فى أنها محبوبة أكثر منها محبة .
— وجاء يوم الثلاثاء الموعد ، وعاد المركز إلى القصر فى منتصف
الليل فوجد خطاباً بالعنوان الذى يحمله على أن يفتح الخطاب بنفسه حين
يكون وحده .

والذى :

لقد انقطعت بيننا كل العلاقات الاجتماعية ، ولم يعد يربطنا إلا
علاقتنا الطبيعية . وأنت بعد زوجى أعزّ إنسان على فى الدنيا ، وستظل
كذلك . عينائى تمتلآن بالدموع ... إني أفكر فيما أسببه لك من آلام ،
ولم أشأ أن يصبح العار الذى لحقنى معروفاً عند جميع الناس ، وقد أردت

أن يتاح لك وقت كاف لتتظر في الأمر وتعمل ، فلم أرغب في أن أوجل الاعتراف الذي أفضى به إليك . ولو أملت عليك صداقتك أن ترتب لي معاشا صغيرا لذهبت أنا وزوجي لتقيم في أي مكان تشاء ، وليكن في سويسرا مثلا ، وإني لأعلم أن نفسك تحمل لي صداقة كبيرة . إن اسمه مجهول جدا ، فلن يعرف الناس أن ابنتك هي مدام سورل ، زوجة ابن نجار قرير . هذا هو الاسم الذي يؤذيني ويحملني على الكتابة إليك . وإني أخشى أن تصب على جوليان جام غضبك ، وهو غضب جدا عادل لو أننا أخذنا بالظواهر . إن أكون دوقة ياوالدي ؛ ولكني كنت أدرك ذلك حين أحببت ؛ لأنني أنا التي أحببته أولا ، وأنا التي أغريته كذلك . لقد أخذت عنك نفسا عالية تترفع عن أن تلتفت إلى كل ما هو حقير تافه ، أو تحاول أن تفعل ذلك . وحاولت غيبا أن أفكر في دي كروازنوا لأنال رضاك . فلماذا وضعت نصب عيني الرجل للممتاز الجدير بي ؛ لقد قلت لي حين عدت من هير : إن الشاب سورل هو الشخص الوحيد الذي يروقي . وهذا الشاب التمس حزين مثل ما يسببه لك هذا الخطاب من ألم . لأستطيع أن أحول بينك وبين الغضب كوالد ، ولكن أحببني دائما كصديق . لقد احترمني جوليان . وهو إذا كان قد تحدث إلي في بعض الأحيان ، فما ذلك إلا لأنه يشعر شعورا عميقا بما لك من فضل عليه ؛ لأن طبيعته المتعالية تحمله دائما على أن يجيب من هم أعلى منه إجابة رسمية . إنه يشعر شعورا كبيرا بما بين الطبقات الاجتماعية من فروق . أنا التي ضغطت ذراعه يوما ما في الحديقة ، ولم يملكني الخجل حين أعترف لك بهذا ، ولكني

واثقة من أنني أكشف عن نفسي لخير أصدقائي ، ولا أفكر في أن أقوله ذلك لأي إنسان آخر .

إذ بعد مضي أربع وعشرين ساعة من تسلمك هذا الخطاب ، لم تظلم غضبا على ؟ إن خطئي لا يمكن إصلاحه . وإذا صممت على شيء ، فأنا على استعداد كامل لأن أؤكد لك ، بالنيابة عنه ، احترامه الشديد لك ، وخوفه من أن يغضبك . ولن تظفر به بعد الآن ؛ ولكني سألحق به أينما أراد . هذا حق له ، هو ما يفرضه عليّ الواجب ، لأنه والد طفلي . إن تفضلت علينا بستة آلاف من الفرنكات نعيش بها ، كنت مدينة لك بفضل كبير ، وإلا فإن جوليان سيقم في بيزانسون ليعلم اللاتينية والأدب ، وأنا واثقة من أنه سيسمو عا قريبا ، وإن كان وضع النشأة . لن أخشى أن يعيش طول حياته في ظلام مقيم ، فأنا واثقة من أنه سيقوم بالدور الأول إن نشبت ثورة . فهل تستطيع أن تقول ما أقوله عن أي شاب من أولئك الذين أرادوا أن يتزوجوني ؟ إنهم يملكون أراضى جميلة ! وأنا لا أستطيع أن أجد في هذا السبب وحده باعثا على أن يعجبوني . أما جوليان فسيصل إلى مركز سام حتى في ظل هذا النظام الحاضر ، لو أن لديه مليوناً من الفرنكات وتمتع برعاية أبي له ... »

كانت ماتيلد تعرف أن الماركيز رجل يتبع دائما أول فكرة تطرأ عليه ، فكتبت له ثمانى صفحات .

وبينما كان الماركيز يقرأ الخطاب ، كان جوليان يتحدث إلى نفسه قائلا :
ما العمل ؟ أين واجبي أولا ومصلاحتي ثانيا ؟ إنى مدين له بكل شيء ،

فلولاه لكنت من حثالة الناس ، بل من تلك الحثالة التي يصب عليها
الناس كراهيتهم واضطهادهم . لقد جعل منى رجلا من رجال المجتمع ،
ومتحنى هذا الصليب ، وكلفني مهام سياسية رفعت شأنى . هذا كله خير
عندى من أن يعطينى مليوناً من الفرنكات ؛ غير أنى كفرت بنعمته .
لو أنه أمسك ريشته وبدأ يصف مسلكى ، فماذا يكتب ؟ ...
وبينما كان يسبح فى هذه الأفكار إذ قاطعه فجأة هذا الوصيف العجوز
الذى يقوم على خدمة المريكز ، وقال له :
إن المريكز يطلبك فى الحال ، سواء أ كنت مرتدياً ثيابك أم غير مرتديها .
ثم قال له الخادم بصوت خفيض وهو يمشى إلى جواره :
إنه غاضب أشد الغضب ، فكن على حذر ..

الفصل الثالث والثلاثون

جسيم الضعف

[كان جوهرى غير ماهر يقطع هذه الماسة ، فزع منها بعض شرارات قوية . ماذا أقول ؟ لقد كان الفرنسي في العصور الوسطى ... وحتى في عصر ريشابو يتصف بقوة الإرادة]
ميرابو

وجد جوليان أن المركز غضب ، وكان هذا السيد سفيها وربما كان كذلك لأول مرة في حياته . أخذ يسب جوليان سبا قبيحا بكل الشتائم التي تدور على لسانه . فذهل ونفذ صبره ، لكن اعترافه بالجمل ظل ماثلا أمامه . فكم مشروع من المشروعات الجميلة ، التي ظلت عزيزة عليه محببة إلى نفسه وقتا طويلا رآها هذا الرجل المسكين وقد قضى عليها في لحظة واحدة !

على أن أجبني ، لأن سكوتى يزيد في غضبه ؛ وأمدد دور ترتوف بما يقوله :

— لست ملاكا .. وقد أخلصت في خدمتك ، وكنت كريما في دفع أجرى ... كنت معترفا بفضلك ولكنني في الثانية والعشرين من عمري .. وأفكارى كلها ، وأنا مقيم في هذا المنزل ، لم تكن تنجح إلا إليك وإلى هذه الفتاة الظريفة ..

— يالك من شيطان ! ظريفة ! ظريفة ! كان عليك أن تهرب في

اليوم الذي وجدتها ظريفة فيه .

— حاولت ذلك ، وطلبت منك أن أسافر إلى لنجدوك .
وأتعبت المركز شدة غضبه وسيره في الغرفة ، وغلبه الألم فجلس على
مقعد ، وسمعه جوليان يقول لنفسه : إنه ليس شريرا . فحنا عند ركبتيه وقال :
— إنني لست شريرا معك ، ولكن سرعان ما استولى عليه خجل
شديد من هذه الحركة التي أتاها ، فهض في الحال .

كان المركز شارد اللب حقا . فلما رآه يمشو ، انهال عليه مرة
أخرى بالشائيم التي لاتصدر إلا من سائق عربة . وربما كانت حدة
هذه الشائيم مدعاة إلى التسرية عنه .

— ماذا ؟ أستدعي ابنتي مدام سورل ! ماذا ! لن تكون ! لن تكون
ابنتي دوقة !

وفي كل مرة كانت هاتان الفكرتان تظهران أكثر وأوضح ، حتى
أصبحت نفس المركز فريسة لآلام شديدة ، فلم يستطع السيطرة على
حركاته ، حتى خشى جوليان أن ينهال عليه ضربا .

أما في اللحظات الهادئة ، وحين أخذ المركز بعناء ما حل به من ألم ،
فكان يلوم جوليان في هدوء قائلًا له :

— كان عليك أن تغرب ياسيدي .. كان الواجب يملكك على أن
تهرب .. إنك أحقر الرجال .. فدنا جوليان من المنضدة وكتب مايلي :

أصبحت الحياة مرة منذ وقت طويل ، من أجل ذلك عمدت إلى
الاتجار ، وإني أرجو سيدي المركز أن يتقبل مني خالص شكرى

باعترافي بحميله الذي لا حد له ، وأسفى الشديد لما قد يسببه موتى فى قصره
من حيرة وارتباك .

— لىسمح سيدى المركز فىلقى نظرة على هذه الورقة .. اقتلنى
أو كلف أحد خدمك أن يقتلنى . نحن الآن فى الساعة الأولى صباحا ،
وسأذهب إلى الحديقة أتنزّه فيها عند الجدار الداخلى . فصاح المركز به
وهو ينصرف :

— إلى الجحيم .

ثم تحدث جوليان الى نفسه قائلا : أنا أدرك أنه لن يغضب مادمت
قد وكلت أمر القضاء على حياتى الى خادمه .. لىقتلنى ، على بركة الله ،
هذه ترضية أقدمها له ... ولكن يا إلهى ! إنى أحب الحياة ... وعلى
واجب نحو ابنى .

طرات عليه هذه الفكرة ووضحت لأول مرة فى ذهنه ، وشغلته
تماما بعد أن قضى بضع دقائق فى هذه النزّهة الخطرة .

ونخلق منه هذا الاهتمام الجديد بابه انسانا حذرا ، فأخذ يقول :
اننى فى حاجة الى من يشير على ، مبتغيا عنده النصيح فى الطريقة التى
أسلكها مع هذا الرجل الأهوج .. لىس فى رأسه مسكة من عقل ، وهو
قادر على كل شىء . وفوكيه بعيد عنى ، وهو مع ذلك لا يدرك العواطف
التي تستولى على قلب كقلب المركز .

والكونت ألتاميرا ... ولكن هل أنا واثق من أنه يحفظ السر ؟
يحب ألا يكون طلى للدشورة مثيرا العراك ، جالبا على موقفى تعقيدا جديدا .

وأأسفاه ! لم يبق أمامي من أشتشره إلا ذلك الرجل القائم النفس، ألا وهو الكاهن پيرار ... لقد أثر فيه مذهب ينسنيوس فضيق أفقه العقلي ... إن وغدا من اليسوعيين ليعرف الحياة خيرا مما يعرف ، وليستطيع أن يتنير لي السبيل ... والسيد پيرار لن يتردد في أن يضر بني إذا ما أخبرته بجرمي . إلا أن براءة تار توف أسعفت جوليان فقال : سأذهب إليه لأعترف أمامه . وكان هذا آخر قرار اتخذه بعد أن ظلّ يتنزّه في الحديقة ساعتين كاملتين . ولم يعد يفكر في طلقة نار تباغته ، ثم غلبه النعاس فنام .

وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي ، كان جوليان على بعد بضعة فراسخ من باريس يطرق باب هذا الكاهن الصارم . واشد ماذهل حين رأى الأب پيرار لم يعجب كثيرا مما أفضى به جوليان إليه من أسرار . فقال الكاهن في لهجة حزينة أكثر منها لهجة غضبي : ربما كنت ملوما في ذلك ، فقد خيلت إليّ أنّي أرى هذا الحب ، ولكن صدأقتي لك أيها التمس حالت بيني وبين إخطار الوالد .. فسأله جوليان في حمية :

ماذا تظن أنه فاعل ؟

وكان جوليان يحب الكاهن في هذه اللحظة ، ولو أن پيرار تشاجر معه لكان لذلك أسوأ وقع على نفسه .

واستطرد يقول : إني أرى ثلاث طرق : أولاها : أن السيد دي لامول سيقتلني ؛ ثم قص على الكاهن قصة خطاب الانتخاب الذي أعطاه للمركيز وثانيها : أنه سيغري ابته بي ، فيطلبني الكونت نور بير إلى المبارزة . فغضب الكاهن ونهض واقفا وقال :

هل تقبل مبارزته ؟

إنك لا تدعني حتى أتم لك ما أقول . وما لاشك فيه أنني لن أطلق النار على ابن من أحسن إليّ .

أما الثالثة : فهي أنه قد يفكر في إبعادي . ولو طلب مني أن أذهب إلى ادنبرج أو نيويورك ما خالفت له أمرا . وفي استطاعتهم إذن أن يخفوا ما بالآنسة ذى لامول ؛ ولكنني لا أوافق أبدا على أن يقتل ابني .
— أوكد لك أن هذه ستكون أول فكرة تخطر على بال هذا

الرجل اللعين ...

أما في باريس ، فكانت ماتيلد قد بلغت درجة كبيرة من اليأس . كانت قد رأت أباهما في الساعة السابعة ، وأطلعها على خطاب جوليان ، وكانت تخشى كثيرا أن يكون قد قتل نفسه تلبية لنداء الشرف . ثم أخذت تسائل نفسها في ألم بعثه الغضب : أيقتل نفسه دون أن يستأذني ؟ ثم قالت لأبيها :

إذا كان قد مات ، فسأموت أنا كذلك ، وستكون أنت سبب موته... ربما كان يلذ لك ذلك... ولكن أقسم لك بروحه أنني سألبس عليه الحداد أولا ، وسيعلم الناس جميعا أنني أرملة سورل ، ثم سأرسل بطاقات الدعوة للعزاء ، فثق بهذا تماما . ولن تجد في نفسي أي لون من ألوان الجبن أو الخور .

كان حبها لجوليان قد وصل إلى حد الجنون . أما المر كيز فقد ظل ساكتا لا يدرى ماذا يقول . وبدأ ينظر إلى هذه الأحداث في شيء من

العقل والروية . لم تتناول ماتيلد الغداء مع أسرته ، فحقت كثيرا
بغياها عن أبيها ، وقد لحظ أنها لم تقل لأمرها شيئا فسرّه ذلك ،
وأرضى كبرياءه .

ترحل جوليان ونزل عن جواده ، فنادته ماتيلد وارتمت بين أحضانه
على مرأى من وصيفاتها . لكنه لم يظهر فرحا بهذا اللقاء الذى يفرض
غبطة وسرورا ، فقد أصبح على إثر حديثه الطويل مع الكاهن ،
سياسيا ماهرا كثير الحيلة والحذر . وكان خياله فى شغل دائم بإحصاء
ما سيحدث .

وأخبرته ماتيلد والدموع تترقق فى عينيها بأنها رأت خطاب
الانتحار ، وقالت له :

لقد يغير والدى رأيه ، فأرجو أن ترحل حالا إلى فيلوكيه . امتط
جوادك قبل أن يفرغوا من الطعام .

ولما رآته لا يزال يبدو عليه الفتور والعجب ، ذرفت عيناها دموعاً
عزيرة ، وصاحت قائلة فى حمية شديدة :

دعنى أنا أشرف على أمورنا . إنك تعلم أنى لا أحب أن أفارقك
طائعة مختارة . اكتب إلى باسم وصيفتى ، على أن يكون العنوان بخط غير
خطك ، أما أنا فساكتب إليك مجلدات . وداعا ! اهرب .

فجرحته الكلمة الأخيرة ، لكنه نزل على إرادتها ، وأخذ يقول
فى نفسه : لقد كتب على هؤلاء الناس حتى فى أسعد لحظاتهم أن يجدوا
كلمة واحدة يرحوننى بها .

عارضت ماتيلد في كل المشروعات المعقولة التي عرضها عليها أبوها معارضة حازمة . ولم ترد إطلاقاً أن تتناول المفاوضات أساساً آخر غير هذا الأساس : فهي لا تقبل إلا أن تكون مدام سورل ، وتعيش مع زوجها فقيرة في سويسرا أو عند أبيها في باريس . ورفضت رفضاً باتاً اقتراح أبيها في أن تعمل لها عملية إجهاض ، وقالت له : لو أنني أطمتك لكنت عرضة للأحاديث ولحقني العار . ولكنني سأقوم برحلة مع زوجي بعد زواجنا بشهرين ، وسيكون من اليسير علينا أن نقول : إن ابني ولد بعد أن نحدد الزمن المناسب .

لاقي المركيز ثبات ماتيلد بغضب كثير أول الأمر ، غير أن الشكوك أخذت تتسرب إلى قلبه .

وفي لحظة من لحظات الحنان والشفقة ، قال لها :

خذى ! هذا صكّ بدخل يبلغ عشرة آلاف من الفرنكات ، ابغى به إلى جوليانك ، وحذرا أن يقع في يدي .

وكان جوليان قد قطع أربعين فرسخاً بدون جدوى ، لا شيء إلا ليطيع ماتيلد التي يعرف عنها شغفها بالأوامر ، ذهب إلى فيليكيه ليرصد حساب الفلاحين ، ثم عاد إلى باريس على أثر هبة المركيز . ذهب إلى الأب پيرار يطلب الضيافة عنده . وكان الكاهن أثناء غياب بطلنا قد أصبح لماتيلد حليفاً نافعا . فكان في كل مرة يسأله فيها المركيز رأيه يبرهن له على أن أى حل آخر غير الزواج العلني ، يعدّ عند الله إثمًا عظيماً . وكان يقول له :

من حسن الحظ أن الحكمة الدينوية لا تتعارض مع الدين . هل نستطيع أن نضمن أن الأنسة دى لامول ستحافظ على سرّ لا تريد هي أن تكتبه ، مع ماتعرفه عنها من خلق ثائر؟ إننا إذا لم نوافق على هذا الطريق القويم في الزواج العلني ، فإن المجتمع سيتخذ من هذا الزواج الذي لا تكافؤ فيه ، مادة غزيرة للحديث وتطاويلا . فعلينا أن نقول كل شيء دفعة واحدة ، دون التظاهر بأدنى شيء ، ودون أن يبدو فيما نقول أو تفعل ، لون من الغموض . ففكر المريكيز فيما نسمع وقال :

— صحيح ماتقول . لكن الطريقة التي ترمي إلى إعلان الزواج بعد ثلاثة أيام تكشف عن رجل لا رأى له . يجب أن ننتهز فرصة حركة كبيرة من جانب الحكومة ضد العقوبية فنندس في اثرها متكرين .

كان صديقان أو ثلاثة من أصدقاء المريكيز دى لامول يوافقون الكاهن بيرار على ما يقترحه . غير أن العقبة الكبرى في نظرهم هو هذا الخلق الحازم الذي تتمسك به ماتيلد . وعلى الرغم من تلك الحجج المنطقية الوجيهة ، فإن نفس المريكيز لم تستطع أن تعتاد التنازل عن الأمل في أن تكون ابنته من المترددات على البلاط .

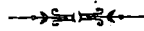
كان خيال المريكيز وذا كرتة لا يزالان محشوين بالدهاء والزيغ على اختلاف أولاهما ، مما كان في طبعه في شبابه . فهو يؤمن بأن الخضوع للضرورة ، والخوف من القوانين أمور نافهة مخرجة بشرف من هو في مثل مكانته . لقد أخذ يدفع الآن ثمنا غاليا لأحلامه الساحرة ، وآماله التي بناها على مستقبل ابنته العزيزة .

وأخذ يناجى نفسه قائلاً : من ذا الذى كان يتنبأ بمثل هذا
المصير ؟ إنها فتاة ذات نفس سامية ، ونبوغ عظيم وهو أكثر
فخراً منى بالاسم الذى تحمله ! لقد طلب منى يدها خيرة شباب فرنسا
وأكثرهم مجداً !

على أن أدع الحذر جانباً . لقد قلب هذا القرن كل الأوضاع ! وإنما
فى طريقنا إلى التخبیط !

الفصل الرابع والثلاثون رجل ذو فطنة

[كان الحاكم يركب جواده يوماً ويقول :
«لم لأصبح وزيراً ، رئيساً للوزراء ، دوقاً ؟ ها هي
ذى طريقتي في الحرب ... لأنني بهذه الوسيلة أكبل
المجددين بالأغلال .. »]
لى جلوب



لم يستطع برهان من البراهين أن يقضى على سلطان الأحلام الجميلة التي
لازمت المر كيز عشرة أعوام . ثم وجد أن الحكمة تقضى عليه بالألا يفضب ،
ولكنه لم يقدر على الصفح . وكثيراً ما كان يقول : ليت جوليان هذا
يموت في حادث من الحوادث ... وإذن كان خياله الحزين يسبح في آفاق
للنجاة ، ليست سوى أمان وهمية تحقيقتها عسير ، كانت تعطل أثر النصائح
الحكيمة التي يبديها الكاهن بيرار . ومضى شهر على هذه الحالة ، لم
تتقدم فيه المفاوضات خطوة واحدة .

طرات على المر كيز آراء سديدة في هذه المشكاة العائلية ، كما تطراً عليه
في الأمور السياسية ، وظلت تملكه ثلاثة أيام ، فكان شديد التخمس
لها . من أجل هذا لم يقبل خطة عرضت عليه ؛ لأنها تستند إلى آراء حكيمة ،
وهو لا يؤمن بالآراء الحكيمة إلا إذا دعمتها الخطة التي تتراءى له . وظلّ
يعمل ثلاثة أيام في جدّة وحماسة ، كما لو كان شاعراً يجد في إتمام قصيدة لينتهي
في هذه المشكاة إلى حلّ ، وفي اليوم التالي لم يعد يفكر فيما فعل .

كان جوليان مضطربا لبطء المركز أول الأمر، ولكنه بعد بضعة أسابيع اعتقد أنه ليس لدى المركز خطة معينة فيما حدث .

أما مدام دي لامول وجميع من في المنزل ، فقد اعتقدوا أن جوليان في رحلة في الريف لإدارة شؤون بعض الأراضي ؛ وما كان جوليان إلا مختفيا في دار الكاهن پيرار ، وهو يرى ماتيلد كل يوم تقريبا ؛ أما هي فكانت تلتقي أباهما ساعة كل يوم ، وقد ظللا أسابيع كاملة لا يتحدثان عن هذه المشكلة التي تشغلنهما معا . وفي يوم من الأيام قال لها المركز :
— لا أريد أن أعرف مكان هذا الرجل ، فأرسلني إليه هذا الخطاب .
فقرأت ماتيلد فيه :

« إن أرض لنجدوك بدرّ ستمائة وعشرين ألفا من الفرنكات ،
أمنح ابنتي منها ستمائة وعشرة آلاف وأعطى السيد جوليان سورل عشرة
آلاف فرنك . فاطلب إلى السكاتب أن يعدّ عقدي هبة منفصلين ثم
يحضرها إليّ في الغد ، وبعد هذا تنقطع الصلة بيننا تماما . آه ياسيدي ،
هل استحق منك كل هذا ؟ »
المركزى دي لامول
فقال ماتيلد في غبطة :

أشكرك كل الشكر . وسنيم في قصر آجيون بين آجن ومار ماند ،
لأن هذه المقاطعة — كما يقال — تضارع إيطاليا في جمالها .
أذهلت هذه الهبة جوليان ذهولا شديدا . ولم يعد ذلك الرجل
الضارم الفاتر الذى عرفناه من قبل . إن مصير ابنه كان يشغل أفكاره
كلها مقدما . وقد خلقت منه شخصا طموحا هذه الثروة غير المتوقعة ، والتي

تعدّ ثراء عريضا بالنسبة إلى رجل فقير مثله . لقد أصبح دخله هو وزوجته ستة وثلاثين ألفا من الفرنكات .

أما ماتيلد فقد كانت في شغل عن هذا كله بحبها الشديد لجوليان ، ذلك الحب الذي غمر نفسها ، وفرضت عليها كبرياؤها دائما ألا تدعوه إلا بزوجها . وكان طموحها الشديد الذي تمكن من نفسها ، هو أن يعترف بزواجها منه . كانت تقضى حياتها في المبالغة الشديدة بأنها أحسنت صنعا حين ربطت مصيرها بمصير ذلك الرجل الممتاز . فقد كانت المواهب الشخصية تملك عليها لها كله .

وكان غياب جوليان عنها ، والأعمال الكثيرة التي بين أيديهما ، والوقت القصير الذي يستطيعان التحدث فيه عن الحب . كان هذا كله عوامل خدمت السياسة الحكيمة التي ابتدعها جوليان خدمة كبيرة .

وعيل صبر ماتيلد من نذرة ما ترى الرجل الذي أصبحت تحبه حبا حقيقيا عنيفا .

وفي ساعة من ساعات الغضب كتبت إلى أبيها خطابا وبدأته على طريقة عليل :

« لقد فضلت جوليان على كل اللذات التي يقدمها المجتمع لابنة الماركيز دي لامول ؛ لقد وقع اختياري عليه ، لأنني لا أعتد أبدا بمظاهر الاحترام ولا بتلك التكبرياء التافهة . ومضت على ستة أسابيع عشت فيها بعيدة عن زوجي . وهذا يدل على مقدار احترامي لك . لكنني سأغادر منزلك قبل يوم الخميس القادم . لقد أصبحنا غنيين بما غمرتنا من كرمك .

ولا يعرف سرى إلا الكاهن الجليل پيرار . سأذهب إليه ليزوجنا ،
و بعد حفل الزواج بساعة سنكون في طريقنا إلى لنجدوك ، ولن نعود إلى
پاريس أبدا إلا إذا أذنت لنا في أن نعود . غير أن ما يحزّ في نفسي ،
هو أن الناس سيتخذون من أمرى سببا في اغتياي و اغتياك . هل تعتقد
أن المهجاء الذى سيصدر عن هذا الجمهور الأحمق ، سيجعل عزيزنا نور پير
على أن يصطدم بچوليان ؟ إنه إن فعل ، ما استطعت التأثير على زوجى ،
فإنى أعرف خلقه جيدا ، فنفسه نفس رجل من الشعب ثأر دائما . أى
والدى ! أتوسل إليك أن تحضر زواجى في كنيسة الكاهن پيرار يوم
الخميس القادم . إن أثر وقع هذا الأمر على نفسك سيكون قد خفّ ،
وستصبح حياة ابنك الوحيد وحياة زوجى في مأمن من كل خطر ... »
وأحدث هذا الخطاب في نفس المركز ارتبا كما عنيقا . كان عليه إذن
أن يتخذ قرارا . لم تؤثر فيه العادات التافهة ، و فقد أصدقاؤه كل سيطرة
عليه ، فقد كان ينظر إلى آرائهم بازدراء .

وتسلطت عليه طبائعه أيام شبابه ، تلك التى كانت تصقل نفسه ،
وتذكر هذا كله في محتته الحاضرة . لقد خلق منه شقاء المهجرة وبؤسها
رجلا ذا خيال .

فبعد أن تمتع عامين ببراء عريض ومكانة كبيرة في البلاط ، طوح
به عام ١٧٩٠ في أشد حالات البؤس ، بعد أن هاجر مع غيره من الأشراف .
وقد غيرت هذه المدرسة القاسية من اتجاهات نفسه الفتية ، نفس شاب
في الثانية والعشرون من عمره . والواقع أنه كان يعسكر الآن وسط ثروته

الحاضرة ، دون أن يتحكم فيه غناه . غير أن هذا الخيال الذى حال بينه وبين الوقوع تحت سيطرة الذهب ، زين له رغبة ملحة فى أن يرى ابنته تحمل لقباً جميلاً يناسبها .

استولت على المركيزدى لامول نزوة فى الأسابيع الستة المنصرمة ، فأراد أن يصبح جوليان غنياً ، لأنه كان يرى الفقر عاراً ومخلاً بالشرف بالنسبة إليه ، وبعد شيئاً لا يطاق بالنسبة لزوج ابنته ؛ فأخذ يبذر المال عن سعة . وكان خياله فى اليوم التالى يصور له فكرة جديدة ، فقد كان يعتقد أن جوليان سينصت إلى هذه اللغة الصامتة ، لغة الجود فى بذل المال ، فيعمد إلى تغيير اسمه ، وينفى نفسه فى أمريكا ، ويكتب إلى ما تيلد يطلب منها أن تقطع كل صلة به وتعدّه بالنسبة إليها ميتاً . وكان المركيز يؤمن بأنه ما دام هذا الخطاب قد أصبح بين يدي ما تيلد ، فإنه استطاع أن يبسط نفوذه على ابنته من جديد

وفى اليوم الذى انتزعه خطاب ما تيلد من آرائه التى لاتليق إلا بشاب ، فحمله على التفكير فى الأمر على ضوء الواقع ، بعد أن فكر وقتاً طويلاً فى أن يقتل جوليان أو يخلى طريق ابنته منه ، أخذ يفكر الآن فى أن يعد له مكانة سامية . فشاها بامم ضيعة من ضياعه ، ولم يجعله ندا له فيلحقه بطبقة الأشراف ، فكثيراً ما حدثه صهره الدوق دى شون عن رغبته فى أن يخلع لقبه على النكونت نوربير ، بعد أن قتل ابنه الوحيد فى أسبانيا . . .

ثم أخذ المركيز يقول فى نفسه : لا يستطيع المرء أن ينكر أن جوليان ذو مقدرة كبيرة على العمل ، وأنه جريء ، وربما كان ذا فطنة وفكر

ثاقب . . . على أنى الملح في خلقه شيئاً يبعث الرعب في النفوس .
وهذا أثر يتركه في قلوب الناس جميعاً . فهو إذن حقيقى . وكلما صعب على
المركزى الشيخ أن يدرك كنه هذه الحقيقة الواقعة ، سيطر الخوف على نفسه
المتشعبة بالخيال .

لقد ذكرت ابنتى هذه الحقيقة منذ أيام فى كثير من المهارة والتوفيق ،
فى خطاب لم تعرض له . فقالت . إن جوليان لم يشترك فى صالون ولا يمت
بصلة إلى أى حزب . ولو أنى تخليت عنه ، ما وجد من يعضده فى العمل
ضدى ، ولن يعمد حتى إلى أتفه الوسائل . ولكن هل يعد هذا جهلامته
بالحالة الحاضرة للمجتمع ؟ . . . لقد قلت له مرتين أو ثلاث مرات :
إن الصالونات هى الأماكن الوحيدة التى تضمن للمرء مركزاً حقيقياً كثير
النفع . . . لا ، إن نفسه لم تنفطر على النبوغ الذى ينبى عن المهارة والمراوغة ،
كنبوغ النائب الذى لا يضيع دققة ولا يترك فرصة تغفلت من بين يديه .
خالقه ليس كخالق عصر لويس الحادى عشر . ومن ناحية أخرى
أراه يدين بالمبادئ التى تعد على جانب كبير من الوضاعة .. إبنى لأضل ..
هل سيستعين بهذه المبادئ ليقم منها سوراً بقى به أهواؤه ؟
وعلى الجملة فقد بقى شىء ، وهو أنه لا يصبر على الاحتقار ، إنى أملكه
من هذه الناحية .

هو لا يؤمن بالحسب والنسب ، واحترامه لنا - فى الواقع - ليس
غريزة فيه . . . وهذا خطأ كبير ؛ وعلى كل حال فنفس طالب العلوم
الأكبرى يكية لا تتور إلا لحرمانها من التمتع والمال . أما هو فعلى تقيض

ذلك تماماً ، لأنه لا يصبر على الإهانة أبداً . حمل خطاب ما تيلد أباهما على أن يتخذ قراراً عاجلاً في هذا الأمر ، فأخذ يحدث نفسه قائلاً : المسألة تنحصر على الجملة في : هل أقدم جوليان على مغازلة ابنتي والتودد إليها ، لأنه يعلم أنني أحبها كثيراً وأن دخلي مائة ألف يسكو في السنة ؟
أما ما تيلد فإنها تنزهه عن هذا . . . لا ، يا سيد جوليان ، هذا أمر يجب أن أعرف حقيقته تمام المعرفة .

هل كان مدفوعاً نحوها بحب حقيقي مفاجيء ؟ أم دفعته رغبة دنيئة في أن يصل إلى مركز رفيع ؟ إن ما تيلد بعيدة النظر ، لقد فطنت إلى أن هذا الشك جدير بأن يقضى على مكائنه في نفسى ، فاعترفت لى بأنها هى التى أحبته أولاً . أتدسى فتاة رقيقة الخلق نفسها ، وتقدم على ارتكاب هذه الوسائل المادية . . . تضغط ذراعه في الحديقة ذات مساء ، فياللعزى ! تفعل هذا كما لو كانت لا تعرف مائة طريقة أخرى أقل منافاة للأداب ، لتبرهن له بها على أنه موضع رعايتها .

الاعتذار دليل الاتهام ، وعلى هذا فأنا أحذر قول ما تيلد . . . كانت آراء المرئيين في ذلك اليوم قاطعة أكثر من ذى قيل . لكن العادة تغلبت عليه ، فعزم على أن يكسب بعض الوقت ، ويكتب إلى ابنته وكان هو وابنته قد جريا على عادة الكتابة من أحد جوانب القصر إلى جانبه الآخر ؛ لأن المرئيين لم يكن ليقدم على مناقشة ما تيلد وجها لوجه ، لأنه كان يخشى أن ينتهى كل شيء وفق ما تهوى .

خطاب

«حذار من أن ترتكبي حماقات جديدة ، وإليك شهادة لضابط في الخيالة

باسم السيد الفارس چوليان سورل دى لا فرناى . إنك ترين ما أفعله له . فلا تفضيبنى ولا توجهى إلى أى سؤال . وليسافر إلى استرا سبورج ليلحق بفرقة بعد أربع وعشرين ساعة . وإليك حوالة مالية على عملى هناك ، وعليكما بطاقتى » . فتجاوز حب ماتيلد . فرحها كل حد يوصف ، فأرادت أن تنتمز فرصة هذا النصر وترد على خطاب أبيها فى الحال ؟ فكتبت إليه :

« لو أن السيد دى لا فرناى عرف ما تفضلت عليه به ، لكان الآن جاثياً عند قدميك شكراً لله واعترافاً بجميلك . لكنك يا والدى وسط هذا الفضل العميم قد نسيتنى ، نسيت أن شرف ابنتك فى خطر . وقد لمحقتها عار أبدى ، لا يستطيع دخل قدره عشرون ألف إبكو أن يحجوه أبداً . إننى لن أرسل البرامة إلى السيد دى لا فرناى ، إلا إذا وعدتنى بشرفك أن زواجنا سيتم فى الشهر القادم بصفة علنية فى فيلكيه . وإنى أتوسل ألا تتجاوز هذا الموعد لأن ابنتك لن تستطيع الظهور أمام الناس بعد ذلك إلا باسم مدام لا فرناى .

أشكرك كل الشكر أيها الوالد العزيز على أن خلصتنى من هذا الاسم : سورل ..

وكان الرد على هذا الخطاب غير متوقع :

« أطيعينى وإلا نقضت كل شىء . ارتعدى أيتها الحقاء . إننى لم أعرف بعد شيئاً عن چوليان هذا ، وأنت تجهلين من أمره أكثر مما أجهل .

فليسافر إلى استرا سبورج ، وليضع نصب عينيه أن يسلك طريقاً مستقيماً ، وسأبدي لك رأيتي بعد خمسة عشر يوماً » .

فذهلت ما تيلد من هذه الإجابة الحازمة . « أنا لا أعرف جوليان » ثم أطلقت العنان لأحلامها لما قرأت هذه العبارة ، فزينت لها الأحلام فروضاً خلع عليها خيالها ألواناً ساحرة ، فأمنت بها على أنها حقائق ، وأخذت تناجي نفسها قائلة : إن نفس عزيزي جوليان لم تعمد أن تلبس لباس الذلة الذي تحلعه الصالونات على النفوس ، ومع ذلك فوالدي لا يؤمن بسمو نفسه ، لأنه شديد الإيمان بالصالونات . . .

ومع هذا فأنا إذا لم أنزل على ما يمليه هذا الخلق الضعيف ، فأبى أخشى أن تحدث فضيحة علنية، تنقص مكانتي في نظر الناس ، وقد تقلل من حب جوليان لي . وسنقضي بعد هذه الفضيحة عشرة أعوام في فقر شديد ؛ وحماسة اختيار زوج ذي مواهب لن تسلم من السخرية إلا إذا بذلنا في سبيلها المال الكثير . ولو أنني عشت بعيدة عن والدي ، فقد يضاني لشيخوخته . . . وقد يتزوج نوربير امرأة ظريفة مستقيمة : لقد أغوت دوقه برجوني لويس الرابع عشر في شيخوخته ! . . .

لقد عازمت على أن تطيع أمر أبيها ، ولكنها لم تشأ أن ترسل خطاب أبيها إلى جوليان ، مخافة أن يحمله ما في خلقه من نفور إلى ارتكاب عمل جنوني .

ولما أخبرت جوليان في المساء بأنه أصبح ضابطاً في الخيالة ،

كان سروره لا يقدر؛ فقد تحقق ما كان يبتغيه طول حياته من طموح ،
وأصبح الآن حبه لابنه يملك عليه كل نفسه ، من أجل ذلك كان فرحه
كبيراً إلى أبعد جد ، وأذهله تغيير اسمه ذهولاً شديداً .

وأخذ يناجي نفسه : إن قصتي — في الواقع — قد انتهت ، والفضل
في نجاحها راجع إلىّ وحدي ! ثم نظر إلى ما تيلد وقال : لقد عرفت كيف
أحمل هذا الشيطان الغرور على أن تحبني ، إن أباه لا يطيق أن يحيا
بدونها ، وهي لا تستطيع أن تعيش بعيدة عني .



الفصل الخامس والثلاثون

عاصفة

[يا إلهسى ! هبى ضعة الشأن ا]

ميرابو

كانت نفس جوليان مشغولة بما أخبر به ، لذلك قابل حب ماتيلد الشديد بحب ضعيف فاتر . وظل صامتاً عبوساً . ومع ذلك كان في نظرها أعظم وأروع في هذه اللحظة منه في أى وقت آخر ، لكنها كانت تخشى نورة من ثورات الكبر فيفسد عليها كل أمر .

إنها ترى الكاهن بيرار يتردد على القصر في كل صباح . فهل أطلع جوليان على بعض نوايا المريكيز ؟ أم كتب له أبوها تحت تأثير نزوة من النزوات ؟ وإلا فما السر في هذا العبوس في ساعة هي من أسعد ساعات حياتهما ؟ لكنها لم تجرؤ على سؤاله . إنها لم تجرؤ ! ماتيلد بنفسها ! لقد تكوّنت في نفسها منذ هذه اللحظة عاطفة تنطوى على الغموض ، وعلى المفاجأة والخوف منه : وأصبحت نفسها القليظة تشعر بأقصى ما تشعر به نفس درجت وسط هذه الحضارة التي تعجب بها باريس .

وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي ، كان جوليان في دار الكاهن بيرار . ثم وصل إلى فناء الدار جياد من خيل البريد ، وكرسى مزق استوَجِر من الحطة المجاورة . فقال له الكاهن الصارم في تقطيب :

— مثل هذا الركب لم يعد يليق بك . لك عشرين ألفاً من الفرنكات من الركيذى لامول هدية لك ؛ وهو يطلب منك أن تنفق المبلغ كله في هذا العام ، على ألا تكون عرضة للسخرية ما استطعت إلى ذلك سبيلاً .

(إن وضع هذا المبلغ الكبير بين يدي هذا الشاب ليحمله على ارتكاب الآثام كما يظن هذا القسيس) .

واستطرد الكاهن يقول على لسان الركيذى : على السيد جوليان دى لاقرناى أن يزعم بأنه أخذ هذا المال من أبيه ، ومن العبث أن يقول إنه أخذه من مصدر آخر . وربما وجد السيد دى لاقرناى أنه يحسن به أن يقدم هدية إلى السيد سورل النجار فى فرير، مكافأة على عنايته به فى طفولته ... واستطرد الكاهن يقول :

أستطيع أن أقوم بهذه المهمة عنك ؛ وقد حملت الركيذى على مصالحة الكاهن فريلير لأنه متطرف فى اليسوعية ، بعد أن تبين لنا أن سلطانه أقوى من سلطاننا . وسيكون الاعتراف بكرم محمّدك أحد الشروط الضمنية فى هذا الصلح ، إذ لا بد لنا من اعتراف ذلك الرجل — الذى يحكم بيزانسون — بما نريد .

لم يتمكن جوليان من السيطرة على نفسه لشدة فرجه ، حين وجد أن الركيذى قد اعترف به ، فعانق الكاهن ، لكن الأب بيرار دفعه عنه ، وقال :

— اخساً ! فما هذا الغرور الدنيوى ؟ ... أما فيما يختص بسورل

وأولاده فسأرتب لهم معاشاً سنوياً قدره خمسمائة فرنك ، يدفع لكل منهم مادمت راضياً عنهم .

كان جوليان قد أصبح متعالياً فاتر اللهجة ، فشكر الكاهن بعبارات غامضة لا تربطه إطلاقاً بأى شيء . وأخذ يقول فى نفسه : أيمكن أن يقول بأننى ابن طبيعى لسيد من كبار الأشراف، نفاه إلى جبالنا ناپليون الطاغية ؟

وخيل إليه من لحظة إلى أخرى أن هذا رأى ليس بعيد الاحتمال ..
ودليل على ذلك كراهيتى لوالدى ... لو أننى كنت ابنه حقاً ما كنت شيطاناً رجياً !

وبعد هذا الحديث بأيام قلائل ، كانت الفرقة الخامسة عشرة للخيلة، التى هى من خير فرق الجيش كله ، فى معركة فى ميدان السلاح باستراسبورج . وكان السيد الفارس دى لاقرناى على ظهر جواد جميل من الأتزانس ، كلفه ستة آلاف من الفرنكات . ونال رتبة للملازم، وإن لم يكن صف ضابط من قبل ، إلا فى فرقة لم يسمع عنها خيراً طول حياته . كان ثبت الجنان ، ذا نظرات قاسية قد تكون شريرة ، شاحب اللون ، هادىء النفس إلى حد كبير ، فبدأ يشتهر فى الفرقة منذ يومه الأول .
وبعد قليل ظهر أدبه الجم ، الذى ينطوى على كياسة بالغة ، وبدت مهارته فى إطلاق النار وحمل السلاح ، وقد تعلمها فى شغف لا تصنع فيه ، فلم يعد أحد من زملائه يرفع صوته ساخراً منه . ظلّ الرأى العام فى الفرقة متردداً فى أمر جوليان خمسة أيام أو ستة ، ولكنه أصبح بعد ذلك فى صالحه

تماماً ، فقد روى عنه أولئك الضباط السنون الساخرون : هذا الشاب يتصف بكل شيء إلا بالشباب .

وقد كتب جوليان من ستراسبورج إلى السيد شيلان كاهن فريير السابق ، الذي أصبح الآن في آخر أيام حياته ، وبلغت به الشيخوخة منتهاها :

« لقد سررت حين بلغك خبر الظروف التي حملت أسرتي على أن تغمرني بالمال ، وأنا لا أشك إطلاقاً في مقدار فرحك لذلك . إليك خمسمائة فرنك ، أرجو أن تتفضل بتوزيعها على الفقراء والمحتاجين الذين كنت أنا مثلهم منذ زمن قريب ، وإني لأعلم أنك تتصدق عليهم كما كنت تتصدق عليّ من قبل » .

كان جوليان تحت سلطان نشوة من الطموح لا من الفرور ؛ على الرغم من اهتمامه الشديد بمظهره الخارجي ، إذ كانت جياده وملابسه ، وثياب خدمه وأتباعه موضع رعاية شديدة منه ، فكأنه سيد إنجليزي ، كثير الولوج بالحفاضة على مظهره . لقد أصبح ملازماً بطريق الاستثناء منذ يومين ، ومع ذلك فقد أخذ يحسب أنه سيصبح رئيس فرقة وهو في سن الثلاثين ككلّ القواد العظام ، فيجب أن تكون رتبته وهو في الثالثة والعشرين أعلى من رتبة ملازم ، لم يكن يفكر إلا في المجد وفي ولده .

وبينما هو غارق فيما يصوره له هذا الطموح الجامح ، أذهله أن رأى خادماً من خدم قصر المركيز دى لامول يأتي مسرعاً إليه ومعه الرسالة التالية من ماتيلد : « فقدنا كل شيء ؛ فأسرع بالحضور إليّ ، مضحياً

بكل شيء ، أهبز الجيش إذا لم يكن من ذلك بد . وانتظرنى بمجرد وصولك فى عربـة على مقربة من باب الحديقة الصغيرة رقم ... المـطل على شارع ... سأتى لأتحدث إليك وربما تمكنت من إدخالك الحديقة . لقد ضاع من أيدينا كل شيء ، وأخشى أن نصبح ولا مورد لنا ، ولكن اعتمد علىّ ، فستجدنى فى الشدة مخلصـة حازمة . إني أحبك .

وفى بضـع دقائق ، حصل جوليان على إذن من رئيسه الكولونـل ، وغادر استراسبورج إلى باريس على عجل ، غير أن قلقه الشديد لم يسمح له بأن يواظب على هذه السرعة الجنونية بعد أن بلغ متر ، فقطع باقى المسافة فى عربـة من عربات البريد ، ثم ذهب فى سرعة لا تصدق إلى باب حديقة قصر المـركيزدى لامول . ففتح الباب ، وظهرت ماتيلد فى الحال ، وارتـمت بين ذراعيه ، ناسية كل وقارها غير مبالية بشيء على الإطلاق . ولحسن حظها كانت الساعة لا تزال الخامسة صباحاً والشارع لا يزال مقفراً من المـلارـة ، وقالت له :

- لقد ضعنا : خاف أبى دموى فسافر يوم الخميس مساء . إلى أين ؟ لا يعلم أحد إلى أين ذهب . وترك لى هذا الخطاب فاقراه . ثم ضعدت إلى جانبه فى العربـة . « أستطيع أن أصفح عن كل شيء ، ولكنى لا أغفر مطلقاً أمر إغرائك ؛ لأنك غنية . هذه هى الحقيقة المرة أيها الفتاة التعمـة . أقسم بشرفى أنى لست أوافق إطلاقاً على أن تتزوجى هذا الرجل . إني أمنحه معاشاً قدره عشرة آلاف من الفرنكات إذا قبل أن يعيش بعيداً ، خارج حدود فرنسا ، بل فى أمريكا على الأصح -

يقربني الخطاب الذي تسلمته رداً على معلومات طلبتها . لقد طلب مني هذا الوقح بنفسه أن أكتب إلى مدام دي رينال : فأنا لا أريد أن أقرأ سطرأ واحداً تسكتيبينه يخص هذا الرجل . لقد اشمازت نفسي من باريس ومنك . وأطلب إليك أن تلزمي الكتمان وتحافظي على سرية كل ما حدث، تجلّي تماماً عن هذا الوضع لتجدي أباك بجانبك . »

فرغ جوليان ن قراءة الخطاب ، فقال في فتور :

— أين خطاب مدام دي رينال ؟

هاهو ذا . لم أشأ أن أطلعك عليه قبل أن تهياً لذلك .

خطاب

« إنتي يا سيدي تمشياً مع المبادئ السامية للدين والأخلاق أحمل نفسي هذه المهمة الشاقة التي أقوم بها من أجلك ؛ إن قاعدة لا يتطرق إليها الخطأ تأمرني أن أذم إنساناً في هذه اللحظة ، ولكنها تحول دون وقوع فضيحة خلقية كبرى، وإن الألم الذي أشعر به من جراء ذلك يخففه عن شعوري بالقيام بالواجب . سلوكك الشخص الذي تسألني عنه ياسيدي قد يبدو غير مفهوم أو على جانب كبير من الاستقامة، وقد يعمد الإنسان إلى أن يخفي بعض الحقيقة ، أو أن يخلع عليها قناعاً يسترها ، والحكمة تقتضي ذلك ويريده الدين . ولكن هذا المسلك الذي تريد أن تعرفه كان مسلكاً شائناً إلى حد لا أستطيع وصفه . وذلك لأن هذا الشخص كان فقيراً وجشعاً ؛ وقد عمد إلى أبشع ألوان النفاق ، ليغري امرأة ضعيفة تعمة ، فينال مكانة أو يصبح شخصاً مذكوراً . ويخيل إلى أن من واجبي

الشاق أيضاً أن أراي مضطرة إلى أن أقول : إن السيد ج ... لا يؤمن بأى مبدأ من مبادئ الدين . وأراي مرغمة على أن أقول : إنه يعمد إلى إغراء السيدة التي يكون لها شأن في المنزل ، متخذاً ذلك طريقة من الطرق التي تكفل له النجاح ، أقول لك هذا إرضاء لضميري . إنه ليتذرع بمظاهر القناعة ؛ ويردد عبارات اقتبسها من القصص ، ليصل إلى الغرض الذي ينشده، ويسعى إليه سعياً حثيثاً وهو أن يضع يده على صاحب الدار ويملك ثروته . ثم يترك من ورائه الشقاء والندم المرير ... »

هذا الخطاب الطويل الذي كادت الدموع تمحى نصفه ، كان بخط مدام دي رينال مكتوباً بعناية أكثر من المعتاد . وانتهى جوليان من قراءته فقال :

— لا أستطيع أن ألوم المركيز دي لا مول ، لأنه عادل وفتن . فأى أب يقدم على أن يزوج ابنته العزيزة رجلاً هذا خلقه؟! الوداع ! وقفز جوليان من العربة ثم جرى إلى مقعده في عربة البريد التي كانت بانتظاره في طرف الشارع حتى كأنه نسي ما تيلد ، فسارت خلفه بضع خطوات ، لكن نظرات التجار الذين كانوا يسرون إلى حوائثهم ، وكانوا يعرفونها ، اضطرتها إلى أن تهول فتدخل الحديقة .

كان جوليان في طريقه إلى فريير . لم يستطع أن يكتب إلى ما تيلد وهو في طريقه إلى بلدته كما كان عازماً على ذلك ؛ لأن يده كانت لا تخط على الورق إلا حروفاً لا تقرأ .

وصل إلى فريير . في صباح يوم الأحد . ودخل حانوت بائع الأسلحة .

الذى أخذ يثنى عليه أجمل الثناء لثروته الحديثة . وكان هذا أهم خبر يتحدث به أهل هذه الناحية . ووجد جوليان مشقة كبيرة في أن يفهم الرجل أنه جاء ليشتري مسدسين . وحشاشها التاجر بالرصاص كما طلب منه جوليان .

جلجلت الدقات الثلاث ، وهى علامة يعرفها كل من في قرى فرنسا، تنبئ الناس ببدء الصلاة في الحال، بعد أن نهتهم دقات أجراس الصباح إلى الصلاة . فدخل جوليان الكنيسة الجديدة في فريبير . وكانت النوافذ العليا مغطاة كلها بستائر قمرزية . ووجد نفسه خلف مقعد مدام دي رينال يبضع خطوات . وخيل إليه أنها كانت تصلى في حمية وحرارة . ولما وقع نظره على تلك السيدة التى أحبها حباً جماً ، اضطربت ذراعه فلم يقو على تنفيذ مشروعه أول الأمر . وأخذ يقول فى نفسه : لا أستطيع ذلك ، إننى لا أستطيع أن أقدم على ذلك مادياً . وفى تلك اللحظة ، دقّ الشماس الذى يقوم بالصلاة علامة السمو . فخفضت مدام دي رينال رأسها الذى كان من قبل مختبئاً تماماً فى ثنايا محرمها . ولم يعرفها جوليان تمام المعرفة ، ومع ذلك فقد أطلق عليها رصاصه من مسدسه فأخطأ المرمى ، فأطلق عليها ثانية سقطت على إثرها .

الفصل السادس والثلاثون

ظروف محزنة

[لا تنتظري أن أظهر بمظهر الضعف . لقد تارت
لنفسى . إن أستحق الموت ؛ وما أنذا أموت ، فصلى
على روجى] . شيلر



ظلّ جوليان واقفاً وهو جامد في مكانه ، ولم يعد يرى شيئاً . وحينما
أفاق قليلاً وجد المؤمنين جميعاً قد غادروا الكنيسة ، وترك القسيس مكانه
من المذبح . وتبع جوليان في بطاء بعض نساء كن يولون وهن منصرفات .
وكان بينهن امرأة تحاول الإسراع أكثر من غيرها ، فدفعته بقوة فسقط
على الأرض . وكانت قدماه قد عثرتا في مقعد ، أو قمع الجمهور وهو يفرّ
من الكنيسة ، فوق وحاول النهوض فشعر بضغط على رقبتة ؛ كان الواقف
بجواره شرطياً بملابسه الرسمية وقد قبض عليه . ورأى نفسه يحاول
أن يمسك مسدسيه ليطلق النار على الشرطى ، ولكن شرطياً آخر كان
قد أمسك بذراعيه .

واقعيد إلى السجن حيث أدخل غرفة من غرفه ، وكبّلت يده بالأغلال ،
ثم ترك وحده وأغلق الباب عليه بإحكام . . . جرى كل ذلك بسرعة
عظيمة ، لكن جوليان لم يهتم إطلاقاً بالقبض عليه . ولما تاب إلى رشده ،
قال في صوت مرتفع :

كل شيء قد انتهى في الواقع ، فبعد خمسة عشر يوماً سأساق إلى المشنقة . . أو أقتل نفسي قبل ذلك .

لم يهده تفكيره إلى أكثر من هذا ؛ وقد شعر كأن رأسه مضغوط بشدة ، وخيل إليه أن إنساناً قد أمسك به . وبعد لحظات قليلة ، استغرق في نوم عميق . .

لم تخرج مدام دي رينال جرحاً عميقاً ، إذ اخترقت الرصاصة الأولى قبعتها وأصابتها الثانية وهي تلتفت ، فمست كتفها ، والغريب في الأمر أن عظمة الكتف - وإن كانت قد كسرت - ردت الرصاصة فأصابت عموداً غوطياً من أعمدة الكنيسة، فاقتلعت جزءاً كبيراً من حجر العمود . ضمد جرحها واستغرق ذلك وقتاً طويلاً، وتألمت منه ألماً شديداً ، لكن الجراح - وكان رجلاً وقوراً - قال لها : إنني ضامن حياتك فلا تخافي شيئاً . فحزنت حزناً شديداً حين سمعت منه ما قال .

كانت تنتظر الموت منذ زمن طويل في رغبة صادقة . والخطاب الذي أُرغمها القسيس الذي اعتادت أن تعترف أمامه الآن ، فأرسلته إلى المركز دي لامول، كان الضربة القاضية على هذه السيدة التعمسة، التي هدمها ما تلقاه من شقاء مقيم . كان يؤسها في غياب جوليان عنها ، كانت تناديه ، والندم يلاحقها . وقد كشف المدير الأمر ، وهو قس شاب متمسك بالقضايا، متحمس ، كان قد وصل أخيراً من ديجون .

وكانت تقول في نفسها : خير لي أن أموت هكذا ، وألا أقتل نفسي بيدي لأنها معصية كبرى ؛ ويغفر الله لي فرحى بالموت . ولم تجرؤ على أن

تقول : والموت بيد جوليان منتهى السعادة .

ولم تكذب تتخلص من الجراح ومن الأصدقاء الذين جاءوا للسؤال عنها مسرعين ، حتى استدعت إليزا وصيفتها ، وقالت لها والحجل الشديد يستولى عليها :

— إن السجنان رجل قاس . ولا شك أنه سيبيء معاملته ، معتقداً أنه يحسن بذلك إلى . . . هذه الفكرة تؤلمني أشد الألم . أفلا تستطيعين أن تذهبي وتلقى هذا السجنان كأنك ذاهبة إليه من تلقاء نفسك ، ثم تعطيه هذه الصرة التي بها بضعة لويسات ؟ قولي له : إن الدين لا يسئح بأن يعامله معاملة سيئة . . . وعليه ألا يتحدث إطلاقاً عن هذا المال .

وسعد جوليان بمعاملة حسنة بسبب هذا ؛ وكان السجنان هو دائماً السيد نوارو ، ذلك الموظف المستقيم ، الذي ذعر ذعراً شديداً من حضور السيد أوبر لزيارة السجن .

أتى إلى السجن أحد القضاة فقال له جوليان : لقد قتلت مع سبق الإصرار ، واشتريت المسدسين من فلان بائع الأسلحة وأمرته أن يحشوها بالرصاص والمادة ١٣٤٢ من القانون الجنائي واضحة ، فأنا أستحق الموت وأنتظره . فذهل القاضي من هذه الإجابة ، وأراد أن يوجه إليه أسئلة عديدة لعل المتهم يرجع عن قوله . فابتسم جوليان وقال :

— ولكن ألا ترى أنني أعترف بأكثر مما كنت ترجو أن تحصل عليه؟ إنك يا سيدي لن تضيع القرينة التي تطاردها . وستنال بالحكم على لذة كبيرة فأعفني إذن من حضورك !

وبعد ذلك أخذ يقول في نفسه : بقی علیّ واجب يدعو إلى الملل ،
فعليّ أن أكتب إلى الأنتسة دی لامول . وكتب لها يقول :

« لقد ثارت لنفسي . وسيظهر اسمي في الصحف لسوء الحظ ، ولن
أستطيع أن أخرج من هذا العالم متنكراً . سأموت بعد شهرين . وكان
الانتقام مريماً ، كما كان فراقك مريراً مؤلماً . لقد حرمت علي نفسي منذ
الآن أن أكتب اسمك أو أن أنطق به ، لا تتحدثني عنى بتاتاً حتى إلى
ولدي ، فالشكوت خير طريقة لتجيدى . أما عامة الناس فسيقولون : إننى
قاتل دنيء . . . واسمحي لي أن أقول لك الحقيقة في هذه اللحظة الأخيرة :
حاولي أن تنسيني . إن هذه الكارثة الكبرى التي أنصح لك بالآلا
تتحدثني عنها إلى أي إنسان بعد الآن ، قد قضت — إلى سنوات بعيدة —
علي ما في خلقك من حب للمغامرة واندفاع وراء الخيال . لقد خلقت
لتعيشي مع أبطال القرون الوسطى ، فأظهرى الآن ما كانوا يتصفون به
من خلق حازم . إن كل ما سيحدث يجب أن يتمّ سرّاً ، دون أن تنيرى
حولك الشبهات . اتخذى لك اسماً مستعاراً ، ولا تبوحى بسرّك لإنسان .
وإذا كان لا بد لك من أن يعاونك صديق ، فأنصحك بالاعتماد على الكاهن
بيرار . لا تكاشفي أي رجل آخر بما يدور في نفسك ، وبخاصة أولئك
الذين هم من طبقتك أمثال دي لوز وكابيلوس .

وبعد موتى بعام تزوجى السيد دي كروازنوا ، أرجوك بل أمرك
بهذا بصفتي زوجك . لا تكتبني إلى بعد الآن ، لأننى لن أردّ عليك .

إنتى - وإن كنت أقول أذى من ياجو على ما يظهر لى - إلا أنتى
أقول لك ما قاله : لن أقول منذ الآن كلمة واحدة .

لن يرانى أى إنسان أتسكلم أو أكتب ؛ وهذه آخر كلماتى لك كما
أبعث إليك بآخر عبارات حبى . »

ج . س

وبعد أن بعث بهذا الخطاب ، ثاب إليه رشده لأول مرة ، فشعر
بشقاء كبير . وكانت آماله التى يملها طموحه تنزع من قلبه الواحد تلو
الآخر، على أثر هذه العبارة الخفيفة : إنى سأموت . لم يكن الموت فى حد
ذاته مخيفاً فى نظره ؛ لكن حياته كلها كانت سلسلة من الشقاء ، لأنه لم
يتفاد نسيان هذا الشقاء الذى يعده الناس جميعاً أشد أنواع الشقاء .

ثم أخذ يتحدث إلى نفسه ، ماذا دهانى ! لو أنتى سأبارز بعد
ستين يوماً رجلاً ماهراً فى استعمال السلاح ، أكنت أفكر فى هذا الأمر
دائماً ، والرعب يملأ نفسى ؟

وقضى أكثر من ساعة يبحث هذا الأمر بينه وبين نفسه . وحينما
اتضح له ، وظهرت الحقيقة ماثلة أمام عينيه فى وضوح كشول أعمدة
السجن ، أخذ يفكر فى الندم ! ولكن لم أندم ؟ لقد امتهنت بطريقة
مؤلمة ؛ لقد قتلت ، فأنا أستحق الموت ، وهذا هو كل شىء . ولكننى
أموت بعد أن صفت حسابى مع البشرية . ولم أترك أى التزام لم أقم به ،
أست مدينياً لأحد بشىء ، وليس فى موتى شىء يعيبه غير الآلة التى ستستعمل

في قتلى : على أن هذا وحده كفيل في الواقع بأن يجعل كلّ البرجوازيين في ثريير يحتقروني ، ولكن ما قيمة حكمهم إذا سلطنا عليه ضوء العقل ! لدى طريقة ترفع مكانتي في نظرهم ، وهي أن أنثر الذهب وأنا مسوق إلى المشنقة . إن ذكراى ستظل مقترنة بالذهب ، وتبقى في أذهانهم زماناً طويلاً . وبعد هذا التفكير الذى وضح في ذهنه بعد دقيقة ، أخذ يقول : لم يعد لدى شيء أعمله في الحياة . ثم نام نوماً عميقاً .

وفي الساعة التاسعة مساءً ، أيقظه السجان وحمل إليه عشاءه ، فسأله : — ماذا يقولون في ثريير ؟

— ياسيدى جوليان ، إن اليمين التى أقسمتها أمام الصليب في المحكمة يوم عينت في مكاني هذا ، تحتم على الصمت .

ثم سكت ولكنه ظلّ في مكانه . غير أن هذه الصورة من صور النفاق الدنيء قد سرّت عن نفس جوليان ، وقال في نفسه : يجب أن أتركه يتربق قطعة خمسة الفرنكات التى يريدّها لبييعنى ضميره وقتاً طويلاً .

ولما رأى السجان أن الوجبة قد انتهت دون أن يحاول جوليان إغراءه ، قال له في لهجة كاذبة رقيقة :

— الصداقة التى أكنّها لك ياسيد جوليان تدفعنى إلى أن أتكلّم ، ومهما قيل إن هذا مخالفة للعادل ، لأن ما أقول ربما يساعد دفاعك ... إن السيد جوليان ذلك الشاب الطيب ، سيسر حين أخبره بأن مدام دى رينال قد تحسنت صحتها . فتأر وصاح قائلاً :

— ماذا تقول ! أو لم تمت ؟ فأجابه السّجان في لهجة تنم عن الغباء ،

بولكنها سرعان ما دلت على الطمع الشديد :

— عجيباً ! لم تكن تعرف شيئاً عن هذا ! يحمل بك ياسيدي أن تعطى

شيئاً للجراح الذى يقضى عليه القانون وتحتم عليه العدالة بالألا يقول شيئاً .

بولكننى رغبة فى أن أدخل السرور على نفسك ، ذهبت إليه فى منزله

بنفسى فقص على كل شيء ... فنارت نائرة جوليان وقال :

— الجرح إذن لم يكن خطراً ، فهل تضمن لى ذلك بحياتك؟

ومع أن السجان كان عملاقاً يبلغ ارتفاع قامته ست أقدام ، فإنه

ذعر وأوى إلى جانب الباب . فأدرك جوليان أنه يسلك طريقاً معوجاً

لمعرفة الحقيقة، فجلس وألقى بناپليون إلى السيد نوارو .

ولما استطلع جوليان من قصة هذا الرجل أن جرح مدام دى رينال

لم يكن مميتاً ، شعر بالدموع تترقق فى عينيه ، فصاح به بغتة : اخرج !

فأطاع السجان . ولم يكد الباب يفتح ، حتى صاح جوليان وركع

على ركبتيه ثم أخذ يبكي بكاء مرا ويقول : يا إلهى ! إنها لم تمت !

وفى هذه اللحظة التى تعدّ من لحظات سمو النفس ، كان جوليان

مؤمناً بالله . وما قيمة نفاق القسس ؟ أيستطيع هذا النفاق أن ينزع شيئاً

من تلك الحقيقة السامية التى تعبر عن فكرة الإله ؟

وبدا يشعر بندم شديد على الجرم الذى ارتكبه . واتفق فى تلك

اللحظة فقط أن ذهب عنه غضبه الشديد وجنونه منذ أن غادر باريس إلى

ثريد ، زابته تلك الحالة النفسية فلم يستول عليه اليأس حين علم بأن مدام دي رينال لم تمت .

كانت دموعه غزيرة ، لأنه لم يشك إطلاقاً في الحكم الذي سيصدر ضده . وأخذ يقول في نفسه : إنها ستعيش إذن ! ستعيش لتغفر لي ولتجنبي

وفي ساعة متأخرة من صباح اليوم التالي ، أيقظه السجنان وقال له :
— أنت رجل ثابت الجنان يا سيد جوليان . لقد أتيت مرتين ولم أشأ أن أوقظك . إليك زجاجتين من أجود النبيذ يرسلهما لك كاهننا الأب حالون .

— كيف ذلك ؟ ألا يزال هذا الوغد هنا ؟ فقال له السجنان في صوت منخفض :

— نعم يا سيدي ، ولكن لا تتكلم بصوت مرتفع ، لأن هذا قد يجر عليك الأذى . فضحك جوليان في مرح شديد وقال :

— أينالني الأذى أكثر مما أنا فيه ؟ أنت وحدك يا صديقي الذي تستطيع إيذائي إن تجردت من العواطف الإنسانية الرقيقة . . سأجزل لك العطاء . قال له جوليان هذه العبارة في لهجة تدل على العظمة ، ولكي يسوغ ذلك في الحال نفحه قطعة من النقود .

وأعاد عليه السيد نوارو كل ما سمعه عن مدام دي رينال ، ولكنه لم يخبره بزيارة الأنسة إليزا .

كان هذا السجنان وضعياً مغلوباً على أمره إلى أبعد حد . فطرات

لجوليان فكرة: إن هذا المارد القبيح قد يكسب ثلثمائة أوار بمائة فرنك فقط ، لأن السجن غير مزدحم بالزلاء ؛ وفي استطاعتي أن أضمن له مبلغ عشرة آلاف من الفرنكات لو أنه فرّ معي إلى سويسرا لكن الصعوبة هي كيف أقنعه بحسن طوبتي ؟ . . . ثم عدل عن هذا الرأي لأن نفسه اشتمزت من الحديث الطويل الذي سيدور بينه وبين هذا المخلوق الدنيء حتى يقنعه ، وجعل يفكر في أشياء أخرى .

وفي المساء فات أوان هذه الفكرة ، فقد أرسل إليه مقعد من مقاعد عربات البريد في منتصف الليل . وسرّ من رجال الشرطة الذين رافقوه في رحلته . ولما وصل في الصباح إلى سجن ييزانسون ، ترفقوا به فوضوه في الطبقة العليا من برج قوطي . ورأى أن هندسته ترجع إلى أوائل القرن الرابع عشر ، وأعجب بأناقتهما وخقمتها التي تنطوي على المهارة .

ومن بين جدارين هناك ، رأى فرجة تطل على منظر بديع رائع .

وفي اليوم التالي ، حُقق معه ، ثم ظل هادئاً بضعة أيام . لقد كانت

نفسه وديعة . ووجد أن مسألته تنطوي على جانب كبير من البساطة :

أردت أن أقتل فيجب أن أقتل .

ولم يعد رأيه هذا النوع من التفكير . أما المحاكمة ، والضيق الذي

يحملة على أن يظهر أمام الناس ، وكذلك الدفاع ، فقد كان يعد كل ذلك

مضايقات يسيرة وحفلات مملّة ، يكفي للتفكير فيها يوم حدوثها وحده .

ولم يعد يفكر في الموت إطلاقاً . قال : سأفكر فيه بعد المحاكمة . ولم يعد

يرى الحياة ، مملّة بل نظر إلى الأشياء كلها نظرة جديدة . وولى عنه طموحه ولم يعد يفكر في الآنسة دى لامول إلا قليلا . شغله النوم عن كل شيء ، وكانت صورة مدام دى رينال ماثلة أمام عينيه في معظم الأوقات . وخاصة في سكون الليل الرهيب ، الذى يخيم على البرج ، ولا يعكره إلا زقزقة العقاب البحرى !

وكم شكر السماء كثيراً على أنه لم يجرح مدام دى رينال جرحاً مميّتاً . وأخذ يحدث نفسه قائلاً : إن ما يدعو إلى العجب أنى كنت أعتقد أن خطابها إلى المركيز دى لامول ، قد قضى تماماً على سعادتى المستقبلية ، أما الآن ، أى بعد أن كتبت خطابها بخسة عشر يوماً فلم أعد أفكر فيما كان يشغلنى من قبل ... إن دخلا يبلغ ألفى فرنك أو ثلاثة آلاف ، يكفينى لأحيا حياة هادئة في مكان جبلى مثل فرجى ... كم كنت سعيداً وأنا أعيش هناك ! ... ولكننى لم أكن أقدر سعادتى حق قدرها ! .

وفي لحظات أخرى كان ينهض من مقعده فرعاً ويقول : لو كنت قد قتلت مدام دى رينال ، لتقضيت على حياتى ... كم أنا في حاجة إلى أن أعلم علم اليقين ، بأنها لم تجرح جرحاً مميّتاً حتى لا أحتقر نفسى .

أقتل نفسى ! هذه هى المشكلة الكبيرة . هؤلاء القضاة المبالغون في التدقيق والمتحمسون ضد كل متهم تعس ، لا يترددون في أن يشنقوا خير المواطنين ليحصلوا على وسام ... إني سأنجو من سلطانهم ومن شتمهم التى ينطقونها بلغة فرنسية رديئة ، ومع ذلك تصفها صحيفة المقاطعة بالبلاغة ...

سأعيش ما يقرب من خمسة أسابيع أو ستة ... ثم أخذ يقول بعد
بضعة أيام :

أأقتل نفسي ! ولم ذلك ؟ لقد عاش نابليون ...

ثم ضحك وقال : ومع ذلك فالحياة جميلة ، والإقامة هنا هادئة ، لا يعكر
صفوها أولئك الذين يبعثون الملل في النفوس . ثم أخذ يكتب قائمة بأسماء
الكتب التي يريد أن يُحضر من باريس .

الفصل السابع والثلاثون

برج

[قبر صديق .]

سترن



سمع جوليان ضوضاء شديدة في الردهة ؛ ولم يكن الموعد الذي يصعد فيه السجناء إلى غرفته قد حان بعد ؛ وصاح العقاب البحري في هذه اللحظة وطار ، وفتح الباب، فرأى جوليان الكاهن المبجل شيلان يرتعد رعدة شديدة ، والمصافى يده ، فارتدى جوليان بين ذراعيه، وقال الكاهن :
— آه ! يا إلهي ! أمن الممكن يا بني ؟ ... أأقول : إنك شيطان !
ولم يستطع هذا الشيخ الجليل أن يقول أكثر من ذلك ، فخشى جوليان أن يقع الكاهن على الأرض ، فاضطر إلى اقتياده نحو مقعد . لقد أثرت يد الزمن في هذا الشيخ الفاني، وقد كان على جانب كبير من النشاط . فلم ير جوليان من هذا الرجل القتي إلا شبحاً واهياً .

وحيثما استرد بعض قواه قال : لقد تسلمت أمس الأول فقط، الخطاب الذي أرسلته إلى من استراسبورج وبه خمسمائة فرنك لفقراء ثريير ؛ أحضروه إلى وأنا في الجبل عند ليفيرو، حيث أعيش الآن في عزلة عند حفيدي جان . وعلمت أمس بالكارثة ... فيا للسماء ! كيف حدث هذا ! ولم يعد الشيخ قادراً على البكاء ، وكان الآراء قد نضبت من عقله ،

فقال بلهجة آليّة : إنك في حاجة إلى مبلغك ، وقد أحضرت لك
خمسائة الفرنك . فقال له جوليان في رفق وحنان :
— إني في حاجة إلى أن أراك يا والدي ، أما المال ففقدى منه
ما يكفيني .

لكنه لم يسمع بعد ذلك من الكاهن جواباً معقولاً : وكان الأب
شيلان يذرف من آن إلى آخر ، بعض دموع تسيل على خدّه ، ثم ينظر
إلى جوليان في خفة وطيش ، حين يأخذ يده ويضعها على شفتيه . كان وجه
الكاهن من قبل مملوءاً بالحياة ، تنطبع على صفحته أسمی العواطف ،
أما الآن فلم يعد يرى الإنسان فيه غير البلادة . ثم أتى بعد ذلك فلاح
ليأخذ العجوز قائلاً : يجب ألا تتعبه أكثر من ذلك . وقد أدرك جوليان
أنه جان ابن أخى الكاهن . سببت هذه الزيارة لجوليان شقاء كبيراً ،
وحالت بينه وبين الدموع . فقد بدا كل شيء أمامه حزيناً لا يجدى
فيه العزاء ، وشعر كأن قلبه قد تمجّر بين ضلوعه .

كانت هذه اللحظة من أقسى اللحظات عليه منذ ارتكب جرمه .
لقد رأى الموت ماثلاً أمامه في أبشع صورته . أما ما كان يظنه من سمو
النفس ، ومن الشجاعة ساعة الموت ، فكان مثل سحابة تبددها العاصفة .
وظلت هذه الحالة السيئة ساعات طويلة . وساءت حالته النفسية ؛
فعمد إلى الترفيه عن بدنه بشرب نبيذ شمانيا . وقد رمى نفسه بعد ذلك
بالخمر حين عمد إلى شرب النبيذ ليخفف ما به . وقضى يوماً ثقيلاً الوطأة
عليه ، في التنزه في برجه الضيق ، وفي نهاية اليوم أخذ يصيح قائلاً : يالى

من مجنون ! لو أنني كنت سأموت كما يموت الناس ، لبعث منظر هذا الشيخ الفاني الأسي في نفسي ، أما الموت العاجل في زهرة الشباب فلا يجب أن يجرّ على هذا الألم .

وفشل في أن يقنع نفسه ، لأنه كان في ذلك اليوم خائر النفس مضعفها ، شقيا من أثر هذه الزيارة . ولم يعد يتصف بالحشونة، ولا بالسمو الذي فطرت عليه نفسه، ولا بتلك الفضائل الرومانية . كان يرى الموت فوق هذا كله شيئاً لا يعد هيبنا .

وأخذ يقول في نفسه : هذا هو ميزان حرارتي . أنا الليلة خائر القوة، «فالترموتر» يدلني على عشر درجات تحت مستوى الشجاعة التي تلازمي بالمشقة . أما فيما عدا ذلك فقد كانت لي هذه الشجاعة ، ومع ذلك ، فإذا يصيرني ما دامت شجاعتي تواتيني في الوقت المناسب ، وسرّ بفكرة الترمومتر ، ونسى حزنه .

وفي اليوم التالي ، حين استيقظ من النوم خجل من نفسه ؛ لما أبداه من خور في اليوم السابق . وأخذ يقول : إن سعادتي وراحتي يكاد يقضي عليهما . وعزم على أن يكتب إلى النائب العام، يطلب إليه ألا يسمح بأن يزوره أحد . غير أنه أخذ يسأل نفسه : وإذا أتى فوكيه ؟ لو أنه حضر إلى بيزانسون ولم يرني . فأى ألم يستولى عليه !

كان قد مضى على جوليان شهران لم يفكر خلالها في فوكيه . فقال في نفسه : لقد كنت أحق أيام إقامتي في استراسبورج ؛ لأن أفكاري لم تكن تتجاوز ياقة ثوبي . وشغلته ذكرى فوكيه كثيراً ، وتركته في حالة

جنان شديد . فأخذ يتنزه في اضطراب وهو يقول : ها أنذا قد أصبحت في درجة العشرين تحت مستوى الموت ... وإذا زاد هذا الضعف ، فيحسن بي أن أقتل نفسي . أى فرح يستولى على نفوس أمثال الكاهن مالون وقالنوا، لو أننى قتلت نفسى كما يفعل الجبناء !

وأتى إليه صديقه فوكيه ، وكان هذا الرجل الساذج الطيب يكاد يموت حزناً على صديقه ، فالرأى الوحيد الذى يشغله ، إن صحّ أن مثله أفكاراً ، هو أن يبيع كل ما يملك ويغرى السجن بالمال لينقذ جوليان . وتحدث إليه طويلاً عن فرار السيد دى لافالت ، فقال له جوليان :

— إنك تبعث الأسى فى نفسى ، إن السيد لافالت كان بريئاً ، أما أنا فقد ارتكبت جريمة . أنت تحملنى على التفكير فى هذا الفرق دون أن تشعر ... ثم انقلب بغتة حذراً كمن يدرس خلق صاحبه فسأله :

— ولكن أتقول حقاً ؟ ماذا ؟ أتريد أن تبيع أملاكك ؟

فسرّ فوكيه حين رأى صديقه قد استجاب لفكرة ملكت عليه نفسه ، وأخذ يبين له فى إطناب ودقة، ثم كل جزء من أملاكه .

فقال جوليان فى نفسه : يا له من جهد جبار، ذلك الذى يبذله مالك من ملاك الريف ! إنه يضحى من أجلى بما اقتصد ، وبما يخجل به على نفسه ، فاقصد من شحّ كنت أخجل منه حين كان هو يقدم عليه ! إن أى شاب جميل من أولئك الذين كنت ألقاهم فى قصر دى لامول ، ممن يقرءون « رينيه » ، لا يتصف بأى لون من ألوان هذه التضحية ؛ من ذا الذى يقدم على مثل هذه التضحية ، من بين أولئك الباريسيين

الوسماء ، إذا استثنينا الذين لا يزالون صغار السن ، وقد ورثوا المال ولم يعرفوا بعد قيمته ؟

أنسى جوليان جميع أخطاء الفرنسيين والحركات العامية التي كانت تصدر عن صديقه، وارتضى بين ذراعى فوكيه . وفي الواقع أن الريف لم ينل من قبل هذا الإكرام، حين كان يقارن بباريس . وخرج فوكيه بما كان يبدو في عيني صديقه من بريق عجيب، ظنه موافقة على اقتراحه بأن يفر من السجن .

ردّ سمو فوكيه ونبهه إلى جوليان تلك القوى التي فقدتها حين زاره الكاهن شيلان ، وعاد فتياً مرة أخرى ، لكنه كان كالنبات الجميل على ما يظهر لي . فبدل أن ينتقل من الحنان إلى الحذر مثل أغلب الرجال ، أعطته السنّ طيبة هيئة ، ترقبها عواطفه في سهولة وبسر ، ولم يعد يفقد ثقته بالناس ، وقد كان يحذرهم حذراً يصل في بعض الأحيان إلى حد الجنون ... ولكن ما فائدة هذا التنبؤ بالغيب الذي لا طائل من ورائه ؟ كثر التحقيق على الرغم من الجهود الذي كان يبذله جوليان ، إذ كانت كل إجاباته تهدف إلى الإيجاز في هذا الأمر، فكان يقول كل يوم: لقد قتلت أو حاولت على الأقل أن أقتل مع سبق الإصرار . ولكن القاضى كان يحرص على استيفاء الإجراءات قبل كل شيء . فكانت تصريحات جوليان لا تؤدى إلى الإيجاز الذى كان ينشده إطلاقاً ؛ فضلاً عن أنها تجرح كبرياء القاضى . ولم يعلم جوليان أنهم أرادوا نقله إلى سجن ممقوت ، فسمى فوكيه سعيًا حثيثاً ؛ حتى تركوه في غرفته الجميلة المرتفعة

التي يصعد إليها بثمانين ومائة درجة من درجات السلم .
كان الكاهن دى فريليير من بين أولئك الذين كانوا يكلفون
فوكييه إحضار خشب ليستدفئ به . فذهب هذا التاجر الماهر إلى ذلك
الرجل القوي ، نائب الأسقف ؛ وفرح فرحاً لا حد له حين قال له فريليير :
إنه يعجب كثيراً بمزايا جوليان ، وبالخدمات الجليلة التي أداها أثناء
وجوده بالمدرسة الأكليريكية ، وأنه سيوصي به القضاة خيراً . فترأى
لفوكييه أمل تخليص صديقه . ثم ركع أمام الكاهن في خشوع عظيم
ورجاه أن يوزع مبلغ عشرة لويسات في صلاة تقام تضرعاً إلى الله أن
ينجى صديقه .

لقد خدع فوكييه خديعة كبرى ؛ لأن السيد دى فريليير لم يكن على
شاكله قائلو ، فرفض المال ، وحاول أن يفهم هذا الرقيق الساذج أنه
يحسن به أن يحتفظ بماله . ولكنه رأى أن فوكييه كان واضح القصد
ولكن في حذر شديد ، فنصح له أن يتصدق بهذا المبلغ على الفقراء
من المسجونين الذين يحرمون من كل شيء في الواقع .

ثم أخذ فريليير يتحدث إلى نفسه قائلاً : إن جوليان هذا مخلوق عجيب
فعله لا يمكن أن يفسر بسهولة ، ولم أستطع الوصول بعد إلى شيء مقنع ...
وربما كان من السهل أن أجعل منه شهيداً ... وعلى كل حال سأعرف
سر هذا الأمر ، وربما وجدت فرصة لأبعث الرعب في نفس مدام دى رينال
التي لا تجلنا ، بل هي تسكرهني في الواقع ... وربما وفقت إلى طريقة

مجدية لأصالح المرکيز دي لامول ، الذي أعلم أنه يميل إلى هذا الشاب ميلاً كبيراً .

كان الصلح في القضية قد وقع قبل ذلك ببضعة أسابيع ، وسافر الكاهن پيرار من بيزانسون ، بعد أن تحدث عن مولد جوليان ، في اليوم الذي اعتدى فيه هذا الشقي على مدام دي رينال في كنيسة فريير .

وأصبح جوليان لا يخشى ، بعد خشيقته من الموت ، إلا حادثاً واحداً لا يسره : هو أن يزوره أبوه . فاستشار فوكيه في فكرة أن يكتب إلى النائب العام ، طالباً منه أن يعفيه من الزيارات بأجمعها . غير أن اشمترازه من رؤية أبيه في مثل هذه المناسبة ، قد أدخل إلى قلب هذا التاجر البرجوازي الطيب ، غضاضة شديدة . فاعتقد أنه قد أدرك السرف في أن كثيراً من الناس يكرهون صديقه كراهية شديدة . ولكنه احترم بؤس جوليان ولم يشأ أن يظهر له ما يحسه ، ثم قال له في فتور :

— مثل هذا الأمر لن ينطبق على أهلك على كل حال .

الفصل الثامن والثلاثون

رجل قوى

[واكن في حرركاتها كثير من الغموض، وفي فامتها
كثير من الأناقة ! فمن تكون ؟]

شير



فتحت أبواب البرج في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي ، فاستيقظ
جوليان فرعاً ، وقال في نفسه :

— آه ! يا إلهي ! هذا أبي فياله من مشهد أليم !

وتقدمت إليه في نفس اللحظة سيدة تلبس الثياب الريفية، وارتمت بين
ذراعيه ، فوجد صعوبة في التعرف عليها ، مع أنها لم تكن سوى الأنسة
دى لا مول ، قالت له :

— لم أعرف مكانك أيها اللعين إلا من خطابك . إن ما تسميه
(جريمتهك) ليس في نظري إلا إنتقاماً شريفاً، يدلني على سمو قلبك الذي
ينبض في هذا الصدر ، إنني لم أعلم بالأمر إلا في قرير .

وعلى الرغم من الشبهات التي كانت تعتوره بالنسبة إلى الأنسة
دى لا مول، وإن كان لا يعترف بها صراحة ، فقد وجدها على جانب كبير
من الجمال . ولم ير الإنسان في تلك الطريقة التي تعمد إليها في العمل
وفي الحديث ، عاطفة نبيلة لا ترمي إلى أية . صلحة أسمى من كل ما تنطوي

عليه نفس حميرة تافهة؟ كان يعتقد أنه لا يزال يحب ملكة ، وبعد لحظات قليلة ، قال لها في منطق رفيع و بيان يدل على سمو النفس :

— لقد وضحت لي المستقبل وضوحاً جلياً . إنني بعد موتى أزوجك للسيد دى كروازنوا الذى سيتزوج أرملة . ولكن النفس السامية التى تميل إلى الخيال والشاعرية قليلا ، نفس هذه الأرملة الظريفة ، ستذهل وتؤمن بمبدأ الحذر والفظنة التى يسير عليه عامة الناس ، بعد أن حدثت هذه الحادثة المؤلمة العجيبة وإن كانت تعدها هى عظيمة ، وتتفضل بأن تدرك المزايا الحتمية التى تنطوى عليها نفس هذا المركيز الشاب . ستفقدان إلى السعادة بما تقدمه لك الحياة من احترام و ثراء ، ومكانة رفيعة . . .

ولكن يا عزيزتى ما تبلى ، لو عرف مجيئك إلى بيضا نسون لكان ضربة قاضية على السيد دى لا مول ، وهذا ما لا أغفره بتاتا لنفسى . لقد سببت له كثيراً من البلاء ! وسيقول عضو الجمع عنه : إنه احتضن حية فأدفاها . فكادت الأنسة تغضب وقالت :

— أعترف بأننى لم أتوقع سماع هذا المنطق الفاتر ، ولا هذه العناية الشديدة بالمستقبل . إن وصيفتى حذرة مثلك ، فقد حصلت على جواز سفر لها ، وسافرت باسم مدام ميشليه .

— وهل استطاعت مدام ميشليه أن تصل إلى بمثل هذه السهولة ؟

— آه ! أنت دائماً ذلك الرجل الممتاز الذى فضلته على كل الناس ! لقد

قدمت مائة فرنك أولا لسكرتير القاضى الذى كان يزعم أن دخولى إلى هذا البرج أمر مستحيل . ولكنه حين تسلم المال ، طلب منى أن أنتظر

ثم أثار اعتراضات ، فظننت أنه يفكر في سرقة مالى . . . ثم توقفت
عن الكلام ، فقال لها :

— ثم ماذا ؟ فقبلته وقالت له :

— لا تغضب يا عزيزى جوليان ، لقد اضطرت إلى أن أخبره باسمى
الحقيقى ، وقد كان يظننى كما صرح لى ، أننى عاملة باريسية صغيرة دلهنى حب
جوليان الجميل . فأقسمت له أننى امرأتك . وأننى سأحصل على تصريح
لأراك كل يوم .

فأخذ جوليان يقول فى نفسه : لقد ارتكبت حماقة كبيرة ، ولم أستطع
أن أحول بينها وبين ارتكابها . ومع كل فالسيد دى لامول رجل
ذو مركز خطير ، وسرعان ما يجد رأى العام عذراً للأميرالاي الشاب
والذى سيتزوج هذه الأرملة الظريفة . إن موتى القريب سيقضى على كل
شئ ؛ ثم أخذ يتمتع فى لذة كبيرة بحب ما تيلد وكان ما يفعله جنونا ،
كان سمواً فى النفس ، كان كل ما يوصف به أنه حقاً غريب . واقترحت
عليه ما تيلد فى حزم وجد ، أن يموتاً معاً .

وبعد هذه اللحظات الثائرة من الحب العنيف ، التى سعدت فيها
برؤية جوليان ، ملك نفس ما تيلد حب الاستطلاع . فأخذت تنظر
إلى حبيبها الذى وجدته فوق كل ما صورته لها نفسها من سمو ورفعة ،
وخيل إليها أن روح بونيفاس دى لامول قد تقمصت جسد جوليان .
ولكن جوليان أشجع منه .

رأت ما تيلد خير محامى الأقليم ، لكنها جرحت كبرياءهم حين

قدمت إليهم الذهب في غير موازبة ، ثم عادوا فوافقوا على الدفاع عنه .
وسرعان ما هداها تفكيرها إلى أن كل أمر ملتو مشكوك فيه، أو كل
مسألة هامة، أو كل شيء يحدث في بيزانسون ، إنما يرجع فيها إلى الكاهن
دى فريلير؛ فتقدمت للقاء هذا الرجل الخطير باسم مدام ميشليه ، فوجدت
ضعوبات كثيرة لا يمكن التغلب عليها ، تحول بينها وبين لقائه . غير
أن أمر جمال البائعة الباريسية ، المتيمة بحب جوليان ، والتي قدمت
من باريس إلى بيزانسون لتسرى عن نفس القس الشاب جوليان سورل ،
قد ذاع في أرجاء المدينة .

كانت ما تيلد تقطع شوارع المدينة سيراً على القدمين ، وكانت تبغى
من وراء ذلك ألا يعرفها أحد . كانت على كل حال تؤمن بأن قضيتها
في حاجة إلى عطف الشعب ، فحاولت أن تحدث في نفسه أثراً كبيراً .
وقد زين لها جنونها أن تحضه على الثورة ؛ ليخلص جوليان وهو
في طريقه إلى الموت . كانت الأنسة دى لا مول تعتقد أن ثيابها بسيطة ،
ثياب امرأة بائسة معدبة ، فكانت تتبعها الأبصار أينما تسير .

كانت في بيزانسون موضع انتباه الجميع ، وبعد ثمانية أيام بذلتها
في محاولة الحصول على موعد تلتقي فيه الكاهن دى فريلير ، استطاعت
أن تفوز بالموعد .

اضطربت ما تيلد — على الرغم من شجاعتها — وهي تدق جرس
باب الأسقفية ، لأن ما عرفته عن فريلير ، و عما فطر عليه من فسق كبير
وحذر شديد ، تسلط على نفسها ، فخافت كثيراً حتى كادت لا تقوى

على السير ، حين اضطرت إلى أن تصعد درجات السلم المؤدى إلى جناح النائب الأول . وبعث هدوء دار الأسقفية في نفسها ذعراً ، فأخذت تقول : من الممكن أن أجلس على مقعد من هذه المقاعد ، فتربط ذراعى وأختفى من الوجود . فأين تطلبني وصيفتي ، ومن ذا الذى يصبح مسئولاً عني ؟ إن رئيس الشرطة سيأخذ حذره من أن يعمل شيئاً وأنا وحيدة لا عضد لى في هذه المدينة الكبيرة !

ولم تكد الأنسة تلتقى نظرة على الشقة، حتى عادت إلى نفسها السكينة رأت أول ما رأت خادماً في ملابس أنيقة فتح لها الباب . أما الصالون الذى طلب منها أن تنتظر فيه ، فقد فرش بأثاث فخم ، يدل على سلامة الذوق ويبعث البهجة ، ليس فيه هذا اللون من الزينة التافهة ، فكان كخير منازل باريس . ولم تكد ترى الكاهن دى فريليير يقبل عليها في هيئة تدل على الخنان ، حتى تبددت المخاوف التى تسلطت عليها من ارتكاب جريمة شنعاء . ولم تجد في هذا الوجه الجميل حتى ذلك الطابع القاسى لتلك الفضائل القوية الخشنة ، الذى يكرهه المجتمع الباريسى كراهية شديدة ، وتلك الابتسامة الخفيفة ، التى كانت ترسم على وجه هذا القسيس الذى يتحكم في بيزانسون كلها ، تدل على أن الرجل ظريف المعشر ، وعلى أنه كاهن مثقف وإدارى حازم . فظنت ماتيلدا أنها في باريس .

ولم يكن دى فريليير في حاجة إلا إلى لحظات قصيرة ، حتى يحمل ما تيلدا على الاعتراف له بأنها ابنة خصمه القوى المركز دى لا مول . فقالت له وقد استردت كل ما تنطوى عليه لهجتها من كبر :

— أنا لست — في الواقع مدام ميشليه ، وهذا الاعتراف لا يكلفني شيئاً ، لأنى جئتك أستشيرك يا سيدى فى أمر احتمال فرار السيد دى لا فرناى من السجن . فهو ليس مذنباً إلا فى ارتكاب حماقة ؛ لأن المرأة التى أطلق عليها الرصاص تتمتع بصحة جيدة . ولكى نضمن سكوت المرءوسين ، فأنا مستعدة لأن أغريهم بالمال فأستطيع أن أدفع فى الحال خمسين ألف فرنك ، على أن أضعف هذا المبلغ . إننى وأسرتى كلها سنكون مدينين بالفضل لمن ينقذ السيد دى لا فرناى ، ولن نرضى عليه بشيء إطلاقاً .

دهش دى فريلىر من سماع هذا الاسم ، فأطلعت ما تيلد على خطابات كثيرة من وزير الدفاع إلى السيد جوليان سورل دى لا فرناى .
— أنت ترى يا سيدى أن والدى مهم بأمره . لقد تزوجته سرّاً ووالدى يريد أن يكون ضابطاً عظيماً قبل أن يصبح الزواج رسمياً ، ويذيعه بين الناس ؛ لأنه زواج غريب لفتاة من أسرة دى لا مول .
ولاحظت ما تيلد أن وجهه الذى كان ينم عن طيبة وسرور هادئ ظريف ، قد تغير حين وصل إلى هذه الاكتشافات الخطيرة ، وطبع وجهه بدهاء يمازجه خداع عميق .

وتسرب الشك إلى نفس الكاهن ، فأخذ يعيد قراءة الوثائق الرسمية فى ببطء . ثم أخذ يسائل نفسه : أية فائدة أستطيع الحصول عليها من هذه الاعترافات العجيبة ؟ لقد ساقنا إلى الظروف بغته الصديقة الحنيفة لتلك السيدة الشهيرة المارشالة «دى فرفاك» حفيدة الرجل القوي مونسيور رئيس

أساقفة . . . الذى يملك تعيين رؤساء الأساقفة فى فرنسا . إن ما كنت أظنه بعيداً الآن عنى ، وتركت أمر تحقيقه للمستقبل ، قد تهيأت فرصته . وقد يصل بى إلى ما كنت أبتغيه فى الحياة .

انزعجت ماتيلد أول الأمر من هذا التغيير الفجائى الذى بدا على وجه هذا الرجل القوى ، وهى جالسة وحيدة معه فى مسكن منعزل . وأخذت تقول فى نفسها : ماذا دهاه ! أليست أسوأ الفروض هى ألا يحدث تأثيراً فى نفس هذا الرجل الجشع الفاتر ، ذلك القسيس الذى يتمتع بالسلطان والذات ؟

بهر دى فريلير من هذا الصوت للباغت السريع ، الذى انبعث أمامه مبشراً برآسة أسقفية ؛ وأذهلتته براعة ماتيلد ، ففسى أن يأخذ حذره ، وقد رأته الآنسة دى لا مول يكاد يركم أمامها ، والطموح الشديد يغلبه ويهزه هزاً عصبياً شديداً .

فأخذت تحدث نفسها : لقد وضح كل شىء ، فليس هناك صعوبة فى وجه صديقة مدام دى فرفاك . وعلى الرغم من شعور الغيرة المريرة التى كانت لا تزال تستولى على نفسها ، فقد وجدت فى قلبها الشجاعة على أن تخبر دى فريلير بأن جوليان كان صديقاً حميماً للمرشالة ، وكان يلقي كل يوم فى منزلها مونسنيور رئيس أساقفة

فأخذ نائب الرئيس ينظر إليها ، والطمع الشديد يشع من عينيه ويضغط على كل كلمة يقولها ، ثم قال لها :

— عند ما يريدون أن يسحبوا بالقرعة خمس مرات أو ست قائمة

بأسماء ستة وثلاثين من الأعيان من سكان المقاطعة ، فإنّ لى فى كل قائمة ثمانية أصدقاء أو عشرة من خير الجماعة ومن أكثرهم ذكاء ، وإلا عددت نفسى سىء الحظ .

ستكون لى الأغلبية دائماً ، تلك الأغلبية التى تصدر الحكم ؛ إنك ترين يا آنستى أننى أستطيع فى سهولة ويسر أن أبرىء ساحته
ثم توقف بغتة ، كأنه ذهل من صوت كلماته ؛ لقد كان يعترف بأشياء لا تقال أبداً لأهل الحياة الدنيا .

ولكنه بدوره أذهل ما تيلد ذهولا شديداً حين قال : إن ما عجب منه المجتمع فى بيزانسون ، وزاده شغفاً بتلك المخاطرة العجيبة التى أقدم عليها جوليان ، هو أن مدام دى رينال كانت تحبه حباً شديداً ، وكانت خلية له زمناً طويلاً . ولاحظ دى فرييلير أن ما تيلد قد اضطرت كثيراً من هذه القصة .

وأخذ يقول فى نفسه : لقد تأرت لنفسي ! لقد وفقت إلى طريقة أسيطر بها على هذه الفتاة العنيدة إلى أبعد حد ؛ وإنى أخشى ألا أوفق فى ذلك . لقد أثر فى نفسه منظرها الممتاز ، الذى يوحى بأنه صنع المراس ، فزاد جمالها الرائع فى ناظره ، ذلك الجمال الذى كان يضرع له بأن ينقذ جوليان .

فعاد إليه هدوءه ، ولم يتردد فى أن يسدد الخنجر مرة أخرى إلى قلبها .
ثم قال لها فى لهجة تدل على المرح :

— لا أعجب إطلاقاً إذا علمت أن النبيرة هى التى دفعت السيد سورل

إلى أن يطلق عليها رصاصتين من مسدسه ، لأنه كان يحبها حباً كثيراً قبل ذلك . ربما كانت محرومة من اللذائذ ، لأنها منذ زمن قليل كانت ترى كثيراً كاهنا من ديحون يدعى مار كينو ، وهو شخص لا خلق له من أتباع ينسينيوس ، مثله مثل أنصار هذا المذهب جميعاً :

ثم أخذ الكاهن دي فريلير يسحق قلب الفتاة الجميلة، في لذة شديدة وعلى مهل، حين تبين ناحية الضعف فيها .

ثم أخذ ينظر إلى ما تيلد نظرات ملتهبة ويقول : لماذا اختار السيد سورل الكنيسة في هذا الوقت ، أكان يرمى إلى أن غريمه في هذه اللحظة بالذات يقيم بها الصلاة؟ واستطرد يقول: والناس جميعاً يصفون الرجل السعيد الذي يتمتع بحمايتك بأنه شديد الذكاء والفطنة ، كبير الحذر . فلم لم يختف في حدائق السيد دي رينال التي يعرفها تمام المعرفة ؟ كان هذا من أيسر الأمور عليه ، وكان يستطيع أن يقتل المرأة التي تبعث الغيرة في نفسه ، وهو واثق تمام الثقة من أنه لن يرى ولن يقبض عليه ، ولن يشك في أمره . وبعث هذا الرأي الذي يبدو صحيحاً كل غيظ في نفس ما تيلد .

إن هذه النفس المتعجرفة، التي تشبعت بهذا اللون من الحذر الشديد الذي يمدّه الناس صورة صادقة للقلب ، لم تفطر على أن تدرك سهولة ما يلقاه الإنسان من سعادة، حين يسخر من كل حذر تعدّه النفس القوية عاملاً ، فعلا في الحياة . والطبقات الراقية في المجتمع الباريسي الذي تحيا فيه ما تيلد، جيلت على أن تدرك أن الحب لا يخلو من الفطنة إلا في القليل النادر ،

وأن الإنسان حين يريد أن يلقي بنفسه من النافذة ، فلا يكون ذلك إلا من الطابق الخامس .

وأخيراً رأى الكاهن دى فريدير أنه قد سيطر عليها سيطرة تامة . وأوحى إلى ما تيلد أنه سيستعين — من أجلها — بالسلطة العامة التي كلفت آهام چوليان حتى تكون في صالحه . (ولا ريب في أنه كان يكذب) .

وحيثما يختار المحلفون الستة والثلاثون بالقرعة ، فسيتوسط لدى ثلاثين منهم على الأقل ، باذلاً نفوذه الشخصي المباشر في سبيل ذلك . لو لم تكن ما تيلد جميلة رائعة الحسن في نظر الكاهن ، ما تحدث إليها بهذا الوضوح ، وبهذه الصراحة إلا في المقابلة الخامسة أو المقابلة السادسة .

الفصل التاسع والثلاثون

الدسيسة

[كاستر عام ١٦٧٦ — قتل أخ أخته في المنزل
المجاور لمنزلي ؛ واتهم هذا السيد بجريمة القتل . فوزع
الاب سرا خمسمائة إيكو على المستشارين فأخذ حياة ابنه .]
لوك : رحلة في فرنسا

لما غادرت ماتيلد دار الأسقفية ، لم تتردد في أن ترسل خطاباً إلى
مدام دي فرفاك ، ولم يثنها عن ذلك لحظة واحدة تعريض شرفها للهوان .
ورجت غزيمتها أن تحصل على خطاب للكاهن دي فريبير يكتبه
مونسنيور رئيس أساقفة ... كله بخط يده . وتمادت ماتيلد فتضرعت ، إليها
أن تأتي بنفسها إلى بيزانسون . وكان هذا عملاً يدل على البطولة ؛ لأنه صادر
عن نفس متكبرة غيور .

نصح لها فوكييه أن تتذرع بالحكمة ، فلا تقص على جوليان ما تقوم
به . وكان مجرد حضورها يسبب له اضطراباً ، لأنه كلما اقترب من الموت
كان أقرب إلى الأمانة أكثر مما كان عليه في حياته الماضية ، وقد أخذ
يشعر بالندم لا من أجل التركيز دي لامول فحسب ، بل من أجل
ماتيلد كذلك .

تحدث إلى نفسه قائلاً : ماذا دهاني ! إنني أجد لحظات أنساها فيها

وهي معي ، وأشعر بالملل يساورني . إنها تضيع نفسها في سبيلي ، أفيكون ذلك جزاءها مني ! فهل أنا إذن شرير ؟ كان لا يحفل بهذا السؤال كثيراً حينما كان طموحا ، لأن عدم توفيقه فيما يسعى وراءه ، كان هو الشيء الوحيد الذي ينجحله .

كان الاضطراب الأدبي الذي يلقاه بالقرب من ماتيلد على أشده ، مع أنها كانت تحبه في ذلك الوقت حباً جنونياً عنيفاً . ويدور حديثها دائماً حول التضحيات القريبة ، التي تريد أن تقوم بها لتكتب له النجاة . كانت العاطفة التي تستولى عليها ترضى نفسها ، فهي فخور بها ، لا تبالي من أجلها بكبريائها ، ولا تترك لحظة من لحظات حياتها تمر دون أن تقوم بعمل خارق للعادة . وكانت مناقشاتها وأحاديثها مع جوليان لا تتناول إلا أكثر المشروعات غرابة وخطورة . أجزلت العطاء للسجانين فتركوها تتحكم في السجن كما تشاء . وكانت آراء ماتيلد لا تنطوي على التضحية بمكاتها لحسب ، بل هي لاتبالي أن يعرف المجتمع كله صلتها بجوليان . وكان خيالها الخصب الذي فطر على الشجاعة ، يرسم لها صوراً وهمية ، أقلها هي أن ترفع أمام عربة الملك وهي تنهب الأرض منها ؛ لتطلب منه الصفح عن جوليان ، إنها بذلك تلفت نظر الأمير إليها وهي لاتبالي أن تميزها العربة شرمزق . أما أصدقاؤها الذين يعملون على مقربة من الملك ، فسيساعدونها ، أن تلقاه في الأرجاء الخاصة بيستان « سان كلو » . أما جوليان فكان يعتقد أنه ليس أهلاً لهذا الإخلاص الشديد ، لأنه قد ملّ البطولة في الواقع ؛ لقد كان في حاجة إلى شفقة بسيطة

ساذجة ، تنطوى على الحياء، على حين أن نفس ماتيلد المتكبرة، كانت تهتم بما يقوله الناس وتتناقله الجماعات .

وبينما كانت تظهر كل هذه المخاوف، وتخشى على حياة حبيبها خشية عظيمة ، وتريد ألا تعيش بعده - نازعتها فكرة أخفتها في نفسها، واحتفظت بها على أنها سر لا يذاع ، وهى أنها كانت تريد أن تبهر الجماهير بقوة حبها وجرأة مشروعاتها .

غضب جوليان من نفسه حين ألقاها تتأثر بهذه البطولة . وماذا كان يعمل إذن، لو أنه عرف كل الأعمال الجنونية التى تقدم عليها ماتيلد وتفضى بها إلى فوكيه ، صديقه الخاص الطيب ، ذى العقل الكبير والنفس الضيقة المحدودة ؟

وفوكيه كان لا بدرى كيف يلوم ماتيلد على إخلاصها ، لأنه كان بدوره على أتم استعداد للتضحية بنزوته، وتعرض حياته لأشد الأخطار: كى ينقذ جوليان . وأذهلته كثرة الذهب الذى نثرته ماتيلد . وقد كان يحمل المال إجلالاً شديداً ، فأدهشته المبالغ الطائلة التى أنفقت فى الأيام الأولى ، ومثله فى احترام المال كمثل أى رجل من رجال الريف .

وأخيراً وجد أن مشروعات الأنسة دى لامول كثيراً ما تتغير ، ولشد ما سرى عن نفسه ، حين عثر على كلمة يصف بها هذا الخلق الذى يتعبه أشد التعب، فوصفها بأنها متغيرة . وليس بين هذه الصفة وصفة العناد التى تعد أكبر لعنة فى الريف إلا خطوة واحدة .

كانت ماتيلد خارجة من السجن ذات يوم ، فقال جوليان : من

الغريب أن هذا الحب العنيف الذي تبديه لا يؤثر في نفسى إطلاقاً ! وقد كنت أعبدها منذ شهرين ! قرأت أن اقتراب الموت يزهّد الإنسان في كل شيء ؛ لكنه من الصعب على النفس أن يشعر المرء أنه منكر للجميل ، ثم لا يستطيع لذلك تغييراً ولا تبديلاً . فهل أنا إذن أناني ؟ وجعل يلوم نفسه على ذلك أشد اللوم . لقد مات الطموح في قلبه ، وانبعث من الرماد شعور جديد هو الندم على أن اعتدى على مدام دي رينال . إنه كان في الواقع يحبها حباً شديداً ، وكان يجد سعادة كبيرة حين يخلو إلى نفسه ، ولا يخشى أن يقطع عليه عزلة أحد ، ثم يسبح في ذكريات تلك الأيام السعيدة ، التي قضاها في فريير أو في فرجي . وكانت أتفه أحداث ذلك الزمن الذي مر به في سرعة عظيمة ، تتراءى له بمظهر الجلدة ، مغمورة بظرف لا يقاوم . ولم يفكر بتاتاً فيما أصابه من نجاح في باريس ؛ لأن ذلك يبعث في نفسه الملل .

وهذه المشاعر التي تقوى في اطراد ، أدركت غيره ماتيلد طرفاً منها ، ففطنت في سرعة ووضوح إلى أن عليها أن تحارب في جوليان حب العزلة . وكانت تنطق أحياناً باسم مدام دي رينال في خوف ورعب . فرأت جوليان وقد اهتز جسمه هزة شديدة ، فأصبح حبها له واسعاً لا يعرف حداً ولا قدراً ، بل لقد عصفت بنفسها .

وأخذت تناجي نفسها في صدق شديد : لو أنه مات لقضيت على نفسى . ماذا تقول صالونات باريس حين ترى فتاة في مكانتي تعبد حبيباً مصيره القتل ، هذه العبادة . على أن الشعور بمثل هذه العاطفة يرجعنا إلى عصر

الأبطال ؛ فقد كانت قلوب أهل عصر شارل التاسع وهنرى الثالث تنبض
بمثل هذا الحب .

وبينما كانت تحت سلطان هذه العواطف الجامحة ، وهى تضم رأس
جولييان إلى صدرها ، حدثت نفسها فى اشمزاز شديد قائلة : ماذا اهل
سيقطع هذا الرأس الجميل ؟ ثم تملكها حماسة قوية ، وشجاعة لا مثيل لها
فأخذت تقول : إن فعلوا هذا لجفت بعد موته شفتاى اللتان تقبلان شعره
الجميل ، فى أقل من أربع وعشرين ساعة .

إن ذكريات هذه اللحظات الحافلة بالبطولة واللذة الشديدة ، كانت
تربطها به برباط خفى . وسيطرت على نفسها فكرة الانتحار ، وتغلقت
فيها ، وتسلطت عليها تسلطاً شديداً . فكانت تحدث نفسها فى كبر قائلة :
لا ، إن دم أجدادى لم يصل بارداً إلى قلبى . وذات يوم قال لها حبيبها :
— إن لى عندك رجاء ، وهو أن تضعى ابنك عند مرضعة فى فرير ،
وستكون المرضعة تحت إشراف مدام دى رينال .

فامتقع لونها وقالت :

— إن ما تقوله لشديد القسوة على ... فتخلص جولييان من أحلامه

واحتضنها وقال :

— هذا صحيح ، وأسألك الصفح ألف مرة على ما بدر منى .

وبعد أن جفف دموعها ، عاد إلى فكرته ، ولكن فى مهارة كثيرة ،
فصنع حديثه بصيغة فلسفية حزينة ، وتطرق إلى هذا المستقبل الذى
سيغلق فى وجهه بعد قليل ، فقال لها :

— يجب أن تؤمنى يا صديقتى العزيزة بأن العواطف القوية لا تمثل
إلا حادثاً عرضياً في الحياة ، ولا يصيب هذا الحادث إلا النفوس السامية ..
إن موت ابنى سيمعد في الحقيقة سعادة كبرى ترضى كبرياء أسرتك ،
وهذا ما ينتبأ به صغار الشأن من الناس . والإهمال سيكون نصيب هذا
الطفل الذى خلق من الشقاء والعار ... فأرجو أن تستمعى إلى وصاياى
الأخيرة، في وقت لا أحب أن أحده ، ولكن شجاعتي تدلنى عليه ، هذه
الوصايا هي : أن تزوجى بالمركيز دى كروازنوا .

— ماذا ! وأنا مثلوبة الشرف !

— إن العار لا يلحق ابناً كاسمك . ستكونين أرملة ، وأرملة
مجنون ، هذه هي المسألة . بل إنى لأذهب إلى أبعد من ذلك . فالمال لم
يكن هو باعنى على الجريمة ، إذن فجرىمتى غير مخللة بالشرف . ربما تتاح
لنا في الوقت الذى تتزوجين فيه ، مقننون فلاسفة لا يتمسكون بأوهام
معاصريهم فيلغون الحكم بالأعدام . وعلى هذا فنسبم صوتنا بيدى لنا
الصداقة يقول مثلاً : زوج الأنسة دى لامول الأول كان مجنوناً ، ولكنه
لم يكن خبيثاً ولا فاجراً ، فكان من العبث أن يقطع رأسه ... وإذن
فلن تكون ذكراى ذكراى سيئة ، أو على الأقل ستنسى ذكراى السيئة
بعد أن تمضى فترة من الزمن ... إن مكاتك في العالم ووثوتك ، واسمى
لى أن أقول : وعبريتك أيضاً ستتيح للمركيز دى كروازنورا إذا ما أصبح
زوجك — أن يصل إلى مكانة لا يستطيع الوصول إليها وحده . لأن
كرم محتده وشجاعته هي كل ما يمتاز بهما من صفات .. وقد كانتا صفات

الرجولة الكاملة سنة ١٧٢٩ ، ولكنهما أصبحتا الآن هفوة تاريخية في عصرنا الحاضر ، ولا تخلقان إلا الفرور . أما الآن فلا بد للمرء من صفات أخرى تتيح له أن يكون على رأس الشبيبة الفرنسية .

ستؤيدون زوجك في الحزب السياسي الذي ستختارينه له بما فطرت عليه من حسن خلق قوى أخاذ . وستكونين بمثابة أمثال شقيرز ولونجفيل في الفروند ... ولكن النار المقدسة التي تشتعل بين ضلوعك الآن يا صديقتي المحبوبة ستخبو قليلا .

واستطرد يقول لها بعد أن تحدث إليها حديثا بعدها لما يقول : إنك بعد خمسة عشر عاما ستنظرين إلى حبك لي ، على أنه كان حماقة لها ما يسوغها ، ولكنها حماقة على كل حال ...

ثم توقف عن الكلام فجأة ، وجعل يحلم ، فقد وجد نفسه مرة أخرى يذكر هذه ، الفكرة التي أغضبت ماتيلد غضبا شديدا وهي : إن مدام دي رينال ستعبد ابنه بعد خمسة عشر عاما ، أما أنت يا ماتيلد فستنسينه ..

الفصل الأربعون الهدوء

[لاني الآن عاقل وقد كنت من قبل مجنوناً . فيا أيها
الفيلسوف الذي لا يرى الشيء إلا حين وقوعه ، كم
أنت قصير النظر ! إن عينك لم تخلق لتتبع الأعمال
الحقيقية التي تقوم بها العوطف .]

مدام جوته



قطع هذا الحديث عليهما تحقيقاً ثم حديث طويل ، جرى بين
جوليان وبين الحمّامى الموكل بالدفاع عنه . وكانت هذه اللحظات هي اللحظات
الثقيلة على نفس جوليان ، الذي كان يحيا حياة فزاغ وأحلام جميلة .
قال جوليان للقاضي والحمّامى : هناك قتل ، وقتل مع سبق الإصرار ، ثم ابتسم
وقال : يؤسفني أيها السادة ، أن هذا يؤدي إلى التقليل من شأن مهمتكم .
ولما خلا بنفسه ، بعد أن تخلص من هذين الرجلين أخذ يقول : ينبغي
أن أكون شجاعاً ، أكثر شجاعة في الظاهر من هذين الرجلين ؛ إنهما
يريان أن حالتي تدعو إلى الحزن الشديد ، والإشفاق والرعب ، فهما يعلمان
مصري المؤلم ، لكنني إن أفكر في هذا اليوم التنفيذ . ثم أخذ يتفلسف
قائلاً : وذلك لأنني قد عرفت شقاء أشد وطأة من شقائي الحاضر . لاقيت
العذاب الشديد في رحلتي الأولى إلى استراسبورج ، حينما كنت أومن بأن
ماتيلدا قد هجرتني ... لكم تمنيت في رغبة أكيدة هذه الصداقة الخالصة
التي تظهرها اليوم لي فلا أهتم بها ! ... وأنا أشعر بالسعادة في الواقع حين

أكون وحدي أكثر مما أشعر بها حينما تكون هذه الفتاة معي ...
كان محاميه رجلا يحترم القواعد والإجراءات ، فاعتقد أنه مجنون؛
وشارك الجماهير الرأى في أن الغيرة هي التي دفعته إلى ارتكاب ما ارتكب.
وذات يوم قال له اعتباطاً :

— إن هذه الحجة سواء أ كانت صحيحة أم باطلة - مجدية في الدفاع.
فسرعان ما يصبح بها المتهم في طرفة عين مخلوقا متحمساً حاد الطبع .
ولم يستطع جوليان أن يسيطر على نفسه فصاح قائلاً :

— أستحلفك بحياتك يا سيدى ألا تنطق بهذه الأكذوبة مرة
أخرى . فذعر المحامى الحذر برهة حتى خشى أن يقتله جوليان .

وأعدّ دفاعه لأن اللحظة الفاصلة قد حان وقتها . وكانت بيزانسون
والمقاطعة كلها لا تتحدث إلا عن هذه القضية المثيرة . لكن جوليان كان
يجهل هذا الأمر الهام ، وقد رجا من كان يأتي إليه ألا يذكر له شيئاً
مطلقاً عن مثل هذه الأحداث .

في ذلك اليوم كان فوكييه وماتيلد يريدان أن يقصا عليه بعض إشاعات
ذاعت بين الجماهير ، وتحمل على الاعتقاد بأن هناك أملا في نجاته ، فقطع
جوليان عليهما سبيل الكلام عندما نطقا بأول كلمة ، وقال لهما :

— لا تفكرا على صفو حياتي المثالية : فالترهات التي تقصانها علىّ ،
وتفاصيل الحياة المادية التي تؤذيني ، تهبط بي من سماءى التي أعيش فيها .
إن الإنسان لميوت كما قدر له ، واسكنى أحب أن أفكر في الموت كما
أريد أنا، فإذا يضربنى بما يقول الآخرون ؟ إن علاقتى بالناس سيقضى

عليها بقية . فترفقوا بي ، ولا تتحدثوا إليّ عن الناس ، ويكني أنتي أرى
القاضي والحامي .

وأخذ يقول في نفسه : يخيل إليّ أنه قد كتب عليّ أن أموت وأنا
غارق في أحلامي ، لا ينبغي للجهول مثلي يعلم أنه سينسى بعد خمسة عشر يوماً
من مقتله ، أن يمدح نفسه فيمثل مهزلة ، يجب أن أعترف بذلك ...
ومن الغريب حقاً أنني لم أعرف فنّ الاستمتاع بالحياة ، إلا منذ أدركت
أنتي ساموت بعد قليل .

أخذ يقضى أيامه الأخيرة يتنزه على الرصيف الضيق للبرج المرتفع
وهو يدخن صنفاً فاخراً من السيجار ، أرسلت ماتيلد في طلبه من هولنده
مع رسول خاص ؛ وكان لا يعرف أن ظهوره فوق البرج يتربّب كل يوم .
وأن النظارات المكبرة ترصد عليه حركاته . كانت أفكاره متجهة دائماً
إلى فرجى . وكان لا يتحدث بتاتاً مع صديقه فوكيه عن مدام دي رينال ،
لكنه سمعه يقول مرتين أو ثلاث مرات : إن صحتها تقدمت تقدماً سريعاً ،
فكان لهذه العبارات أجمل وقع على قلب جوليان .

كانت نفسه تلتق دائماً في جوّ من الأحلام والآراء ، على حين
كانت ماتيلد لا تعنى إلا بالمسائل الحقيقية المادية ، وهذا ما ينبغي لقلب
أرستقراطي ، فعرفت كيف توطد العلاقة بين مدام دي فرناك والكاهن
دي فريليير ، فكانا يتراسلان بطريقة مباشرة ، وقد وردت كلمة أسقفية
في تلك الرسائل .

كان الخبر الجليل قد عهد إليه بقائمة الرواتب الدينية ، فكتب بخطه

في ذيل خطاب كتبته حفيدته العبارة الآتية : هذا المسكين سورل ليس إلا أحق ، وأرجو أن يعاد إلينا .

ولما رأى الكاهن دى فريلير هذه العبارة ، لم يعد يسيطر على نفسه ، ولم يكن يشك في أنه سينقذ جوليان . فقال لماتيلد قبل عملية سحب المحلفين الذين يبلغ عددهم ستة وثلاثين رجلا :

— لولا هذا القانون الثورى الذى يقضى بأن يشترك محلفون كثيرون في الجلسة ، وما ذلك إلا ليقضوا على نفوذ ذوى الحتمد الكريم ، وما يراد بهذا القانون غير ذلك ، لولا هذا لكنت أتحمل مسؤولية رأى المحلفين .
لقد برأت من قبل الخورى ...

وفي اليوم التالى سرت ماتيلد وشاركتها الكاهن دى فريلير سرورها حين وجدا أسماء خمسة أشخاص تخرج في صندوق الانتخابات من أعضاء جمعية بيزانسون ، ثم وجد بين الأسماء الأجنبية قائلو وموارو وشولان ، فقال لماتيلد : أنا مسئول أولا عن هؤلاء الثمانية ، فالخمس الأولى بمثابة آلات في يدى ، وقائلو من رجالى ، وموارو مدين لى بكل شيء ، أما شولان فهو رجل أحق يخشى كل شيء .

وأذاعت الجريدة في المقاطعة كلها أسماء جميع المحلفين ، وأرادت مدام دى رينال ، على الرغم من الذعر الشديد الذى أبداه زوجها ، أن تذهب إلى بيزانسون .

وكل ما استطاع السيد دى رينال الحصول عليه من زوجته ، هو ألا تغادر فراشها حتى لا يساء إليها فتستدعى لأداء الشهادة ، وقال لها :

— إنك لاتدركين حقيقة مركزى ، أنا الآن من الأحرار المتخلين^(١)
عن حزبهم كما يقولون ، ولا شك أن هذا الوغد فالنو والسيد دى فريلىر
سيحصلان فى سهولة من النائب العام ومن القضاة على كل ما يؤمنى .
فأذعنت مدام دى رينال فى سهولة لأوامر زوجها . وأخذت تقول
فى نفسها : لو شاهدونى فى المحكمة لظنوا أنى أتيت للأخذ بالنار .

وعلى الرغم من الوعود التى تنطوى على الفطنة والحذر التى أفضت بها
إلى زوجها وإلى القسيس الذى تعترف له ، فإنها ما كادت تصل إلى
ميزانسون حتى كتبت بخطها إلى كل واحد من الحلفين :

« لن أذهب ياسيدى إلى المحكمة يوم نظر القضية ، لا لشيء
إلا لأن حضورى ربما يسيء إلى السيد سورل . وليس لى فى العالم إلا مطلب
واحد، أريده بكل قواى هو أن تكتب له النجاة . أرجو أن تثق كل
الثقة بما أقول ، فإن هذه الفكرة الكريهة التى تتسلط على حين يموت
برىء بسببى ، ستبسم الأيام الباقية لى فى الحياة . وتودى لى سريعا
إلى الموت . كيف تستطيع أن تحكم عليه بالإعدام ، مادمت أنا على قيد
الحياة ؟ لا ، وبما لا شك فيه أن المجتمع ليس له الحق فى أن يقضى على
حياة إنسان ، وبخاصة إنسان مثل جوليان سورل . الناس جميعا فى فريير
يعرفون أن له لحظات تختمل فيها قواه العقلية . وهذا الشاب المسكين له
أعداء على جانب كبير من القوة والجاه ، ولكن من ذا الذى ينفكر

(١) يرى « حول مرسان » أن هذه إشارة جديدة إلى الأحداث السياسية
فى ذلك العصر : إذ تحالف جماعة من حزب اليمين مع المعارضة اليسارية بعد انتخابات
عام ١٨٢٧ ، وأصبح البرلمان الجديد يضم طائفة من النواب عرفوا « بالمتخلين عن اليمين »
العرب

عليه من أعدائه الكثيرين، مواهبه الممتازة وعلمه الغزير؟ إن من ستجا كونه ليس مواطناً عادياً ياسيدي . لقد عرفناه خلال ثمانية عشر شهراً ، فكنا جميعاً نؤمن بتقواه وعقله ومهارته ، لكنه كان يصاب مرتين أو ثلاث مرات في كل عام بحزن شديد يؤدي إلى اضطراب في قواه العقلية . وجميع سكان فريير ، وكل جيراننا في فرجي حيث كنا نقضي فصل الربيع ، وأميرتي كلها والسيد نائب حاكم المقاطعة نفسه . هؤلاء كلهم يشهدون له بالتقوى الشديد؛ إنه يحفظ عن ظن قلب الأنجيل كاهن . فهل يصبر كافر على مشقة حفظ الكتاب المقدس سنوات عديدة ؟ سيتشرف أبنائي بتقديم خطابي هذا إليك ، ومأمم إلا أطفال ، فأرجو أن تفضل ياسيدي فتسألهم عن معلمهم ، وأنا واثقة أنهم سيفضون إليك بكل المعلومات اللازمة؛ لتقتنع بأن من الرحشية أن تحكم عليه بالإعدام . إنك لن تنتقم لي إن فعلت هذا ، ولكنك ستحكم عليّ أنا بالموت .

ثم ماذا يستطيع أعداؤه أن يقولوا في هذه الحقيقة ؟ وهي أن الجرح الذي كان نتيجة لحظة من لحظات الجنون الذي يعرفه أطفالي في معلمهم ، كان جرحاً لا خطورة فيه إطلاقاً ، وقد سمح لي في أقل من شهرين أن أسافر من فريير إلى بيزانسون في عربة من عربات البريد . لو ظننت أنك تتردد قليلاً ياسيدي ؛ في أن تدفع عن هذا البريء ما تنطوي عليه القوانين من وحشية ، لغادرت فراشي ، الذي ألزمه تنفيذاً لأوامر زوجي لا أكثر ولا أقل ، ولأثمت لأجثو عند قدميك ضارعة لك في أن تصفح عنه . أرجو أن تحلم ياسيدي أن سبق الإصرار لم يكن متوفراً ، وإن تندم بعد ذلك على إراقة دم رجل بريء ... »

لفصل الحادى والأربعون

المحاكمة

[إن البلاد ستذكر هذه القضية الشهيرة زمناً طويلاً، فالاهتمام بالمتهم قد بلغ الذرة، وكاد يؤدى إلى الشعب. وما ذلك إلا لأن جريمته كانت عجيبة وليست شذوية. كم كان هذا الشاب جميلاً ! إن مركزه السامى — وإن كان قد قضى عليه — زادنى تعلق الناس به، هل سيحكمون عليه ! هذا هو السؤال الذى كانت توجهه السيدات إلى معارفهن من الرجال، وكانت وجوههن تملوها الصفرة وهن ينتظرن الجواب]

سنان بى



وأخيراً جاء اليوم الذى كانت تخشاه مدام دى زينال وماتيلد خشية عظيمة . كان منظر المدينة عجيباً ، فزاد من خوفهما وقلقهما ، وأثر حتى فى نفس فوكيه ، تلك النفس الحازمة . لقد هرع أهل الريف إلى بيزانسون ليشهدوا هذه المحاكمة القريية .

وكانت الفنادق كلها قد ازدحمت منذ بضعة أيام . وكثر الإلحاف على رئيس المحكمة فى طلب تذاكر حضور المحاكمة ، وكانت سيدات بيزانسون جميعاً حريصات على الحضور ؛ ويبعث صورة جوليان فى الشوارع ...

كانت ماتيلد تحتفظ لهذه الساعة الرهيبية بخطاب كتبه بخطه مونسنور

رئيس الأساقفة .. وقد تفضل هذا الخبر ، الذي يدير كنيسة فرنسا ويعين رؤساء الأساقفة جميعا ، فطلب العفو عن جوليان ، ورفعت ماتيلد هذا الخطاب إلى الرجل القوي نائب الأسقف .

وفي نهاية المقابلة ، بينما كانت ماتيلد تنصرف وهي تضحج بالبكاء ، تأثر الكاهن دى فريلير وخرج عن تحفظه السياسى وقال لها :

— إنى أضمن لك قرار المحلفين ، فالإثنا عشر محلفا الذين وكّل إليهم معرفة ما إذا كانت الجريمة ثابتة ، وخاصة إذا كان هناك سبق لإصرار ، أعرف منهم ستة جميعهم أصدقاؤى ويتمنون لى منزلة سامية ، ولقد أفهمتهم أن منصب رئيس الأسقفية الذى سيسند إلى يتوقف عليهم . والبارون قالو الذى عينته أنا عمدة لقرير، له مطلق السلطان على اثنين من رؤسياه هما السيدان موارو وشولان . وقد ساق القدر لنا فى الواقع اثنين من المحلفين متعيين إلى أبعد حد ، وهما وإن كانا من الأحرار المتطرفين، إلا أنهما يأتمران بأمرى فى المشاكل وفى المسائل العويصة ، وقد أرسلت إليهما ليصوتا كما يصوت السيد قالنو . وعلمت أن محلفا سادسا من أصحاب الصناعة كثير المال ، حر ثرثار ، يحاول سرا أن يحصل على إذن توريد إلى وزارة الدفاع ، ومما لاريب فيه أنه لن يحاول إغضابى . وقد أرسلت إليه كذلك أخبره أن قالنو يعلم بأجهاى فى هذه القضية . فقلقت ماتيلد وسألته :

— ومن يكون السيد قالنو هذا ؟

— لو عرفته ماشككت إطلاقا فى توفيقنا فى هذا الأمر . فهو متكلم

جرى ، سفيه ، فظ غليظ ، خلق ليسكون على رأس الحقى .
كان فى عام ١٨١٤ قتيراً جداً ، وسأعينه حاكماً من حكام المقاطعات .
إنه كنفيل بأن يضرب باقى الحلفين إذا أبوا أن يصوتوا فى صفه .
فاطمأنت ماتيلد قليلا ، وكانت مناقشة أخرى تنتظرها فى المساء .
كان جوليان قد قرر ألا يتحدث فى المحكمة ، حتى لا يطيل أمراً سيئاً
الوقع على نفسه ، وهو واثق من النتيجة مقدما ، فقال لماتيلد :
— سيتكلم المحامى الموكل بالدفاع عنى ، وفى قوله الكفاية . إننى
إن تحدثت فلن يفيدنى حديثى إلا فى أنى أعرض نفسى على أعدائى وقتنا
طويلا . هؤلاء الريفيون يحقدون على ما أصبت من مكانة فى وقت قصير ،
وأنا مدين لك بذلك ، وليس بينهم جميعا من لا يمتنى أن يحكم على
بالإعدام ، وإن بكى بكاء الأحمق يوم أساق إلى الموت .
— هم يبتغون هوانك ، مافى ذلك شك ، ولكنى لأعتقد أنهم
قساة القلوب .

إن حضورى إلى بيزانسون والأسى الذى آلقاه ، قد جذبا انتباه كل
السيدات ؛ ووجهك الجميل كنفيل بالباقى . سيكون النظارة جميعا فى صفك
إن قلت كلمة أمام قضاتك ...

وفى الساعة التاسعة من صباح اليوم التالى ، غادر جوليان السجن إلى
القاعة الكبرى بدار المحكمة . وقد لاقى رجال الشرطة عناء شديدا فى أن
يفسحواله طريقا بين الجمهور المزدهم فى فناء المحكمة ، لقد نام جوليان فى ليلته
السابقة نوما كثيرا ، فكان يبدو عليه الهدوء الشديد ، ولم يشعر إلا بشقفة

تنطوى على الفلاسفة لهذا الجمهور الذى يحسده ، والذى سينصفق فى غير قسوة، بحكم الإعدام الذى سيصدر عليه . ولـكـم ذهل حين وجد أن هذا الجمهور لا يضر له إلا شفقة رحيمة ، وكان قد اضطر أن يقف أكثر من ربع الساعة وسط الناس حتى يفسح لرجال الشرطة مكانا ، فلم يسمع كلمة واحدة تؤذيه ، فأخذ يقول فى نفسه : هؤلاء الريفيون ليسوا أشرا كما كنت أعتقد .

ولما دخل قاعة المحاكمة ، أعجب بأناقة هندستها . كان طرازها قوطيا خالصا ؛ ورأى عددا كبيرا من الأعمدة الصغيرة الجميلة، المنحوتة فى الحجر بعناية شديدة . فخيل إليه أنه فى إنجلترا .

ولكنه سرعان ما حوّل انتباهه إلى اثنتى عشرة امرأة جميلة، كن يجلسن تجاه مقعد المتهم ، وقد امتلأت بهن الشرفات الثلاث التى تطل على القضاة والمحلفين .

وحينما التفت الى الجمهور ، رأى أن الشرفة المستديرة المعدة للمشاهدين والتى تشغل الجزء الأعلى من المدرج قد ملئت بالنساء ؛ وخيل إليه أن أكثرهن صغيرات السن جميلات ؛ وكانت عيونهن براقه، وقد بدأ الاهتمام فيها . أما باقى أرجاء القاعدة فقد ازدحمت ازدحاما شديدا ؛ وكانت المعارك تدور على الأبواب ، ولم يتمكن الحراس من أن يفرضوا على الناس السكون كانت العيون تبحث عنه ، وحين رآه الناس يجلس فى هذا المكان المرتفع قليلا المخصص للمتهمين ، انبعثت هممة تدل على العجب والشفقة الكبيرة .

كان من يراه في ذلك اليوم يعتقد أن سنه لا تزيد على عشرين عاماً، وكان يلبس ملابس بسيطة ولكن في أناقة شديدة، وشعره وجهته ينان عن ظرف وجمال. وقد أرادت ماتيلدا أن تشرف بنفسها على هندامه. كان شديد الشحوب في ذلك اليوم. ولم يكذب مجلس على المقعد المعد له حتى سمع الناس يقولون من كل جانب: يا إلهي! كم هو صغير السن! ... إنه لا يزال طفلاً.. هو أجمل من صورته بكثير. وأخذ الشرطي الذي يجلس عن يمينه يحادثه فقال له:

— أتعرف يا متهمي أولئك السيدات اللاتي يشغلن هذه الشرفة؟ وأشار إلى مكان بارز فوق المدرج الذي يشغله المحلفون، ثم استطرد يقول:

— إن هذه السيدة حرم الحاكم، وبجوارها المركيزة دي م... وهي تحبك حبا شديداً فقد سمعتها تتحدث عنك إلى قاضي التحقيق، ثم مدام درفيل... فصاح جوليان، واحمرت جبهته من شدة الخجل:

— مدام درفيل! ثم أخذ يقول في نفسه: إنها حين تقادر المحكمة ستكتب إلى مدام دي رينال. وكان يجهل محبي زوجة العمدة السابق إلى بيزانسون.

وسمعت شهادة الشهود في وقت قصير. ولم يكذب النائب العام يوجه أولى كلمات الاتهام حتى ضجت سيدتان بالبكاء، وكانتا تجلسان في الشرفة المقابلة لجوليان. فقال جوليان في نفسه: إن مدام درفيل لا تشعر نحوي بمثل هذه الشفقة، غير أنه لحظ أن وجهها كان شديد الاحمرار.

أخذ النائب العام يتكلم كلاما مشيرا عن وحشية الجريمة التي ارتكبت، لكن لفته الفرنسية كانت رديئة ، وقد لحظ جوليان أن جارات مدام درفيل كن يخالفنه مخالفة شديدة كما يبدو على وجوههن . وكان بعض الحلفين يتحدثون إلى هؤلاء السيدات ، وكانوا على ما يبدو من معارفهن وكانهم يبعثون في قلوبهن السكينة . فقال جوليان في نفسه : هذا لا يترك سيلا إلى التفاؤل .

وكان حتى هذه اللحظة يشعر باحتقار شديد لكل الرجال الذين كانوا يشهدون المحاكمة : وقد زادت الفصاحة التافية التي فاه بها النائب العام كراهية لهم واحتقارا . ولكن صلابته نفسه اختفت شيئا فشيئا إزاء ما كانوا يظهرونه من عطف وود .

وسرّ من هيئة محاميه التي كانت حازمة ، ولما وقف المحامي ليبدأ دفاعه طلب منه جوليان ألا يظهر بلاغته ، فقال له الرجل :

— لقد سرقت جزالة بوسويه واستخدمت ضدك ، ولكنها ستفيدك .
والواقع أن المحامي لم يكذب يتكلم خمس دقائق حتى أخرج النساء جميعاً مناديلهن . فتشجع المحامي ووجه إلى الحلفين عبارات قوية جداً .

فارتعد جوليان وشعر بحاجة إلى البكاء ، ولكنه سرعان ما قال :
يا إلهي ! ماذا يقول أعدائي إذا رأوني أبكي ؟

غير أن الشفقة كادت تستولى على نفسه ، ولكنه لحسن حظه ، رأى بارون دي فالنو ينظر إليه نظرات تنطوي على القحة . فأخذ يقول في نفسه

إن عيني هذا الدنيء لتشمان بيريقي عجيب ، فأى نصر نالته هذه النفس الحقيرة ! إذا كانت جريمتي لم تجلب عليّ إلا أن أرى هذه النظرات الوضيعة فإني لألغنها أشد اللعنة . ويعلم الله ماسيقوله عنى لمدام دي رينال !

وتعلبت هذه الفكرة على ما عداها . وبمد ذلك بقليل ، ثاب جوليان إلى نفسه من علامات الاستحسان التي كان يبديها الجمهور . وكان الحامى قد فرغ من دفاعه . وتذّر جوليان أنه يجمل به أن يضاف محاميه وكان الزمن يمضى سريعاً .

وأحضر له ولحاميه ما يشربانه ، فرأى جوليان في عجب شديد أن السيدات جميعاً لا يزلن في المحكمة ، ولم تذهب إحداهن لتناول عشاءها . قال الحامى :

— أوكد لك أنى أكاد أموت جوعاً ! وأنت ؟

— وأنا كذلك .

— أنظر ، هامى ذى حرم الحاكم تتناول عشاءها ، ثم أشار الحامى إلى الشرفة الصغيرة وقال : تشجع ، كل شئ على مايرام . وأعيدت الجلسة .

أعلنت الساعة منتصف الليل والرئيس يسرد موجزاً للقضية ، فاضطر إلى أن يتوقف عن الكلام ، وبين هذا السكون الشامل الذى يسوده قلق شديد ، كانت دقائق الساعة تملأ أرجاء القاعة .

فقال جوليان فى نفسه : لقد بدأ آخر يوم لى فى الحياة . وهنا انتابته

نوبة شديدة من نوبات الواجب . لقد استطاع ألا يظهر أى تأثير حتى الآن وأخذ على نفسه ألا يتكلم ، ولكن حينما سأله رئيس الجلسة عما إذا كان عنده مايقوله ، نهض واقفا :

وكان يرى أمامه عيني مدام درثيل ، وخيل إليه أنهما تبرقان . فأخذ يسائل نفسه :

أهى تبكى ؟ وكيف كان ذلك ؟
« سادتى المحلفون .

« إن الاختقار الشديد الذى كنت أقدر أنى سأواجهه ساعة موتى هو الذى يدفعنى إلى الكلام . إننى أيتها السادة لم أنل شرف الانتساب إلى طبقتكم ، فما أنا إلا ريفى ثار على ضعة مكاتته .

وأنا لأطلب منكم تسامحا ولاصفحا . ولا أحب أن أخدع نفسى ، فالموت بانتظارى ، وإنه عقوبة عادلة . لقد اعتديت على حياة سيدة جديرة بكل احترام ورعاية : فقد كانت مدام دى رينال لى بمثابة الأم فجريمتى شنيعة ، لأنى دبّرت قتلها من قبل . وعلى هذا فأنا استحق أيتها السادة المحلفون عقوبة القتل : ولكن إذا كان جرمى أقل من ذلك ، فإنى أرى رجالا لا يتأثرون بما يدره شبابى من شفقة ورحمة ، فيعمدون إلى أن يقتصوا من طبقة الشبان الذين نشأوا نشأة وضيعة ، وقد أعوزهم الفقر الشديد ، وأسعدهم الحظ فتعلموا تعليما راقيا ، واختلطوا بما يسميه الأغنياء المجتمع كبرا وغرورا . نعم هؤلاء الرجال يريدون القضاء على هذه الطبقة ويوجهون لها أشد الضربات فى شخصى . هذه هى جريمتى أيتها السادة ، وسأعاقب

عليها عقابا شديدا ، مادام أندادى لم يشتركوأ في محاكمتى . إننى لأرى فوق مقاعد الخلفين فلاحأ أثرى ، ولكنى أرى برجوازين تشمئز نفوسهم من فعلتى ... »

وأخذ يتكلم بهذه النعمة عشرين دقيقة ، فقال كل ما كان يحول فى خاطره ؛ كان النائب العام يهتز فى مقعده ؛ لأنه كان يحاول أن ينال رضا الطبقة الأرستقراطية ؛ وعلى الرغم من الطابع المجرد الذى خلعه جوليان على المناقشة ، فإن النساء جميعاً قد أخذن فى البكاء . وكانت مدام درفيل نفسها تغطى عينيها بمنديلها . وقبل أن ينتهى جوليان من حديثه ، عاد فتحدث عن سبق الإصرار وعن ندمه ، واحترامه لمدام دى رينال ، وإلى حبه البنوى لها حباً شديداً ... فصرخت مدام درفيل وأغنى عليها .

ودقت الساعة الأولى فانسحب الخلفون إلى غرفتهم ، ولم تغادر أية امرأة مكانها ، وكان كثيرون من الرجال تلعع الدموع فى عيونهم . كانت مناقشات الخلفين أول الأمر شديدة جداً ، ولكن أخذ القرار يتضح قليلا قليلا ، وأخذ الهدوء يشمل الجمعية لما يلقاه الخلفون جميعا من تعب ونصب . وكانت اللحظة رهيبية ؛ فقد أخذت الأضواء تخبو . ونال التعب من جوليان ، وسمع من على مقربة منه يتناقشون فيما إذا كان هذا التأخير يعدّ نجساً أو يمينا . وكم سعد حين رأى الناس جميعاً يتمنون له النجاة . لم يعد الخلفون فى قاعة الجلسة ، ومع ذلك فلم تغادر أية امرأة مكانها .

وحينما أعلنت الساعة الثانية صباحاً ، سمعت حركة شديدة ، وفتح باب غرفة الحلفين الصغير ، وتقدم البارون دي فالنو في خطوات مسرحية بطيئة ، وتبعه باقي الحلفين . ثم سعل ، وأعلن بعد أن أقسم بنفسه وضميره ، أن قرار الحلفين الذي صدر بالإجماع يقضى بإدانة جوليان سورل بالقتل ، وبالقتل مع سبق الإصرار . ثم توقف قليلاً وقال : وهذه التهمة عقوبتها القتل . فنظر جوليان إلى ساعته ، وتذكر السيد دي لا قالت ، وكانت الساعة الثانية والربع ، ثم قال في نفسه : إن اليوم يوم الجمعة .

نعم إنه لأسعد أيام فالنو حين يحكم علىّ . . . (وكان النساء من حوله يبيكين بكاءً مرّاً) . . . إن الرقابة علىّ شديدة فلن تستطيع ماتيلدا أن تخلصني كما نجت مدام دي لا قالت زوجها . . . وعلى هذا فبعد ثلاثة أيام وفي مثل هذه الساعة سأعرف ما يجري علىّ .

وفي هذه اللحظة ، سمع صيحة فارتد بفكره إلى الحياة الدنيا ، وكان النساء حوله يجهشون بالبكاء ، والتفت فرأى الوجوه كلها مستديرة نحو شرفة قائمة في ركيزة قوطية . وعرف بعد ذلك أن ماتيلدا كانت مخفية فيها .

لم تتكرر الصيحة فاستدارت الوجوه إلى جوليان ، وأخذ رجال الشرطة يفسحون له الطريق وسط زحام الجماهير .

ثم قال في نفسه : علىّ ألا أتيح الفرصة لهذا الوغد فالنو فيسخر مني . كم كان الخداع والنفاق يرتسمان على وجهه وهو ينطق بقرار الحكم علىّ بالإعدام ! بينما كان هذا الرئيس المسكين يتفرقق الدمع في عينيه ساعة

الحکم علیؑ ، مع أنه قاض منذ سنوات طويلة . يا فرح السيد فالنوحين
أتیحت له فرصة الانتقام لتنافسنا على مدام دی رینال ! ... إنتی لن
أشاهدها إذن ! لقد حدث ما حدث ... وإنی لأشعر أنه لن يتاح لی
أن أودعها الوداع الأخير ... کم كنت أود أن أكشف لها عما أحسه
من اشمزاز كبير من جراء فعلتی !
لن أقول لها أكثر من هذه العبارة : لقد حکم علیؑ ، وهو حکم عادل .

الفصل الثاني والأربعون

حينما اقتيد جوليان إلى السجن ، أدخل غرفة أعدت للحكوم عليهم بالإعدام . ولم ينتبه إلى أنه لم يصعد إلى برج ، مع أنه لا يفوته أن يدرك أقل حركة وأتفه شيء . كان يفكر فيما يقوله لمدام دي زينال لو سعد برؤيتها قبل أن تحين ساعته الأخيرة . وأخذ يفكر في أنها ستقاطعه ، وهو يود لو استطاع أن يعبر لها عن ندمه في أول كلمة يقولها لها . ثم أخذ يحدث نفسه : كيف أستطيع أن أقول لها بعد أن فعلت فعلتي هذه : إنى لم أحبب سواها ؟ وأنا لم أحاول قتلها إلا طموحاً منى أو حباً لماتيلد .

وآوى إلى فراشه فأحس أنه مغطى بنسيج خشن . فزالت العشاوة عن عينيه ، وأخذ يقول : آه ! إننى فى السجن المظلم ، كجميع المحكوم عليهم بالإعدام . إنه جزاء عادل ...

لقد قصّ على الكونت ألتاميرا أن دانتون صاح بصوته الغليظ قبل أن يعدم بيوم واحد وقال : من الغريب أن فعل « شنق » لا يتصرف فى كل الأزمنة ، فيستطيع الإنسان أن يقول : سأشقى ، ستشقى ولكنك لا تستطيع أن تقول : كنت سُئِقتُ .

واستطرد جوليان يقول : ولم لا ، إذا كانت هناك حياة أخرى ؟ ... أنا واثق من أننى سأضيع إن لاقيت إله المسيحيين ، لأنه طاغية ، ولذلك فهو شديد الانتقام ، وإنجيله لا يتحدث إلا عن العقاب الشديد : إننى لم أحبيه إطلاقاً ، ولم أشأ أن أصدق أن بين الناس من يحبه حباً صادقاً .

إنه لشديد الانتقام (ثم أخذ يتذكر كثيراً من آيات الإنجيل) إنه سينزل
بي غقابا صlarما ...

ليتني ألقى إله فنلون! فلربما قال لي: إننا سنغفون عن كثير من خطاياك
لأنك أحببت حبا صادقا ...

ولكن هل أحببت كثيراً؟ آه! لقد أحببت مدام دي رينال
ولكن سلوكي نحوها كان قاسياً غليظاً. ضحيت بتلك المزايا البسيطة
المتواضعة؛ لأنني شغفت بما هو براق، فكنت أسير على سنة الناس جميعاً ...
ولكن أي أمل كنت أراه نصب عيني! ... أميرالاي في الخيالة
وقت الحرب، وسكرتير في مفوضية وقت السلم؛ ثم بعد هذا أصبح
سفيراً ... لأنني سرعان ما كنت أتقن ما بين يدي من الأعمال ...
ولو كنت أحقق غنياً، فهل يتاح لصهرى المركيزدي لامول أن يلقى منافسة
يحشى منها؟ إن سبثاني كلها كانت تغفر بل تعدّ حسنات وأصبح رجالا
ذا مواهب، يعيش عيشة راضية هانئة في فيينا أو لندن ...
— ليس الأمر كما تظن يا سيدي فستشوق بعد ثلاثة أيام .

فأخذ جوليان يضحك كثيراً من هذه اللفتة النفسية . وأخذ يقول :
إن الرجل — في الواقع — ذو نفس مزدوجة . فيا للشيطان ، ما هذه
الفكرة الخبيثة ؟ ثم قال رداً على هذه الفكرة : . حسناً يا صديقي ! نعم
سأشوق بعد ثلاثة أيام . إن السيددي شولان سيستأجر نافذة مع الكاهن
مالون ، ويدفع كل منهما نصف المبلغ . فمن ذا الذي سيسرق الآخر
من هذين الشخصين الجليلين ؟

ثم تذكر فجأة قطعة من قنسيسلاس لروترو :

لا ديسلاس

... إن روحي لعلى أتم الاستعداد .

الملك ، والد لا ديسلاس

والمشقة كذلك ، فاحمل إليها رأسك .

ثم قال : إنها إجابة رائعة ! ثم استغرق في النوم . وفي الصباح

استيقظ على أثر ضمة شديدة ، ففتح عينيه الزائعتين ، وقد ظن أنه بين

يذى السيف ، وقال :

— ماذا ! هل حان وقت إعدامي ؟

كانت ماتيلد هي التي تحتضنه ، ولم تفهم لحسن حظه ما قاله . وقد

ردت له هذه الفكرة هدوءه . ووجد أن ماتيلد قد تغيرت تغيراً تاماً ،

كأنها ظلت مريضة ستة شهور ، فقد كانت لا ترحم نفسها . ثم قالت له

وهي تفرك يديها ، ولم يمكنها الغضب من البكاء .

— إن هذا الحقير فريلير قد خدعني .

— ألم أكن جميلاً أمس حين تكلمت ؟ لقد ارتجلت الحديث

لأول مرة في حياتي ! وأخشى في الواقع أن تكون آخر مرة ..

كان جوليان في هذه اللحظة يبحث بمخلق ماتيلد في هدوء شديد ،

كأنه عازف ماهر على البيان ... ثم استطرد يقول : إني لا أنكر ضمة

نشأتي ، ولكن نفس ماتيلد العالية قد رفعت إليها حبيبها . فهل تعتقدن

أن بونيفاس دى لامول كان خيراً مني أمام قضاته ؟

وكانت ماتيلد في ذلك اليوم رقيقة في غير تكلف . كأنها فتاة بائسة
من يسكن في الطابق الخامس من المنازل ؛ ولكنها لم تستطع حمله على أن يقول
أبسط مما كان يقول . لقد أشقاها دون أن يدري ، كما أشقته هي من قبل .

وأخذ يقول في نفسه : إن المرء لا يعرف منابع النيل ، ولم تر عيناه
ملك الأنهار جدولا صغيراً : إذن فلن تتاح لأي عين بشرية أن ترى
جوليان ضعيفاً ، خائر القوى ، لأنه قبل كل شيء ليس كذلك . ولكن
قلبي سريع التأثر ؛ فلو قيل الكلام السائر في صدق وإخلاص لرق صوتي
وسالت دموعي . وكم من مرة احترقني القلوب القاسية من أجل هذه
النقيصة ! فكأنوا يعتقدون أنني أطلب الصفح ، وهذا ما لا أطيعه .

قيل إن دانتون ذكر امرأته وهو في أسفل المقصلة فتأثر ، ولكن
دانتون وهب الحياة لأمة أهلها طائشون وحال بين العدو وبين باريس ...
أنا وحدي أعرف ما أستطيع أن أفعله ، أما الآخرون فهم لا يؤمنون بقدرتي .

لو أن مدام دي رينال هي التي كانت معي الآن في السجن بدلا من
ماتيلد ، أكنت أقول هذا في نفسي ؟ إن قنوطي الشديد وندمي البالغ
قد يفسرها فالنو وباقي أشراف المقاطعة ، بالخوف الشديد من الموت ؛
إن في قلوبهم خورا ، ولكنهم متكبرون إلى أقصى حد ؛ لأن مركزهم المالى
يضعهم دائما فوق الشبهات ! والسيدان : دى موارد ودى شولان اللذين
حكما علىّ بالاعدام ربما قالوا : هكذا يكون من يولد ابن نجار ! قد يصبح
الإنسان عالما ، ماهرا ، ولكن القلب ! ... القلب لا يدخل في محيط

التعليم . وحتى هذه الفتاة المسكينة ماتيلد التي تبكى الآن ، أو على الأصح التي لا تستطيع أن تبكى الآن ، قد أنساها الألم الحق جدها المنطقي . قال هذا وهو ينظر إلى عينيها المحمرتين ... ثم ضمها بين ذراعيه ... وأخذ يحدث نفسه : ربما قضت ليلتها باكية، ولكن أى خزي تلقاه في المستقبل حين تذكر ذلك ! ستعدّ نفسها كمن ضلت في شببتها الأولى ، وأغوتها طرق تفكير شاب من عامة الشعب وكروازنوا ضعيف فسيئزوجها ، ويخيل إلى أنه يحسن صنعا ، فهي ستجعله يقوم في الحياة بتمثيل دورها وذلك بما للنفس القوية المتشعبة المقاصد من سلطان على النفوس الضعيفة لعامة الناس .

آه ! هذا عجيب حقا ! فنذ حكم عليّ بالاعدام ، أصبحت أتذكر الأشعار التي كانت لا تحظر من قبل علي ذاكرتي . وهذه علامة من علامات التدهور ...

قالت له ماتيلد بصوت ضعيف خافت : إنه في الغرفة المجاورة . وأخيرا انتبه إلى ماتقول ، تحدث نفسه : إن صوتها لضعيف ، ولكنها لاتزال تحتفظ بكل ما في خلقها من سيطرة تم عنها لهجتها . إنها تحفض صوتها حتى لاتغضب . وسألها جوليان في رقة وحنان :

— ومن الذى هناك ؟

— المحامي ، أتى لتوقع طلب الاستئناف .

— لن أستأنف . فهضت وعيناها يشع منها الغضب وقالت :

— ماذا تقول ؟ لن تستأنف ! ولم ذلك من فضلك ؟

— لأنى أشعر بقوة أستقبل بها الموت فلن يسخر الناس منى . ومن يدرينى أنى بعد أن أقيم فى هذا السجن الرطب شهرين أكون متمتما بالقوة التى أحسها الآن ؛ إنى أتنبأ بمحادثات ستجرى بينى وبين القسس وبينى وبين والدى ... وهذا أكره شىء إلى نفسى فى الوجود . فلأمت . أنارت معارضته كل ما فى نفسها من كبر وعظمة . إنها لم نستطع أن تلقى الكاهن دى فريلىر قبل الساعة التى تفتح فيها سجون بيزانسون ، فصبت جام غضبها على جوليان . كانت تعبده ، ومع ذلك ظلت ربع ساعة وهى تصب عليه اللعنات لسوء طبعه ، وتعلن ندمها الشديد على أنها أحبته ، فرأى جوليان فى هذا كله نفسها المتكبرة التى كثيرا ما كانت تسبه سبا مقذعا فى مكتبة قصر دى لا اول . فقال لها :

— كان يجدر بالسماء أن تخلقك رجلا لو أنها أرادت بطبقتك خيرا . وأخذ يقول فى نفسه : أما أنا فساأكون غرا إن عشت شهرين آخرين فى هذا المكان المرعب ، معرضا لكل ما ترمينى به عصابة الأشراف من دناءة وحط من كرامتى ، وعزائى الوحيد هو أن שתائم هذه الجنونة ستهال على ... حسنا ، سأبارز بعد غد صباحا رجلا عرف بهدوئه وحذقه الشديد ... ويقول حزب الشيطان إنه ماهر إلى أبعد حد ، فضرباته لا تفلت أبدا . حسنا ، سأفعل ذلك (وكانت ماتيلدا لا تزال تبدى فصاحتها) فقال فى نفسه : يا للشيطان ، إننى لن أستأنف !

وعندما اتخذ هذا القرار ، بدأ يحلم .. سيحمل إليهم الجريدة ساعى البريد فى الساعة السادسة كهادته ؛ وفى الساعة الثامنة حين يفرغ من قراءتها

السيد دي رينال ، تتناولها إليزا وتسير على أطراف قدميها لتضعها على سريرها . بعد هذا تستيقظ من نومها ، وتتناول الصحيفة ، فتضطرب فجأة وهي تقرأ ، فترتمش يدها الجميلة ولكنها تقرأ كل شيء حتى هذه العبارة :
وفي الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة ، انتهت حياته .

ستبكي بكاء مرا ، فأنا أعرفها ؛ وستنسى أنني حاولت قتلها . إن السيدة التي حاولت الاعتداء على حياتها ستكون السيدة الوحيدة التي تبكي لموتى بكاء حارا .

آه ! هذه على النقيض منها ! وظلت ماتيلد تتشاجر معه أكثر من ربع ساعة وهو منصرف عنها إلى التفكير في مدام دي رينال . وعلى الرغم منه ، لم تكن نفسه تتخلى عن ذكريات غرفة النوم في فريير . وإن كان كثيرا ما يجيب ماتيلد على ما تقول وهي دائبة على التحدث إليه . كان يرى جريدة بيزانسون على ذلك الغطاء الحريري البرتقالي اللون ، ويرى تلك اليد البيضاء تتناولها في حركة قلقلة ، وكان يرى مدام دي رينال تبكي ... وكان يتتبع كل دمعة تسقط على وجهها الفاتن .

ولما ئسنت الآنسة دي لامول من أن تنال منه شيئا ، استدعت المحامي . ومن حسن الحظ كان هذا المحامي قائدا سابقا في جيش إيطاليا منذ عام ١٧٩٦ ، وكان صديقا لمانول .

وأخذ يعارض قرار اللتهم ، لكن جوليان أراد أن يعامله بكل احترام فشرح له الأسباب التي حملته على ألا يستأنف الحكم .

وأخيرا قال له السيد فيلكس فانو المحامي : اللهم إن الإنسان ليستطيع

أن يفكر تفكيرك . وأمامك ثلاثة أيام كاملة لاستئناف الحكم ؛ وواجبي يقضى على أن أحضر إليك كل يوم . لو أن بركانا انفجر تحت السجن ، من الآن إلى أن يمضى شهران ، لأنقذت حياتك . ثم نظر إلى جوليان وقال له :

— قد تموت على إثر مرض .

فصاحه جوليان وضغط على يده وقال له :

— أشكرك كل الشكر ، فإنك رجل كريم . سأفكر في هذا .

ولما انصرفت ماتيلد مع الحامي ، كان جوليان يشعر نحو السيد قانو بصدقة كبيرة أكثر من صداقته لها .

الفصل الثالث والأربعون

بعد ذلك بساعة ، كان جوليان نائماً نوما عميقا ، فأيقظته دموع تتساقط على يده . فأخذ يقول في نفسه وهو بين اليقظة والنوم : آه ! إنها ماتيلد ، جاءت مرة أخرى لتطبق نظرية تحطيم القرار بالعواطف الرقيقة . كان يملّ حدوث منظر جديد من المناظر المؤثرة المحزنة ، فأثر أن يغمض عينيه . وتذكر أشعار بلفجور وهو يفر من زوجته . ولكنه سمع تنهدا عجيبا ، ففتح عينيه ، ورأى مدام دي رينال . فارتجى عند أقدامها وأخذ يقول :

— آه ! أهكذا أراك قبل أن أموت ! أوام أنا ؟ ثم تاب إليه رشده في الحال وقال : ولكن معذرة ياسيدتى ، فلست في نظرك إلا قاتلا أثيما .
— سيدى ... جئت أرجوك أن تستأنف الحكم بعد أن عرفت أنك لا تريد ذلك ... وكانت دموعها تسكاد تخنقها فلم تستطع أن تتكلم .
— تفضلى بالصفح عني . فنهضت من مكانها وارتجت بين ذراعيه وقالت :

— إن أردت الصفح فاستأنف حكم الإعدام في الحال .
فأخذ جوليان يطرها بالقبلات .

— هل سبتأتين لرؤيتي كل يوم خلال هذين الشهرين ؟

— أقسم لك على ذلك ، كل يوم ، إلا إذا حرّم ذلك على زوجي .

— أوقع ! ماذا تقولين ؟ أتغفرين لى ذنبي ؟ هل هذا ممكن ؟ !

ثم احتضنها في جنون ، فصاحت صيحة خافتة ثم قالت :
— لا شيء ، إلا أنك آلمتني قليلا .

فبكي وقال :

— في كتفك . ثم ابتعد عنها قليلا وأخذ يقبل يدها في حرارة
شديدة . من الذي كان يظن أنى سأفعل ما فعلت يوم أن رأيتك آخر مرة
في غرفة نومك في فريير ؟

— ومن ذا الذي كان يعتقد أنني سأكتب هذا الخطاب الدنيء إلى
المرkezدي لامول ؟

— اعلمى أنني أحببتك دائما ، ولم أحب سواك .

— أحقا ما تقول ؟ !

كانت سعيدة بما سمعت ، واستندت إلى جوليان وهو جاث عند
ركبتيها . وأخذا يبكيان في صمت وقتاً طويلا .

لم يشهد جوليان في حياته كلما لحظة كهذه اللحظة .

و بعد وقت طويل ، و بعد أن استطاعت أن تتكلم قالت له :

— ولكن ما شأن هذه السيدة الشابة مدام ميشليه أو على الأصح

الآنسة دي لامول ؟ لأني بدأت في الواقع أصدق هذه القصة .

— هي ليست صحيحة إلا في الظاهر . إنها زوجتي وليست خليلتي ...

كان كل منهما كثيراً ما يقاطع الآخر ، فلم يستطيعا أن يقص كل

على صاحبه ما يجمله الآخر إلا في عسر ومشقة . فالخطاب الذي أرسل إلى

المرkezدي لامول ، كتبه القس الشاب الذي تعترف أمامه مدام دي رينال ،

ونسخته هي بخطها . وقالت له :

— لقد حملني الدين على أن أرتكب عملاً حقيراً ! على أنى خفت كثيراً من لهجة بعض فقرات الخطاب التي كانت شائنة إلى أقصى حد .. كانت السعادة التي تغمره وفرحه الشديد بلقائها بدلانها على أنه قد غفر لها زلتها غفراناً جميلاً ، لأنه لم يكن في يوم من الأيام منظرها في حبه إلى هذا الحد . ثم قالت له مدام دي رينال أثناء الحديث .

— أنا أعتقد مع ذلك أنى تقية ، إنى أومن بالله إيماناً شديداً ؛ وأومن كذلك بأن الجريمة التي ارتكبتها شنيعة ، وقد اتضح لى ذلك . إننى حين أراك حتى بعد أن أطلقت على رصاصتين ... (فانهاال عليها يقبلها على الرغم منها) .

— دعنى ، لأنى أريد أن أتحدث معك حتى لا أنسى ما أريد أن أقول ... إننى حين أراك ، تخفى جميع الواجبات ، وتصبح كل ناحية فى نفسى وكل جارحة فى جسمى تشعر بالحب العنيف لك ، إن كلمة الحب واهية جداً لا تؤدى ما أرمى إليه . أشعر نحوك بما ينبغى لى أن أشعر به نحو الله فحسب : إذ يملك نفسى خليط من الاحترام والحب والطاعة ... أنا فى الواقع لا أدرى ما توحى به لى . فلو أنك أمرتنى أن أظعن السجن بسكين ، لارتكبت هذه الجريمة قبل أن أفكر فيها . فبين لى سبب ذلك فى وضوح قبل أن أتركك ، أريد أن أتبين تماماً ما يدور فى قلبى ، إننا سنفترق بعد شهرين ... ثم ابتسمت وقالت : وبهذه المناسبة هل سنفترق ؟ فنهض وصاح قائلاً :

— إنى أسحب ما وعدتك به ، لن أستأنف حكم الإعدام ، إذا

كنت ستعمدين إلى السم أو إلى سكين أو مسدس أو فم أو أية مادة أخرى لتقضى على حياتك أو لتسيىء إلى نفسك .

فتغيرت ملاحظتها في الحال ؛ وارتسم على وجهها أشد حالات الحنان بعد أن كان مرتسماً عليه أعموق الأحلام ، ثم قالت له :
— ماذا تقول لو متنا الآن معاً ؟

— من يعلم ما سنجده في الحياة الأخرى ؟ ربما وجدنا العذاب ، وربما لا نجد أى شيء . ألا نستطيع أن نقضى معاً شهرين لذيين ؟ شهران...إنهما لأيام كثيرة . إننى لم أشعر بمثل هذه السعادة !
— لم تشعر بمثل هذه السعادة !

— أبدأ ، وإني أتحدث إليك كما أتحدث إلى نفسى . وقانى الله المبالغة . فابتسمت ابتسامة خجولة حزينة ثم قالت :

— لك أن تأمرنى ، لا أن تتحدث إلىّ بهذه الطريقة .
— حسناً ! أقسى لى بما تكنه نفسك لى من حب بأنك لن

تعتدى على حياتك بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ... واستطرد يقول :
— أعلمى أنه ينبغي لك أن تعيشى من أجل ولدى ، لأن ماتيلد ستتركه في رعاية الخدم حينما تصبح المركيزة دى كروازنوا . فقالت في فتور :

— أقسم لك على ذلك ، ولكنى أريد أن آخذ طلب الاستئناف مكتوباً بخطك وموقعاً عليه منك . وسأذهب بنفسى إلى النائب العام .
— حذار أن تفعلى هذا ، وإلا ثارت حولك الشبهات . فقالت له

في حزن ظاهر :

— إننى بعد أن أتيت إليك فى السجن ، أصبحت فى نظر أهل
بيزانسون وسكان مقاطعة فرانك كونتى بطله من أبطال القصص . لقد
تخطيت حدود هذا الحياء الشديد ... أصبحت امرأة تجردت من الشرف ؛
الواقع أننى من أجلك ...

وكانت لهجتها تنطوى على حزن شديد ، فأخذ يقبلها فى سعادة
كبيرة لم يعرف مثلها من قبل ، ولم يكن مصدرها نشوة الحب ، ولكنه
الاعتراف الكبير بالجميل . ورأى لأول مرة مقدار التضحية التى أقدمت
عليها من أجله .

ويظهر أن بعض النفوس الخيرة أخبرت السيد دى رينال أن زوجته
تزرع جوليان فى سجنه وتقضى معه وقتاً طويلاً ، لأنه أرسل عربته إليها
بعد ثلاثة أيام وطلب إليها أن تعود فى الحال إلى فريري .

كان هذا الفراق القاسى نذير سوء، بدأ جوليان به يومه . فقد قيل له
بعد ذلك بساعتين أو ثلاث ساعات : إن قسيساً فى الشارع قائم بباب
السجن منذ الصباح . إنه لقس دسّاس ومع ذلك فلم يتمكن من أن يشق
طريقه بين يسوعيين بيزانسون . كان المطر شديداً والرجل فى مكانه
لا يبرحه ويزعم أنه شهيد .

كان جوليان متضيقاً ، ولكن هذه الحماقة أثرت فيه تأثيراً شديداً .
كان قد رفض فى الصباح أن يستقبل هذا القس ، ولكن الرجل أصرّ
على أن يعترف جوليان أمامه ؛ ليذيع اسمه بين نساء بيزانسون بالاعترافات
التى سيزعم أن جوليان أفضى بها إليه .

صرّح التقيس في صوت عال بأنه سيقتضى اليوم كله والليل أمام باب السجن ، قائلاً : لقد أرسلني الله لأدخل الإيمان في قلب هذا الكافر ... فاجتمع الناس حوله على نحو ما يفعل الإمامة حين يرون منظراً غريباً ، فقال لهم :

— نعم يا إخواني ، سأقتضى هنا يومى وليتقى الأيام والليالي المقبلة . لقد تحدث إلى الروح القدس ، فلدّى رسالة من السماء ؛ إنى أنا الذى كلفت بأن أخلص روح سورل الشاب . رددوا معى صلواتى ...

كان جوليان يكره الفضيحة كراهية شديدة ، ولا يحب ما يلفت إليه الأنظار . وفكر في أن ينتهز هذه الفرصة ليخرج من العالم مجهولاً ؛ ولكنه كان يأمل في أن يرى مدام دي رينال ، التى ولّهم خبها .

كان باب السجن في شارع مزدحم ، وكانت فكرة هذا القس القذر التى جمعت الناس حوله وأثارت فضيحة تؤلم جوليان أشد الألم ، فأخذ يقول : لا شك أن اسمى يردد على لسانه في كل لحظة من اللحظات ! وكان ذلك أشق على نفسه من الموت .

واستدعى سجاناً كان يخلص له مرتين أو ثلاث مرات كل ساعة ويطلب منه أن يذهب ليرى ما إذا كان القس لا يزال بالباب . فكان يقول له في كل مرة :

— إنه يا سيدي راعع في الوحل ، يصلى بصوت عال ويتلو أوراداً على روحك ... فأخذ جوليان يقول : ياله من وقح ! وكان قد سمع

في تلك اللحظة ضجيج أصوات الناس وهم يرددون الأوراد . وزاد غيظه حين رأى السجنان يحرك شفثيه مردداً الكلمات اللاتينية . ثم قال له :

— لقد بدأ الناس يقولون بأنك قاسى القلب ، إذ ترفض لقاء هذا الرجل الورع وتعرض عن مساعدته الروحية لك . فصاح في غضب شديد :

— واحسرتاه عليك يا وطني ! إنك لا تزال تتردى في مهاوى الجهل ! ثم أخذ يتحدث بما يحول في نفسه ولا يقيم وزناً لحضور السجنان . هذا الرجل يريد أن يكتب عنه في الصحف مقال ، وهو واثق من أنه سيحصل على ما ينبغي .

آه ! يا لكم من ريفيين حقراء ! لو أنتى كنت في باريس ما لقيت هذا الغيظ ؛ فالناس هناك أكثر علماً بالشعوذة . ثم قال للسجان :

— أحضر هذا القس القديس . وكان العرق يتصبب من جبهته غزيراً فرسم السجنان علامة الصليب وخرج فرحاً مسروراً .

كان القسيس قبيحاً إلى أبعد الحدود ، وعلى جانب كبير من القذارة ، وزاد المطر البارد ، الذى كان يتساقط ، السجن رطوبة وظلاماً . أراد القس أن يقبل جوليان وأخذ يتحدث إليه حديثاً رقيقاً . فغضب جوليان كثيراً لأن النفاق كان بادياً في حديث القس واضحاً جلياً .

و بعد أن ظلّ القس معه ربع ساعة ، أحس جوليان حيناً شديداً .
وبدأ له الموت للمرة الأولى كرهاً ممقوتاً . وأخذ يذكر تعفن جسمه بعد
يومين من إعدامه ... وكاد أمره يفتضح بما يبديه من ضعف وخور ،
أو يهجم على القس فيخنقه بسلسلته ، إلا أن فكرة طرأت عليه فأعطى
القس أربعين فرنكا ورجاه أن يصلى من أجله في نفس اليوم .
وأوشك النهار أن ينتصف حين انصرف من عنده القس .

الفصل الرابع والأربعون

خرج القس ، فأخذ جوليان بيكي بكاء شديدا ؛ كان بيكي فرعامن الموت . وأخذ يقول في نفسه ، بعد أن حملها على ذلك : لو أن مدام دي رينال لاتزال في بيزانسون لأفضيت بضعفني إليها ...

وبينما كان يأسف لغياب هذه السيدة المحبوبة ، سمع وقع خطوات ماتيلد . فقال في نفسه : إن شرّ ما في السجن ، أنتى لأستطيع أن أغلق على بابى . وكان يقابل بالغضب كل ماتقوله له ماتيلد .

قصت عليه أن السيد فالنوك كان يعلم يوم المحاكمة أنه عين حاكما ، فجروا على السخرية من السيد دي فرييلير ، وترك نفسه تنعم بالحكم عليه بالإعدام . ثم أخبرته بما قاله لها دى فرييلير : « أية فكرة كانت تدور فى ذهن صديقك حين أيقظ غرور الطبقة الأرستقراطية من البرجوازيين ثم هاجمها بعد ذلك ! لم أخذ يتحدث عن الطبقات ؟ لقد بين لهم ما ينبغى أن يعملوه طبقا لمصالحهم السياسية : كان أولئك الحق لايفكرون فيما قاله ، وقد كادوا يبكون . غير أن صالح الطبقات قد غطى على أعينهم فلم يتبينوا ما ينطوى عليه الحكم بالإعدام من ضعة وقسوة . يجب أن نعترف بأن السيد سورل ليس فطنا بالأمر . إننا إذا لم نستطع أن نصل إلى الحصول على عفو عنه ، فسيكون موته نوعا من الاتجار ... »

ولم تشأ أن تخبر جوليان بما لم تكن تشك فيه وهو أن الكاهن

فر يليروجد من الخيرة له أن يخلف جوليان بعد أن أيقن بهلاكه ، وذلك إرضاء لطموحه .

كان جوليان قد فقد كل سيطرة على نفسه من شدة الغضب والمعارضة التي يلقاها فقال لماتيلد : إذهبي واستمعي إلى القداس الذي سيقام من أجلى ، واركبني لحظة أنم بالهدوء . وكانت ماتيلد شديدة الغيرة من زيارات مدام دي رينال له ، وقد علمت أنها غادرت بيزانسون ، فأدركت السرّ في غضبه ، وأخذت تبكي .

كان ألما حقيقيا ، لكنه لم يزد جوليان إلا غضبا على غضب . كان في حاجة ملحة إلى العزلة ، وكيف له أن يناها ؟ وبعد أن حاولت ماتيلد بكل الوسائل أن تستدر عطفه فلم تفلح ، تركته وحده ، إلا أن فوكيه جاء إليه نفس اللحظة التي كانت تهم فيها بالانصراف ورأى جوليان هذا الصديق المخلص فقال له :

— أنا في حاجة لأن أبقى وحدى ... وحينما رأى فوكيه مترددا قال : إننى أكتب مذكرة في التماس العفو ... فضلا عن هذا ... أرجو أن تترفق بي فلا تتحدث إلى عن الموت . وإذا كنت أنا في حاجة إلى خدمة خاصة فدعنى أبدأ أنا بالحديث .

ولما نال جوليان العزلة التي ينشدها ، شعر بوظة الاضطراب والخور أكثر من قبل ، وذلك لأن البقية الباقية له من قواه كان قد استخدمها في أن يخنى عن ماتيلد وفوكيه حقيقة مايشعر به .
وجنّ الليل ، فطرات عليه فكرة خفقت عنه كثيرا :

لو أنهم استدعوني لينفذوا الحكم في هذا الصباح حين كان يبدو لي الموت قبيحا كرهها لملتني عيون الجماهير إلى المجد والفخر ، ولربما كان في مسلكي شيء من التصنع كمثل الختال الحجول الذي يدخل أحد الصالونات . وقد ينتبه بعض الريفيين من بعيدى النظر ، إذا صح أن بين الريفيين أذكاء ، إلى ما أشعر به من ضعف ... ولكن لن يرى أحد ضعفي .

وأحس أن بعض هم يخف عن كاهله ، فجعل يغنى ويقول : ما أنا إلا جبان في هذه اللحظة ، ولكن لن يعلم بذلك أحد .

وكان حادث آخر أشد مرارة ينتظره في اليوم التالي ، وذلك أن والده كان عازما على زيارته منذ زمن طويل . وقبل استيقاظ جوليان من نومه ، كان النجار الشيخ في سجن والده .

وشعر جوليان بضعف شديد ، لأنه كان يتوقع من والده أشد اللوم . وقد زاد في همه أنه أحس ندما شديدا على أنه لم يحب أباه . وأخذ يقول في نفسه والسجان يرتب بعض حاجات السجن : لقد ساقتنا المصادفة إلى أن يعيش كل منا على مقربة من الآخر ، وقد آذى كل منا صاحبه . إنه يجي إلى ساعة موتي ليوجه إلى الضربة الأخيرة .

وبدأ الشيخ يؤنب ابنه تأنيبا شديدا حين خرج السجن ، ولم يستطع جوليان أن يكفكف من دموعه ، فقال يحدث نفسه في غضب : ياله من ضعف محجل إنه سيذهب إلى كل مكان ويبالغ في خورى وضعفي ؟ فياله من نصر عظيم لأمثال فالدو وكل أولئك المناقنين الذين يحكمون فريرا !

إن لهم مكانهم في فرنسا ، فهم يتمتعون بكل المزايا الاجتماعية . لقد كنت أقول حتى الآن : إنهم بصييون مالا كثيرا ، ومما لاشك فيه أنهم يتمتعون بكثير من التبجيل ، أما أنا فإني أمتع بشرف النفس . وقد أتيح لي الآن شاهد لن ينكر أحد شهادته ، ليذيع في فريير مبالغا فيما يذيع ، أنني كنت خائر القوى إزاء الموت ! سأكون في نظرم جبانا فيما أقدمت عليه !

كان جوليان على وشك القنوط ، ولم يهتد إلى طريقة يصرف بها أباه كما أنه لم يوفق إلى طريقة يخدم بها هذا الشيخ الذكي الذي لا تخفى عليه خافية ، لأن قواه كانت لا تواتيه .

غير أن ذكاه استعرض كل طريقة ممكنة ، ثم صاح قائلا على حين غرة :

— لقد اقتصدت بعض المال . .

فأما نطق بهذه العبارة التي تدل على العبقرية ، تغيروجه الشيخ وتبدل مركز جوليان الذي أخذ يقول في هدوء ، لأن الأثر الذي تركته عبارته قد قضى على ما كان يشعر به من مركب النقص :

— ماذا أفعل بهذا المال ؟

كان النجار العجوز يرغب في أن يستولى على كل هذا المال رغبة شديدة ، وقد حُيِّل إليه أن ابنه سيعطى جزءا منه لأخويه ، وأخذ الشيخ يتحدث في قوة وحرارة ، وجوليان يصفى إليه ساخرا ، ثم قال :

— حسنا ! لقد ألهمنى الله وأنا أكتب وصيتي ، وسأعطي كل أخ

من اخوتي ألف فرنك ولك الباقي .

— حسنا! ولكنك مدين لي بهذا الباق ؛ وبما أن الله قد بعث الطيبة في قلبك ، فأردت أن تموت مسيحيا مخلصا ، فيجب إذن أن تدفع ما عليك من ديون. أنت مدين لي بما أنفقته عليك من طعام وتعليم ولكنك لا تفكر في هذا ...

وانصرف الشيخ فأخذ جوليان يقول في غضب شديد : هذا إذن هو حب الأب لابنه ! ثم أتى إليه السجن وقال له :

— لقد اعتدت ياسيدى أن أحمل لضيوفى بعد زيارة أهليهم زجاجة من نبيذ شمبانيا ، وهو نبيذ طيب وإن كان غالى الثمن ، فالزجاجة بستة فرنكات ولكنها تنعش القلب .

فأجاب جوليان في عجلة شديدة جدية بالأطفال :

— أحضر ثلاث كوؤوس ، وأدخل اثنين من المساجين الذين أسمع وقع خطاهم وهم يتزهون في المرمر .

فأحضر له السجن اثنين من المجرمين العائدين يستعدان لأن يرجعا إلى المنفى . إنهما وغدان على جانب كبير من المرح ، ودقة الفهم والشجاعة والهدوء. قال أحدهما لجوليان :

— إن أعطيتنى عشرين فرنكا ، قصصت عليك حياتى بالتفصيل ، وهى قصة ممتعة .

— ولكن هل تكذب على ؟

— لا ، إن صديقى هذا لتتجرق نفسه غيره من العشرين فرنكا ، فلو أنى عمدت إلى الكذب فى قصتى لأخبرك بذلك .

إن قصة هذا اللص كريهة، تدل على قلب شجاع خلا من المشاء ركبتها،
ماعدنا حبه للمال .

و بعد انصراف المسجونين ، تبدل حال جوليان ، وذهب عنه غضبه
وحنقه على نفسه . كان الألم الشديد الذى يلقاه ممزوجا بمخور كبير ، منذرحيل
مدام دى رينال ، قد تبدل حزنا .

وأخذ يحدث نفسه : لو لم تخدعنى المظاهر ، لو وجدت صالونات باريس
قد غصت برجال أمناء كوالدى ، أو بلبصوص ماهرين كهذين المسجونين .
إنهم لعلى حق ، فرجال الصالونات حين ينهضون فى الصباح من نومهم
لا تشغل أذهانهم هذه الفكرة اللاذعة : أين أتناول اليوم غدائى ؟ ومع
ذلك فهم يدعون الأمانة ! وحينما يختارون محلفين ، يحكمون فى نزاهة على
رجل كاد يقتله الجوع ؛ فسرق بعض أوان من الفضة .

ولكن إذا وجد بلاط يحرص على أن ينصب وزيرا أو يسقط آخر ،
فإن رجال الصالونات الأمناء ، يرتكبون جرائم مماثلة تماما للجرائم التى يرتكبها
هذان المسجونان ، مدفوعين بشدة الفاقة . .

لم يعد فى العالم حق طبيعى ، لقد أصبحت هذه الكلمة تدل على غفلة
قديمة ، لا يعتمد بها إلا النائب العام الذى كان يطاردنى منذ أيام والذى أترى
أحد أجداده من مصادرة ، أمر بها لويس الرابع عشر .

ليس هناك حق إلا إذا وجد قانون يجرم مثل هذه الأشياء ، ويفرض
عقوبة على مرتكبها . إذا لم يسن قانون ، فلن يكون هناك حق طبيعى
إلا قوة الأسد ، أو حاجة الرجل الجائع الذى يطارده البرد القارس ، الحاجة

على كل حال ... لا ، إن كثيرين من الناس الذين تمجدونهم ليسوا إلا لصوصاً ، سعدوا بعدم القبض عليهم ، وهم متلبسون بالجريمة . والشخص الذي وكلت إليه الجماعة أمر اتهامى قد أترى بطريقة غير شريفة ... لقد ارتكبت جريمة قتل ، فحكم على بالعدل ، ولكن قالوا الذى حكم على قد أساء إلى المجتمع ، أكثر مما أسأت إليه . ثم استطرد فى حديثه حزينا لاغاضبا ، فقال :

— حسنا ! والذى على الرغم من بخله خير من أولئك الناس جميعا . إنه لم يخبى قط ، وقد زدت الطين بلة بموتى الذى لاشرف فيه ، والذى سيجر عليه العار . وخوفه من فقد المال ، وتلك النظرة التى بالغت فيها قسوة الرجال ، والتى يسمونها بخلًا ، قد دفعاه إلى اتحال باعث قوي لمصالحتى ، ووجد فى المبلغ الذى أتركه له وهو ثلثمائة أو أربعمائة لويس ، أمانا وضمانا من من الفقر . إنه سيطلع كل حساده فى فريير على الذهب الذى يملكه ، فى يوم من أيام الأحاد بعد العشاء ، وستنطق نظراته بهذه العبارة : من منكم لا يورد إذن أن يكون له ابن يموت مشنوقا ؟

قد تكون هذه الفلسفة صحيحة ، ولكن عليها طابعا يدفع الإنسان إلى أن يتمنى الموت . انقضت خمسة أيام طويلة على هذا الحال . فكان مؤدبا ظريفا مع ماتيلد ، التى كانت الغيرة الشديدة تأكل قلبها . وفكر جوليان جديا فى أن يقتل نفسه فى إحدى الأمسيات ؛ إذ كانت نفسه تنطوى على الأسى الشديد لرحيل مدام دى رينال . ولم يعد معجبا بشيء لا فى حياته المادية ولا فى حياته العقلية . كان طول إقامته فى السجن يحال

بينه وبين الرياضة؛ فضعفت صحته، وأصبح خلقه متحمسا ضعيفا كأنه خلق طالب ألماني . وقد الرجولة المتعالية، التي تدفع عنه بينين قوية بعض الآراء العقيمة ، التي تصدر عن النفوس الوضيعة .

لقد أحببت الحقيقة ... فأين هي الحقيقة ؟ إن الإنسان ليجد النفاق في كل مكان ، وأعلى الأقل يلقي الشعوذة ، حتى عند أولئك الذين يتصفون بالفضائل ، وحتى عند عظماء الرجال . وبانت على شعتيه علامة الامتعاض والاحتقار ... لا ، إن الرجل لا يستطيع أن يثق بالرجل .

كانت مدام ... تجمع الصدقات لليتامى الفقراء ، فقالت لي : إن الأمير فلانا أعطاها عشرة لويسات ، هذا كذب . ولكن ماذا أقول ؟ إن نابليون في سانت هيلانة ! ... إنها شعوذة حقيقية ، وإعلان في صالح ملك إيطاليا .

يا إلهي ! إذا كان مثل هذا الرجل يسف فيعمد إلى الشعوذة ، فإذا ينتظر من باقي البشر؟ ... إن الشقاء بناديه في قسوة أن يؤدي واجبه . أين الحقيقة ؟ في الدين ... ثم ابتسم ابتسامة مرة، تنطوي على الاحتقار الشديد وقال : نعم ، في أفواه أمثال مالون وفريليير وكاستاند ... ربما وجدت في المسيحية الحقيقية ؛ حيث لا يتناول القسس من المال إلا بمقدار ما كان يأخذه الحواريون ...؟! ولكن القديس بولص كان أجره اللذة في الحكم، وفي الحديث وفي التحدث عنه ... آه ! ليت لنا ديننا قويا ... إلى من أحق ! أرى كنيسة قوطية وزجاجا جميلا ، فيندفع قلبي الضعيف يذكر قسيس هذه الكنيسة ... ونفسي تدرك ذلك ؛ لأنها في حاجة إليه ...

ولكنى لا أجد إلا رجلا بليدا ذا شعر قذر ... أو رجلا معنيا بزنته، مثل
الفارس دى بواثوازيه .

ولكن أين القس الحقيقي؟ أين ماسيون وأين فنلون؟ إن مذكرات
سان سيمون قد أفسدت، على ما أرى، فنلون، وإن كان قسا حقيقيا ...
وعلى هذا فستجد النفوس الكريمة، تتجمع كلها حول نقطة واحدة في هذا
العالم ... إننا لن نعيش في عزلة ... وهذا القس الصالح سيتحدث إلينا عن
الله . ولكن أى إله؟ ليس إله الأنجيل، ذلك الطاغية الضعيف القاسى،
المتعطش إلى الانتقام والذي لا يغفر ولا يصفح ... نريد إله فولتير، نريد
الإله العادل، الطيب الذى وسعت رحمته كل شيء ...

وهزته نصوص الإنجيل الذى يحفظه عن ظهر قلب ... وأخذ يسائل
نفسه : ولكن كيف يتأتى لنا إذا كنا ثلاثة معا، الإيمان بهذا الاسم
الكبير : الله بعد أن أساء إليه القسس إسائة كبرى؟
وبعد أن جعلوا الحياة فى عزلة ! ... ياله من شقاء ! ...

ثم ضرب بيده على جبهته وقال : لقد أصبحت مجنونا غير عادل ،
إبنى أعيش فى هذا السجن بمنأى عن الناس ، ولكنى لم أعش على الأرض
معتزلا الناس ، وكنت أومن بواجبى إيمانا كبيرا . لقد كان الواجب
الذى كتب على أداؤه ، إن صوابا وإن خطأ، كجذع الشجرة، استند إليه فى
وقت العاصفة ... كنت أتأرجح وأضطرب ؛ لأنى لم أكن إلا رجلا ...
ومع ذلك فلم تقتلبنى العاصفة .

إن الهواء الرطب الذي أحسه في هذا السجن ، هو الذي يدفعني إلى التفكير في العزلة .

ولم أظل منافقا وأنا ألعن النفاق ؟ ليس الموت ولا السجن ولا الهواء الرطب ، هي التي تحزنني ، وإنما يحزنني غياب مدام دي رينال غني . لو أنني اضطررت إلى العيش أسابيع طويلة ، محتفيا في قبو منزلها بشريير ، بغية أن أراها أتراني كنت أضجر من ذلك ؟

ثم ابتسم ابتسامة مررة ، وقال بصوت مرتفع : إن أثر معاصري في لقوي إلى أبعد حد . إنني لأحدث إلى نفسي ، وأنا قاب قوسين أو أدنى من الموت ، ومع ذلك فازلت منافقا ... فيا للقرن التاسع عشر ! ... يطلق الصياد رصاصة في غابة فيقتل فريسته ، ثم يجري ليأخذها ، ويرتطم حذائه بسكن النمل الذي لا يزيد ارتفاعه على قدمين ، فيحطمه ويلقى بالنمل بعيدا ويقضى على بيضه ... إن أكثر النمل فلسفة ، لا يستطيع أن يدرك هذا الجسم الأسود ، الضخم ، الخفيف ، ألا وهو حذاء الصياد الذي وطئ مسكنه في سرعة خاطفة ، وسبق ذلك ضوءا شديدة ، سحبها وميض من نار حمراء ...

هكذا الموت والحياة والخلود ، هي أشياء بسيطة عند أولئك الذين تتسع حواسهم لإدراكها ...

قد تولد ذبابة في الساعة التاسعة من صباح يوم من أيام الصيف ، لتموت في الساعة الخامسة مساء ، فكيف تفهم كلمة ليل ؟ إنها ابنة يومها ، لو أنها عاشت خمس ساعات أخرى ، لرأت وأدركت الليل .

وأنا كذلك ، سأموت في الثالثة والعشرين من عمري ، فامنحني خمس سنوات أخرى لأعيشها مع مدام دي رينال .

ثم أخذ يضحك ضحكة شيطانية ويقول : ما أشد حماقتي إذا ناقش مثل هذه المسائل العويصة !

إنني منافق في حديثي مع نفسي ، كما لو كان هناك من يسمعي .
إنني أنسى الحياة والحب ، مع أنه لم يبق لي إلا أيام معدودة أعيشها !
... وأسفاه ! مدام دي رينال غائبة ، وربما لا يتركها زوجها تعود إلى بيزانسون ، وتهدر عرضها وشرفها .

هذا هو السبب الحقيقي في حنقي وغيظي ، وليس هو عدم وجود إله عادل طيب قوي ، ليس متكبرا ولا جبارا ، ولا متمطشا إلى الانتقام ...
آه ! لو وجد هذا الإله ... وأسفاه ! كنت أخرج له ساجدا . ولقلت له : لقد حق على الموت ، ولكن أيها الإله العظيم ، أيها الإله الطيب ، أيها الغفور الرحيم ، ردّ إلى تلك التي أحبها !

كان الليل قد تقدم ، وبعد أن نام جوليان نوما هادئا مدة ساعة أو ساعتين ، أتى إليه فوكيه .

أحس جوليان في نفسه القوة والعزم ، كرجل يعرف تماما ما يدور بنفسه .

الفصل الخامس والعشرون

قال جوليان لفوكيه : أنا لا أود أن أمثل هذا الدور الخبيث ، مع الكاهن شاس برنارد ، فلا أحب أن أستدعيه ؛ لأنه لن يأكل ثلاثة أيام إن أتى إليّ ، ولكن اجتهد في أن تعثر على قس من أنصار ينسينيوس يكون صديقاً للكاهن بيرار ، ولا يقبل الاشتراك في دسياسة .

كان فوكيه ينتظر هذه البداية بفارغ الصبر . وأتم جوليان واجباته أمام الرأي العام في الريف ، في وقار شديد . فبفضل الكاهن دي فريلير ، وعلى الرغم من سوء اختياره للقس الذي اعترف أمامه ، كانت رعاية المجتمع تحوطه في سجنه ، حتى لو أنه وهب بعض الذكاء في مسأله لاستطاع أن يفرّ . ولكن رداة جو السجن ، أحدثت أثرها في نفسه ، فقلّ إدراكه .
وكم سرّاً بعودة مدام دي رينال إليه . قبلته وقالت له :

— أول واجب عليّ نحوك هو أني هربت من فرير ...

ولم يعد جوليان يظهر أمامها بالعزة ، فقص عليها كل ما اتبته من ضعف ، فكانت معه طيبة رقيقة .

ولم تكذب تغادر السجن في المساء ، حتى أرسلت في طلب هذا القس الذي كان يمسك بتلابيب جوليان كأنه فريسة اقتنصها ، ليتذرع بالتشبث به إلى كسب قلوب سيدات الطبقة الراقية في بيزانسون ، أرسلت تستدعيه عند عمتها ، وكلفتها الذهاب إلى دير « براى لاهو » لعمل تساعية ، فقبل ذلك عن طيب خاطر .

لقد كان جوليان يحب مدام دي رينال حبا عنيقا ، لانستطيع وصفه .
وقد تمكنت هذه السيدة من الحصول على إذن ؛ لكي تراه في اليوم
مرتين ، وذلك بفضل الذهب الذي أنفقته ، وبفضل عمته تلك السيدة الثرية
المعروفة في أوساط بيزانسون .

وقد اضطرت الغيرة في قلب ماتيلد اضطرابا شديدا أفقدها صوابها .
واعترف لها الكاهن دي فرييلير بأنه يحملها — حفظا لمكاتها — ألا ترى
صديقها إلا مرة واحدة في اليوم . وكانت ماتيلد قد بثت حول مدام
دي رينال العيون ؛ لتعرف كل ماتعمله . وبذل الكاهن دي فرييلير كل
ما تنطوى عليه نفسه من مرونة وذكاء ، ليبرهن لماتيلد على أن جوليان ليس
جديرا بها . وعلى الرغم من هذه المتاعب جميعا كانت ماتيلد تزداد له حبا ،
وتتشاجر معه كل يوم مشاجرة عنيفة .

أما هو فقد حاول جهده أن يظل أمينا حتى النهاية ، مع هذه الفتاة
التي لوئت سمعتها وأضاعت شرفها ، ولكن الحب الجامح الذي يضمه
لمدام دي رينال كان يغلبه على أمره . ولما أخفق في إقناع ماتيلد ببراءة
زيارات مدام دي رينال ، قال في نفسه : ستمهني عما قريب هذه المأساة ؛
وهذا عذر أتتحله ؛ مادمت لأحسن المداراة .

علمت الآنسة دي لامول بموت المركيز دي كروازنوا . ذلك أن السيد
دي تالير ، ذلك الرجل ذو الثراء العريض ، سمح لنفسه بأن يذكر أشياء
شائنة عن اختفاء ماتيلد ؛ فذهب إليه المركيز دي كروازنوا ، ورجاه في أن
يكذب ما قال ، فأطلعته دي تالير على خطابات مجهولة ، أرسلت إليه ، وقد ورد

فيها كثير من التفصيلات التي تقرب مما قاله ، وقد سردت في لباقة شديدة ، فكان من العسير على المركز البأس ألا يصدقها .

وسمح ذى تالير لنفسه بأن يسخر ويعبث في غير لباقة ، فاستولى الغضب الشديد، والألم المر على دى كروازنوا، وطلب من دى تالير تعويضات جسيمة على هذه الإهانات ، فرفض المليونير وفضل المبارزة .

وانتصرت الحماقة ، ومات شاب من أفضل رجال باريس، ومن أحبهم إلى القلوب ، ولما يبلغ الرابعة والعشرين من عمره .

أثر هذا الموت في نفس جوليان التي ضعفت ، تأثيرا غريبا مرضيا ، وأخذ يتحدث إلى ماتيلد قائلا :

— كان المسكين كروازنوا عاقلا جدا، وأمينا إلى حد بعيد بالنسبة إلينا، كان يكرهني ويحاول أن يتشاجر معي ، حين كنت ترتكبين حماقاتك في صالون السيدة والدتك ، لأن الكراهية التي تلي الاحتقار ، تكون شديدة في العادة .

غير موت دى كروازنوا كل آراء جوليان في مستقبل ماتيلد ، وظل عدة أيام يدلل على ضرورة قبول السيد دى لوززوجا لها . وقال لها :

— إنه رجل خجول ، ليس كثير النفاق ، ولا ريب أنه سيكون مطيعا لك . إن طموحه معقد، وأكثر تطلعا من طموح المسكين كروازنوا . ليس في أسرته دوقية ، ولذلك لن يقيم أية عقبة في أن يتزوج أرملة جوليان سوزل . فقالت له ماتيلد في فتور :

— وأرملة تحترم العواطف العنيفة الجارحة : لأنها عاشت طويلا ورات

حينها يفضل عليها بعد ستة شهور امرأة أخرى ، امرأة كانت هي أصل كل بلاء !

— إنك ظالمة ، فزيارات مدام دي رينال ، ستمد محامينا في باريس بأقوال غريبة ، حين يطلب العفو عنى . فهو سيصور القاتل في صورة يلتقي فيها من نحيته عناية شديدة . قد يكون لهذا أثره ، وربما رأيتنى يوما من الأيام موضوع رواية محزنة ذات الحان ...

ملك ماتيلد غيرة عمياء ، ولكنها لم تكن تستطيع الانتقام من غريماتها ، وهدت قواها للشقاء الدائم ، الذى لا أمل فى أن تخرج منه ، ثم الخزى والألم من أن تحب هذا الخائن أكثر من أى وقت آخر . وحلها كل ذلك على صمت رهيب لم تستطع عناية فريليير الشديدة ، ولا صراحة فوكيه الجافة أن تخرجها منه . ولو فرضنا جدلا ونجما جوليان ، فكيف تستطيع التسلط على قلبه من جديد ؟

كان جوليان يحيا حياة خالصة للحب ، ولا يكاد يفكر فى المستقبل ، إلا فى اللحظات التى كانت تفتصبها منه ماتيلد . والعجيب فى هذا الحب أنه كان حين يبلغ أقصاه ولا يُرى أثر التكلف فيه ، كانت مدام دي رينال تبادل حبيبها عدم المبالاة والسرور الرقيق . قال لها جوليان :

حينما كانت السعادة قريبة منى ، ونحن نتزده معافى غابات فرجى ، كان طموح شديد يحمل نفسى على التحليق فى أماكن خيالية . فبدلاً من أن أضم ذراعك الجميلة إلى قلبى ، وقد كانت على مقربة من شفتى ، كنت أرى المستقبل يحول بينى وبينك ؛ لقد كان على أن أخوض معارك

شديدة لأحرص على هذه المكاثرة الكبيرة ... لا ، لقد كنت على وشك أن أموت ، دون أن أعرف هذه السعادة لو لم تجيئني إلى في هذا السجن . وقعت حادثتان عكرتا صفو هذه الحياة الهادئة . فالقس الذي اختاره جوليان ليعترف أمامه ، من أنصار ينسيفيوس ، لكنه لم ينتج من مؤامرة يسوعية ، فأصبح على الرغم منه أداة في أيديهم .

وجاء ذات يوم يقول لجوليان : إنه إذا لم يرتكب هذا الإثم الكبير ، إثم الانتحار ، فعليه أن يعتمد إلى كل الوسائل الممكنة لينال العفو . وبما أن لآل الكهنوت تأثيرا كبيرا في وزارة العدل بياريس ، فهناك طريقة سهلة يسيرة : هي أن ترجع إلى الإيمان الصحيح على ملا من الناس ... — على ملا من الناس ! آه ! إني لأتبين ياوالدي أنك تمثل المهزلة التي يمثلها أي مبشر ...

— إن سنك يا بنى ، وجمال وجهك الذي وهبك الله إياه ، والباعث على الجريمة الذي ظل غامضا ، ومساعي الأنسة ذى لامول ، التي تدل على بطولة كبيرة في سبيل العفو عنك ، وحتى تلك الصداقة الغريبة التي تبديها لك ضحيتك ، كل هذا قد خلع عليك بطولة في أذهان نساء بيزانسون كلهن . لقد نسي النساء كل شيء بسببك حتى السياسة ...

سيكون لرجوعك إلى الإيمان وقعته في القلوب ، وسيترك أثرا عميقا في النفوس . وفي استطاعتك أن تخدم الدين خدمة صادقة ، وإني لا أومن بالباعث التافه ، الذي يحمل اليسوعيين على أن يسلكوا الطريق الذي أسلكه ملك الآن ! وهم حتى في هذه الحالة الخاصة ، التي لا يصل

إليها طمغهم ، يفسدون أيضا ! ومنها يكن من أمر ، فإن الدموع التي ستذرفها
العيون بسبب رجوعك إلى الإيمان ، ستقضى على الأثر السيء الذي تركته
عشر طبعمات من كتب فولتير التي تحمل الإلحاد . فقال جوليان في فتور:
— وماذا يبقى لي حين أحتقر نفسي ! لقد كنت طموحا ، ولا أحب أن
ألوم نفسي ؛ وقد سلكت الطريق الذي رسمه لي العصر الذي أعيش فيه .
وأصبحت الآن أعيش من يوم إلى يوم . ولكنني سأكون شقيا جدا
إذا أتيت عملا يدل على الجبن ...

أما الحادثة الثانية التي أشرت في نفس جوليان ، فقد جاءت من مدام
دى رينال . ولا أدري أية صديقة ماكرة ، استطاعت أن تقنع هذه النفس
الساذجة الحية ؛ بأن واجبها يقضى عليها أن تذهب إلى سان كلو لتجنو عند
أقدام الملك شارل العاشر .

لقد وطدت العزم على أن تضحي ببلدتها في البقاء مع جوليان ، وبعد
أن قامت بهذا المجهود الجبار ، لم تكن تعنى بعد ذلك بأن تقدم على هذا
العمل ، ويقول الناس فيها ما يقولون . وكانت من قبل تخشى هذا أكثر
من خشيتها الموت . قالت له :

— سأذهب إلى الملك ، وسأعترف له صراحة بأنك عشيق : إن حياة
رجل ، ورجل مثل جوليان ، يجب أن توضع فوق كل اعتبار . سأقول :
إن الغيرة هي التي دفعتك إلى أن تعتدي علي . هناك أمثلة كثيرة لشبان
مسيكين ، أنقذتهم في مثل هذه الحالة شفقة الحلفين أو رحمة الملك ...

— لن أراك بعد الآن ، سأغلق السجن في وجهك ، وفي اليوم التالي

سأقتل نفسي ياسا، إذا لم تقسم لي بأنك لن تقدمي على هذا العمل، الذي يجعلنا مضغة في أفواه الجماهير. هذه الفكرة التي ترمي إلى الذهاب إلى باريس ليست فكرتك، فاذكر لي اسم تلك التي أوجت بها إليك ...

لنكن سعداء في تلك الأيام القليلة التي سأعيشها. لنخف حياتنا، فإن جريمتي واضحة جلية. إن الأنسة دي لامول ذات أثر كبير في باريس، ففتق بأنها تعمل كل ما في طاقة البشر عمله. أما هنا في الريف، فجميع الأثرياء وذوو المكنانة يعملون كلهم ضدي، سيزيد ما تعزمين الإقدام عليه، سخطهم وكرهيتهم لي، لأنهم أغنياء معتدلون؛ والحياة عندهم سهلة هينة.. فلا تعرضينا لسخرية أمثال مالون وقالون وغيرها ممن هم خير منهما.

أصبح جوليان لا يطيق جو السجن. وفي اليوم الذي عرف فيه خبر إعدامه، كانت الشمس ساطعة لحسن الحظ، والطبيعة مزدهرة، وجوليان يتمتع بشيء من الشجاعة. وكان السير في الهواء الطلق منعشاً له إلى أبعد حد، فكان مثله مثل ملاح يتنزه على اليابسة، بعد أن غاب عنها وقتاً طويلاً. وأخذ يقول في نفسه: هيا بنا، فالحالة والحمد لله على مايرام، إنني لا تنقصني الشجاعة.

ولم يكن رأس جوليان جميلاً شاعرياً مثل ما كان في ذلك اليوم، الذي قطع فيه. فأخذ يستعيد ذكريات الساعات اللذيذة، التي تمتع بها في غابات فرجي، وقد تجمعت كلها في ذهنه في قوة ونشاط.

وتم تنفيذ الحكم في بساطة ووقار، ولم يكن جوليان بدووه متكلفاً في

مسلكه^(١) . لقد قال لفوكيه قبل أن يموت بيوم واحد :

— أما الانفعال فلا أضمنه ، لأن هذا السجن القبيح الرطب يؤثر في فتصيني الحمى بعض الأحيان فلا أعرف نفسي ؛ وأما الخوف فلا تحشه ، لن يراني أحد شاحب اللون .

وقد أعدّ جوليان غدته مقدّما فكلف فوكيه أن ينتزع ماتيلدا ومام دي رينال من السجن ، في صباح اليوم الأخير . ثم قال له :

— خذها معك في عربة واحدة ، وأعد العدة في أن تركض خيل البريد دائما ، فر بما وقعت إحداها بين ذراعي الأخرى ، أو أظهرت كل منهما الكراهية الشديدة لصاحبتها . وعلى كل حال فهاتان السيدتان للسكيتان ، ستنسيان قليلا لوعتهما الشديدة .

وكان قد ألح على مدام دي رينال في أن تعيش لتعني بابن ماتيلدا ، وأقسمت له على ذلك . ثم قال لفوكيه :

— من يدري ؟ ربما كانت هناك بعد الموت لذات إني أود أن أرقد في هذا الكهف الصغير ، الذي يوجد بالجبل الكبير المطل على فريير . لقد قلت لك سرات كثيرة : إنني ذهبت إلى هذا الكهف ذات ليلة ، وامتد بصرى بعيدا فوق على أكثر أراضى فرنسا نراء ، فألهب الطموح قلبي ، فكان هذا أكبر هوى لى في الحياة ... هذه المغارة عزيزة على ، وليس

(١) لقد اتخذ سندنال شخصية « انطوان برتیه » نموذجاً لبطله جوليان سورل ونحن نعلم أن برتیه كان قد أعدم في الساعة الحادية عشرة من صباح يوم السبت ٢٣ من فبراير سنة ١٨٢٨ بميدان جرينيت في جرينوبل ، حيث أبدى ساعة موته شجاعة حقيقية لا تصنع فيها . « العرب »

هناك من ينكر أن موقعها جميل ، تطمح إليه نفس كل فيلسوف ... وعلى هذا ، فاعلم أن أعضاء مجمع بيزانسون ، يجمعون المال بكل الوسائل ، فإذا استعملت معهم المهارة ، استطعت الحصول على جنتي .

نجح فوكيه في هذه المهمة المؤلمة . وكان يقضى الليل في غرفته بجانب حنة صديقه ، ولشد ما دهش حين رأى ماتيلدا تدخل الغرفة ، لأنه تركها قبل ذلك بساعات قليلة ، على بعد عشر فراسخ من بيزانسون . وكانت نظراتها زائفة ، وعيناها مضطربتين . وقالت له :
— أريد أن أراه .

وكانت شجاعة فوكيه لاتواتية ، فلم يستطع النهوض ولا الكلام . وأشار بأصبعه إلى المعطف الأزرق فوق أرض الغرفة ، وقد لفّ فيه ما بقي من جوليان .

فركمت على ركبتيها ، ومما لاشك فيه أن ذكرى بونيفاس دي لامول ومرجريت دي نافار ، قد أمدتها بقوة فوق قوى البشر . وفتحت المعطف بيدين مرتجفتين . فأدار فوكيه رأسه حتى لا يرى .

وسمع ماتيلدا تمشي في الغرفة على عجل ، وقد أوقدت عدة شموع . وحين واثته الشجاعة في أن يلتفت ، رأى أنها وضعت رأس جوليان على منضدة صغيرة من الرخام ، وقبلت جبهته ...

وشيعت ماتيلدا جيئها إلى القبر الذي اختاره ، وسار خلف نعشه عدد كبير من القسس . أما ماتيلدا ، فقد ظلت وحدها في عربتها المغطاة ، وقد وضعت على ركبتيها رأس الرجل الذي أحبته حيا شديدا .

وصل الركب على هذه الصورة إلى أعلى نقطة في جبال جورا ، في منتصف الليل ، ووقف عند هذا الكهف وكانت الأنوار البديعة تسطع فيه ، فأوقدوا شموعا كثيرة ، وصلى عشرون قسيسا صلاة الموتى . وأخذ سكان القرى الجبلية ، التي مرّ بها الركب يتبعونه لغرابة هذا المآثم الذي لم يعتادوه من قبل . ووقفت ماتيلدا في وسطهم وقد لبست ثياب الحداد . ولما انتهى الحفل الديني ، نثرت بضعة آلاف قطعة من ذات خمسة الفرنكات على الحاضرين . وحينما انفردت بفوكيه ، أرادت أن تكفّن رأس حبيبها بيديها . وقد كاد فوكيه يحنّ من شدة الألم .

وأصبح هذا الكهف الذي كان موحشا من قبل ، مزينا بالرخام الإيطالي ؛ وذلك بفضل عناية ماتيلدا التي لم تضن عليه بالمال .

ووقت مدام دي رينال بما وعدت ، فلم تحاول أن تعتدى على حياتها بأية وسيلة ؛ ولكنها ماتت بعد جوليان بثلاثة أيام وهي تقبل أبناءها^(١) .

(١) إن من مثالب سيطرة الرأى المرأته ، وإن كان يكفل الحرية للناس ، فإنه يتدخل عادة فيما لايعنيه ... في حياتهم الخاصة مثلا . ومن هنا ، نشأت المساوىء التي نشاهدها في أميركا وأنجلترا . ولكي يتجنب المؤلف كل مايمس الحياة الخاصة ، فقد عمد إلى اختراع بلدة صغيرة أطلق عليها اسم « فريير » . وحينما كان يجد نفسه في حاجة إلى ذكر قس أو قاض أو محكمة ، كان يختار أولئك جميعا من بلدة بيزانسون التي لم يزرها مرة واحدة في حياته . « ستندال »

فهرس

صفحة		
١	— لذات الريف	الفصل الأول
١٨	— مخالطة الناس	» الثاني
٣٠	— الخطوات الأولى	» الثالث
٣٦	— قصر دى لامول	» الرابع
٥٦	— الحساسية وسيلة كبيرة تقيه	» الخامس
٦١	— طريقة النطق	» السادس
٧١	— أزمة مرض النقرس	» السابع
٨٤	— أية زيتة تجلب الفخار؟	» الثامن
١٠٠	— المرقص	» التاسع
١١٤	— الملكة مرغريت	» العاشر
١٢٦	— مملكة فتاة	» الحادى عشر
١٣٣	— أ يكون مثل دانتون؟	» الثانى عشر
١٤١	— مؤامرة	» الثالث عشر
١٥٤	— أفكار فتاة	» الرابع عشر
١٦٣	— أهذه مؤامرة؟	» الخامس عشر
١٧١	— الساعة الأولى صباحاً	» السادس عشر

(م — ٢٨ ستندال ج ٢)

١٨١	— سيف قديم	الفصل السابع عشر
١٨٨	— لحظات قاسية	» الثامن عشر
١٩٦	— أوبرا بوف	» التاسع عشر
٢١٠	— الزهرية اليابانية	» العشرون
٢١٩	— المذكرة السرية	» الحادى والعشرون
٢٢٧	— المناقشة	» الثانى والعشرون
٢٣٩	— الكهنوت ، الغابات ، الحرية	» الثالث والعشرون
٢٥٢	— ستراسبورج	» الرابع والعشرون
٢٦٢	— وزارة الفضيلة	» الخامس والعشرون
٢٧٢	— الحب الخلقى	» السادس والعشرون
٢٧٨	— خير مناصب الكنيسة	» السابع والعشرون
٢٨٣	— مانون ليسكو	» الثامن والعشرون
٢٨٩	— السأم	» التاسع والعشرون
٢٩٤	— مقصورة فى أوبرا بوف	» الثلاثون
٣٠١	— شبح الخوف	» الحادى والثلاثون
٣٠٩	— التمس	» الثانى والثلاثون
٣١٧	— جحيم الضعف	» الثالث والثلاثون
٣٢٦	— رجل ذو فطنة	» الرابع والثلاثون
٣٣٦	— عاصفة	» الخامس والثلاثون

- ٣٤٤ — ظروف محزنة — الفصل السادس والثلاثون
- ٣٥٥ — برج — » السابع والثلاثون
- ٣٦٢ — رجل قوى — » الثامن والثلاثون
- ٣٧٢ — النسيسة — » التاسع والثلاثون
- ٣٧٩ — الهدوء — » الأربعون
- ٣٨٥ — المحاكمة — » الحادى والأربعون
- ٣٩٦ — — » الثانى والأربعون
- ٤٠٤ — — » الثالث والأربعون
- ٤١٢ — — » الرابع والأربعون
- ٤٢٣ — — » الخامس والأربعون

الإشراف الفنى: حسن كامل

التصميم الأساسى للغلاف: أسامة العبد

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة

"الأحمر والأسود" رائعة الكاتب الفرنسي الشهير ستندال، التي اقتبس مؤلفها فكرتها من حادثة مأساوية واقعية، وأضاف إليها ما رآه لازماً لشخص الرواية. وهي رواية تاريخية تكشف عن خفايا ثورة سنة 1830 في باريس، مع دراسة المجتمع الفرنسي آنذاك وما به من تعارض واضح بين طبقة النبلاء والبرجوازيين والطبقة الدنيا، وبين أنصار المذاهب الدينية المتشددة وغيرهم، كما يعرض ستندال لأفكاره ومشاعره وحيله التي تتحكم في سلوكه وتردده بين "الأحمر" الجيش و"الأسود" رجال الدين، واستطاع أن يوفق بين رومانسيته القلقة، وواقعيته الحازمة.